١

وصف مصر
الترجمة الكاملة

وصف مصر

المصريون المحدثون

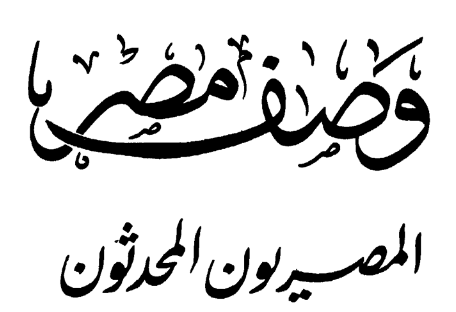
تأليف
علماء الحملة الفرنسية

ترجمة
زهير الشايب

مكتبة مدبولي
القاهرة

١

وصف مصر
الترجمة الكاملة



المصريون المحدثون

تأليف
علماء الحملة الفرنسية

ترجمة
زهير الشايب

مكتبة مدبولي
القاهرة

الطبعة الثانية

١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

الناشــــر

مكتبة مدبولى

ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج م ع

تليفون ٧٥٦٤٢١



المقـــدمة

يسعدنى ان اقدم هذه الطبعة الثانية من المجلد الاول من الترجمـــة العربية الكاملة لكتاب وصف مصر ، وهو المشروع الذى بدأ يرى النـــور لأول مرة منذ نحو ثلاث سنوات بصدور هذا المجلد فى طبعته الأولى .

وارجو مع صدور الطبعة الثانية ان يكون قد بدأ يتخذ شكله النهــائى اخراجا ومادة .

وقد وجدت من اللائق أن الحق بهذا المجلد دراستين لم يسبق نشرهما فى الطبعة الاولى : وتتناول الدراسة الأولى البنية الفيزيقية لســـكان مصر وهى من وضع البارون لارى احد كبار اطبــاء الجيش الفرنسى ، أما الدراسة الثانية فهى عبارة عن مقدمة مطولة للطبعة الثانية لموسوعة وصف مصر التى تعرف باسم طبعة بانكوك والتى صدرت بموجب مرسوم ملكى صادر من لويس الثامن عشر ، أوردت ترجمــة له فى صدر هــذه المقدمة التى أعدها فورييه سكرتير المجمــع العلمى المصرى . وهى نفس المقدمة التي نجدها في المجلد الخاص بشرح اللوحات ، فى طبعته الأولى الفرنسية ، وقد ترتب على ذلك تغيير اسم هذا المجلد الأول من الطبعــة العربية الى اسمه الحالى « المصريون المحدثون » حيث أن الاسم الثانى اكثر تطابقا مع محتويات هذا المجلد ، من الاسم الأول الذى أصبح واحدة من دراسات هذا المجلد الحالى .

وقد اقتضى الأمر تقسيم المجلد فى كتابين :

الاول : ويشتمل على دراسة شابرول التى كانت تشكل وحدها كل المجلد في طبعته الأولي .

والثانى : ويشتمل على الدراستين اللتين رايت اضافتهما الى المجلد فى طبعتنا هذه .

ولا بد فى هذه المقدمة السريعة ان اشيد بدور مكتبة الخانجى فى انجاز هذا العمل ، وتيسير السبيل له مما اتاح صدور ثلاثة مجلدات منه من الثانى الى الرابع فى عام واحد ، الامر الذى اعطى لجهودنا دفعة هائلة ، وسيتوج ذلك باذن الله باصدار لوحات وصف مصر الشهيرة؛ وقد بدأت المكتبة تعد عدتها لذلك ، وقد استقر الراى على صدور هذه اللوحات مرفقة بالنصوص بحيث ترافق اللوحات النص العربى الذى يتناولها ، ويتفق هذا المنهج فى النشر مع المنهج الذى اتبع عند نشر النص نفسه ، فتحية لكل من الحاج نجيب الخانجى والاستاذين محمد الخانجى ونبيل خليل لما لهم من فضل على هذا العمل . كما سيظل العمل مدينا على الدوام للدكتور عبد العزيز الدسوقى ولكل العاملين بمجلة الثقافة .

ولو اننى وفيت كل انسان حقه لما اتسعت الصفحات لاسداء الشكر لكل ذوى الفضل ، وهم كثيرون بحيث لا اجدنى مبالغا ولا مجاملا ان قلت ان وصف العمل بانه جهد فردى أمر يجافى الحقيقة ، وكما ان عملا كهذا هو مقدم أصلا للناس فانه قد قام ايضا بهم .

وفقنا الله جميعا لما فيه خير مصرنا الحبيبة وكل وطننا العربى ..

يناير ١٩٧٩

المترجم

الكتاب الاول

دراسة فى عادات وتقاليد

سكان مصر المحدثين

تأليف

ج . دى شابرول

تقــــديم

على الرغم من أن وراء هذه المبادرة لترجمة « كتاب وصف مصر » ـ ككل مبادرة فردية ـ دوافعها واسبابها وظروفها الخاصة ، الا انها ينبغى ان توضع ضمن اطار أوسع واشمل من تلك الدوافع والأسباب الخاصة لترتبط بذلك الاهتمام الكبير الذى بدأ المفكرون المصريون يولونه لتاريخهم الحديث والمعاصر بعد صدمة يونيـة ١٩٦٧ .

فمنذ تلك الصدمة الهائلة ، بدأت الكتب ـ مؤلفة ومترجمة ـ تصدر تباعا تتحدث عن تاريخ مصر ودور مصر .. وهكذا لم يعد التاريخ ـ وتاريخ مصر بالذات ـ مجرد دراسات أكاديمية لا يتولاها الا المختصون، وانما اصبح ثقافة اصيلة لكل مثقف وطنى تشغله أمور بلاده .

ومنذ ذلك الوقت بدأ بتشكيل ذلك الاطار الثقافى الواسع الذى اشير اليه . ويسعدنى أن اضع اليوم فى داخل هذا الاطار كتابنا هذا الذى يشكل دراسة كاملة من ذلك السفر الضخم ، الذى لا يفوق شهرته الا طول اهمالنا له : كتاب « وصف مصر » أو مجموعة الملاحظات والابحاث التى اجريت فى مصر اثناء حملة الجيش الفرنسى ، وهذا هو عنوان ذلك السفر الضخم كاملا .

وقد طبع هذا السفر الذى اسمى بحق انسكلوبيديا مصرية مرتين :

الأولى : وقد استغرق العمل فيها من ١٨٠٩ الى ١٨٢٢ .

وقد ظهر المجلد الأول منها عام ١٨٠٩ ، وكتب على غلافه وكذلك على غلاف المجلد الثانى انه قد طبع بأمر صاحب الجلالة الامبراطور نابليون الأكبر ، لكن بقية المجلدات التسعة قد ظهرت بعد سقوط نابليون ، لذا كتب على غلافها بأنها قد طبعت بأمر من الحكومة .

اما هذه المجلدات التسعة فموزعة على النحو الآتى :

مجلدان : لدراسة التاريخ الطبيعى لمصر ويشتملان على دراسات عن طيور ونبات وحيوانات واسماك وحشرات ... مصر .

اربعة مجلدات : لدراسة العصور القديمة ، اثنان منها للدراسات ، واثنان آخران لوصف آثار العصور القديمة .

ثلاثة مجلدات : لدراسة الدولة الحديثة أو الحالة الحديثة لمصر التى تبدأ تقريبا منذ الفتح الاسلامى حتى مجىء الحملة الفرنسية لكنها عمليا تعالج احوال مصر فى العصر العثمانى وحتى مجىء هذه الحملة .

وتشتمل هذه المجلدات على دراسات عن مختلف نواحى الحياة فى مصر كما شاهدها علماء الحملة ومهندسوها . وبعض هذه الدراسات طويلة ، بحيث يمكن نشرها مستقلة فى كتاب ، شأن الدراسة التى ننشرها اليوم ، وبعضها متوسط الطول ، وبعضها مجرد ملاحظات لا تستغرق اربع او خمس صفحات .

ولقد ركزت عملى على مجلدات الدولة الحديثة الثلاثة ، واتبعت بشأن الدراسات والمذكرات القصيرة منهج تجميعها بشكل متكامل الى بعضها البعض : فقد جمعت على سبيل المثال تلك الدراسات المتناثرة فى المجلدات الثلاثة عن احوال العربان والجماعات والرحل فى مصر الى بعضها البعض لتشكل فى مجموعها كتابا كاملا ارجو أن اتمكن من نشره قريبا ... وهكذا الحال فى دراسات أخرى تتناول موضوعات مختلفة .

اما الطبعة الثانية فقد صدرت فى ٢٦ مجلدا بالاضافة الى ١١ مجلدا للوحات واطلس جغرافى . وهى نفس المجلدات التى صدرت مع الطبعة الأولى وبيانها كما يلى : ٥ مجلدات للوحات العصور القديمة ، ومجلدان فى ثلاثة أجزاء للتاريخ الطبيعى ، ومجلدان للحالة الحديثة لمصر بالاضافة الى مجلد واحد يشتمل على مقدمة لفورييه مع شرح للوحات ، ثم الاطلس الجغرافى ويشتمل على خرائط مفصلة لمدن واقاليم مصر .

وجدير بالذكر أن محتويات المجلدات الـ ٢٦ هى نفسها محتويات

المجلدات الـ ٩ فى الطبعة الأولى فالطبعة الثانية كما هو واضح قد وزعت على مجلدات اصغر حجما من الأولى . والاختلافات بين الطبعتين طفيفة يمكن اجمالها فيما يلى :

١ ــ كانت الطبعة الأولى مهداة الى « الامبراطور نابليون » اما الثانية فهى مقدمة الى « صاحب الجلالة الملك » .

٢ ــ بدات الطبعة الأولى بمجلدات الدولة الحديثة الثلاثة اما الطبعة الثانية فبدات بوصف آثار العصور القديمة .

٣ ــ تشتمل الطبعة الثانية على مقدمة تقع فى حوالى ١٨٠ صفحة من حجم هذه الطبعة من وضع فورييه ، ونجد هذه المقدمة نفسها فى المجلد الأول من اللوحات .

٤ ــ تشتمل الطبعة الثانية على دراسة لم ترد فى الطبعة الأولى وتتناول هذه الدراسة جامع أحمد بن طولون وحياة منشئه .

وقد بدأ العمل فى هذه الطبعة من عام ١٨٢١ وانتهى فى عام ١٨٢٩ .

* * *

والكتاب الذى بين يدينا اليوم هو دراسة كاملة من دراسات المجلد الثانى من مجلدات الدول الحديثة الثلاثة .

ومؤلف هذه الدراسة هو : جلبير جوزيف جاسبار كونت دى شابرول
Gilbert Geoseph Gaspard Comte de Cohabrol

ويشار اليه باسم شابرول دى فولفيك Chabrol de Volvic

وقد ولد فى ريوم Riom سنة ١٧٧٣ ومات ١٨٤٣ (وهذا يعنى أنه عندما قدم الى مصر كان يبلغ الخامسة والعشرين من العمر) وكان مهندسا للطرق والكبارى ، وعين بعد عودته من مصر مأمورا لمدينة مونتينوت Montenotte سنة ١٨٠٦ وانشأ بها طريق الكورنيش . وفى عام ١٨١٢ قابله نابليون بشكل عابر وكان شابرول يقضى اجازته فى باريس ، ودار بينهما حديث فأعجب به نابليون وعينه مأمورا للسين فادار باريس كما ينبغى ان تدار مدينة كبرى وعاصمة لامبراطورية كبرى ، وقد نجح فى ذلك

نجاحا كبيرا حتى ان لويس الثامن عشر قد اضطر لاستبقائه فى وظيفتــه الحساسة ، على الرغم من أنه قد عين من قبل نابليون .

وتدين له باريس بكثير من الاعمال الرائعة ذات النفع العام .

ولعل هذا التعريف الموجز بمؤلف هذه الدراسة سيكون سببا قويا لأمرين :

الأول : ما سوف نبديه من اعجاب حق بقدرة هذا المؤلف الشــــاب على الرصـــد والتأمل والفهم والاحاطة فى مجال ابسط ما يقال فيه انه ليس مجال تخصصه .

الثانى : التماس العذرُ له فى بعض الأمور التى التبس عليه فهمها ، بل وفى بعض الأخطاء التى وقع فيها ، وبخاصـــة فى مجال المعتقـــدات والشـرائع ، ولقـد آثرت هنـا أن أقدم تـرجمة كـاملة أمينة نصـاً وروحاً لكـل ما ذكره المؤلف خاصا بنا وبمعتقداتنا ، وسوف يلاحظ القارىء انني قد آثرت عدم التدخل الا فى اضيق نطاق ممكن لاعتبارات عديدة لا بأس من طرح بعضـــها :

١ ــ اننا هنا بصدد اثر علمى هام ينبغى ان يحظى بالاحترام .

٢ ــ انه ليس كل ما يقال عنا صحيحا على اطلاقه ، وان كان ينبغى علينا فى كل الأحوال الا نخشى اية فكرة صحيحة .

٣ ــ انه قد آن الأوان لنواجه بشجاعة ما يقال عنا ، فتجاهل ذلك او الصمت عنه ليس هو الوسيلة المثلى ، فذلك الموقف لن يعنى الا تسليمنا ولو بشكل سالب بصحته ، ومعرفة ما يقال عنا هى افضل وسيلة لمواجهته بل ودحضه .

٤ ــ ان الأقوياء لا يخافون معرفة ما يقال بشأنهم ، ولا اظن احـــدا يجادل فى قوة عقيـــدتنا .

واننى فيما فعلت انما كنت أصدر عن تقديس كبير للاسلام ولنبيــه الكريم ، كما أننى واثقٌ أننى فيما التزمت به من أمانة فى النقل كنت أقرب

ما يكون الى روح الاسلام الذى ينهض أول ما ينهض على الاقتنـاع العقلى والذى كانت أول آية فى كتابه الكريم تدعو الى القراءة والفهم والـذى لا يستوى ـ بنص آياته ـ الذين يعلمون والذين لا يعلمون.

بل ان المؤلف لم يكن دقيقا كذلك فى حديثه عن بعض الطقـوس المسيحية ، وقد آثرت أن اترك كل شىء على حاله : ذلك انه لا القـارىء المسلم ولا القـارىء المسيحى سوف يلجـآن لكتاب وصف مصر لدراسة الشرائع والعبادات . فلهذه وتلك ، عند هذا وذاك ، المصدر الذى يعرفانه جيـدا ..

وبرغم كل شىء فان واجب الامانة يقتضى أن اعترف بما يأتى :

١ ــ اننى قد حذفت من الجزء الخاص بالأقباط نصف جملة وجدت أن اللياقة تقتضى حذفها .

٢ ــ اننى حذفت هامشا كاملا اثار عند نشره بمجلة الثقافة ردود فعـل لم اكن اتوقعها ، ولا يتجاوز هذا الهامش اربعة سطور .

٣ ــ اننى حذفت آخر عبارة فى الكتاب (حوالى سطر ونصف) اذ وجدت من الأفضل الا تترك هذه الجملة طعما مريرا فى حلق القـارىء بعد صحبة ممتعة مع مؤلف حاول جهده ان ينصفنا طيلة مؤلفه .

واننى اذ استميح القراء عذرا فيما فعلت اود ان يشاركنى الجميـع عندما يقفون اثناء القراءة على بعض اخطاء المؤلف ، وخلطه فى احيـان كثيرة بين بعض الطقوس الدخيلة بل وبعض الممارسات الشـاذة ، والعقائد والعبـادات بشكلها الأنقى. أودّ أن يشـاركونى فى التمـاس العـذر للرجـل، وأن نحاول بروح الانصاف المعهودة فينا ان نحسب له محاولة فهمنا وانصافنا ، اكثر مما نحسب عليه ما وقع فيـه من اخطاء او سـوء فهم أو تسرع فى الحـكم ، ذلك ان عديدا من احـكامه بدت فى شكل افكار مسبقة لا تنهض على اساس حقيقى ، كمـا لا ينبغى لنا ان نتناسى كونه عضـوا فى حملة غازية ، وانه مخالف لنا فى عقائده ، بل وان كثيرا من فكره انما هو ترديد لأفكـار كـانت شـائعة فى القـرن التـاسـع عشر تـربى هـو ، كـأوربى ـ وفرنسى بالذات ــ فى كنفها .

ويدفعنى الواجب فى النهاية أن اقدم خالص تقديرى وشكرى لشيخ المؤرخين الدكتور أحمد عزت عبد الكريم الذى كان لتشجيعه أكبر الأثـــر فى دفعى للتصدى لهذا العمل الكبير ، كما أوجه خالص تحيـــاتى وعرفانى للاستاذ رينيه خورى مدرس اللغة الفرنسية بكلية الاقتصـــــاد والعلوم السياسية والمشرف على مكتبة الجمعية المصرية للدراسات التاريخيـــة . وهو عالم فاضــــل وباحث مدقق ولا يفوق علمه التقـــدير الا ادبه الجم فقد كان له فضـــل كبير على انجاز هذا العمل ، وفى نفس الوقت فانى أشكر أخى الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن أستاذ التاريخ الحديث بكلية البنات الاســـــلامية ، لمـــا قدمه لى من عون ، كما لابد ان أشـــير الى أن مؤلفه الهام « الريف المصرى فى القرن الثامن عشر » كان معينا لى على تحقيـــق كثير من المسميات وايضاح كثير من المعلومات .

ولن يفوتنى ان أوجه شكرى للاخ الدكتور عبد العزيز دسوقى رئيس تحرير مجلة الثقافة وكذلك الأديب الفنان الاستاذ ثروت أباظة رئيس تحرير مجلة الاذاعة والتلفزيون لمـــا قاما به نحوى من تشجيع حين أفردا صفحات مجلتيهما لنشر اجزاء كبيرة من وصف مصر مما احيا الاهتمـــام بالكتاب فى وقت كاد الكتاب أن يصبح فيه نســـيا منسيا .

كما انى حين اقدى شكرى للسيدة زوجتى فاننى لا افعـــل ذلك من قبيل اللياقة وانما هو عرفان حقيـــقى بما قدمته لى من عـــون كبير برغم ظروفها الصـــعبة كاخصائية اجتمـــاعية وربة بيت وأم . كما لابد ان اوجه شكرى لعشرات من الاصدقاء أولونى قدرا كبيرا من التشجيع مما كان له فى نفسى أثر جميـــل .

وفى النهـــاية استميح القارىء عذرا ان وجد بالعمل بعض الثغرات وانه لواجدها ــ وليكن حسبى من هذا العمل أن انجو فقط من اللوم وأن أكون قد قدمت على قدر طاقتى خدمة لوطنى، مصر ، ولمواطنى المصريين .

فبراير ١٩٧٦ زهير الشـــايب

الفصل الأول

لمحة عامة عن الطقس وعن السكان

وعن تقاليد وعادات المصريين

١

عن الطقس

كانت الآثار المادية لمصر القديمة موضوعا لدراسات عدة وجدت لنفسها مكانا فى اجزاء اخرى من هذا الكتاب(*) ، وقد آلينا على انفسنا هنا أن نقدم لوحة مختصرة لتقاليد سكان مصر الحديثة . وسوف تحملنا ما قد نجده من ملامح التشابه مع العادات القديمة على القيام ببعض المقارنات، وذلك أمر يستحق منا بالفعل اهتماما كبيرا خاصة ونحن بصدد الحديث عن بلد تمتلىء مخيلته بالذكريات ، ويخطو فيها الفيلسوف فى اثر المؤرخ ، لذلك فانه من المناسب ان ندرس الأسباب المختلفة التى تؤثر على الطقس وفعل هذا الطقس على الكائنات الحية : وهكذا سوف يكون البشر موضوعا لدراستنا فى نفس الوقت الذى تشكل فيه آثار الماضى القديم موضوعا لأبحاث عميقة لعلماء الآثار .

تقع مصر فى واحد من اكثر المواقع اهمية فى الكرة الأرضية . وحيث أنها تقع على احد طرفى افريقيا فهى تربط هذه القارة بآسيا ، كما ان موانيها الواقعة على البحر المتوسط تجعلها — وبشكل ما — تلامس اوربا . وهى تقع بين خط العرض ١ : ٥٢٤ وبين خط العرض ٣٧ : ٥٣١ شمال خط الاستواء ، أما عن خطوط الطول فهى تقع بين خطى ٢٧ و٥٣٢ — وذلك الى الشرق من باريس .

ويكفى هذا الموقع فى حد ذاته لكى نضع مصر ضمن المناطق شديدة الحرارة ، لولا أن ثمة بعض عوامل تساعد على التقليل من ارتفاع درجة الحرارة . فترمومتر ريومور يقف بدرجة الحرارة فى منازل مصر السفلى الرطبة ، وفى شهرى يوليه واغسطس عند درجة ٥٢٤ أو ٥٢٥ ، بينما تصل فى شمال الصعيد فى الظل ، الى ٥٣٤ ، لكنها ترتفع فى المناطق

(*) وصف مصر .

الرملية لتصل الى ٥٤°(١) . ولا يحدث ذلك بسبب القرب من المنطقة الاستوائية فقط كما لاحظ فولنى Volney — وهى منطقة لا بد ان نتوقع ان جوها شديد الحرارة — بل وايضا بسبب التربة نفدها . وهى فى العادة ترتفع قليلا فوق مستوى سطح البحر ، ومغطاة فى جزء منها برمال متحركة . وهذه الرمال تمتص وتركز اشعة الشمس — وهى تكون شبه عمودية فى فصل الصيف — ثم تعكسها ، اتسقط من فوق جبال قليلة الارتفاع ، عارية من اية خضرة على سهول قاحلة ليس فيها ما يمكنه ان يحد من لهيبها ، فى منطقة قريبة من المنطقة الحارة. من هنا ، هذا الجفاف الشديد ، وتلك الندرة فى الأمطار التى يمكنها ان تلطف الجو .

وبرغم ذلك ، فهذا الجفاف لا يشمل بدرجة متساوية كل أنحاء مصر، فالمطر يسقط كثيرا فى الاقاليم المجاورة للبحر المتوسط وكذا فى الصحراوات الواقعة بين وادى النيل والبحر الأحمر ، وتشهد بعض الأخوار المحفورة فى اماكن عدة من الهضبة الافريقية بأن هذه الأمطار تكون فى بعض الأحيان بالغة القوة لحد تصبح معه سيولا . لكن ثمة أمرا يعد واحدا من الملامح المميزة للطقس فى مصر . وهو كذلك عام فى كل المنطقة ، الا وهو تكون الندى بوفرة شديدة ، ولعل له بعض التأثير على خصوبة التربة وبخاصة فى الفترة التى يكون فيها مستوى النيل أدنى من مستوى الأرض. ومن أولى خصائص هذا الندى ترطيب وتنقية الهواء والمساهمة فى خفض درجة الحرارة مما يؤدى فى أيام القيظ الى وجود فروق هائلة بين درجة الحرارة بالنهار ودرجتها بالليل ، يمكن أن تبلغ ٣٠° درجة ، ويستمر ذلك لمدة سبع أو ثمانى ساعات ، وهذا بعض ما يسبب كثرة انتشار امراض العيون على ضفاف النيل كما سنوضح ذلك فى نهاية هذا الفصل . وتكاد الأمطار لا تسقط مطلقا فى المنطقة الوسطى من مصر . وتشكل مياه الفيضان ، وكذلك الندى الذى يتكون فى الليل والذى تتباين وفرته تبعا لاتجاه هبوب الرياح العوامل المخصبة الوحيدة للارض . ويعود جفاف الجو الشديد الى حرارة التربة الملتهبة والى اتجاه الرياح الذى يتحكم فيه شكل الوادى ، وتتكون السحب بفعل ابخرة البحار التى تحد مصر من الشمال ومن الشرق . وتدفعها تيارات الهواء ، وهى تيارات قوية لكنها ما ان

---

(١) وبخاصة فى فيله واسوان وكوم امبو .

تقترب من الجبال التى تحصر وادى النيل من الشرق ومن الغـرب حتى يصبح اثرها اقل قوة ، لذا يسقط هناك المطر فى بعض الأحيان .

نزل الجيش الفرنسى ارض مصر فى وقت القيظ الشديد ، وهى فترة تسود فيها على الدوام تقريبا رياح الشمال والشمال الغربى ويبـدأ فيها النيل فى استقبال موجات الفيضان الاولى . لقد جاء الجيش فى شـهر يولية حيث كانت الريح التى تندفع بشدة تظلم الجو بدوامات من الرمـل الناعم الدقيق ؛ ويستطيع سكان المدن بالكاد ان يحتموا من هذه الدوامات داخل بيوتهم . وفى هذا الجو تصبح الأسفار شاقة وشبه مستحيلة ، لكن هذه الدوامات تقلل من وطأة الحر الذى يقل الاحساس به لدرجة كبيرة فى الاسكندرية عنه فى داخل البلاد — كما أن هذه الدوامات تعمل على طـرد السحب المتراكمة نحو النوبة والحبشة ، تلك السحب التى تصب أمطارها فجاة فى المناطق الجبلية والمغطاة بالغابات . وهـكذا فان هـذه الرياح العاصفة غير المستحبة تساهم على نحو ما فى ازدهار مصر حيث تجعـل الفيضانات اكثر وفرة .

ويبدأ النيل فى الامتلاء فى نحو نهاية شهر يونية وبداية يولية ، ولا يخضع حجم مياه الفيضان لقواعد محددة . وفى السنوات العادية يصـل ارتفاع النيل فى القاهرة الى ٨ أمتار (١٤ — ١٥ ذراعا حسب مقيـاس جزيرة الروضة) ويصل احيانا لأكثر من ذلك ، ولكى يكون الفيضان وفيرا ينبغى ان يصل ارتفاع النيل الى ١٦ — ١٧ ذراعا . عندئذ يبدو وادى مصر — اى اراضيها المزروعة — فى شكل بحيرة واسعة ، وتبدو القرى القائمة على تلال صناعية كما لو كانت جزرا صغيرة متناثرة فوق سـطح محيط ، وليس ثمة ما هو أروع من هذا المشهد . وعليك حتى تحـظى بالاستمتاع به على نحو طيب أن تصعد الى قمة الهرم الاكبـر فى الجيزة كما يمكنك أن تحيط بجزء من هـذه اللوحة الرائعـة من أعلى القلعـة فى القاهرة . ولا تستطيع الأراضى المزروعة والتى تقع على مسافة بعيدة من شواطىء النهر ان تتمتع بفوائد الفيضان ، لكنها تحصل على ما يرويها عن طريق الترع أو بواسطة ماكينات بسيطة الصنع (السواقى) .

وثمة خاصية أخرى نجدها فى تربة مصر ، هى اختلاطها بمواد مالحة تطفح كل صباح على سطحها ، وبلا جدال فان هذا الملح الذى يوجد بوفرة فى كل مكان يساهم فى تنشيط العامل المخصب لطمى النيل .

وفصل الأمطار فى مصر هو الشتاء ، وهى تهطل بكثرة فىالاسكندرية ورشيد وعلى كل الشاطىء لكنها لا تستمر طويلا ، ويشاهد عند المقطم المطل على القاهرة أغوار وحفرات لا بد أنها كانت مجارى لسيول قديمة .

٢

عن السكان ، وطبقاتهم المختلفة

كان تقدير تعداد سكان مصر على الدوام عرضة لأخطاء خطيرة ، وقد وقع أغلب المؤرخين المحدثين والقدامى فى مبالغات كبيرة يمكن لأى توصيف بسيط للاماكن أن يدحضها . والى جانب الخدمات التى قدمتها الحملة الفرنسية للعلوم والفنون والآثار فى مصر ، فانها قد حثت كذلك على استخدام الاحصاء فى الأبحاث والدراسات التى تتخذ موضوعا لها أحد الأمور الهامة ، وهكذا أمكن التوصل ليس فقط الى تحديد مساحة الأراضى المنزرعة والقابلة للزراعة بطريقة أقرب الى الموضوعية ، بل وكذلك الى عدد القرى والكفور التى تغطى وادى النيل ، كما أمكن بالمثل تقدير تعداد السكان فى مصر وكذا تعداد سكان مدنها الهامة . وبخلاف ما جمعته أثناء وجودى فى مصر من معلومات فقد استعرت هنا بعض التفاصيل من الدراسة التى كتبها جومار Jomard عن تعداد السكان فى مصر الحديثة مقارنا بتعداد السكان فى مصر القديمة . وحيث أن جومار قد أقام حساباته على معطيات أكثر دقة عن تلك التى جمعت حتى الآن ، وحيث انه ابان عدد الموتى ، وخصوبة السيدات ومقدار الضرائب واستهلاك الحبوب بالاضافة الى أمور أخرى هامة ذات طابع اقتصادى وسياسى ، فانه قد توصل بذلك الى نتائج نعتبرها قريبة من الحقيقة .

وبعد ان قام جومار بالتحقق من تعداد سكان المدن الهامة فى مصر والثابت فى وثائق أصلية مثل سجلات الضرائب العقارية الممسوكة بأيدى الاداريين الأقباط ، وبعد مراجعة بيانات الوفيات التى جمعها المسيو

دى جينت Desginettes اثنــاء ثلاث ســنوات هى عمر حملتنــا وكذلك احصاءات المواليد التى جمعها المهندسون الفرنسيون . فانه ــ أى جومار ــ قد استخلص نتيجة شبه مؤكدة عن تعداد الشعب فى مجموعه . وســوف اكتفى هنا بايراد فقرة من ملخصه تضم نتيجتين متقاربتين وصــل اليهما من طريقين مختلفين : « ان تحديد المساحة الحقيقيــة للارض المزروعة ثم حصر عدد السكان فى جزء محدد من مساحة البلاد يؤدى بعد تعميم هذه النسبة واضافة الناتج الاجمالى الى عدد سكان القاهرة الى نتيجة شــبه مؤكدة وهىان تعداد سكان مصريبلغ ٢٠٠ر٢٤٤٢ر٢ نسمة . اما الطريقةالثانية فقد بينت أن عدد قرى مصر يبلغ ٦٠٠ر٣ قرية وان متوسط سكانها هو ٥٣٤ شخص لكل قرية اى أن تعداد سكان القرى يبلغ ٤٠٠ر١٠٢ر٢ نســـمة وباضافة سكان المــدن الى ذلك الرقم فان تعــداد مصر يبلغ ١٠٠ر٤٦٧ر٢ نســمة » .

وحسب ما سبق فقد تحدد تعداد سكان مصر بحوالى ٥ر٢ مليون من الســكان ، ولا يدخل ضــمن ذلك مطلقا عــدد العربان الذين يعمــرون الصحراوات والذين لا يمكن اخضاعهم لتعداد دقيق ، لكن مســيو جوبير Jaubert من جهة اخرى يقدر عدد الفرسان العربان حسب الاحصاء الذى قام به بــ ٠٠٠ر٢٧ فارس ، فاذا ما اضفنا اليهم نفس العدد لأشــخاص راجلين وعدد يتناسب مع ذلك من السيدات والأطفال فان مجموع تعــداد ابناء قبائل العربان سوف يرتفع الى ٠٠٠ر١٣٠ نفس .

ولكى نقدم للقارىء فكرة عن مختلف طبقات السكان فى واحــدة من مدن مصر ، فسوف نضع تحت ناظره جدولا عن سكان القاهرة ، ولقــد سهلت علينا اقامة الجيش الفرنسى فى هذه المدينة القيام بابحاثنا بشــكل طيب لحد نستطيع معه أن نغبط انفسنا باننا ــ شخصيا ــ قد حصلنا فى هذا الخصوص على معلومات شديدة القرب من الحقيقة .

كانت القاهرة فى عام ١٧٩٨ تضــم ما بين ٢٥٠ ــ ٢٦٠ الفــا من الاشخاص بما فى ذلك المماليك والتجار الأجانب ، وقد قدر تعدادها بحسب احصاء تم قبل مجىء الحملة الفرنسية بــ ٠٠٠ر٣٠٠ نسمة ، ويمــكن تقسيم هذا العدد على هذا النحو :

ـ المماليك بما فيهم جنود الأوجاقات وعلى وجه العموم كل الفرق العسكرية المكونة من رقيق تم تحريرهم بعد ذلك مثل المماليك ١٢٫٠٠٠

ـ الملاك ٦٫٠٠٠

ـ التجار الذين تمتد معاملاتهم الى خارج البلاد ٤٫٠٠٠.

ويتضمن هذا العدد التجار الأجانب الذين لا يستقرون فى القاهرة الا لوقت محدد مثل أولئك الذين يمتلكون محلات فى خان الخليلى والذين لا يستقر معظمهم فيها ، وكذلك التجار القادمين من أزمير والقسطنطينية وبغداد وحلب وجدة وينبع ... الخ ، وهم يصلون الى القاهرة مع البضائع التى يبيعونها ويرحلون بعد ثلاثة او اربعة شهور محملين ببضائع اخرى عند العودة .

ـ حرفيون مستقرون سواء كانوا اسطوات او عمال عاديين ٢٥٫٠٠٠

ـ صغار تجار القطاعى الذين يبيعون المأكولات والزيت والارز والخضروات ومواد أخرى ٥٫٠٠٠

ولا يمتلك هؤلاء على الاطلاق اى راسمال فهم يبيعون فى النهار ما يحصلون عليه فى الليل استدانة من تجار الجملة ويدفعون من نتاج مبيعاتهم كل أسبوع . ونادرا ما يكون هذا التاجر ميسورا بل ان حالته كثيرا ما تتدهور يوما بعد يوم حتى ينتهى به الامر بأن يهجر هذه المهنة ليحترف عملا آخر .

ـ القهوجية : اى أصحاب تلك المحلات التى يقصدها الناس من مختلف الحرف ليتناولوا القهوة والشربات ويدخنوا ويستمعوا الى الموسيقيين والرواة .. ٢٫٠٠٠

وهؤلاء الناس يشترون كل يوم ما يرونه ضروريا لاستهلاك اليوم .

ويستلزم هذا النوع من الصناعة رأس مال قليل اذ تكفى ٥٠ بوطاقة(١) (خردة) لانشاء مقهى جميل ولدفع ايجار المحل الذى تشغله ولتجهيز الاثاثات والآنية اللازمة(٢) .

ـ خدم ذكور : قواس ، سايس ، سقاء ، فراش	٣٠٫٠٠٠
ـ عمال ، حمالين ، عمال يومية	١٥٫٠٠٠
اجمالى الذكور البالغين =	٩٩٫٠٠٠
ويمكن ان يصل عدد النساء البالغات الى :	١٢٦٫٠٠٠
كما يمكن ان يصل عدد الاطفال من الجنسين الى	٧٥٫٠٠٠
وبذا يبلغ اجمالى عدد سكان القاهرة الى :	٣٠٠٫٠٠٠

ومن بين الـ ٩٩٫٠٠٠ شخص من الذكور يمكن ان نحصى على الأقل ٢٦٫٠٠٠ شخص ليست لهم بحكم سنهم زوجات(٣) . وليس ثمة اسرة ميسورة ولو قليلا الا وتمتلك على الأقل بعض العبيد السود ، ويستطيع الأوربيون المقيمون فى مصر أن يشتروا هم أيضا عبيدا ليعملوا فى خدمتهم ، وهذا أمر غير مسموح به فى بقية ولايات الباب العالى .

---

(١) تساوى البوطاقة ٩٠ بارة ، ووقت اقامتنا فى مصر ، كانت البارة تساوى تقريبا ٤ سنتيمات وكانت تساوى من قبل ٧٫٥ سنتيمات ، وقد تناقصت قيمتها الآن كثيرا .

(٢) يوجد فى تركيا مثلما يوجد فى مصر عدد هائل من مثل هذه المحلات . ويتكون أثاثها من مقعد طويل بلا مساند ، مستدير أو مستطيل بحسب شكل المحل ، وتوضع على هذه المقاعد حصر (حصيرة) ويقعد الاتراك على هذه المقاعد ليدخنوا النارجيلة وليتفكروا ويشربوا القهوة بلا سكر . وأماكن التجمع هذه تسمى بالتركية كافيناى ويديرها عادة رؤساء الكولوك : اى البريد الحربى .

(٣) توصل المسيو جومار بعد حساب أسسه على النسبة القائمة بين عدد الموتى وعدد المولودين وكذلك تعداد الأحياء الى تقدير عدد سكان القاهرة بـ ٢٦٣٫٧٠٠ نسمة .

وفى اثناء حكم على بك ، كان عدد دواب النقل فى القــاهرة مثــل الحمير والبغال يصل الى ٢٢٫٠٠٠ لكن عدد البغــال ضئيل لحد كبير ، ويمكن ان يبلغ عدد الحمير المستخدمة فى التنقل داخل المدينة أو ضواحيها ولنقل الفاكهة واعشاب المراعى بلا ادنى مبالغة حوالى ٣٠٫٠٠٠ حمــار . ولا يعرف المصريون عامة استخدام العــربات لنقــل بضــائعهم وهــــذا ما يضاعف لحد كبير من عدد الحيوانات التى تقوم بهذا الدور . ويستخدم الجمل للمسافات الطويلة .وحيث ان الحمار لا يتطلب قدرا من العناية مثلما يتطلب الحصان فانه يستخدم كدابة لغالبية السكان . وكان ممنــوعا على الأوروبيين لوقت طويل أن يستخدموا دابة اخرى غير الحمار بل كان عليهم اذا ما قابلوا أثناء جولتهم مملوكا بســيطا ان ينزلوا امامه على الأرض دليلا على الاحترام . كذلك كان الامر بخصوص اليهود والأروام وبقية الرعــايا الأخرى . ويبلغ عدد سكان مصر القديمة من ١٠ ــ ١١ الف نســمة من بينهم ٦٠٠ من المسيحيين المنشقين .

وقد حان الآن الوقت لكى نتحدث عن الديانات التى تقتسم ســكان مصر . وفيما يلى لمحة عامة عن ذلك .

٣

عن الأديان المختلفــة

نجتمــع فى مصر على وجه التقريب كل عبــادات ومذاهب الدين الاسلامى(*) ويمكن أن نقسمها الى ما يلى :

١ ــ اتباع المذهب الحنفى ، ويعتنق بلاط القسطنطينية هذا المذهب، لذا تحتم أن يكون قاضى العسكر حنفيا على الدوام ، ولكن ذلك ليس بالأمر الحتمى بالنسبة لقضاة الأقاليم . وكانت حكومة مصر السابقة (على مجىء الحملة) تتبع بالمثل المذهب الحنفى .

(*) من الواضح ان المؤلف لم يكن ملما الا بالمذاهب الاسلامية السنية فقط .

٢ ـ اتباع المذهب الشافعى : وهذا المذهب هو اكثر المذاهب انتشارا فى القاهرة وهو مذهب المشايخ والعامة .

٣ ـ اتباع المذهب المالكى .

٤ ـ اتباع المذهب الحنبلى : واتباع هذا المذهب نادرون لحد كبير .

وسوف يندهش القارىء الذى تعود على الدوام ان يقرأ فى كتب التاريخ عن المعارك الدامية التى تتبع حركات الانشقاق الدينية حين يعرف ان كل هذه المذاهب متسامحة غاية التسامح فيما بينها فليس ثمة اى عداء او تنافس ، وليس ثمة اى اضطهاد من جانب اقواها ، كما لا يفكر أحدها على الاطلاق فى الحصول على انصار له من ابناء المذاهب الأخرى ، وهذا ما يدل على اعتدال شديد ، بل ان اتباع المذهب الحنفى يتميزون عن اتباع بقية المذاهب بانهم اكثر تسامحا .

ويمكن ان نعد الطوائف الآتية بين المسيحيين :

الاقباط

١ ـ طائفة كاثوليكية وتتبع البابا .

٢ ـ طائفة من الهراطقة وتخضع لبطريرك . ويتبع هؤلاء آراء أوتيخوس ونسطريوس ولكن مع اختلافات كبيرة . وهم ينكرون الطبيعة المزدوجة للمسيح .

الاروام

١ ـ الكاثوليك : ويخضعون للبابا .

٢ ـ المنشقون ويخضعون لـ ٤ بطاركة : واحد فى القسطنطينية ، وآخر فى القاهرة ، وثالث فى دمشق والرابع فى القدس .

الأرمــن

١ ــ الكاثوليك : ويخضعون للبــابا .
٢ ــ المنشقون : ويتبعون أحد البطاركة .

المــارونيون

وهم كاثوليك ويخضعون للبطريرك فى لبنــان .

وليس فى مصر لا كالفانيون ولا لوثريون .

وينقسم اليهود فى مصر ايضـا الى طائفتين اهمهما طائفة القرائين . وهما متسامحتان فيما بينهما . اما بقية طوائف هذه الديانة والتى تحدث عنها نيبور Niebuhr فى كتابه Voyage de L'arabie فمجهولة تماما فى مصر وفى كل وادى النيل .

٤

عن الاقبــاط بشــكل خاص(*)

لعل أكثر الطوائف اثارة للاهتمام من بين كل سكان مصر هى طائفة الاقباط بلا جدال ، ذلك أنهم يعتبرون انفسهم أحفادا للمصريين القــدماء

(*) من نافلة القول ان نذكر باننا هنا بصدد اثر علمى يقتضى الواجب نقله بامانة نصا وروحا ، ومع ذلك فيجــدر بالذكر بأن الصــورة القائمة هنا هى نموذج لحالة كل المصريين باختلاف طوائفهم فى ذلك العهد حيث كان كل ابناء مصر يعانون وان اختلفت الحجج والادعاءات بحسب مقتضى الحال وبرغم ذلك فان الصورة هنا تختلف فى كلياتها ، بل يصل الاختلاف أحيانا لحد التناقض مع ما جاء فى دراسات أخرى بوصف مصر نذكر منهــا على سبيل المثال ما جاء بدراسة دى بوا ــ ايميه فى وصف مدينة منوف . وما جاء بدراسة لانكريه عن نظــام الضرائب على الأراضى الزراعيــة وكذلك ما جاء بدراسة جيرار عن الزراعة والتجــارة والصناعة ــ كما ان بعض ما جاء فى هذا الفصل لا يمكن التسليم بصحته بحال من الأحوال بل لايمكن تصور طرحه على الاطلاق فليس هناك ما هو ايسر من دحضه (المترجم) .

كما يرون فى لغتهم وفى المسارات التى سلكتها الأحداث التاريخية ما يرجح كفة مثل هذا الادعاء . ومما لا جدال فيه ان لهم ملمحا فيزيقيا شديد القرب من ملمح الأفريقيين لحد يكفى لكى يحملنا على أن ننسب لهم اصلا يعود الى الدولة القديمة ، ولعل بمقدورنا ان نفترض أن جنسهم قد استطاع ان يظل نقيا ، بعيدا عن اى اختلاط بالاغريق اذ ليس ثمة بينهما اى ملمح من تشابه . وعندما استولى الاسكندر على مصر واستقر فيها الأغريق بشكل دائم تحت حكم البطالمة فلابد أن كان ثمة جنسان متميزان ، ومنذ ذلك الوقت اصبح المصريون ، الذين عرفوا باسم الاقباط ، يشكلون طائفة منعزلة بالرغم من الغزوات المتتابعة من الرومان والعرب والعثمانيين ، وما تزال هذه الطائفة منعزلة تماما حتى اليوم عن بقية الأجناس التى تشكل الآن الجزء الأعظم من سكان مصر .

منذ الأيام الأولى للمسيحية ، ارسل بطرس الرسول الى المصريين القديس مرقص كى يبشرهم بالانجيل ؛ فجذبت فصاحته وحماسته على الفور المعقول ، وأصبح له جمهور من الاتباع . وهكذا تأسست كنيسة الاسكندرية التى اصبحت ذائعة الصيت فى الشرق . ولكن ، بعد ذلك . تغلبت آراء اوتيخوس ونسطريوس ، وظلت هذه البذور الأولى للانشقاق تعمل عملها حتى اليوم .

وللأقباط منشآت دينية بالغة الروعة كما نرى فى كثير من الكنائس والاديرة الخربة ، كما انهم انشأوا فى مصر العليا على وجه الخصوص كنائس رائعة . ويبدو الصعيد بمثابة مهد لهم ، فقد كانت اعدادهم هناك على الدوام كبيرة وما يزال الأمر كذلك حتى اليوم ، لكنهم بعد كثير من التقلبات والأزمات السياسية لقوا مصير سكان مصر الآخرين ، ذلك أن ديانتهم بعد ان فقدت جزءا من سطوتها التى اكدتها سيطرة الأباطرة الرومان فقدت كذلك جزءا من عظمتها وازدهارها ، وبرغم ذلك فقد ظل لهم ما يقرب من مائة دير من بينها خمسة اديرة خاصة بالنساء اثنان منها فى القاهرة وواحد فى مصر القديمة وآخر فى مكان منعزل بالقرب من منفلوط ، وهذا الدير الأخير مثال لحالة بالغة الندرة والشذوذ بشكل غير مستحب ، فهو ينقسم الى قسمين منفصلين : واحد للرجال وآخر للنساء ، يضمهما معا سور واحد دون أن يكون ثمة ــ رغم ذلك ــ اى اتصال بينهما .

ولا يلعب الاقباط فى مصر الا دورا ضئيلا ، ومهارة شعبهم هى مصدر حياتهم ، وقد استطاعوا تحت حكم الاتراك أن يحتفظوا بجزء من العمل الادارى لم يخرج مطلقا عن ايديهم منذ العصور بالغة القدم هو مسك سجلات الضرائب والدخول والملكيات ، أى انهم باختصار الملمون بمساحة مصر ، ويتهمون بأنهم لم يكونوا على الدوام فى عملهم هذا على درجة كافية من الأمانة والنزاهة .

وهم يقومون بعمليات تقسيم التركات العقارية ، وهم كتبة مصر الحقيقيون كما انهم ايضا مساحوها وقد انهمك عامتهم فى ممارسة فنون الصناعة . وتعيش الأديرة بفضل الهبات وعن طريق دخول متواضعة تأتى من بعض الملكيات الضئيلة التى احتفظوا بحق استغلالها ، كما انهم يقومون بمساعدة فقرائهم عن طريق جمع تبرعات عامة ، ويقوم بجمع هذه التبرعات مفتشون يختارهم البطريرك على الدوام من ابناء العائلات الكبيرة ، ورهبانهم بسطاء فى ملابسهم وطعامهم كما ان الرزق — اى الدخول — الممنوحة لهم لا تكفيهم الا مع الحرمان الشديد ، لذا فهم لا يأكلون فى اليوم سوى مرة واحدة ، ويتكون طعامهم من الخضر وقليل من السمك ولا يسمح لهم بأكل اللحوم الا فى ايام الأعياد . وملابسهم عبارة عن رداء كتانى طويل ، والراهبات لسن بأحسن من هؤلاء لبسا .

وهكذا امكن للأقباط أن يتماسكوا فى شكل امة متحدة داخل بلد منهزم ، ويعطى مجتمعهم الصغير لمصر بفضل بعض الأنظمة المقتبسة من القيم الانجيلية مظهرا من مظاهر الاتحاد والوفاق والالفة ، وهو أمر نادر فى تلك البلاد التى نكبت بالطغيان والاستبداد .

وبرغم هذا فان الأقباط لا يخلون من العيوب — وهذه العيوب انما هى نتيجة حتمية لتلك الحالة من الاذلال التى انتهوا اليها تحت حكم الأتراك ، فحيث انهم كانوا على الدوام مضطرين للاستكانة وللتظاهر بخلاف ما يبطنون فقد أصبحت الغالبية منهم تتصف بصفات الجشع وبأخلاق الأجراء المرتزقين . وهذه بالتأكيد هى مسيرة كل الشعوب المقهورة على مدار التاريخ ، فالتقاعس

والوحشية هما النتيجة الطبيعيه للعبودية والاذلال(١) .

ومع ذلك فقد بقيت لهم على الأقل حرية العبادة ، ذلك ان محمدا الدى كان سياسيا محنكا قد ترك للشعوب التى خضعت لسيطرته حرية ممارسة شعائرهم الدينية كما ترك لهم الحق فى أن يسيروا امورهم بموجب قوانينهم الخاصة ولكن داخل اطار سيطرة النظم الاسلامية ، وقد سار على نهجه القويم الخلفاء من بعده ، ولعل الديانة الاسلامية تدين بنجاحها السريع لهذا الاعتدال الحكيم اكثر مما تدين لقوة السلاح . ومهما يكن الأمر فان الأقباط — وعموما كل مسيحيى الشرق ـ قد لعبوا دورا فى سياسة بلادهم بل ان المماليك أنفسـهم لم يكن بمقدورهم ان ينهوا امتيازا كهـذا ندعمه مبادىء دينهم أكثر مما تدعمه العادة وفعل الزمن(*) .

وتتخذ امة الأقباط كرئيس اعلى لها وكزعيم دينى ودنيوى حبرا هو الشخصية الاولى فى الكنيسة ويلقب بالبطريرك ، ولا تعرف لسلطته حدود الا ما تفرضه العادات المستقرة وارادة حكام البلاد . وهو يفصل فى كل الخلافات التى تقع بين كل رعيته . لكن حكمه فى ذلك ليس نهائيا اذ يمكن للأطراف المتنازعة ، باتفاق فيما بينها ، أن ترفع الأمر الى القاضى ، الذى يقر عادة حكم البطريرك ، أما الجنح والجرائم فتعـامل بطريقة اخرى ، فالبطريك لا يفصل الا فى الجرائم الصغيرة التى لا تتطلب الا عقابا اصلاحيا، فعندما يتهم قبطى على سبيل المثال بالسرقة من احد المسلمين ، فان المسلم يرفع شكواه الى البطريرك . أما اذا كان المسلم — على عكس ذلك — هو

(١) مما يبين إلى أى حد كان الأقباط يحتقرون من قبل المسلمين أن عمـامتهم ينبغى أن تكون من لون واحد مما يؤدى الى التعرف عليهم من بعد ، ويمكن أن يقال، الى تعريضهم لزراية العامة ، ولا يسمح لهم مطلقا بان تكون لهم عمامة تماثل عمامة المسلمين . فهى عبـارة عن شريط ضـيق يلف حول طربوش يغطى الجبهة . ومع ذلك فان الأقباط عندما يتوجهون الى الاقاليم لتحصيل الضرائب فانهم لا تنالهم اهانات من قبـل المسلمين وليس هـذا بفعل الاعتياد الطويل ، بقدر ما يعود الى وجود قـوة من الجنود معهم لحمايتهم .

(*) لعل القارىء قد لاحظ هذا التناقض فيما يذكره المؤلف هنا وما سبق أن ذكره فى بداية هذه الفقرة . (المترجم) .

السارق فان القبطى يرفع شكايته أمام القاضى أو يطلب العدالة من حاكم المدينة نفسه ويقوم الطرف القبطى بنفسه بتقدير حقوقه أمام المحاكم .

أما حوادث القتل والجرائم الكبرى ، فليست من اختصاص محكمة البطريرك ، فهى من اختصـــاص الضباط المكلفين من قبل شرطة المـدن بمطاردة ومعاقبة كبار المذنبين . وفى بعض الأحيان يتمكن المذنب من التملص من العقاب عن طريق دفع مبلغ من النقود لمن يمسكون بسيف العدالة ــ ويحدث هذا أيضا بالنسبة للمسلمين .

ويختار البطريرك على الدوام من بين رهبان دير سان انطوان ويتم ذلك بالانتخاب ، وعندما يراد اختيار خليفة له فان المطارنة وكبار القسس ينضمون الى كبار رجالات الأمة القبطية .

وتتكون الجمعية العمومية من ٤٠ ــ ٥٠ شخصا ، ثم يشرعون فى عملية الانتخاب ، ويعين الراهب الذى يحصل على اكبر عدد من الأصوات فى منصب البطريرك .

ويشكل المطارنة الصــف الثانى من هيرارشية الكنيسة القبطية ، وليس لهؤلاء الأساقفة من دخل الا ما يحصلون عليه من هبات من اقاليمهم . ويبلغ ايراد كنيسة العاصمة حوالى ١٠٫٠٠٠ بوطاقة (خردة) وهو ايراد بعض المنشآت الخيرية المخصصة لها وهذا الدخل البسيط هو اساس دخل البطريرك ، لكنه يستطيع على الدوام أن يعثر على الوسائل التى يزيد بها مخصصاته الشرفية ، وهى دخول عرضية (غير ثابتة) لكنهـــا تصل فى بعض الأحيان الى رقم كبير للغاية . والاسكندرية هى مقر البطريركية . لكن البطريرك يقيم فى القاهرة حتى يكون فى وضع يمكنه من رعاية مصالح شعبه والدفاع عن حقوقه أمام السلطة المســلمة .

ويتمتع رجال الدين من الدرجة الأقل أيضا بأهمية كبيرة ، لكنهم جهلة وفقراء ، وتسمح لهم قوانين كنيســتهم بالزواج الذى ينبغى أن يســبق رسامتهم . ولا يسمح لهم بالزواج طيلة حياتهم الا مرة واحدة . وعنــدما يموت أحد القسس الاقباط يتجمع كبار رعاياه كى يحددوا لمطـران الولاية رجل الدين الذى يبدو لهم اكثر جدارة بولاية المتــوفى ويعين المطران على

الفور القسيس الذى وقع عليه اختيارهم . وكل الكنائس مملوكة لهيئة رجال الدين ويصرف عليها من الهبات والتبرعات .

ويثق القبطى ثقة عمياء فى قساوسة طائفته ، ولهؤلاء القسس تأثير كبير على النفوس. وبمقدورهم ـ بقليل من الحيلة ـ أن يسيئوا استغلال ذلك التقديس الذى يحيطهم الناس به ليعودوا بالنفع على انفسهم . لكنهم فى غالب الأحيان جهلة مثل بقية أبناء الشعب ، وليس ثمة بينهم الا عدد ضئيل للغاية قد وصلوا الى درجة من العلم يستطيعون معها ان يقرأوا كتب الطقوس الدينية وهى الكتب الوحيدة التى ما تزال تستخدم اللغة القبطية حتى اليوم(١) .

وبالرغم من هذا التقدير العميق لرجال الدين فان القبطى لا يسمح لزوجته أن تسفر عن وجهها امامهم (ونحن هنا نتحدث فقط عن الطبقة الميسورة منهم) بل أن البطريرك لا يمكنه ان يرى سيدة سافرة الا اذا كان زوجها هو الذى سمح بذلك وعن طيب خاطر .

ولهؤلاء الاقباط ايام للصوم وايام للاعياد الدينية هى على وجه التقريب نفس أوقاتنا . وبتمثل الاختلاف الوحيد فى طول المدة او قصرها وكذلك فى طريقة ادائها . وعدد مناسبات صيامهم أربع مناسبات فى العام وهى تسبق الأسرار الكبرى لديانتنا، والصيام السابق على عيد الفصح (القيامة) هو اطولها جميعا وهو كذلك اشدها مشقة . ويبلغ طوله ٥٠ يوما . ولا يمكن للمسيحى طيلة هذه المدة ان يتناول سوى وجبتين فى اليوم ، ويمتنع تماما عن تناول اللحوم والاسماك وكل ما له روح على وجه العموم . وتأمر الكنيسة بأن يمتنع الناس عن ادخال أي شيء إلى أفواههم حتى ولو كان دخان النارجيلة قبل الظهيرة وهى موعد الوجبة الاولى . ويستمر الصيام السابق على عيد الميلاد ٤٣ يوما ويبلغ صيام العذراء ١٥ يوما ويتراوح صيام الرسل بين ١٥ ـ ٤٠ يوما حسب المسافة الموجودة بين عيد الميلاد والصوم الكبير . وهم طيلة ايام الامساك (الصوم) لا يتناولون سوى

---

(١) يمكن القول بان اللغة القبطية كانت هى اللغة العامية للمصريين القدماء وأن رموزها ليست سوى الحروف اليونانية مضافاً إليها بعض الحروف لاستيعاب الأصوات التي ليس لها شبيه فى اللغة اليونانية .

وجبتين : واحدة عند الظهر والأخرى فى المساء ولا يمكن تناول السمك أو البيض او الالبان دون الحصول على اذن من المطارنة وفى بعض الأحيان لا بد من اللجوء مباشرة الى البطريرك ، وبخصوص مدة الصيام وصرامته، فان ثمة تشابها كبيرا مع الكنيسة اليونانية فى الشرق ، وفضلا عن ذلك فهناك عدد كبير من الروابط بين الطائفتين . وليس هذا مما يبعث على الدهشة ، فأصل الكنيستين واحد كما انهما يتبعان على وجه التقريب نفس المبادىء .

ويمارس الاقباط كذلك الاعتراف ، وهم يشتركون فى هذا الطقس الدينى مع المسيحيين عموما ، لكن ثمة عادة خاصة بهم تبدو مناقضة تماما أو على الاقل غريبة عن مذهب المسيح تلك هى عادة الختان للجنسين(١) . وبالرغم من أن هذه العملية ليست فيها يبدو الزامية بالنسبة لكل الأقباط، فانهم مع ذلك يخضعون لها اما بفعل الاعتياد واما بفعل الأفكار المسبقة . وتصر الأمهات على ضرورة ختان اطفالهن اذ يتصورن أن ابناءهن لن يكونوا بصالحين للانجاب ما لم يمروا بهذا الأمر المؤلم .

وفى الصعيد يختتن كل الاقباط ، لكن عددا كبيرا منهم فى القاهرة يرفض ذلك ، لكن عادة ختان الأطفال الصغار شائعة فى كل مكان ، وهى تتم دون وساطة القسيس ، ويختتن الجنسان فى سن السابعة أو الثامنة. وينتهى يوم هذه العملية عادة بعيد عائلى . لكن ينبغى أن يسبق العماد عملية الختان ويتلقى الأطفال سر القربان المقدس فى فترات تختلف بحسب الجنس ، فهو يتم بالنسبة للذكور بعد ٤٠ يوما من ولادتهم وبالنسبة للاناث بعد ٨٠ يوما .

ويسارع الاقباط بتزويج ابنائهم ما ان يروا أنهم قد بلغوا سن البلوغ وكذلك يتم تزويج الفتيات فى سن الثانية عشرة بينما يتزوج الأولاد فى سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة. ولا ينبغى أن ندهش لمثل هذه الزيجات التى تتم هكذا قبل الأوان فى منطقة كهذه يعمل فيها الطقس على سرعة نمو الجسم كما يعمل على اثارة الشهوات منذ سن مبكرة .

---

(١) يبدو أن هذه العادة قد انتقلت اليهم عن قدماء المصريين الذين كانوا يمارسون هذه العادة . انظر هيرودت : الكتاب الثانى . فقرة ١٠٤ . ترجمة لارشيه Larcher

ويرسل الاقباط اولادهم الى مدارس صغيرة ، حيث يتعلمون القراءة والكتابة الى جانب المبادىء الأولى للدين . ويتمتع بهذه الميزة كل الأطفال الذكور بلا تمييز ، لكن الفتيات لا يستطعن الذهاب الى المدرسة الا بموافقة امهاتهن اللاتى يعترضن على ذلك فى بعض الأحيان . ولم نشـــاهد فى القاهرة فتاة واحدة تتردد على المدرسة وعلى العكس من ذلك فى الصعيد حيث يذهبن الى المدارس هناك مثل الاولاد ولا ينقطعن عن الذهاب الى المدرسة حتى فى سن الثامنة او التاسعة وهو السن الذى يبدان فيه فى التشكل ولا يعدن اطفالا .

لقد اطلنا بعض الشىء . لكننا راينا من واجبنا ان نبدأ اولا بالوقوف على بعض التفاصيل حول الأقباط . لأن معرفتنا بهذه الامة لا تزال شديدة الضآلة . وسوف نعود الى الموضوع نفسه فى فصل آخر . وسوف نحاول ان نقدم فكرة كاملة عن عادات وتقاليد ونظم ومؤسسات وحرف هـــذه الأمة التى ظلت شبه منسية حتى يومنا هذا من بقية المذاهب المسيحية .

٥

عن العربان على وجه الخصوص.

تتكون الكتلة الكبرى من الشعب المصرى من عرب استقروا وارتبطوا بشكل اساسى بالأرض ، ولا تختلف عاداتهم فى شىء عن عادات من نعنيهم باسم المصريين. لكن العربان الرحل ينقسمون إلى قبائل رحّالة، تنقل خيامها من صحراء لأخرى ، ولا يخضع ابناؤها الا لمشايخهم ، ويتجاهلون سلطة الباشا والبكوات . ويستحق العربان منا اهتماما خاصا ،اذ ان لهم عادات مختلفة ، وسوف نرسم سريعا تلك الملامح الاساسية التى تميزهم؛ لان هذه اللوحة سوف تساهم فى تكوين فكرة عن المؤثرات التى تؤثر فى سكان مصر على وجه العموم .

يبلغ عدد العربان الرحل حسب احصاء تريب ٤٠ الفا . ويمـــكن لنا بالقيام بعملية نسبة ان نحصل على العدد التقريبى لكل هؤلاء العربان ونسائهم واطفالهم ... الخ . وهم يشغلون الصحراوات المحيطة بمصر من كلا الجانبين . ويقترب عدد منهم فى بعض الأحيان من ضفاف النهـــر

ليزرعوا اراضى يستأجرونها من حكومة الاقليم . ويمكن اعتبارهم جميعا من اتباع عقيدة محمد بل انهم يتسمّوْن باسم المسلمين ، ومع ذلك فان مبادئهم الدينية تبدو شديدة التباين كما يرى بعض الاوربيين الذين زاروهم ، ومن المؤكد ان عقائد هذه الشعوب وكذلك التقاليد الراسخة التى احتفظوا بها عن اصولهم وكذلك اخبارهم التاريخية لا بد أن تحظى باهتمام خاص من قبل الرحالة اذ يمكن لمثل هذه الأمور ان تساهم فى توضيح نقاط كثيرة غامضة فى التاريخ الحديث . لكن مثل هذه الدراسات على وجه العموم قد اهملت لحد يفوق التصور على الرغم من ان العربان الرعاة قد نقلوا من جيل لجيل تاريخ آلاف من الوثائق التاريخية المجهولة من السهل أن تهتك لنا هذا النقاب الصفيق الذى تغلفهم به خرافاتهم واساطيرهم . وباختصار ، ولا نمل من تكرار ذلك ، فينبغى على كل من المؤرخ ورجل الآثار ان يحصلا على معرفة عميقة عن عادات العربان وتقاليدهم .

وفيما يلى اسماء القبائل التى تقتسم فيما بينها صحراوات مصر الشاسعة وكذا اسماء الاقاليم التى تفضل هذه القبائل ان تستشرف حدودها:

ولاية المنصورة

١ ــ قبيلة درنة : وهى قبيلة قوية وكبيرة العدد ، لكن عوامل الضعف قد دبت فيها نتيجة للحرب الأخيرة التى شنها عليهم حاكم الولاية . وقد تبعثرت حاليا هذه القبيلة .

٢ ــ قبيلة البوارشة : وهى تسكن القرى وتحترف الزراعة .

٣ ــ قبيلة حسن طوبار : وتشغل قرى عديدة بمنطقة المنزلة .

ولاية البحيرة

طبقة أولى : الهنادى(*)   طبقة ثانية : اولاد على

وتقيم هاتان القبيلتان فى خيام ، وهما اقوى قبائل مصر واكثرها شراسة . وعلى الرغم مما بينهما من خصومات وما يفرق بينهما من

(*) وردت فى الأصل باسم نميادى Namiady ولعله خطا مطبعي .

عداوات بفعل من احقاد وضغائن دينية الا انهما يقتسمان فيما بينهما السيطرة على الولاية وتتبع واحدة منهما افكار شيخ يسمى : سعد ، اما الأخرى فتعتقد فى قداسة شيخ يسمى : حرام . ومن هنا تولد هذا النوع من الكراهية والنفور الذى استمر لأزمنة طويلة ذلك أن احدا لم يستطع ان يعثر على اصل لهذين المذهبين او مؤسسيهما ، بل لقد حدث أن انقسمت مصر باكملها بفعل هذا الخلاف نفسه ، الذى ادى الى قيام العداوات والضغائن بين الفريقين واخذ كل فريق يدين الفريق الاخر ، ويتوعده بعقوبات الدار الآخرة ، حتى وضعت حكومة على بك الشهير حدا لهذه العداوات المتعصبة ، وعملت حكمة وحزم هذا الرجل — غير العادى الذى لم يكن ينقصه الا نوع مختلف من التربية ، وكذلك أن يلعب دوره على مسرح من الأحداث اكبر اتساعا لكى يدهش العالم — على تذكير المصريين بمشاعر الاعتدال والتسامح التى اشتطوا فى البعد عنها ، ومنذ ذلك الوقت ، فان الناس يكادون يكونون قد نسوا كلا من سعد وحرام ، لكن اسمى هذين الزعيمين الروحيين قد ظلا يثيران الشقاق بين الشعوب الطليقة فى الصحراوات .

ولم تكن سوريا لتبعد عن روح التعصب هذه . فهكذا خلقت فى كل هذه البلاد احزاب اعمتها مثل هذه الأمور من الدجل والضلالات ، وبذلك اصبحت دياناتهم الخاطئة ، التى يسيئون هم انفسهم فهمها ، سببا للاحقاد والضغائن والعواطف الجامحة ، مما ادى بشعوب باكملها الى التطرف الأرعن ، باسم ديانة يعملون هم انفسهم على الاساءة اليها .

وتقوم القبيلتان اللتان تحدثنا عنهما للتو ، بفرض ضرائب على سكان ولاية البحيرة تعادل تلك الضرائب التى تفرضها السلطات الحاكمة ، وبسبب نقص وسائل القمع التى فى حوزة السلطات الحاكمة . فقد ظل مثل هذا الطغيان البغيض سادرا .

ولاية الشرقيــة

طبقة أولى	طبقة ثانيــة
بلى	جميــلة
رفاعات	بنى أيوب
سمدانى	جميــلات
أولاد على	
الحيــوان	

وهذه القبائل كلها من العربان الرحل ، وهم لا يعرفون الزراعة ولا التجارة ، وحيث انهم قطاع طرق بالسليقة ، فقد أصبحوا قتلة بفعل الطمع والجشع ولا تفرض عليهم الحكومة اية ضرائب أو أتاوات لكنهم يكتفــون بأن يرسلوا كل عام الى شيخ القاهرة هدية تتكون من الخيول والجمال ، وبذلك يحصلون على حماية هذا الضابط ، بل يمكن القول على تفويض منه بالانغماس ـــ دونما اعتراض من جانبه ـــ فى جرائمهم المعتادة .

القبائل المتوطنة

طبقة أولى		طبقة ثانيــة
القصــاصين	بالصوالحية	أولاد زهيرة
السماكين	بالصوالحية	متــولى
الصوالحة	بالصوالحية	البوارشة
عايد		وروره
الزمــلى		
أولاد موسى		
لــكام		

وهؤلاء يسكنون القــرى ويفلحون الأرض ، ومع ذلك فان لديهم فى نفس الوقت ـــ شأنهم شأن الأولين ـــ ميلا لا يقاوم يدفعهم للقيام بأعمــال السلب اذ تراهم فى معظم الأحيان يتركون محراثهم ليمسكوا ببنادقهم ويسلبوا أمتعة المسافرين .

ولاية قليــــوب

طبقة اولى	طبقة ثانيـــة
الصوالحة وجهينة	العيــــايدة
الحويطات	طرابين

وهم يقيمون فى الخيام ويروعون سكان ضواحى القاهرة بغاراتهم التى يقومون بها للسلب والنهب . وهم يشاركون الفلاحين فى زراعة الأرض ، ولكن دائما وبلا جدال على حساب هؤلاء الأخيرين(١) .

٦

عن المماليك ، وعن الأجانب

الذين اســـتوطنوا مصر

عندما نتأمل قوة المماليك وتقدمهم الذى ظلوا يحتفظون به على الدوام على قوات الباب العالى فسوف نجد بما لا يدع مجالا للشـــك أن قوتهم العسكرية الرائعة تلك لا تعود الى تعدادهم بقدر ما تعود الى قدراتهم وكفاءاتهم ، فتعدادهم ليس شيئا بالمرة اذ لا يكاد يصل مجموع عددهم — سواء الذين حرروا منهم او الذين ما زالوا ارقاء — الى ثمانية او تسعة آلاف رجـــل : وبرغم ذلك فقد توصلوا بفضـــل جراتهم وشـــجاعتهم ومزاجهم العسكرى الذى تنميه نشأتهم العسكرية ، وكذلك بســـبب من الذكريات الرائعة والطموح الذى لا يعرف لنفسه حدا ، توصلوا الى قيادة شـــعب كبير مع تقييده بسلاسل من خوف وسحقه تحت وطاة اسمهم : المماليك ، وهو الذى يمكن ان يقال بأنه أصبح مثيرا للرعب بسبب كثـــرة ما احرز من انتصـــارات .

---

(١) لمزيد من التفاصيل ، ارجع الى دراسات دى بوا ايميه وجومار والى الجدول الذى وضعه اميديه جوبير Amèdèe Jaubert وسوف نعود فى الفصل الثالث الى هذا الموضوع بالتفصيل .

(ونجـد جدول جـوبير الخـاص بالقبـائل العـربية التي تقيم مـا بـين مصر وفلسطين فى بداية المجلد الثانى من الترجمة العربية) . (المترجم) .

ومن الممكن أن ننسب قلة عدد المماليك الى عادتهم فى الزواج من نساء اجنبيات مثلهم ، وفضلا عن ذلك فان طقس مصر يحول دون تكاثر الأجانب عموما ، حتى عندما يتزوج هؤلاء من مصريات ، فالأطفال ، فى الحالة الأولى ، يموتون وهم لما يبلغوا من العمر بضع سنوات . وحيث كان المماليك — هكذا — محرومين من فرص التكاثر الطبيعى ، فقد بات عليهم ان يلجأوا الى هؤلاء الذين ينحدرون من نفس أصولهم ، فكانوا يشترون الرقيق الشبان ويقومون بتدريبهم عسكريا ثم يعتقونهم بعد ذلك . وكان هؤلاء الرقيق اما شراكسة واما قوقازيين ، وكانوا يحملون أولا الى القسطنطينية ثم يرسلون من هناك الى كل انحاء الامبراطورية العثمانية حيث يشتريهم الأغنياء . وتنتسب زوجات المماليك الى نفس هذين الاقليمين، ويصلن الى تركيا بنفس الطريقة .

وفى بعض الأحيان ، وقبل مجىء الحملة الفرنسية ، كان يحدث أن يتزوج احد المماليك ، بعد أن يدركه اليأس من الوصول الى الصفوف الأولى من رجالات الدولة ، من زوجة مصرية ، وعندئذ يكون له الحظ فى انجاب الأطفال لكن ذريته تتميز مع ذلك بالضعف .

ويمكن لنا ان ندرج العبيد السود من الجنسين الذين كانوا يجلبون من اعماق افريقيا ضمن الشعوب الأجنبية التى استوطنت مصر . ففى كل عام كانت أسواق القاهرة تمتلىء بهؤلاء التعساء ، الذين يتجاوز عدد النساء بينهم عدد الرجال ، وهذه التجارة المرذولة هى واحدة من المهن الرائجة فى هذا الاقليم . ومن أسواق القاهرة ، تذهب افواج العبيد الى المدن الكبرى فى آسيا مثل ازمير والقسطنطينية وحلفا ... الخ ، ويبقى عدد كبير منهم فى نفس الوقت فى القاهرة حيث يستخدمون فى مختلف الأعمال، ويميل المصريون الى تفضيل النساء الزنجيات ويشترى الرجل على هواه وحسب قدرته اثنتين أو ثلاثا وحتى ستا منهن .

وكما سبق أن قلنا فان للمسيحيين فى مصر الحق فى امتلاك العبيد ، بالرغم من انهم لا يتمتعون بهذا الحق فى بقية الولايات التركية ، ومع ذلك فان هذا الحق محدد بشروط معينة ، فمن المحظور عليهم ان يمتلكوا عبيدا من الذكور اذ هم فى هذا الصدد لا يستطيعون على الأكثر الا شراء اطفال صغار يتخلصون منهم عندما يكبرون ، ومع ذلك فقد كان يسمح لهم باقتناء

اى عدد من النساء الأماء يستطيعون الحصول عليه ، لذا كان لدى كل اسرة واحدة أو اثنتين على الاقل للقيام بأعمال البيت .

أما العثمانيون المقيمون فى مصر فكانوا قليلى العدد . وكانت ذريتهم تنقرض شأنهم فى ذلك شأن المماليك ، ولنفس الأسباب . ويوجد بالمثـل عديد من العائلات السورية التى استقرت فى مصر بغرض التجارة ، ولكنها ليست بذات وزن كبير فى اجناس هذا الشعب .

وتشغل قبائل النوبيين أو البرابرة مناطق عديدة فى صـــعيد مصر وبعض الجزر المجاورة لشلال اسوان ، وهى قبائل فقيرة وتتكون من بعض العـــائلات .

وفى ختام المطاف نذكر الافرنج او المســيحيين الأجانب . وهــؤلاء لا يستقرون الا فى مناطق التجارة الكبرى مثل : الاسكندرية ، رشـــيد ، دمياط ، القاهرة ، واهمية هذه الطائفة تعود الى ما تقوم به من عمليـــات تجارية اكثر مما تعود الى تعدادها .

تلك على وجه التقريب لوحة بالغة الايجاز لمختلف العناصر والأجناس التى تقطن مصر ، وقد اكتفينا هنا بمجرد ذكرها ، لكننا سنعود اليها فيما بعد وعندئذ سنتحدث عنها بتفصيل اكبر .

٧

عن العادات والتقاليد بشـــكل عام

يوجد فى مصر ، شأنها فى ذلك شأن بقية بلدان الشرق ، خليـــط مضطرب من العادات والتقاليد تعود الى اصول متنوعة وتنتج عن اسباب كثيرة . وهل كان يمكن للامر ان يكون على نحو آخر فى بلد يمكن القول بأن كافة الامم قد اختلطت فيه ؟ فالعادات اذن تتنوع بنفس الطريقة التى تشكلت بها فئات السكان بمختلف اديانهم واصولهم . فنحن نجد فى المدن مع شىء من الاختلاف نفس عادات الشعوب الشرقية ، ولقد كان هذا الاختلاف امرا ضروريا بســـبب طبيعـــة التـــربة وتاثير الطقـــس . اما فى الريف وفى

الصحراوات فسوف نتعرف على رجل العصور الأولى ببساطة أذواقه ، هذا اذا لم تكن العصور المنصرمة قد تكفلت باتلاف فطرته .

تتحدث كل فئات هذا الشعب لغة مشتركة هى اللغة العربية . وقد تمثل الاقباط كذلك هذه اللغة . واذا كان بعض العثمانلى قد احتفظوا بلغتهم الأم فقد كان ذلك يحدث فيما بينهم وفى علاقاتهم مع ضباط الباشا الذين يحكمون مصر باسم السلطان . وقد نسيت اللغة اليونانية تماما او قل أنها قد انكمشت فى دائرة صغيرة من تجار هذا الشعب (اليونانى) الذين يقيمون فى القاهرة او الاسكندرية .

لا يمكنك ان تكتشف ما يعتمل فى نفس المصريين عن طريق ملامحهم، فصورة الوجه ليست مرآة لأفكارهم ، فشكلهم الخارجى فى كل ظروف حياتهم يكاد يكون هو نفسه اذ يحتفظون فى ملامحهم بنفس الحيدة وعدم التاثر سواء حين تاكلهم الهموم أو يعضهم الندم أو كانوا فى نشوة من سعادة عارمة ، وسواء كانت تحطمهم تقلبات غير منتظرة أو كانت تنهشهم الغيرة والأحقاد او يغلون فى داخلهم من الغضب أو يتحرقون للانتقام . فليس ثمة مطلقا فعل منعكس : احمرار فى الوجه او شحوب مفاجىء ، يستطيع أن يشى بصراع تلك العواطف العديدة التى تهزهم . ويمكننا ان نلتمس اسبابا عديدة لهذا الجمود المذهل فى الملامح ، قد لا يكون الطقس بعيدا عن هذه الحالة ، فحيث يبدو الطقس على الدوام بنفس الشكل ، فانه ينقل الى النفوس على نحو ما ثباته الدائم ، ومع ذلك فان الأسباب الرئيسية لذلك تكمن بالتاكيد فى شكل التربية وفى الاعتقاد فى القضاء والقدر المنتشر بين كافة الناس، كما تعود فى النهاية الى تعودهم ان يكونوا على الدوام عرضة لنزوات الطغاة الذين يعم ظلمهم البلاد ، ففى كل يوم تنشأ اخطاء وبشاعات جديدة ، تصبح الغفلة معها بالنسبة للمصريين — والشرقيين عموما — نوعا من الحيلة لمواجهة هذا العسف ، فعندما يعاتب الانسان على حركة أو بسبب نظرة او احيانا لمجرد الاشتباه ، كما لو انه قد ارتكب جريمة ، فانه يصبح وقد اكتسب مقدرة عميقة على الاستيعاب والتمثل بحيث تصبح هذه الأمور الجائرة حالات اعتيادية . لذا فلا ينبغى علينا ان نبحث عن مصدر آخر لأسباب هذا النوع من التسليم المستعذب للالم الذى يميز الشرقيين على وجه العموم : فالشكاوى والصيحات امور لا فائدة منها امام

ارادة الطغاة . ويعرف المصرى كيف يمشى وقد اغضبه الألم ، وكيف يموت تحت عضا القواس دون أن يقول كلمة ، فهذه ارادة الله ، والله اكبر ، والله غفور ... وتلك فقط هى الكلمات التى تأتى على لسانه عندما يبلغه نبأ نجاح لم يكن يؤمل فيه ، وهى نفسها التى تفلت منه عندما يبلغه نبـأ كارثة كبرى ألمت به .

ويبدو خمول المصريين المتصقين بمدنهم امرا بالغ التناقض مع تقاليدنا حتى لنظنهم فى البداية بلهاء او معتوهين ، فتحركاتهم واحاديثهم وابسط حركاتهم بل ومسراتهم ، كل ذلك يشى بعدم اكتراث مذهل ، فأنت تراهم ممددين لجزء طويل من النهار على أرائكهم او على حصرهم حسب درجة ثرائهم حتى تظن ان ليس ثمة فى هذه الدنيا ما يشغلهم الا ان يملأوا ويفرغوا على التوالى نارجيلتهم الطويلة ، وتبدو مخيلتهم وكأنما قد تخدرت مثل اجسامهم لحد تخال معه — وهم فى حالة التنويم الروحى تلك — ان سماعهم لحكم بالموت صادر عليهم لن يكون بمقدوره أن يثير مجرد دهشتهم. وبرغم ذلك فتحت هذا القناع من السلبية البادية على ملامحهم يكمن خيال ملتهب . وسوف يكون من الظلم ان ننكر عليهم كل حساسية ، فعادة الصمت تجعل أحاسيسهم على العكس ـ وحيث يمكنهم بذلك تركيزها ـ أكثر حدة، كما انها تعطى لأرواحهم دفعات من النشاط تجعلهم فى بعض الأحيان قادرين على الاتيان بأفعال بالغة الجرأة، وفضلاً على ذلك فان الفكر يكسب بعمق ما كان يمكن أن يفقده لو كانت الروح متوقدة .. ان ملكة الانتباه ، والقدرة على التذكر تذهب الى ابعد مدى عند هؤلاء الناس الذين نخالهم غارقين فى بلادة مطلقة .

وتتوافق احاسيس هذا الشعب مع بقية عاداته ، فالمرء منهم يستمتع فى الحمام مثلا بملذات عجيبة ، اذ لا بد أن تقوم واحدة من الخادمات على الدوام بتدليك قدمه اما باليد واما بقطعة من الطوب الأملس ، كما انه يمضى وقتا طويلا فى تهذيب لحيته . وهذه عادة قديمة جدا فى الشرق حيث لا تدلك القدم باليد الا فى المجتمعات الحميمة من الاهل والأصدقاء ، ذلك ان الآداب العامة لا يمكن ان تسمح بهذا الفعل الشهوانى على الملأ . اما عن حك الأقدام بقطعة ملساء من الطوب فهى لا تمارس الا عند الخروج من الحمام — وكلا الأمرين يعدان فى وقت معا ضربا من الأمور الحسية والشهوانية وكذلك عملا من اعمال النظافة .

وقد تبدو ملذات من هذا النوع بالغة التفاهة فى نظر الأوروبى ، لكنها تكفى لتوفير جو من الرخاوة لذلك المصرى خالى البال ، فهو يتمتع بها وسط العطور وسحب الدخان والأبخرة المعطرة ، ويستطيع ان يوفرها لنفسه على الدوام ما دام الأمر يرتهن بمشيئته . فاذا ما اضفنا الى ذلك المشهد مسرات ومباهج الحريم والموسيقى والغناء ، وكذلك حبه قول أو سماع الحكايات ، ذلك الأمر الذى يستغرق جزءا كبيرا من سهرتهم ، لتكونت لدينا فكرة شبه كاملة عن مباهج الحياة عند المصريين وعن ملذاتهم .

ان كل شىء فى هذا الشعب يقدم صورة من التناقض الواضح مع عاداتنا نحن الأوربيين . وهذا الاختلاف بلا جدال من صنع الطقس ، ومن صنع الأنظمة المدنية والمعتقدات الدينية كذلك . كما أن غيبة القانون تكاد تشل مختلف ضروب الصناعة فى الوقت الذى تتكفل فيه الحرارة الشديدة بتقليل نشاط القدرات الجسمية ، ولنا ان نتساءل ، لماذا يكلف الفلاح نفسه كبير عناء — فى بلد كهذا ليست الملكية فيه سوى ضرب من الأوهام — كى يحسن من زراعاته اذا كان تجهوده تلك لن تؤدى بالضرورة الا الى اثراء مستغليه والى انتزاع مغارم جديدة منه ؟ ان المصرى يعرف حقيقة وضعه، ويسير نتيجة لذلك ، أموره ، ويأتى الخوف ليضيف اثره الى فعل الطقس ليضعف من مقدرة جسمه بنفس القدر الذى تقيم به المعتقدات الدينية عقبة لا يمكن اجتيازها لتحول دون تقدم وتطوير ارضه ، وهكذا يظل الغنى ينتهب اللذات بينما يظل الفقير يروى بحبات عرقه ارضا خصبة معطاء لكنه لا يستطيع ان يحصل منها الا على ما يقيم أوده .

ومن جهة اخرى يمكن القول بأن كل فروع الصناعة بلا استثناء فريسة للاستبداد . وفى نفس الوقت فان التجارة مزدهرة وليس ذلك لانها تلقى تشجيعا من الحكومة ولكن لأن موقع مصر وثراء منتجاتها يهيئان للتجارة معينا لا ينضب . وهذه الحرفة هى المجال الوحيد الذى يمكن ان يعد المصرى بمستقبل زاهر ، فهى تقوده الى الثروة فى بعض الأحيان ٪ وهى فى هذا الصدد ، الحسنة الوحيدة التى بقيت لهم ، حيث ان صفتهم كمواطنين قد اغلقت امامهم طرق المجد والمراكز الكبرى فى وطنهم ، انظروا اذن ، الى اى حد تضاءل سكان واحدة من اجمل بقاع الأرض تحت هذه السيطرة الأجنبية وغير المشروعة ؟ ان الكوارث التى تنال منهم اليوم سوف

تظل تثقل عليهم طالما ظلت هذه العصا الغليظة لمستغليهم غير الجديرين تدور عليهم ، ولسوف يظل المصرى عبدا ، بائسا ، سلبيا ، خاملا ، تدور به دوامات الشك دون أن يفكر فى وضعه المحزن . ولربما تكون بلادته تلك هبة من القدر ، اذ بفضلها لن يعذبه على الاطلاق ذلك الاحساس بالآلام والمخاطر التى تهدده بلا انقطاع .

وبرغم ذلك ، فان للطبقات الشعبية تقاليد اقل تخنثا ، فذلك الرجل البائس الذى يتوقف بقاؤه على قيد الحياة على عمله اليومى الدءوب ، نشيط بالضرورة لحد لا يمكن معه أن ينال منه التعب . ويتحمل الفلاح النيران التى تصبها عليه السماء الملتهبة لكى يبذر الأرض التى تمده بضرورات اسرته ، وسوف يدهش الأوربى الذى سبق له أن رأى الاثرياء المصريين ممددين على ارائكهم فى رخاوة ، بل يمكن القول بأنهم يخشون من أن ينال منهم التعب لو انهم اتوا باشارة الى خدمهم ، سوف يدهش عندما يرى السايس أو خادم الاسطبل ، أثناء تدريبات المماليك العسكرية وهو يجرى أمام حصان سيده ويتابع كل حركاته لساعات طوال دون أن تبدو عليه اقل امارات التبرم أو الضجر فى الوقت الذى تلقى الشمس الملتهبة علىجسمه العارى شواظى من رصاص ، ويؤخذ هؤلاء الخدم من طبقة الفلاحين عادة .

وعندما يمتدح احد الأوربيين لأحد سكان القاهرة مباهج التريض وجمال الأمكنة المخصصة لذلك فى أوروبا ، فان القاهرى يجد صعوبة كبيرة فى أن يتفهم كيف يمكن أن تكون هذه الممارسة المتعبة واحدة من مباهج الاثرياء . فالقاهرى عدو لكل حركة ، وهو يزحف بصعوبة من منزله الى دكانه . لذا فهو يذهب بالى هناك فى معظم الأحيان على ظهر الحصان أو الحمار . وكل شيء مجهول فى مصر الا الحدائق ، فلكل المنازل التى تتمتع بمظهر حسن الى حد ما قطعة من الأرض صغيرة ، تزرع بالأشجار والخضروات لكن الاشجار تزرع بلا ادنى تنسيق كما أنها تزرع لمجرد الزينة، وفى بعض الأحيان يذهب رب البيت الى هناك ليستنشق الهواء تحت ظلها، لكنه هنا أيضا يتمدد فوق سجاجيد ومخدات ، كما أنه لا يتنزه فى طرقات حديقته ولا بين ادغال اشجار البرتقال كما ادعى ذلك عديد من الرحالة ، اذ ليس لهذه الحدائق طرقات كما أن ادغال البرتقال ليست منسقة بطريقة تحبذ

المنزهات . وباختصار فان المصريين يزرعون هذه القطعة من الأرض بجوار منازلهم كى يحصلوا طيلة العام على أنواع متعددة من المزروعات وليس لكى يستمتعوا بمشهد الربيع الدائم .

ويتمتع الفلاحون عادة بصحة جيدة ، وملامحهم بشوشة ، بحيث تتناقض مع ذلك الهوان الذى قدر عليهم على الدوام ان يقاسوا منه . وهم عجاف اشداء ، وهم يستطيعون تحمل كافة المتاعب ، فتراهم نائمين وقت الظهيرة فوق أرض ملتهبة وينامون على هذا النحو ساعات متوالية ، يتعرضين للهب الشمس ، وهو أمر يكفى لقتل الرجل الأوربى ، لكن تلك هى قوة الإعتياد الذى يتوافق الفلاح معها على الدوام . وهم لا يكادون يحسون بالعرق اذ لا تمتلك هذه الطبقة الا قوتها الجسدية ، ولعلها وفيما عدا هذه الميزة . اتعس طبقات مصر .

ولا يتمتع الأغنياء وسكان المدن بمثل هذه البنية القوية ، اذ يبدو عليهم منذ اعوامهم الأولى الضعف والتهدل ، فالأطفال من الجنسين شديدو النحول لحد كبير ، وعندما تتقدم بهم السن فانهم يحتفظون بهيئتهم التى كانوا عليها وهم صغار ، حتى ليظنهم المرء رجالا ممروضين ، وسوف نتحدث فى مكان آخر عن الأمراض الخطيرة التى تهددهم ، لكننا هنا سوف نكتفى بالحديث عن آلام الاسنان التى يبدو أن الافراط فى الاكل هو السبب فى حدوثها ، اذ يتعرض الأغنياء من المصريين كثيرا لهذه الآلام ، حتى أنه من النادر ان نرى واحدا منهم سليم الفم بالرغم من كافة الاحتياطات التى يتخذونها ليحتفظوا بأسنانهم سليمة ، فهم ينظفونها مرتين فى اليوم بنوع من مياهصابونية ولا يفوتهم أن يكرروا نفس الشىء بعد تناول اقل طعام . ويبدو أن سوء بعض ما يتناولون من اطعمة هو السبب فى هذه الآلام حيث أن الفلاحين لا يصابون مطلقا بأمراض الأسنان تلك . ومع ذلك فيستحيل علينا على سبيل المثال ان نتفق مع جان فيلد Jean wiled بأن اسنان المصريين تالفة لأنهم يمصون بكثرة قصب السكر ، فلو كان الأمر كذلك لكان سكان الريف أول من يهاجمهم هذا المرض ، كما اننا لا نستطيع كذلك ان ننسب هذه الأمراض بشكل مطلق الى عادة شرب المشروبات الساخنة وبشكل أساسى : القهوة ، ذلك أن آلام الاسنان كما لاحظ نيبور Niebuhr بحق فى كتاب Description de L, Arabie قديمة جدا فى مصر ،وهى تسبق

بوقت طويل اكتشاف البن ، اذ يشير هيرودت عندما يتحدث عن الأطباء الى فئة منهم مهمتها اساسا علاج الفم .

ويتميز المصريون باحترامهم لكبار السن ، كما ان حب الابناء هو ايضا واحد من فضائلهم الاساسية ، وينظر الشبان لآبائهم بنوع من التقديس الدينى ولا يجرؤون ان يدخنوا امامهم على الاطلاق ، ولا يسمحون لانفسهم بتلك الميزة الا بعد زواجهم ، وهنا فقط يعتبرون انفسهم رجالا ومع ذلك يظل آباؤهم على الدوام أولى أمرهم ، وموضع حبهم وعاطفتهم . وفى بلاد كهذه تدين بوجودها للنيل فان كل شىء يرتبط بهذا النهر ، وما تزال توجد حتى اليوم عادات كانت تحدث فى الأزمنة الماضية ، فالمسلمون على سبيل المثال ينتظرون اولى بشائر الفيضان والاحتفالات التى يقوم بها الناس فى هذه المناسبة لكى يحتفلوا بأعراسهم ويستمر ذلك حتى حلول شهر رمضان، ومن النادر ان يتزوجوا قبل او بعد هذه الفترة التى يبدو ان العادة هى التى حددتها .

وقد فرض محمد الوضوء لمرات عديدة فى اليوم ، واصبح هذا التقليد واحدا من الفرائض الأساسية لتلك الديانة التى اسسها هذا المشرع. ونحن لا نستطيع ان نلومه فى هذا الخصوص حيث أن الوضوء فى كل البلدان الحارة ضرورى للنظافة ، بل انه ضرورى للصحة . ويغسل المسلمون كل جسمهم كلما استطاعوا او يكتفون بغسل اجزاء منه ، ومن هذه الأجزاء أعضاؤهم التناسلية ، ويستخدمون فى هذه العملية يدهم اليسرى ، اما اليمنى فتبقى لأمور اكثر نبلا . فهى التى توزع الطعام وتحيى أو تقدم للكبار امارات الاحترام أو الخضوع بوضعها فوق الرأس .

والمساجد عبارة عن تجمعات شيطانية ، اذ يتجمع هناك اناس ينهمكون فى امور تتعارض تماما مع قداسة المكان ، بل هم يندمجون احيانا فى اهتمامات مجافية للذوق ، فهناك ترى خليطا من المتعبدين يؤدون الصلاة ، وبؤساء يتفلون ويقتلون ما بملابسهم واجسامهم من قمل وبراغيث ، وعاطلين نائمين وحرفيين منهمكين فى ممارسة اعمالهم . وينظر لتلك الأمور بتسامح كبير وليست مصر هى البلد الاسلامى الوحيد التى تغتفر فيها بحكم العادة تلك العادات السيئة .

ويقدس المسلمون هناك عديدا من الأولياء الموتى ، وهم لا يعظمونهم الا لكى ينالوا منهم الصحة لأنفسهم أو الخصوبة لزوجاتهم العقيمـــات . ويرون فى اوليائهم كذلك القدرة على ابطال مفعول الحسد والسحر المؤذى ، ذلك ان الجهل والتعصب يحملانهم على ان ينسبوا لمجرد نظرة سريعة من العين الكثير من التاثير الضار على صحة المرء بل على حياتهم كلها . وجدير بالذكر ان اليهود وهم ليسوا اقل تعصبا ولا تطيرا من العرب يقدســـــون احبارهم لنفس الغرض . وبخلاف ذلك ، يلجأ العامة لوسائل أخرى كثيرة سنتحدث عنها فيما بعد لكى يبعدوا العين « الردية » كما يقولون .

ويقوم المصريون بممارسة اخرى مضحكة ، تعود الى ضعف نظامهم الروحى ، فيحرص المسلم منهم بعد ان يقص شعر راسه او لحيته على الا يرمى بها فى الهواء ، بل يطويها بعناية داخل ورقة ثم يضعها بحرص فى احد الشقوق . ويتبع الشعب كله على وجه التقريب هذه العادة العجيبة.

وقد قام الجيش الفرنسى بعد احتلال هذه البلاد بانشاء مستشفيات فى كل المدن الكبرى ، وكان بعض المسلمين يترددون على هذه المستشفيات للقيام بمهمة دفن الموتى . وقد لاحظنا انهم يضعون جثث المسيحيين بطريقة عكسية تماما لتلك التى يضعون بها جثث المسلمين . وسألناهم ذات يوم عن السبب فى هذا التمييز فأجابونا بجـدية تامة « اننا نحن اتبـــاع محمد الذى ينبغى لأرواحنا ان تصعد الى السماء ، لذا فنحن نرقد جثث المسلمين على ظهورها ، اما أرواح الكفار فينبغى على العكس من ذلك أن تهبط الى الأرض لذا فنحن نرقد جثثهم على بطونها حتى نسهل من مهمة أرواحهـــا ونقصر عليها المسافة » .

وللماليك عادات ترجع الى مزاجهم وتربيتهم ، فهم لا يُشـــاهَدون مطلقا بدون سلاح ، بل انهم لا يتوجهون الى حفلة طعام دون أن يرتدوا كافة سلاحهم ، ذلك ان الخيانات المستمرة فيما بينهم تفرض مثل هـــــذا الحرص ، كانت الموائد والاحتفالات الـكبرى على الدوام هى المناســـبة والوسيلة لتنفيذ عمليات الاغتيال أو الانتقام ، انهم يتمسكون اذن بمناصبهم باحتياطهم ضد هذه المكائد . ومن جهة أخرى ، فان عادة ان يكون المـــرء مسلحا هى عادة شائعة بين الشرقيين ، بل هى عندهم امر من أمور الجاه والعز ، ويشكل السلاح على نحو ما جزءا من ملابسهم . وســـوف يكون

الأمر فى غير تمامه لو أن الحزام لم يكن مليئا بالطبنجات الفخيمة والخناجر الجميلة . وتتفق هذه الأداة القاتلة مع نوع الحياة التى يحيونها ومع ميولهم الجمـــوح .

والمصريون بشكل طبيعى نحيلو الجسم ، وذوو أمزجة سوداوية ، ولا نجد من بينهم رجالا ضخام الجسم واقوياء الا عند الأقباط او المسيحيين الشرقيين .

واكثر الناس حياء بين المصريين هم الاقباط ، ولا يمكن للمــرء ان يتصور الى اى حد بلغ جبنهم وتخاذلهم ، ومن السهل تفسير ذلك ، فحالة العبودية التى انتهوا اليها منذ قرون كثيرة هى السبب الحقيقى لذلك.

واذا كان صحيحا ان مصر القديمة هى التى أوحت للشاعر أروفيوس بالافكار الأولى لهارمونيته الموسيقية ، فان مصر الحديثة قد فشلت فى هذا المجال كما فشلت فى امور أخرى . فالموسيقى فى هذا البلد ليست سوى نوع من الانغام الغليظة والرفيعة تفرغ ضوضاءها المنفرة والمنافية للذوق السليم فى الآذان فتكاد تجرحها . ومع ذلك فان لهذه الموســيقى المليئــة بالعيوب ـــ كما نرى ـــ قدرة عجيبة على ادخال السعادة الى الجنــس اللطيف فى مصر ، الذى يحتقر فى نفس الوقت وبشكل كبير موســيقانا الأوربية . وقد شاهدنا امرأة يغمى عليها من فرط الانتشاء وهى تســتمع لصوت اجش لأحد المطربين العرب ، بينما كنا نحن الأجانب نعده صــوتا عاجزا يبعث على التقزز . وهم يصحبون اغانيهم بآلة موسيقية أو آلتين حادتين ليس بينهما تناسق(١) . ومغنيات مصر المفضلات هن العــوالم (عالمة) . وهن يشكلن واحدة من مباهج وملذات المصريين . ومع ذلك فان صوت هؤلاء العوالم منفر وغير مقبول وينبغى أن تكون مصريا حتى تجد فى

---

(١) ينبغى ان نلاحظ أن الموسيقى العربية ـــ بعيدا عن التونات وأنصاف التونات الموجودة فى سلمنا الكروماتيكى ـــ تتمتع هى ايضا بأرباع التون . وهذه النغمة هى التى تأخذها اذن الأوربى كنغمات خاطئة. ولـــكن عندما تدرس الاغنية العربية بشــكل افضل فســوف نرى على الفور أن أرباع التونات هذه تشكل جزءا من الســلم الموسيقى . انظر فى هذا الخصوص دراسة المسيو فيوتو Villoteau حول موسيقى المصريين المحدثين .

وصف مصر ، الدولة الحديثة ، جـ ١ ، ص ٦٠٧ وما بعدها .

صوتهن بعض الطرب . وتنتسب هؤلاء السيدات عادة الى الطبقات الشعبية ، وهن مشهورات بكونهن شاعرات مرتجلات .

ومن الأشياء التي تلفت نظر الأوربى أكثر من غيرها عند عبوره شوارع القاهرة ان يرى بعض الشبان تغطى أجسامهم الهلاليل والأتربة لكنهم يتجادلون فيما بينهم بكثير من الجدية والأهمية . وليس اكثر مثارا للدهشة من أن ترى بعضا من العامة يتشاجرون ، فهم يتبادلون السباب والصيحات العنيفة ، ويهدد بعضهم البعض ، بل يصل الأمر لحد ان يتلامسوا بالعصى ثم يتفرقون دون أن يصل بهم الأمر لأبعد من ذلك ، ومن النادر أن تصل مشاجراتهم لنتائج اكثر خطورة .

ونلاحظ فى المصانع المهارة التى يستخدم بها العمال ابهام قدمهم لانجاز اعمالهم ، ولا تستطيع ايديهم بكثير من الجهد أن تجارى اقدامهم فى تنفيذ نفس الحركات بمثل هذه الدقة والسرعة .

ويمكن لنا أن نذكر تحت بند المهارة ، مهارة الحلاقين المصريين ، فلعلهم ابرع زملاء مهنتهم فى العالم كله ، ومع ذلك فأساليبهم تبعث على الضيق حين لا يكون المرء متعودا عليها . وهم يتفوقون على وجه الخصوص فى حلاقة شعر الرأس بالموسى .

ويتمتع الشرقيون الذين يعملون بتجارة الفضة عامة بشهرة سيئة بخصوص أمانتهم واستقامتهم ، لكن هذا الاتهام ظالم ذلك أن الوزانين العموميين والصرافين والعاملين فى تبديل العملات مشهود لهم فى مصر على العكس من ذلك بالنزاهة والاستقامة ، ولعلنا لا نجد مثالا واحدا على أن رجلا واحدا من العاملين فى هذه المهن قد اتهم باساءة استغلال هذه المهام الدقيقة التى نيطت بهم . ويحوز الصرافون سمعة طيبة جدا فى مجال التجارة . ومع ذلك فمن الصحيح ان لديهم وسائل مشروعة كثيرة يصلون بواسطتها الى تكوين ثروة كبيرة دونما حاجة منهم الى الغش . وهم يستطيعون أن يتركوا عملهم هذا فى بضع سنوات ، أو يستمرون فيه حسب مزاجهم — ذلك أن هذا الوقت القصير يكفى عادة لكي يجعل منهم أناسا بالغى الثراء .

٨

عن الأمراض الرئيســية

فى ظل وجود حرارة متساوية الدرجة ــ على وجه التقريب ــ طيلة العــام ، وفي ظل سماء صافية تغسل الموجودات والأشياء كل صباح بما تكونه من الطل وندى ، فان مصر لا تتعرض الا لعدد قليل من الأمراض ، ومع ذلك فهذه الأمراض على قلتها قاتلة فى معظمها لحد يثير الفزع . ومما لا جدال فيه ان نضع على راس قائمة هذه الأمراض : الطاعون ، هــذا الوباء ــ الكارثة الذى استطاع بسبب النشاط الذى لم يمكن ادراكه حتى الآن للجسيمات الحاملة له ان يفلت الى اليوم من بحــوث علم الطب . ويندلع الطاعون فى مصر على فترات تتقــارب او تتبــاعد ، ويمكن القول بانه نادرا ما ينقطع فى القاهرة والاسكندرية بصــفة خاصة . فبعــد أن ينكمش المرض بفعل الحرارة الشديدة أو برودة الشتاء القارسة ، فانه يعود ليتولد من جديد وتعود اليه قواه المهلكة فى الفصل الذى تميل الحرارة فيه الى الاعتدال . وفى بعض الأحيان يكون المرض طارئا وعارضا ، وعنــدئذ يكون قليل الخطورة ويختفى فجاة بعد مدة قصيرة ليعاود الظهور من جديد بعد بضعة اشهر . ويبدو تواكل المسلمين وعدم حيطتهم وسذاجتهم الروحية باعتبارها الأسباب الرئيسية لبقاء هذه الكوارث . فهــؤلاء فى الواقع ، يتصورون ، متمثلين بما ورد فى بعض نصوص القرآن ، أن ليس ثمة ما يحدث دون ارادة من الخالق ، وأن ليس ثمة ما يمكنه ان يرد قضـــاءه ومشيئته التى لا محيص عنها ، لذا ينظرون الى الاحتياطات التى تم اللجوء اليها لمنع انتشار الطاعون كامور لا جدوى منها اذ انهم لن يصابوا مطلقا باذى اذا كان مقدرا لهم ان يعيشوا ، كما أن شيئا لا يمكن له ان يحميهم اذا ما كانت مشيئة الله قد أرادت لهم أن يموتوا .

ويتذكر سكان القاهرة بفزع نوبة الطاعون التى حلت ايام على بك ، وتلك التى حلت أيام اسماعيل بك ، ولقد أدت النوبة الاخيرة على وجه الخصوص ، وهى التى اندلعت فى ربيع ١٧٩١ ، الى حدوث فظائع كبرى ، فقد كانت تحصد الألوف فى كل يوم ، وكان اسماعيل بك وكبار المماليك من بيته من أوائل ضحياها . وقد كلفت هذه النوبة مدينة القاهرة ثلث سكانها ،

ولسنا هنا بصدد الدخول فى تفاصيل حول مرض الطاعون ، فلسوف تذهب بنا الظنون مذاهب شتى حول تحديد اسبابه دون أن نتمكن بطريقة كافية من ان نحدد طبيعة العوامل المتسببة فى حدوثه . ذلك اننا لا نريد ان نضاعف من حجم عدد الافتراضات التى قدمت والتى سوف تقدم فى هذا الخصوص ، فالطاعون ينتقل بفعل الاحتكاك والتلامس ، فاذا ما استطاع المرء ان ينعزل تماما وان يمتنع عن ملامسة جسم مريض او استنشاق هواء تنفسه فبامكانه أن يتأكد أنه سوف يفلت منه . ويعتقدون هناك فى الشرق أن المرض يمكن أن ينتقل أيضا عن طريق حاسة الشم ، وأن الزهور تتشرب بسهولة الأبخرة العفنة الناقلة للطاعون(١) .

وبرغم أن الدوسنتاريا أقل بشاعة من الطاعون بكثير . فان آثارها فى مصر ليست اقل تدميرا ، وذلك بسبب اطعمة المصريين الرديئة وبسبب استعداد أجسامهم وبنيتهم التالفة ، ويسبّب لهم هذا المرض دمارا مروعا ، وهو يهاجم أطفالهم على وجه الخصوص ويحسدهم بطريقة تبعث على الرعب .

وفى نفس الوقت فقد قدر على المصريين المحاطين بالصحراوات من كل جانب ، حيث تنتشر رمالها الناعمة والحادة بفعل الريح وحيث يتعرضون هناك لتقلبات مفاجئة فى درجات الحرارة ولرخات الطل المتزايدة — قدر عليهم أن يتعرضوا لأمراض العيون منذ زمان ضارب فى القدم وهذا ما يؤكده هيرودت حين يشير — من بين الأطباء — الى أولئك الذين يعملون منهم فى علاج امراض العيون . وليس الرمد اليوم منتشرا بأقل مما كان عليه فى الماضى . بل لعل انتشاره قد ازداد بسبب من اهمال الشعب وعدم

---

(١) أظهر السيدان ديجينت ولارى des Genettes & Larry كبيرا أطباء الجيش أثناء مدة الحملة ، شجاعة تعلو على كل مديح حتى يتعرفا على العوامل المسببة لهذا المرض ، وقد أمكنهما أن يجمعا مخاطرين بذلك بحياتهما عددا كبيرا من الملاحظات القيمة عن أساليب العلاج الواجب اتباعها . ويتذكر كل رجال الجيش الذين لا يزالون على قيد الحياة ، بكل الأسى تضحيتهما الكريمة . انظر مؤلفاتهما وانظر كذلك مقالة السيد الدكتور سافارسى Savaresy من الطاعون الذى ضمنها الى مذكراته ، وكذلك مقالة المسيو اساليني Assalini

حيطته ، اذ ينام الناس فى الهواء الطلق ، حتى لتساعد الرطوبة وبرودة الجو فى تكوين التقيحات التى تسبق علل العيون او فقدان البصر .

ولم يكن بمقدور جنودنا أن يفلتوا من هذا المرض ، وقد ظنوه فى البداية معديا . ولم يكن التجار الأجانب ليفلتوا بدورهم منه ، حتى ليبدو وكان المرض يفضل سكنى عيونهم ، ومع ذلك فهو لا يستثنى المواطنين ، فمن بين كل خمسة اشخاص ، ثمة واحد يضع عصابة على عينيه .

اما الجدرى الذى كان بشعا فى بلادنا منذ زمن طويل ، فانه يواصل تدميره فى الشرق حيث يهيىء له التعصب والخرافات — كما فى حالة الطاعون عمرا طويلا(١) وهو مرض بشع فى مصر ، ويظهر هناك بشكل مفزع وبدرجة اشد خطورة مما كان يحدث فى اوربا . ونادرا ما يفلت الأطفال فى سن مبكرة من مخاطره وخبثه ، واذا ما كان بعض البالغين أو الرجال الناضجين يشفون منه فانه يترك على كل اجسامهم ندوبا عميقة ، وهو ينتشر فى فترة معينة من العام شأنه فى ذلك شأن الطاعون(٢) . لكن ما يجعله ابلغ ضررا منه فى اى مكان آخر ، أن الأمراض التناسلية لا تشفى هناك بشكل جذرى . لذا ينتقل ميكروبها البالغ النشاط من جيل لجيل ويصيب الشعب كله وينتقل الى دم الأطفال مع لبن الرضاعة ، وعندما يأتى الجدرى بعد ذلك ليهاجم هذه الكائنات الضعيفة التى اتلفت فيها بالفعل منابع الحياة نفسها ، فلا بد أن نستنتج بسهولة انه سيكون من الصعب على هؤلاء الأطفال الضعاف أن يقاوموا شدة هذا المرض . لذا ، كانت هذه النسبة الكبيرة من الوفيات بين الأطفال فى القاهرة وبقية المدن .

ومن الأمراض الشائعة فى مصر كذلك الفتاق والدمامل . وكان يمكن أن تصبح هذه الأمراض اكثر انتشارا لو لم تكن تلك الحيطة الحكيمة من جانب الفلاحين اذ يضغطون اسفل البطن بواسطة حزام جلدى عريض وتهاجم هذه الأمراض العارضة الحيوان كما تهاجم الانسان . لكن الانسان

---

(١) يعتقد كثير من الاطباء ان مرض الجدرى قد نشأ اصلا فى مصر .

(٢) انظر ما كتبه المسيو جومار Jomard فى دراسته عن المقارنة بين سكان مصر الحديثة وسكانها القدامى .

لا يلقى لها فى البداية الاهتمام الكافى ولذا يزيد المرض خطورة ويصبح فى شكل تقيحات تستعصى على الشفاء ولما يكن المريض بعد قد شرع فى العلاج وهكذا شأن القوم مع الأمراض الأخرى ، فالرقى والأدعيات الدينية هى العلاج الناجح لكل الأمراض عند عامة الشعب . أما عيادات الطب الشعبى التى أنشئت فى المدن فهى تغتال حياة من يسلم اليها نفسه طائعا مختارا من الأغنياء ، وفى الوقت نفسه فان الخرافة تعمل من تلقاء نفسها كعلاج ناجع غريب لهذا البلد ، الذى تسير اموره المعتقدات المسبقة والجهل والتعصب .

وتشكل كل الظروف التى رصدناها فى الأجزاء ١ ، ٣ ، ٨ العناصر التى عملت على تشكيل أو تعديل تقاليد المصريين وعاداتهم ، ويعود بعض هذه الظروف الى كل العصور حيث انها ترتبط بالطقس وبالبنية الطبيعية لمصر ، أما بعضها الآخر فهو ثمرة الديانة المسيطرة والأنظمة المستقرة والقوانين التى تحكم البلاد بمقتضاها . وينبغى علينا كى نكون فكرة دقيقة عن بقية الأسباب التى تؤثر بطريقة مباشرة أو غير مباشرة على تقاليد الاقليم ، أن ننفذ الى كل الوقائع ، وهذا ما سوف نفعله فى الفصول القادمة .

الفصل الثاني

عن الإنسان المصري في سنوات عمره الأولى

الطفولة والتربية - الفنون والعلوم والآداب

١

عن خصوبة المـراة ونظـام الرضاعة

قد لا يكون خارجا عن موضوعنا ـ قبل ان نتحدث عن خصـوبة النسـاء فى مصر ـ أن نخوض فى بعض التفاصيل حول حياة المراة المنزلية وحول المكانة التى تشغلها فى المجتمع . فملاحظات من هذا النـوع نرتبط بالموضوع بشكل اساسى . واذا كانت المراة لا تحدث عند الشعوب الشرقية الا تأثيرا بالغ الضآلة على الرجل بالمقارنة بما يحدث عندنا فى اوربا ، فان الأطفال فى سنى عمرهم الأولى برغم ذلك يخضعون لتأثيرها ، ولا يمكن ان يكون امر كهذا ـ بالنسـبة للدارس الواعى ـ الا واحدا من العـوامل التى تؤثر فى تقاليد الأمم ، اذ لا يمكن أن يكون مثل هذا الأمر خاليـا من التأثير ، حتى وان عد من قبيل الأسباب غير المباشرة .

وتقيم الطبقة والثروة بين نساء مصر اختلافات وفروقا أكبر بكثير من تلك التى تحدث عند شعوب الغرب ، لكن هذه الفروق لا تتضح فى مجـال التربية التى يتلقينها فى طفولتهن ، وهى تكاد تكون معدومة بالنسـبة لجنسهن كله ، بقدر ما تتضح فى مجال العادات التى تنتشر فى اوساطهن كنساء وفيما تحاط به السيدات من علية القـوم من احتفال وامتيـاز ومن هذه الناحية ، يمكن لنا القول بأنه لا توجد فى مصر الا طبقتـان من السيدات : طبقة ترفل فى الثـراء ، ويؤدى الغنى الى رخاوة نسـائها فيقضين حياتهن باكملها داخل مباهج ومسرات الحريم ، وطبقة اخرى قدرت على نسائها حياة نشيطة مليئة بالعمل . ولكى يتضح لك الفرق ، فما عليك الا ان تنظر الى واحدة من زوجات البكوات ، وأن تدرس اذواقها وسلوكها ومباهجها وملذاتها واهتماماتها اليومية ، فهذا كفيل بأن يقدم لك فكرة كاملة عن كل السيدات الثريات ، ثم عليك بعد ذلك أن تنفذ الى ما تحت سـقف واحد من الحرفيين او الى داخل كوخ احد الفلاحين وسوف ترى ان الظروف المتشابهة التى تحياها كل هؤلاء النسوة هى التى تحدد لهن ملابسهن ...

وهكذا يمكنك أن ترى كل مباهج الرخاوة وترفها فى جانب ، وفى جانبا آخر سوف ترى كل خشونة العمل ومقتضياته .

وبرغم ذلك كله فثمة ذلك الذوق الفطرى عند كل النساء الذى يبدو وكانه يعمل على التقريب بينهن فى مختلف ظروفهن ، ذلك ان هذا الذوق يتعلق بالمرأة كامرأة بعيدا عن الطبقة التى تنتمى اليها ، ويمكن القول بأن هذه هى نقطة الالتقاء الوحيدة التى تربط بين النساء على اختلاف طبقاتهن ، ونعنى بذلك حب التأنق والتزين بالحلى ، فكثير من السيدات فى مصر يلبسن من تلك الحلى ما يفوق كل ثروة أزواجهن ، وليس من النادر ان نرى هناك زوجة لحرفى بسيط تتزين بمجوهرات ثمينة لو ان اتيح لواحدة من ثريات النساء فى اوربا أن ترتديها لأدركتها كل امارات الزهو والخيلاء ، ومع ذلك فقد تكون زوجة هذا الحرفى ممن يعانين فى الحصول على قوت يومها . وهذا الكلف من ناحية السيدات المصريات بهذا النوع من الزينة يرتبط بطريقة احساس هؤلاء السيدات بكرامتهن حتى أن ابسط تاجر لا بد أن يوفره لزوجته ارضاء لها ، ويؤدى ذلك فى النهاية وبدرجة لم تكن متوقعة الى تضييق ممارسة تعدد الزوجات ، لذا يكتفى المسلم المتواضع الثراء بزوجة واحدة أو اثنتين ، ولن يكون بمقدوره أن يزيد عن ذلك والا سوف يصعب عليه ان يساوى بينهن . وهكذا ، فقد وضع خيلاء النساء وغرورهن حدودا لافراط الرجال وشهواتهم .

ولقد سبق ان تحدثنا عن حياة سيدات الحريم ، وكيف انها فارغة ورتيبة ، وكيف أن الواحدة منهن تقضى يومها راقدة فوق فراشها او متمددة على وسائد رخوة ، تحيط بها جمهرة من الإماء شديدات الانتباه ، لحد يتنبأن ، معه بما قد يجول فى ارادتها حتى ليوفرن عليها حركة الاشارة من اصبعها ، لذا فان مثل هذه السيدة تكتسب فى وقت قصير سمنة غير مستحبة ، لكن الاتراك يعتبرون هذه السمنة واحدة من أهم شروط الجمال، ومع ذلك فلعل هذا الميل منهم يعود الى ان كل النساء هناك فى العادة سمينات ، وهذا طبيعى بالنسبة لنساء يتلقين هذا النوع من النشاة المرفهة. وفضلا عن ذلك فلون بشرة هؤلاء السيدات ناصع البياض ، وعيون غالبيتهن آية فى الجمال وملامحهن على وجه العموم متناسقة . لكن جمود ملامحهن قد جعل وجوههن خالية من كل تعبير ، كما ان سكونهن يشى

برخاوتهن ، وعقلهن فضلا عن ذلك خال من اية معرفة . ونساء هذه الطبقة يلجان الى وسائل تبدو لنا بالغة الغرابة حتى يضفين رونقا على جمالهن وحتى يقاومن آثار الزمن وفعل الطبيعة ، فحيث انهن يرون فى كثافة الحواجب أمرا شائها فانهن يستخدمن المؤسى لكى يصبح هذا الحاجب الكث مجرد خيط رفيع فوق الجفون . وهن يعرفن كذلك المساحيق ويضعن على خدودهن الخال ويعرفن كافة الوسائل التى تستخدمها المرأة الأوربية فى التزين . وتلجأ الشابات المسيحيات وكذا الروميات اللائى يطمحن أن يحصلن قبل الأوان على كل جاذبية المراهقة الى وضع ضمادات من لباب الخبز الساخن بين النهدين وتحدث هذه العملية بالفعل اثرها ، ولكن فلأن الثديين قد نضجا بسرعة وقبل الاوان فانهما فى نفس الوقت يفقدان من مرونتهما ولعلنا نستطيع أن نجد فى ممارسة هذه الطريقة الغريبة سر السرعة التى يذبل بها جمال المراة الشرقية . وهكذا فنساء مصر كما رأينا لسن اقل من مثيلاتهن الأوربيات غيرة على سطوة جمالهن وذلك بالرغم من انه ليس امامهن من فرصة لاستعراض جمالهن هذا الا امام ازواجهن او اترابهن ، فهذا النوع من الانتصار يرضى كرامتهن بشدة .

وفى الطبقة الدنيا يتغير كل شىء ، فالنساء مهمومات بأمور البيت ، أما مباهج البطالة فلم تخلق لهن ، فهاهن فى الحقول يقتسمن مع ازواجهن العمل او يساهمن على الأقل فى جعل العمل على أزواجهن اقل مشقة ، لذا تراهن يتمتعن بكل الخصائص الجسدية التى تنتج عن مثل هذا العمل المنتظم ، فأجسامهن قوية ، عارية من الشحوم ، وحركاتهن سهلة، وخطوهن ميسور فى حين أن خطوات السيدات الميسورات ثقيلة متعثرة ، وعلى الرغم من بساطة ملابسهن فان لديهن الرغبة فى أن يتميزن وسط رفيقاتهن ، وذلك بالتزين ببعض الحلى المتواضعة ، فيحطن اصابعهن بخواتم عريضة كما يفعل السايس و يزين خصلات شعرهن ببعض قطع من النقود .

ويقيم فى القاهرة وبولاق عديد من الأسر من اصل سورى ، ونساء هذه الأسرات فى العادة جميلات وقامتهن مديدة وعيونهن سوداء واسعة بها شىء من الاغراء ، لكن انفهن الأقنى والطويل بعض الشىء ربما يعطى لشكلهن ملمحا من شموخ واضح ، ومع ذلك فهن يبدون بهذا المظهر المتعجرف فى مواجهة السيدات التركيات اللاتى يماثلنهن فى الزى والعادات ،

وثمة عادة شائعة بين النساء ــ مسلمات ومسيحيات ــ وهى أن يسودن حافة جفونهن بالكحل ويحمرن أظافرهن بالحناء ، ويلاحظ المرء كيف يمكن لهذا اللون القاتم ان يضفى شيئا من الغلظة على الوجه ، لكننا برغم ذلك لا نستطيع أن نصدر حكما قاطعا فى هذا الصدد الا اذا رأيناهن عن قرب وفى ظروف حميمة وليس فى ظروف طارئة تأتى لتجعل مثل هذا الفضول ممكن التحقق ، ذلك أن النساء فى كل الظروف لا يخرجن مطلقا سافرات الوجوه، بل يغطين وجوههن بالبرقع وهو غطاء مكون من قطعة من الموسلين ،توضع فوق الأنف والوجه وتضايق التنفس ولا بد أنه يسبب لهن الكثير من الضيق ، وزيادة على ذلك ، تغطى جبهة المتزوجات منهن بعصابة من قماش اسود تترك بين البرقعوالجبهة فراغا ضيقا تستطيع العين أن ترى من خلاله ، أما أولئك اللائى لم يتزوجن بعد ، فيحملن على جباههن عصابة بيضاء ، اما لون البرقع فهو نفس اللون بالنسبة لهؤلاء ولأولئك .

ولا يدخل الرجال مطلقا فيما عدا بعض الأهل الاقربين الى مسكن السيدات ، ونادرا ما يأكل الزوج معهن ، ويخصص لهن الجزء العلوى من المنزل ، وهذه عادة شائعة عند الأتراك وعند كل الأمم الاسلامية .

وعندما كان يتاح لأحد الأجانب ــ قبل قدوم الحملة الفرنسية ــ شرف ان يمثل فى حضرة زوجة احد البكوات ، او زوجة احدى الشخصيات الكبيرة ، فان هذه الزوجة لم تكن لتستقبله فى حجرتها ، بل فى حجرة طواشيها اول : لكنها لا تظهر لناظره ، وتأمر بتقديم القهوة والشربات الى ضيفها . وتظل تتحادث مع هذا الغريب عن طريق طواشيها دون ان تخرج مطلقا من خدرها . وهكذا لم يستطع الرحالة السابقون على الغزو ان يتعرفوا على احوال سيدات الطبقة المسيطرة ، وذهبت ادراج الرياح كل توسلاتهم اللحوح ، فلم يكن عظماء مصر ليسمحوا لأحد بان يتطلع الى جمال زوجاتهم . ومع ذلك فقد كانوا يستطيعون ان يوفقوا على الدوام بين واجبات ومقتضيات اللياقة وبين تقاليد بلادهم . وتتزوج النساء كما سبق لنا القول فى سن الثانية عشرة، ومن النادر أن تبقى واحدة منهن بلا زواج حتى سن السابعة عشرة، بل يحدث أن يدعى أنهن قد نضجن فى سن العاشرة أو الحادية عشرة ، ومع ذلك فلعل هذا الأمر اقل انتشارا رغم ان ثمة امثلة

عديدة فى هذا المجال لا تدع مجالا للشك فيما نقول ، فقد حدث أن تزوجت شابات قد نضجن قبل الأوان وهن بعد فى سن التاسعة أو العاشرة ، الا أن مشورة السيدات لازمة فى هذه الحالة ، ولم يكن زواج مثل هذا ليتم الا بعد أن تعلن النسوة ان الزوجة الشابة قد بلغت مرحلة النضوج .

ويمكن للزوجة المصرية ان تصبح أما فى سن الثانية عشرة ، لكنها تصل لذلك فى العادة فى سن الرابعة عشرة ، وتظل فى سنواتها المقبلة تقدم الأدلة على خصوبتها المذهلة ومن الممكن لها أن تصبح أما مرة كل تسعة اشهر ، ولكننا نستطيع القول لكى نقدم نسبة دقيقة بأن كل مصرية تتزوج تنجب طفلا كل ثلاثة أعوام ، ويقيم ذلك التقدير نوعا من التعويض بالنسبة للسيدات اللاتى يمرضن أو أولئك اللاتى يتميزن بخصوبة قليلة أو اللاتى تجعلهن بعض الأسباب الخاصة عاجزات عن الانجاب .والعقم التام شديد الندرة فى هذه البلاد ، بل انه يعد بمثابة عار للمرأة ، لذا تلجأ السيدة العقيم الى كل الوسائل التى تفرضها معتقدات النساء وخرافاتهن لكى تستطيع الانجاب . ويقوم الدجالون والمحتالون من اهل البلاد او من الغرباء باستغلال هذا النوع من النساء فيقدمون اليهن باثمان كبيرة اشياء يقال انها لا تخيب مطلقا ، لكن الطبيعة والطقس يعملان عملهما فيساعدان بذلك هذه الأشياء ـ الوهم ـ التى يمكن القول بأنها عديمة الجدوى على الدوام.

لكن السيدات فى نفس الوقت لا يبقين خصيبات لسن متأخرة كما يحدث فى أوربا ، فما أن يقتربن من سن الثلاثين حتى تؤدى نوبات الحمل المتكررة الى جعل الولادة عسيرة مما قد يكلف الطفل الذى كن سيتباهين به حياته . وسن الخامسة والثلاثين هى السن الطبيعية التى يتوقف عندها معظم السيدات عن الانجاب ، ويظل بعضهن يتمتعن بنعمة أن يكن أمهات حتى سن الاربعين لكن تلك حالة شاذة ونادرة الحدوث . ومن غير المألوف ان ترى سيدة تنجب بعد هذه السن ، وتكون هذه فترة مزعجة بالنسبة للسيدات المصريات ، اذ يشعرن فى هذا الوقت ببعض الاضطرابات والتقلبات التى تؤذى صحتهن ، لكن السيدة التى تفلت من هذه الأزمة يمتد بها العمر فى بعض الأحيان لسن متقدمة جدا .

وتتم الولادة عن طريق القابلات ، وهى على الدوام حوادث سعيدة بسبب تلك الحياة الرخوة الهادئة التى تحياها المصريات. وعندما لا تستطيع

امرأة ــ بعد ان تكون قد استنفذت كل الوسائل التى يتيحها لها طب الركة العاجز ــ ان تتمتع بسعادتها فى ان تكون اما او ان تحتفظ بالابناء الذين اتت بهم الى هذا العالم ، فان التبنى يعوضها عن ذلك الحرمان الذى فرضته عليها الطبيعة ، ولا يمكن لك أن تسمع مطلقا من يقول بأن تلك السيدة عقيم او ان ذلك الرجل عاجز . ويقوم الموت بحصد أطفال العائلات الأجنبية على وجه الخصوص ، فالمماليك واليونانيون الآسيويون والعثمانيون والأوربيون وكافة ابناء الأجناس التى لا تنتمى لهذا الوطن يموتون فى العادة دون ذرية تخلفهم وذلك اذا ما تناسلوا فيما بينهم . أما عندما يتزوجون من سيدات هذا البلد فان بمقدورهم ان يتمتعوا عندئذ بمباهج الأبوة دون أن يستطيعوا مع ذلك ان يتطلعوا الى ان ينالوا نعمة ان يتركوا بعدهم ذرية كبيرة العدد .

ولا يصبح للمراة المصرية من شاغل ــ وقد اصبحت اما ــ الا أن تعنى بطفلها ، فتضع فيه كل اهتمامها وتركزحوله عواطفها ، ولا تستطيع اقوى الشدائد ان تدفعها لكى تتخلص من هذا العبء الذى تظل فخورة به طيلة تسعة اشهر ، بل ان طفلها المرتقب ينسيها آلام الوضع ، فهذا الكائن الضعيف والعزيز هو تعويض لها عن آلامها الطويلة ، وكم هو جميل بالنسبة لها ان تقوم بواجبات الطبيعة ! انها لن تسلم مطلقا هذا الطفل الذى يدين لها بوجوده وجسمه السليم لعناية سيدة اخرى غريبة عنه ، فهى شديدة النهم للاطفاته الاولى ، وهى كذلك نطعمه من لبنها ولا تخشى مطلقا ما يعدها به هذا المولود الجديد من متاعب ، فلقد قررت ان تتحمل ذلك بسرور ولسوف تتحمل فى شجاعة ايةمخاطر كبرى قد تتهددها . لكنها لا يمكن ان تسمح له مطلقا بأن يخلع على اخرى ببساطة ذلك الاسم الذى يصنع لها سعادتها ومجدها، اسم الأم ، الذى تغار عليه وتفخر به ، لذلك لا تعرف فى مصر هذه الأمراض التى تثير احزان الأمهات الشابات اللاتى يمتنعن عن ارضاع أطفالهن، اما عمليات سكب لبن صدر الام وغيرها من الأمور التى تضعف صحة الأمهات فسوءات لا يعرفها الشرق . فكل امراة هناك هى مرضعة اسرتها ، اما اذا ما شاءت الطبيعة الا تهيىء الكمية الكافية من اللبن لارضاع مولودها الجديد فانها ستطلب معونة سيدة أخرى ، لكن هذه المرضعة لن تعد مطلقا غريبة عن الأسرة . اذ يمكن القول بأن صفتها كمرضعة سوف تنسبها الى هذه الأسرة وسوف تمنحها حقوقا ابدية فى مواطف الأبوين وفى عواطف الرضع . وهكذا يبدو ان العناية الالهية

تقيم نوعا من التعويض بين المزايا التى توزعها على الشعوب ، فهذا هو المصرى الذى ليست له نفس مباهجنا وملذاتنا أو نفس ميزاتنا الجسدية أو الروحية التى تبعده عن أسرته ، يعرف أكثر منا معنى العواطف الطبيعية، فأطفاله هم كل شىء فى حياته . وهم مصدر كل سروره وفخره وآماله ، ولربما كانت أحاسيسه أكثرا تبلدا وأقل تنوعا لكنها أكثر نفاذا وأكثر حقيقة، وهو يدين بذلك الى براءة عاداته وكذا الى بساطة تقاليده . لقد وجدها كامنة فى نفسه وفى ثنايا أسرته ، فليس ثمة من المرارة والندم العائلى ما يسمم مباهجه .

وتولى النساء المسلمات لأطفالهن اهتمامات دقيقة كثيرا ما تأتى بعكس المرجو منها بالنسبة لهؤلاء الأطفال ، فهن يسرفن فى تغطيتهم بالملابس الثقيلة ويؤذين معدتهم بأطعمة غير صحية ، فيسرفن على سبيل المثال فى تقديم السكريات والفاكهة من كل نوع لهم وتكون النتيجة أن يهلك عدد كبير من هؤلاء الأطفال فى سن مبكرة ، ويأتى الجدرى ليساهم فى الارتفاع بنسبة الوفيات بينهم كما سبق لنا القول . ففى القاهرة على وجه الخصوص يتسبب الجدرى فى حدوث أضرار هائلة ، اذ يهاجم الأطفال من الجنسين ولما تكن أعمارهم قد تجاوزت السنتين أو الثلاث ، ولا يمكن لمثل هذه الأجسام الضعيفة التى أتلفت الأطعمة الضارة بنيتها أن تقاوم بسهولة عنف المرض . وهكذا يمكن القول بأن هذا الشعب يدين بوجوده لخصوبة نسائه بينما يصعب على الأجناس الأخرى أن تستمر على قيد الحياة فى هذه البلاد ، وسوف نقدم الدليل على ذلك فى الجدول الآتى عن حالة أهم الأسر المملوكية :

اسماعيل بك : لم يترك الا بنتا واحدة .
ابراهيم بك : له طفلان على قيد الحياة .
قاضى أغا : أنجب ١١ طفلا ، بقى منهم ٤ على قيد الحياة .

مراد بك ، أيوب بك الصغير وأيوب بك الكبير ، الألفى بك ، محمد بك المنفوخ ، عثمان بك تباس ، عثمان بك الشرقاوى ، عثمان بك الأشقر ، عبد الرحمن بك ، عثمان بك البرديسى ، عثمان بك الطمبورجى ، حسن بك

الجداوى ، صالح بك ، ابراهيم بك الوالى ، محمد بك العبدولى ... كل هؤلاء بلا أطفال .

محروق بك بن ابراهيم بك : له طفلة واحدة على قيد الحياة ،

على بك الكخيا : له طفلة واحدة على قيد الحياة وكذلك سليمان بك.

احمد بك الكرارجى : لم ينجب اطفالا على الاطلاق ، ونفس الشيء بالنسبة لعثمان بك حسن وكذلك سليم بك أبو دياب وقاسم بك .

حسن الكاشف الشركسى : لم يخلف سوى طفل أعمى .

محمد اغا : انجب ٢٢ طفلا لم يبق منهم على قيد الحياة سوى طفل واحد ضعيف البنية .

ومن هذا نرى كيف كان عدد أطفال المماليك الذين يبقون على قيد الحياة ضئيلا . ويمكننا من جهة اخرى ان نعد اسرا اجنبية اخرى كثيرة لم تكن بأسعد حظا من ذلك . وهذا دليل على أن ألوطنيين وحدهم فى مصر هم الذين لديهم فرصة البقاء عن طريق التناسل . ويبدو أن طبيعة الطقس تلفظ بعناد بذور الأجناس الغريبة .

وقد خصص محمد نصا عن الواجبات التى ينبغى على الأمهات القيام بها تجاه اطفالهن . يقول المشرع العربى :

« والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن اراد ان يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس الا وسعها لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده ، وعلى الوارث مثل ذلك فان اراد فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما وان أردتم ان تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم اذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف »)(*) لكن السماح البادى فى هذا النص يظل بالنسبة للزوجات المصريات غير مطروق . اذ أن لهن صالحا مزدوجا فى ان يقمن بأنفسهن بالعناية التى يتطلبها

(*) القرآن الكريم ، سورة البقرة ، الآية ٢٣٣ ـــ المترجم .

اطفـــالهن ، فهن مدفوعات لذلك بدافـــع من الحب الأمـــوى أولا ، وهن مدفوعات لذلك ثانيا بفعل احتياجهن لأن يجدن لانفسهن اهتمامات واعمالا تقطع الرتابة المعتادة فى حيـــاتهن ، ويتفق ذلك مع كثـــير من اســـاليبهن فى السلوك ، فهؤلاء السيدات اللائى تخلو رءوسهن من أية معرفة واللاتى لا يعرفن عادة اللجوء الى الكتب لملء فراغهن ، يتمسكن ــ بفرحة طاغية ــ باية وسيلة يمكن لها ان تزجى بعض هذا الفراغ . من هنا فان ممارســـة واجبات الأمومة الشاقة بالنسبة لهن نوع من دفع الملل ، واذا ما حدث أن حملن ثانية اثناء الرضاعة ، وهذا أمر مألوف ، فانهن يستمررن فى ارضاع الطفل حتى الشهر السابع أو الثامن من الحمل حيث يكون اللبن قد تناقص، وعندئذ يتخذن لطفلهن مرضعة .

ويتصرف البدو بطريقة جد مختلفة ، اذ لا تقوم الأمهـــات عنـــدهم برضاعة اطفالهن ، حيث يرفض الآباء ذلك بحجة أنهن يسرفن فى تدليل الاطفال ، لذا يعهدون بالأمر الى مرضعات .

وقد سبق لنا ان تحـــدثنا عن العناية الفائقة التى توليها النســـــاء المصريات المقيمات فى المدن لاطفالهن منذ نعومة أظفارهـم وهى عناية تضر على الدوام بصحة اطفالهن ، ولكن زوجات الفلاحين ــ على العكس من ذلك ــ يكتفين بلف اطفالهن بقطعـــة من قماش خفيـــف ويحملنهم معهن ويسمحن لهم بالزحف شبه عراة على الأرض ، وينتج عن هذه النشأة أن يتعلم اطفال الفلاحين المشى فى سن مبكرة ، كما أنهم يكتســـبون قواهم بسرعة ، وفجاة بعد قليل يصبحون نافعين لآبائهم . وعادة ارتداء السروال الشـــائعة فى اوربا مجهولة تماما فى مصر وكذا فى كل بلدان الشرق ، لذلك فنادرا ما نرى رجالا متصنعين يجدون حرجا من الاستجابة لقضاء ضرورات الجســـم .

والاب فى مصر هو الذى يقوم بتسمية طفله ، ويقوم لهذا الغـــرض بجمع اصدقائه واقاربه فى اليوم السابع للولادة ، وعادة ما يختار لطفله اسم جده اذا كان المولود ذكرا ، اما اذا كان بنتا فليس ثمة قاعدة لاختيار اسمها ، ويختار لها عادة اسم زهرة أو اسم شىء من الاشياء الثمينـــة الموجودة فى الطبيعة .

٢

الختــان

بالرغممن أن الختان عادة اسلامية ، الا ان المذاهب الاسلامية تنظر اليه بشكل مختلف ، فاتباع المذهب الشافعى يرونه واجبا دينيا لا محيص عنه ، أما أتباع المذهب الحنفى فيرون أن الختان ليس سوى فعل يثاب المرء عليه ويعترفون بأن بإمكان المرءانيكون مسلما ، حسن الاسلام ، بدون ختان ، ومع ذلك فما دام ينبغى على المسلم ان يأخذ به فليس ثمة من الأسباب ما يكفل له أن يرفضه .

وليس ثمة سن محددة لاجراء عملية الختان هذه فيــكفى أن يختتن الأطفال الذكور قبل البلوغ اذ عليهم فى هذه السن ان يؤدوا الصلاة ، وهم لا يستطيعون أن يحصلوا على الطهارة التى يتطلبها محمد كشرط لهــذه الشعيرة الدينية ما لم تكن غلفتهم قد انتزعت .

وعندما يريد أحد الآباء أن يقوم بختان ولده ، فانة يقوده الى المسجد وهناك يصلى الامام على الشاب الصغير الذىيخرج بعد ذلك من المسجد ليجد جمعا من الأهل والأصدقاء ، ويصحبه هؤلاء فى جــولات طويلة على ضجة الآلات الموسيقية ومع كثير من الأبهة حتى منزل والده . وعندما يكون هذا الطفل ابنا لأسرة سرية أو ذات نفوذ فانه يمتطى حصانا جميلا مزركشا فى بذخ ، وعنــدما يعود الى منزله ، تقدم وليمة يدعى اليها كل الأهــل والأصدقاء ، وعند نهاية الوجبة يقوم الحلاق بقطع الغلفة بالموسى ويوقف تدفق الدم بواسطة دوا قابض ، وعندئذ يسارع كل المدعوين بتقديم الهدايا « للمطاهر » ، ولا تحضر النساء هذا الحفل ، وعند الطبقات الدنيا فقــط تقوم النسوة بمصاحبة الطفل الى المساجد ويعدن به ، لكنهن لا يخضــعن لعملية الختان هذه ، ومع ذلك فان الفلاحين والعربان يقومون بقطع بظر الفتيات ويعيب الاتراك وسكان المدن هــذا السلوك ما دام طول العضو لا يتطلب مثل هذا البتر ، وهى حالة نادرة جدا .

وكما سبق لنا القول فان الاقباط يمارسون الختان ، ويخضــع له أطفالهم الذكور في سن الثامنة او التاسعة ، أما الفتيات ففي نفس السن

تقريبا . وقد سبق أن اوضحنا أن هذه العادة قديمة فى مصر ونضيف الى ذلك أن اليهود الذين نشأوا بين المصريين — قد نقلوا هذه العادة الى فلسطين ، وهذا التشابه لافت للنظر ويستحق الاهتمام كما نرى ، وقد سبقنا زملاؤنا الى المطالبة بذلك ، ونحن نكرر ذلك هنا حيث أن هذا هو المكان الطبيعى لمثل هذا المطلب .

ويعتبر الختان عند المسلمين بمثابة الخطوة الأولى فى الحياة ، اذ يمكن القول بأن الطفل كان يحيا حتى ذلك الوقت بجسمه فقط ، ولكنه بعد هذه السن سوف يبدأ حياته الاخلاقية والروحية ، اذ يؤمر عندئذ بأداء الصلاة ويلقن العلوم والفنون بعد أن يكون قد سبق له التردد على المدرسة. لكن المدرسين لم يكونوا قد فرضوا شيئا بعد على عقله الصغير . فالختان اذن هو بمثابة نهاية لمرحلة الطفولة بالنسبة للمصرى بكل نزقها وطيشها ، ويمكن القول بانه بهذه العملية يولد مرة أخرى ، لكنه فى هذه المرة يولد رجلا .

٣

التعليم الأولى

فى القرآن — ذلك التشريع الدينى والاجتماعى فى الوقت نفسه - قام محمد بتحديد السن التى ينبغى ان يكون الطفل قد بلغها لكى يبدأ تعليمه الروحى والاخلاقى فقال :

« رب ابنك لسبع ، واضربه لسبع ، وآخه لسبع »(*) .

ومع ذلك ، فحيث ان الاطباء يدعون ان ملكات الطفل العقلية تتشكل منذ سن الرابعة او الخامسة ، فان الذى يهمه تعليم طفله ، يحرص على أن يبدأ طفله تعليمه أحيانا فى هذه السن فيجعله يتردد على المدارس حتى

(*) هكذا فى النص والمعروف أن هذا مضمون حديث نبوى شريف وليس آية قرآنية .

يتعود على الاقل على شكل الحروف ولكى يدركها دون مشـــقة كبيرة . ويلتزم الآباء بأن يعطوا لأبنائهم نوع التعليم الذى يتناسب مع درجة ثرائهم، أو يلزمونهم حسب الحال بتعلم حرفة . وتعلم القراءة والكتابة يسبق كل شيء ، لكن ذلك ليس الزاميا ولا حتى عاما حيث أن العدد الأكبر من الفلاحين وابناء الطبقات الشعبية لا يعرفون القراءة والكتابة ، ويمكننا أن نقدر عدد الذين يعرفون ذلك فى القاهرة بثلث عدد سكانها الذكور ، بل ويمكننا أن نهبط بهذا العدد الى الربع فقط .

ومن النادر أن نرى مصريا يتحمل بنفسه مشقة تعليم طفله ، فمن الطبيعى ان يتجنب الناس التصدى لعمل بمثل هذه المشقة ، لـــذا فهم يرسلون ابناءهم الى المدارس مدعين بأنهم — اذا ما تولوا أمر تعليمهم بأنفسهم — لن يقوموا بهذه المهمة بالحزم اللازم . ويرسل الأغنياء أطفالهم بصحبة احد الخدم ، أما الفقراء فيصحبونهم ، او يتولى مســـاعد المدرس تجميع هؤلاء الأطفال ليصحبهم جميعا . وتقوم الأمهات بارسال وجبات الى أطفالهن الدارسين ، ويقتسم هؤلاء الأطفال طعامهم مع زمـــلائهم المعوزين ، وهذه العادة تنبع عن معتقدات حثه شائعة عند كل المسلمين، فبهذه الطريقة يتعلم الناس منذ طفولتهم كيف يصبحون خيرين وكيف تنمو مع نموهم هذه الميول الخيرة التى تحض عليها مبادىء الدين . من هنا هذه المساواة المطلقة التى تسود بينهم فهم لا يعرفون ذلك التمايز الذى يعود الى الأصل والمنشأ ، بل ان الثروة نفسها ليس لها فى هذا الصدد الا ميزة طفيفة . ايتعين علينا اذن أن نتلمس وجود مثل هذه الأفكار الخيرة وســـط هذا الخليط من النظم الهمجية ؟ ولم لا ؟ فلماذا تفرض العناية الالهيـــــة حواجز على حكمة البشر ؟

ولا يرسل الكبار ابناءهم ابدا الى المدارس العامة ، اما الفتيات فلا يتعلمن حتى مجرد القراءة ، واذا حدث أن كان بعضهن يمتلكن هذه القدرة فلابد أن هذا أمر بالغ الندرة ولابد انهن قد تعلمنه فى معقـــل الحـــريم ، ويكون مدرسوهن فى هذه الحالة رجالا فى سن متقدمة ومحرومين من نعمة البصر ، ولا يستطيع مثل هؤلاء المدرسين أن يعلموهن اكثر من حفظ بعض آيات من القرآن . وعند هذا الحد تقريبا توقف التربية الاخـــلاقية للنساء فى مصر .

- وليس ثمة ما هو أكثر ضجيجا من مدرسة عامة فى مصر، حيث يتعلم الأطفال كتابة الحروف الهجائية والكلمات ، فى نفس الوقت الذى يتدربون فيه على نطقها . وهم عادة لا يتعلمون الا قراءة وكتابة وحفظ أجزاء من القرآن ، وفى هذا الحد البسيط ينحصر تعليمهم الأولى ويردد التلاميــــذ بصوت عال وهم متجمعون داخل نفس الفناء ـــ الدروس التى سبق لهم ان تلقوها من هنا يمكننا ان نكون فكرة عن الضجيج الذى يسمع فى الفصل، وعلى‌هذا فينبغى أن يكون المدرس متعودا على هذا الضجيج حتى يمكن له ان يتحمله . وبالاضافة الى تلك العادة الشائعة لدى كل الأطفال ـــ عادة أن يغنوا وهم يستذكرون دروسهم أو أثناء قراءتهم ـ فان أطفال مصر معتادون على تحريك الجزء الأعلى من جسمهم بشكل مستمر اثناء ذلك . وهـــذه الحركة الدائمة ، بالاضافة الى الأصوات غير المتنازعة تجعل من المدرسة العربية مشهدا فريدا بالغ الغرابة بالنسبة للمشاهد الأوربى . ويعــاقب الأطفال الذين يخلون بواجباتهم المدرسية أو بعلاقتهم بمعلميهم بقســوة ، ويتمثل العقاب العادى فى عدد غير محدود من الضربات بالجريدة ـــ وهى فرع من شجرة نخيل ـــ على باطن القدمين .

وعندما يحرز الأطفال تقدما فى الكتابة والقراءة ، يبداون التعــلم بطريقة الامـــلاء . ولا يكلف المعلمون أنفسهم مطلقا عناء تعليم اطفـــالهم لا الصلاة ولا القوانين التى فرضها النبى . ومع ذلك فان القرآن هو الكتاب الوحيد فى مراحل الدراسة الأولى . ويلتزم الآباء بتعليم ابنـــائهم قواعد الشريعة ، فعندما يقترب الابن من سن البلوغ يبدأ الأب دروسه الأولى ولا يستطيع الطفل ان يشارك فى صلاة الجماعة الا بعد الختان ، وقد سبق أن أوضحنا فى أى سن يتم ذلك .

وعلينا الآن ان نتحدث عن المدارس الأولية وعن نشأتها، ومن الأمور اللافتة للنظر ان المدارس العمومية لا تدين بوجودها الا لأعمال البر . وهذه المدارس كبيرة العـــدد فى اية مدينة تحظى بدرجة ما من الأهمية . ويقوم الرجل الثرى عادة بتخصيص جزء من الميراث الذى سيتركه لاولاده لانشاء مدرسة عمومية والصرف عليها . انظر اذن كيف يقوم كرم وتضحية الخاصة اللذين لا جدال فيهمابسد ثغرات الاهمال الاجرامى من جانب الحكومة ؟ ولولا حسنات هؤلاء الأغنياء لكانت مصر وتركيا معا محرومتين تمـــاما من

معرفة المبـــادىء الاولية للتعليم . وفى معظم الأحيان يكون المبلغ المخصص للعناية بالمدارس وفيرا لحد يسمح بالصرف على طعام وكســـاء وتعليم الأطفال الفقراء مهما كان عددهم .

ويدفع الآباء محدودو الثراء اتعـــابا ضـــئيلة للمدارس تتراوح ما بين ٣ ــ ٢٠ مدينى فى الاسبوع . والمدارس العمومية كثيرة جدا فى القاهرة وفى المدن الرئيسية ، ولكن من النـــادر أن نرى مدرسة واحدة فى الريف . وعلى الآباء الذين يريدون هنـــاك أن يعلموا أبناءهم ان يرسلوهم الى امام المســـجد .

وللمسيحيين ايضا مدارسهم . وهى تعيش شانها فى ذلك شـــان الأديرة على الاعانات والعطايا الخيرية ، ويعيش المدرســـون من الاتعاب المتواضعة التى يحصلونها من تلاميذهم ، وما أن يبدأ الأطفال في معـــرفة القراءة حتى توضع بين أيديهم مزامير داود .

وادارة المدرسة ، بل يمكن القول ملكيتها ، من حق نجل مؤسسها او احد ورثته ، وبامكان هذا الوريث أن يبيعها او ان يتنازل عنهـــا لصالح آخر . ومع ذلك فينبغى أن يكون المدرس الموكل اليه امر التدريس قادرا على القيام بمهام وظيفته وأن يكون حافظا للقرآن ، واذا ما رأى القاضى أنه اقل كفاءة مما يقتضيه العمل فانه يستطيع أن يرغم القائم على أمر ادارة المدرسة أن يختار مدرسا آخر أكفأ ولكن مهنة التدريس لا تحظى بالعناية الكافية ، ومكانتها بالغة الضعف . واذا ما كان المدرس كفئا لحد أمكنه ان يجذب عددا كبيرا من التلاميذ فله عندئذ ان يأمل بعض النفع والا فعليه ان يعيش خامل الذكر وفى حال تقرب من العوز وليس له ان ينتظر نفعا .

وللقاضى حق التفتيش على المدارس الابتدائية ، وعندما يتبين هـــذا الموظف الكبير ان المبالغ المخصصة للعناية بهذه المنشآت وتلاميـــذها قد صرفت فى غير أغراضها ، فان له الحق فى أن يرغم القائمين على ادارتها على الامتثال لرغبة مؤسسها .

٤

العلوم والفنــون

عندما يرغب الشبان بعد انتهاء دراستهم الأولية فى مواصلة دروسهم فانهم يطلعون لفترة فى تلك الكتب التى لها صلة بدراستهم المتبــلة ، ثم يتوجهون الى الأزهر للاستماع الى دروس وشروح المشايخ . والجامع الأزهر ــ على نحو ما ــ هو الجامعة الوحيدة فى مصر . وهيئة التدريس به تضم من ٤٠ ــ ٥٠ مدرسنا من بينهم خمسة أو ستة ذائعو الصيت .

وقلما يدرس هناك سوى القرآن وتقاليد السلف الأول ، والعقــائد والشريعة والصلاة والحج وبقية الشعائر الدينية التى فرضها محمد . ولكل مذهب اساتذته الكلاسيكيون الذين لا يختلفون مطلقا فيما بينهم حول المبادىء الأساسية للعقيدة الاسلامية .

كان النبى العربى يدرك ان القوانين تكتسب قوة دافعة جديدة اذا ما تاسست على العقيدة الدينية نفسها . لذا فقد كان بعيد النظر حين ربط بين الانظمة والمؤسسات وبين الدين وحين جعل من الواجبات التى تفرضها الحياة الاجتماعية على الناس فروضا يؤديها الانسان تجاه ربه وبذلك ادمج فى تشريع واحد كلا من المبادىء الدينية والقوانين المدنية .. ويحــرص المدرسون تماما على عدم الفصل بين الأمرين فى دروسهم . وهم يشرحون فى اسهاب كل ما جاء فى أجزاء القرآن مع الاهتمام بتوضيح المعـــانى الحقيقية للكلمات ، وكذلك يدرسون القواعد او النحو ــ اى تلك اللغــة التى كان يتحدثها العلماء الأوائل . ويقوم اعم الأساتذ فى الازهر بتدريس المنطق والمعانى أو البيان ، وهم يعرفون البيان بأنه فن التعبير عن افكار كثيرة فى اقل عدد من الكلمات وكذا فن استخدام كلمات كثيرة للتعبير عن افكار قليلة اى فن توسيع الفكرة او تركيزها حسب مقتضى حال السامع .

وكان محمود ، والى مصر وابن هارون الرشيد ، قد جلب الى مصر مؤلفات الفلاسفة الاغريق وامر بترجمتها الى العربية ، لكن هذه الترجمات لم تعد موجودة بمصر ولا يعرف الآن فى المدارس الا مجرد اسماء هــؤلاء الفلاسفة وبعض مقتطفات من مؤلفاتهم .

وينقسم المدرسون والطلاب الى ست حجرات (أروقة) أى فروع كبيرة : السوريون ، البربر ، الأغريق ، سكان الريف ، الصعايدة ، العميان ، ويخصص الرواق السابع لبعض طلاب الأقاليم .

وتقدم الحكومة كل عام حوالى ٦٠٠ر٥ اردب من الحبوب يوزعها شيخ الأزهر أو وكيله بين هذه الفروع وليس لغالبية القادمين من القرى وسيلة اخرى للعيش الا ذلك الخبز الذى يحصلون عليه من شيخ رواقهم.

وليس ثمة من نفوذ لوظائف التدريس ، ولا ينشغل مدرسو الأزهر بالأمور العامة الا لكى يحوزوا لأنفسهم شهرة وروادا عديدين ولكى يأخذوا نصيبا من تبرعات المسلمين المتحمسين فيحصلون بذلك على دخل بسيط يخصص لهم بالاضافة الى بعض الهدايا ، والى ما يحصلون عليه فى مقابل الفتاوى التى يصدرونها فى الأمور المدنية والجنائية التى تعرض عليهم لابداء الراى لأنهم فى نفس الوقت رجال قضاء .

والطلاب ليسوا ببساطة مجرد مستمعين سالبين ، فبامكانهم ايقاف المدرس عند نقطة لم يتفهموا معانيها ، وان يعارضوا رايه براى شيخ آخر فيقيموا بذلك نوعا من الجدل حتى يستخلصوا الحقيقة بشكل افضل ، ومن جهة اخرى فان الشيخ بدوره يسأل طلابه لكي يعرف ما ان كانوا قد فهموا وتقدموا .

وعندما ينتهى شاب من تحصيل دروسه ، ويأنس فى نفسه الكفاءة والعلم اللذين يؤهلانه كى يشغل وظيفة فى الجامع الكبير ، فانه يطلب الى شيوخه شهادات بكفاءته ، ويتقدم الى شيخ الازهر ليحصل منه على اذن القيام بالتدريس هناك بدوره ، ويدعو الشاب الى الدرس الاول الذى سيلقيه كل أصدقائه وكل العلماء(١) ، فيستمعون فى البداية اليه وبعد ذلك يسأله

---

(١) آن الأوان أن نبين هنا المعنى الذى يقصده العرب من مختلف هذه المسميات : عالم ، شيخ ، امام .. الخ . العلماء هم اساتذة الشريعة الضليعون فى ذلك . وكل مسلم لديه علم يبلغه ويتخذ من ذلك حرفة له يسمى عالما .
أما الشيوخ فهم المدرسون ورجال الدين . وشيخ الجامع الأزهر هو فى نفس الوقت رئيس هيئة التدريس فيه ، ويعين عن طريق قيام المدرسين
=

العلماء ويجادلونه ويعارضون آراءه ، وبحاولون احراجه فاذا ما امكنـــه أن يجيب على كل الأسئلة ويرد على كل الاعتراضات تأكدت شهرته ويهرع الى دروسه الطلاب والسامعون وعلى العكس من ذلك اذا ما تردد او ارتبك ولم يستطع أن يفوز بقدر كبير من الثقة ، لكنهم مع ذلك يحفظون عليـــه كرامته ويتحاشون اهانته . لكنه يكون بذلك قد قدم عن نفســـه فكـــرة سيئة بحيث لا يستطيع أن يأمل فى المستقبل الا فى نجاح متواضع .

ومن المستطاع ممارسة التعليم فى مسجد آخر بخلاف الجامع الازهر، ويكفى الطالب فى هذه الحالة الحصول على موافقة شيخ الأزهر الذى يحدد له المكان الذى ينبغى ان يدرس فيه .

وعندما يتقدم عديد من المرشحين للحصول على مقعد فى الجامع الكبير وعندما لم يكن ثمة الا مقعد واحد شـــاغر فمن حق شيخ الأزهر أن يعطيه للشخص الذى يراه صالحا ، فهذا المركز ليس عرضة للتنافس ، ومن ناحية اخرى فليس للمدرس من لقب آخر سوى الشيخ أو المعلم وليس ثمة اى تمييز طبقىٰ أو تفضيل مسبق بينهم . فعمق معرفتهم ، وسنهم وفضائلهم هى التى تحدد أوضاعهم . ويحمل الشبان تقديرا كبـــيرا لأولئك الذين علموهم

=

القدامى باختياره ، وهم يراعون ان يختاروا رجلا ناضجا مشهودا له بالعلم ويحظى برضاء الحكومة . والمرشح الذى يفوز بأكبر عدد من الاصـــوات يقدم أولا الى الشيخ البكرى وهو زعيم احفاد محمد فيخلع عليه جبة ويعينه فى وظيفته الجديدة ثم يقدم بعد ذلك الى شـــيخ البلد والى الباشا اللذين يخلعان عليه جبة كذلك . وليس هناك راتب مخصص لهذه الوظيفة ، لكنه منصب بالغ الجـــاه والشرف ، ويعطى صاحبه حق الاشراف على كل المدرسين . فاذا ما جرؤ احدهم على الاعلان عن مبادىء مناقضة لآراء محمد ، فان بمقدور شيخ الأزهر ان ينحيه عن العمل بالتدريس فى الجامع الكبير . لكن الاحـــترام الذى يكنه العلماء تقليديا لـــكل ما تعلموه نادرا ما يعرضهم لمثل هذا الموقف . اما المفتى فهو الشخص الذى يصدر الفتوى اى الرأى القانونى حول الأمور التى تعرض عليه ، ولكل مذهب مفت ، ومفتى الجامع الأزهر هو رئيس كل المفتين ويمكنه أن يناقض فتواهم ، وهذه الفتاوى ليست فى الواقع سوى آراء استشارية يحق للقاضى ان يأخذ بها او ينحيها جانبا حسب قوة الحجج التى تأسست عليها وحسب مكانة المفتى الذى اصدرها وعندما يموت مفتى احد المذاهب يتجمع علماء المذاهب الأخرى ليعينوا خلفا له ، ولكل مدينة من مدن مصر الرئيسية مفتيها الخاص بها .

وشكلوهم فيصغون اليهم باحترام ويتلقون آراءهم بل وتأنيبهم احيانا بكثير من الاذعان .

ويهمل المصريون المحدثون العلوم المتقنة بعكس أسلافهم، فالرياضيات لا تكاد تكون معروفة عندهم ، ويكتفى الفلكى هناك بتسجيل بعض الملاحظات عن طريق آلات ضخمة وعلى تحرير التقويم السنوى ، وفى نفس الوقت فعدد من يمتلكون مثل هذه المعارف ضئيل ، وليس ثمة فلكى شهير فى هذه الآونة الا شيخ واحد ، هو واضع التقويم الحالى وله بعض التلاميذ .

ولن نتحدث هنا لا عن النحت ولا عن الرسم ، فهما — فى مصر — لا يستحقان منا أدنى اهتمام ، لكن العمارة اكثر تطورا ، ومقارنة المنازل الحديثة بالمنازل القديمة توضح تقدما محسوسا فى أساليب البنائين احرزوه منذ عدة سنوات ، فالتوزيعات تتم بشكل جيد تسمح بمرور الهواء والمحافظة على رطوبة المبنى ، لكن الذوق والأناقة فى حكم النادر .

ويمكننا أن نعيب على المصريين المحدثين نفس ما يعيبه الاغريق على أحفادهم . فهم يتلفون كل شىء ولا يصلحون شيئا ، وهم يحيـــون فى حالة من عدم الانتظام والتباين ، لكن هذه العيوب لا تصدمهم مطلقا . ولقد تعلموا من العمال الفرنسيين فن صناعة الأحذية وأدوات المائدة الفضية والمجوهرات والمهاميز ؛ لكنهم لا يلقون بالا لا لجمال الشكل ولا لتناسقه ، وتطـــريزهم جيد لكنهم يبرعون على وجه الخصوص فى الفخار ، وكثير من الزهريات التى يصيغونها تحتفظ بالشكل القديم ، ويستخدمون فى المصانع والورش وسائل بالغة البساطة والاقتصاد ؛ سوف نتحدث عنها فى الفصل الأخير من هذا المؤلف .

٥

الأدب والشـــعر

معرفة أوربا بالأدب العربى معرفة بالغة الضآلة لدرجة لا تسمح بتكوين فكرة دقيقة عن ذلك العـــدد الكبير من الكتاب المشهورين الذين برعوا فى مختلف ضروب المعرفة . وباستثناء بعض العلماء المتخصصين فى الشرقيات

(المستشرقون) الذين ندين لمجهوداتهم بمعرفتنا لعديدمنمؤلفات هـــذه الشعوب فان عدد الأشخاص الذين هم فى حالة تسمح لهم بالحـكم على التراث الفكرى العربى ضئيل للغاية ، ومع ذلك فان العرب قد اثروا الشعر على الدوام ، وهو الفن الذى برعوا فيه اما النحو والبلاغة فقد قاموا فى دراســتهما بأبحاث عميقة(١) وكما هو الحال فى علوم الفقه والأخلاق ، اما مؤلفاتهم فى الطب والتاريخ والجغرافيا فتحظى اليوم بشهرة هى جديرة بهـــا(٢) . ولا ينبغى لنا أن ندهش من ان الشعراء العرب قد احرزوا هذا القدر من النجاح والتفوق فثراء اللغة العربية ودقتها وجمالها يؤدى الى تفوقها على كافة اللغات الشرقية ، ولكن فحيث أن مجال دراستنا هنـــا لا يسمح لنا بأن نتوسع كثيرا فى دراسة الأدب فسوف نكتفى بدراسة اللغة من حيث علاقاتها بتقاليد وعادات المصريـين .

يتناول هذه اللغة ، فى مختلف البلدان التى تستخدم فيها ، بعــض الاختلافات البسيطة سواء فى تركيباتها الدارجة او فى نطق بعض الحروف الهجائية ، ويعدل سكان القاهرة ، المشهود لهم بأنهم يتحدثون العربيـــة بكثير من الرقة من نطق كثير من الحروف الساكنة ليجعلوها مخالفة للشكل الذى تلتفظ به فى سوريا والجزيرة العربية . ويتمثل هذا الاختلاف على وجه الخصوص فى الحروف : ح ، ق ، ج ، فحرف ج يلفظ فى كل مكان كما تلفظ الـــ g اللاتينية فى كلمة genou لكنها تلفظ فى مصر كما تلفـــظ الـــ g الفرنسية فى كلمات gain, guerre, garçon أما حرف ق التى تماثل عندنا K الحلقية فلا نكاد نراها تلفظ على لسان المصريين ولا نكاد نحن نحس باستخدامهم لها الا عن طرق نوع من التوقيف أو من الهـــوة

---

(١) يمكنك الرجوع فى هذا الصدد الى المؤلفات العديدة المكتوبة باللغة العربية والتى تمتلك المكتبة الملكية منها مجموعة ثمينة . وسوف تتبين أن العرب كانوا مشغولين على وجه الخصوص بنظرية اللغـــة وأن القواعد اصبحت عندهم علما يتطلب دراسة متخصصة .

(٢) أولئك الذين حازوا اكبر قدر من الشهرة فى أوربا من العلماء العرب هم : الحريرى ، الجوهرى ، الفيروزبادى ، ابن سينا الذى يعرف باسم Avicenne ، المكين المعروف باسم Elmacin ، ابـن خلدون ، ابن الفارض ، المتنبى ، ومن علماء الجغرافيا ، ابن حوقل ، أبو الفداء ، المقريزى ، الادريسى .. الخ .

الناتجة عن تتابع حرفى عله يشكل كل منهما مقطعا صوتيا مستقلا : أولهما هو المقطع الصوتى السابق على الـ ق وثانيهما هو المقطع الذى تشكل الـ ق جزءا منه ، اما سكان الصعيد فيلفظونها بنفس الطريقة التى يلفظها البربر أى كما نلفظ نحن حرف الـ g فى كلمة gain (١) .

سبق لنا ان قلنا بأن العرب قد برعوا على الدوام فى الشعر ، ولا يزال الأمر كذلك حتى اليوم عند كل طبقات المجتمع ، اذ نجد رجال الطبقات الشعبية فى مصر ، بل وحتى الأطفال لديهم حساسية فائقة لهارمونية الايقاع ، ولتكرار نفس الحروف الساكنة (السجع) .

ولعمال المدن أغنيات خاصة تساعدهم على انجاز أعمالهم ، ومن خاصية هذه الاغنيات ضبط حركات العمال والتقليل من مشقة المجهود الذى يبذلونه . ومع ذلك فسوف نحطىء لو اننا تصورنا أن هذه الأغنيات الشعبية تراعى تلك القواعد الصارمة التى تحكم الشعر العربى(٢) ومن بين تلك

---

(١) بهذا يكون علينا ان نواجه ثلاث طرق لنطق هذا الحرف فى كلمة واحدة ، فكلمة بقرة على سبيل المثال يلفظها السوريون بقرة ، ويلفظها سكان مصر السفلى بأرة، أما سكان الصعيد والبربر فيلفظونها : بجرة .

(٢) تخضع موازين الشعر لقواعد بالغة التعقيد اذا ما قارناها بتلك التى تحكم كل أنواع الشعر المعروف ، اذ هى لا تحتم فقط نفس القافية والايقاع وانقسام البيت الى شطرين مثل الشعر الفرنسى ، بل هى تحتم كذلك عددا من التفعيلات بشكل يماثل العروض اللاتينى على وجه التقريب .

ويوجد فى اللغة العربية ١٦ نمطا أو مقياسا . ويحمل كل واحد من هذه المقاييس اسم بحر ، تصريفاته مأخوذة ـ شأنها شأن كل الصيغ النحوية الأخرى ـ من الفعل العربى : فعل ، وعلينا ان نقيس الأبيات التى نؤلفها على هذه التصريفات . والشطر يسمى مصراعا وكل مصراعين يشكلان بيتا ، ويقطع البيت الى أجزاء . ونقدم هنا تصريفات الـ ١٦ بحرا للشعر العربى مع بيان الأسماء الخاصة التى تطلق عليها وبعضها أكثر انتشارا من غيره كما أنها تختلف فيما بينها من ناحية شدة أو قلة السرعة .

١ ـ بحر الطويل : فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن .
٢ ـ بحر المديد : فاعلاتن فاعلن فاعلاتن فاعلن .
٣ ـ بحر البسيط : مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن .
٤ ـ بحر الوافر : مفاعلتن (ست مرات) .

التكوينات البالغة الجمال فى اللغة العربية نشير الى الموال ، وهى الاغنية

---

٥ ــ بحر الكامل : متفاعلن (ست مرات) .

٦ ــ بحر الهزج : مفاعلين (ست مرات) .

٧ ــ بحر الرجز : مستفعلن (ست مرات) .

٨ ــ بحر الرمل : فاعلاتن (ست مرات) .

٩ ــ بحر السريع : مستفعلن مستفعلن مفعولات (مرتين) .

١٠ــ بحر المنسرح (او المسترسل) : مستفعلن مفعولات مستفعلن (مرتين) .

١١ــ بحر الخفيف : فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن (مرتين) .

١٢ــ بحر المضارع : ويسمى هكذا بسبب تشابه اوزانه مع بحر المنسرح : مفاعلين فاعلاتن مفاعلين (مرتين) .

١٣ــ بحر المقتضب : مفعولات مستفعلن مستفعلن (مرتين) .

١٤ــ بحر المجتث : مستفعلن فاعلاتن فاعلاتن .

ويرى النقاد ان هذا البحر قد يسمى هكذا اما لان الشعراء لا يستخدمونه الا مع حذف فاعلاتن الأخيرة من كل مصراع . واما لانه بعد اختصاره على هذا النحو يبدو كما لو كان مشتقا من بحر الخفيف اذا ما حذفنا فاعلاتن الأولى من كل من مصراعيه . ونفس الشىء بالنسبة لبحر المقتضب ، فاسمه هذا يعود الى ان كل واحدة من مصراعيه عادة تفقد مستفعلن الأخيرة فيها فيبدو عندئذ وكأنه من بحر المنسرح بعد ان شطرنا مستفعلن الأولى فى مصراعيه .

١٥ ــ بحر المتقارب ، وسمى هكذا بسبب تقاربه واختصار الزواحف التى تكونه : فعولن (٨ مرات) .

١٦ ــ بحر المتدارك ، اى الذى يلى البحور الاخرى ، ويسمى هكذا لأنه البحر الأخير فى النظام الذى اخذ به العرب : فاعلن (٨ مرات) .

ولا يحظى البحر الأخير بقبول معظم النحويين الذين لا يعترفون الا بـ ١٥ بحرا .

تلك هى البحور الـ ١٦ التى تنتظم الشعر العربى . واذا كانت هذه الانماط المبدئية قد طبقت بصرامة فى البداية ، فان كل واحد من هذه البحور البدائية قد تناوله عدد كبير من التعديلات كان ينظر اليها فى البداية كنوع من الاستثناءات الشعرية لكن كثرة اللجوء اليها قد ادى الى تثبيتها حتى اصبح عدد هذه الاستثناءات الشعرية المباحة يماثل عدد البحور المنتظمة بل لقد شغلت مكان عدة بحور لم يستعمل قياسها الأول على الاطلاق فى كامل تمامه .

المفضلة لدى الجنس اللطيف فى مصر والذى يقـارب الـ Romance عندنا . والموال اما قصير واما طويل وموضوعاته على الدوام هى مباهج الحب ، والشكوى من الحبيب الذى خان او الذى هجر ، وتصوير جمال المحبوب ، ورسالة حب بين عاشقين ولواعج الغياب .. وعندما يغنى هذا الشعر بنغمة خفيفة متهدجة مثيرة للعاطفة فالأمر يستدعى نوعا من المـد والاسترسال . لذا فمثل هذه الاغنيات من اجمل مباهج ومسرات الحريم ، وما ان يؤلف موال جديد حتى تتكفل العوالم والآلاتية على الفور باذاعتـه، ليستقر بين النساء المصريات اذ يتسابقن على حفظه والتغنى به .

= وتسـمى كلمات التعريف الثمانى التى تشكل مختلف البحور ، وهى : فاعلاتن ، فاعلن ، مفاعيلن ، فعولن ، مفعولات ، متفاعلن ، مفاعلتن ، مستفعلن ، تسمى هذه الكلمات اجزاء البحر ، والمفرد جزء .

كما يشـار الى المجموعات المختلفة من الحروف والحركات التى يتكون منها كل جزء باسم اسباب (حبال) واوتاد،وعندما يوجد حرفان اولهما متحرك والثانى ساكن مثل : هل ، لا ، قم ، فانهما يشكلان سببا خفيفا ، اما اذا كان الحرفان متحركين ، وينقسمان نتيجة لذلك الى مقطعين صوتيين مثل : هو ، لك ، فانهما يشكلان سببا ثقيلا . والأوتاد الاركان هى ايضـا من نوعين: وتد مجموع، وهو مجموعة تتكون من حرفين متحركين بعـدهما حـرف ساكن، مثل: لَهَا، لَقَدْ. وتد مفروق، وهو عبارة عن مجموعة مكونة من حرف ساكن يقع بين حرفين متحركين مثل: قلت، صار. والجزء الأخير من المصراع الأول يشار إليه باسم عروض بينما يشار إلى الجزء الأخير من البيت بـاسم: ضرب ويسمى حضوا كل الأجزاء الأخرى من البحر. ويطلق اسم صدر على الجزء الأول من البيت، وابتداء على الجزء الأول من المصراع الثانى. إذن فكلمة حشو تشير إلى أجزاء البيت التى ليست لا العروض ولا الضرب ولا الصدر ولا الابتداء.

وتبعا للتعديلات المختلفة التى اباحها العرب وادخلوها على القيـاس وسموها باسم زحاف او علل ، يمكننا ان نعد بالنسبة للبحور السـتة عشر ٣٦ عروضاً و ٦٧ ضرباً مختلفة .

ويعنى علم العروض بمعرفة هذه الأنماط الاولية والتفريق بينها ، ولكى نعرض الامر كما ينبغى فان ذلك يستلزم مؤلفا كاملا ، لكن حدود هـذا الهامش البسيط لا تسمح لنا بقول المزيد .

(هذا الهامش عن الشعر العربى تقدمه لنا السيد عجوب) = (وهو جوزيف عجوب وكان مترجما للحملة ووضع اول قاموس فرنسى ـــ عربى).

ويضم الموال فقرة واحدة تتكون من خمسة ابيات أو اربعة فى حالات كثيرة . وتتراوح اوزان هذه البيوت من ٨ — ١٢ مقطعا او ١٤ مقطعا فى بعض الأحيـــان ، وينبغى أن يكون لكل ابيات المـــوال نفس الوزن ونفس القافية فيما عدا البيت الرابع فى الموال الذى يتكون من اربعة أبيات .

ويكاد يكون هذا البيت قبل الأخير بلا قافية ، ونادرا ما يكون بحره هو نفس بحـــور البيوت الأخرى للموال ، فاذا ما حدث احيـــانا وكانت له نفس القافيـــة فان ذلك لا يتم الا فى حـــالة الموال الذى يتكون من اربعـــة ابيـــات .

ويحدث أحيانا ان نستخدم نفس الكلمة كقافية فى كل ابيات الموال ، لكن ينبغى أن يكون لها معنى مختلف فى كل واحد من هذه الأبيـــات ، ولدينا عند بعض شـــعرائنا امثلة لهذه القـــوافى ذات الجناس الواحـــد والمعنى المختلف . ونكتفى بأن نورد هنا هذين البيتين للشـاعر بوالو :

Prends-moi le bon Parti : Laisse - Là tous tes livres.

Cent francs au dernier Cinq. Combien Font-ils ? Vingt livres?(*)

ومن المعروف ان اللغـــة العربية تضم عـــددا كبيرا من مثل هـــذه التجانسات فى المعنى ولكن حيث ان الموال ابعد من ان يخضـــع لصرامة القواعد التى تحكم الشعر العربى الفصيح ، فان الشعراء لا يكلفون انفسهم عناء تحمل هذه الصرامة . فيستخدمون نفس الكلمة المأخـــوذة على نفس المعنى ، عدة مرات كقافية . وينظر لهذا الاستثناء الشعرى باعتباره كسرا لقواعد الشـــعر .

وفيما يلى مثال لموال من خمسنة ابيات :

(*) فى البيت الاول كلمة livres تعنى : كتب وفى الثانى تعنى جنيهات .

(المترجم) .

الاهيف اللى تمنـــاه القليب ودعـــاه
فى موقف الذل خلا العاشقين ودعاه
كمن قلت للعين كفى عنهواه ودعاه
كمن له قلب قاسى لم رحم عاشـــق
ولا يخاف من أنينه فى الدجى ودعاه

والأبيات الآتية مثال على موال مكون من أربعة أبيات :

يا غربتى فى بلاد النـــــاس ذلتنى
يا كلمة النـــدل شـــالتنى وحطتنى
يا دمعتى نزلت على خـــدى حرقتنى
يا حصرتى راحـــت رفاقى وخلتنى

وفيما يلى ترجمة لأبيات موال الف خصيصا لامتداح مقياس جزيرة الروضة كما قدمها لنا السيد عجوب :

« اعجبوا لجمال المقياس ، وبالفن الذى بنى به . لا يوجد فى ايامنا هذه ما يمكنه أن يضارع هذا البناء ، ولا تستطيع القرون الآتية ان تقـــدم شيئا يماثله . لقد بناه مهندس نابه ذكى ، شديد العلم ، واظهر فيه كل روعة فنه ، وسوف يضيع أمهر الفنانين وقتهم سدى لو حاولوا تقليد جماله . انه مقياس مفيد ، كان مفيدا وسيظل مفيدا على مدار التسنين ، طوله ٢١ ذراعا ، وعندما تبلغ المياه الذراع الـــ ١٦ تغرق مياه الفيضان فى ارض الريف »(*) .

(*) اكتفيت بالترجمة لعدم امكان الوصول الى النص الأصلى .
(المترجم) .

الفصل الثالث

عن الإنسان المصري في طور الرجولة
العادات المدنية والأسرية

١

عن الزواج

الزواج فى مصر هو عقد اتفاق خاص لا يحتاج الى تصديق دينى او قانوني . اذ يتمثل فقط فى الارادة التي يعبر عنها الطرفان المتعاقدان، وتكفى موافقتهما المتبادلة ليكون هذا الزواج مشروعا . وتعطى المراة موافقتها بنفسها او من خلال وكيل وفى هذه الحالة يذهب الشخص الذى يمثلها الى الزوج المقبل ليتسلم المهر ويقول له فى حضور شاهدين : زوجتك ويجيب الآخر : قبلت . ويتم الزواج هكذا بدون اية اجراءات رسمية اخرى .

ولا تقدم الزوجة الجديدة مهرا (دوطة) لزوجها ، وفى بعض الاحيان تتلقى هى هدية من والدها ، ولكن هذه الهدية تطوع منه وليس من حقها ان تفرضها عليه ، ويحدث فى أحيان اخرى الا يكون للزوجة من مهر الا ما يقدمه الزوج ، فالشريعة تحتم على الزوج تقديم مهر لزوجته ، وتختلف قيمته باختلاف المذاهب ، فيحتم احدها الا يقل المهر عن عشرة دراهم اى حوالى ١٨٠ بارة . ويكتفى مذهب آخر بمجرد أن يكون ثمة مهر حتى ولو كان المهر لا يتجاوز دبلة من الحديد . ومع ذلك فلا يفوت اهالى الزوجة أن يقدموا اليها هدايا تتناسب مع ثروتهم تتمثل فى مجوهرات وملابس ، لكنها لا تعطى مطلقا عقارات زراعية . وفى حالة ما اذا كان المهر لم يتم تحديده قبل اليوم المحدد للزواج — وهذا شىء نادر الحدوث — فيحدد المهر طبقا لمهر ام العروس أو واحدة من اقرب قريباتها . والمهر الذى يقدم للزوجات عن طريق ازواجهن عماد اساسى من عمد الزواج ، وهو حق مطلق لهن ، وسوف تتضح لنا فيما بعد أهميته .

ويحرص الكبار وافراد الطبقة الثرية على ان يتخذوا شهودا على زواجهم من بين رجال الشرع الذين يكتبون عقد الزواج ويودعونه عند الكاتب العمومى . اما الفلاحون فيكتفون بتسجيل زيجاتهم عند قاضي الولاية ، أما

سكان المـــدن فيهملون كل اشـــكال الرســـميات وتتم الزيجات بينهم دون اتفاقات مكتوبة .

ولا يستطيع المسلم ان يتزوج لا ابنته ولا اخته ولا بنت اخيه أو بنت اخته ولا بنت زوجته ولا اخته فى الرضاعة بل ولا اخت زوجته الا اذا كانت زوجته قد ماتت أو كان قد انفصل عنها . وبخلاف ذلك يسمح له بالزواج من بقية درجات القربى الأخرى .

ولا يعترض الدين على ارتباط المسلم بزوجة من ديانة اخرى : مسيحية او يهودية ، وقد سمح محمد بهذه الزيجات لأنه يعترف بموسى والمسيح نبيين ورسولين من عند الله ، لكنه لم يســـمح مطلقا باتخاذ زوجات من عقـــائد اخرى خلاف ذلك ، بل ليس ثمة سوى امثلة محدودة لمسلمين قد استفادوا من هذا التفويض من جانب الشرع . وينشأ الأطفال الذين يولدون من زيجات كهذه على دين محمد ولا ترث الزوجة فى هذه الحالة عن زوجها ما لم تكن ثمة وصية ، ويمكن للزوج أن يقدم لها جزءا من ثروته كهبة اختيارية .

وتزويج الأبناء قبل سن البلوغ حق مطلق يتمتع به أرباب العائلات بل ان موافقة الأبنـــاء أنفسهم لا ضرورة لها وليس بامكانهم ان يفـــكوا — عن طريق الطلاق — وثاقا عقد على هذا النحو ، ولكن اذا كان الابناء بالغين فان موافقتهم لا غنى عنها ، لكنهم يقرون اختيار اهاليهم فى معظم الأحيان ذلك أن الجنسين على الدوام — حيث لا وســـيلة للاتصـــال بينهما — لن يستطيعا اقامة زواج على اساس من الاختيار أو العاطفة المتبادلة ، وفى نفس الوقت فليس مسموحا لزوج بأن يقرب زوجته الا بعد بلوغها السن الذى حددته الطبيعة للبلوغ حيث تصبح قادرة على الانجاب ، فيبقى الأب ابنته لديه حتى تبلغ سن الخامسة عشرة لكن حقوقه هذه تتوقف عند بلوغهـــا هذه السن ، ويحظى الأب بالتقدير عادة اذا ما اعترض على اتمام زواج لم يحن بعد أوانه . وينبغى أن نلاحـــظ ان والد الزوج لا يقيم اعتراضـــات من هذا النوع اذا ما وافق والد الزوجة على ان تذهب على الفور الى احضان زوجها ، ولا تقيم أسرة الزوج أية عقبـــات تحـــول دون اتصـــال الزوجين ولكن يندر أن نجد فى أوساط الطبقة الدنيا زيجات تتم قبل الوقت المناسب.

ويحـــدث كثيرا الا يكون الزوج الشـــاب قد راى من قبل المراة التى

تزوجها ، ولم تكن لديه بالتالى فكرة عن جمالهـــا وكفاءتها الا عن طـــريق واحدة من تريباته او صديقات اسرته لذلك فان الليلة الاولى للزفاف لا يكون لها من نتيجة الا القطيعة التامة لتذهب الزوجة غاضبة الى بيت ابيها . ومع ذلك ، فانه اذا ما الح رجل فى أن يرى تلك التى يعرضون عليـــه الزواج منها فان الشريعة تبيح ان تكشف الفتاة عن وجهها ويديها امامه . ولا يمكن ان يتم هذا الا فى حضور اهلها وفى الفترة التى قارب الزواج فيها مرحلة التمام . وعلى الرغم من هذا فنادرا ما يلح احدهم فى ذلك مطلقا حيث ان العادات المتبعة تعارضـه . ومن بين الأسباب التى تؤدى الى زواج مبتسر كهذا خوف الآباء من استسلام ابنائهم الى ملاذ مهلكة للصحة تحت ضغوط من شهواتهم .

ويمكن للمسلم ان يتزوج من اربع زوجات شرعيات بالاضـــافة لأى عدد من الاماء يستطيع اطعامه ، ومع ذلك فحيث ان عليه كما سبق القول ان يوفر لهن جميعا حياة طيبة ، بالاضافة الى ما ينشده المرء من سعادة وهناء عائلى ، فان المسلمين من كافة الطبقات يحرصون على الا يفيدوا من هذه الرخصة التى اباحتها الشريعة الا باعتدال بالغ . وليس لكبار الشخصيات فى العادة الا زوجة شرعية واحدة ، وقد تدفع احدهم الرغبة فى انجاب الأطفال او فى الحصول على مصاهرة ممتازة الى الحصول على زوجـــة ثانيـــة . وعلى الشخص المتزوج من اكثر من زوجة ان ينـــام فى مسكن كل واحدة من زوجاته بالتبادل ، أما اذا تصرف بطريقة مخالفة فسوف يلام على سلوكه علنا فتفضيل زوجة على الأخريات ينظر اليه كأمر ظالم لا يسمح به لانفسهم اولئك الحريصون على هنائهم العائلى والذين تسيرهم مشاعرهم الرقيقة . وعندما لا تكون الزوجات فى حالة وفاق فيما بينهن — وهـــذا هو الأمر الشائع — فان الزوج ملزم بتخصيص منزل لأية واحدة منهن تطلب ذلك ولا يستطيع الرجل ان ينجح فى الاحتفاظ بعدة زوجات فى منزل واحد الا بقوة الارادة وبالصبر والكرم او بطريق العنف والاستبداد .

وتعدد الزوجات اكثر شيوعا بين الطبقات الشعبية . وهم يسيئون كذلك اســـتغلال سهولة ايقـــاع الطلاق بزوجاتهم حيث ان الأمر لن يكلفهم الا مهرا بالغ الضآلة ، وحيث انهم — بسبب تلك الغلظة فى طباعهم — ينظرون للمراة كمخلوق ناقص غير جدير بالاحترام .

ويتم الاحتفال الذى نصح به محمد لاعلان حدث بهذه الأهمية فى منزل والد الزوجة ، لكن الوقت لم يكن قد حان بعد كى يستطيع الزوج أن يرى زوجته الا اذا كان الاثنان قد بلغا سن الرشد ، وتنقضى الأيام التى تسبق الارتبـاط فى افراح عنـد الأسرتين فيدعى الرجال الى منزل والـد الزوج وتدعى النساء الى منزل والد الزوجة ، وتقضى الزوجة يوما فى الحمام ، وتذهب الى هناك فى صحبة قريباتها وصديقاتها ، يغطيها تماما قناع كبير وزين رأسها تاج وتسير تحت هودج تسبقه عالمة وفرقة من الموسيقيين . وتجعل اصوات الآلات الموسيقية واغنيات العرس وصيحات الفـرح التى تطلقها السيدات (الزغاريد) اللائى يشكلن الموكب — كل ذلك يجعل من ذلك الموكب مسيرة صاخبة مليئة بالحيوية ، وعندما يصل الموكب فى نهاية المطاف الى الحمام ، فان العروس تستعرض على صاحباتها حليها ، فتملأ المباخر بالبخور الطيب الرائحة ، وتراق العطور الغالية بسـخاء ويذخ وتكشف صـاحبات العروس عن أجمل زينتهن ، وينقضى اليـوم فى مرح بهيج وتقدم الاماء أو خادمات الحمام القهوة والشربات والفطائر والحلوى ثم يعود موكب العروس الى بيت ابيها بنفس الطريقة التى ذهب بهـا الى الحمـام(١) .

---

(١) حيث ان فخامة وأبهة حفلات الزفاف تختلفان تبعـا لدرجة ثراء الزوج فقد اكتفينا فى المتن بأن نقدم فكرة عامة لكننا فى هذا الهامش سوف نـدخل فى بعض التفاصيل الدقيقة حتى لا نهمل شيئاً يمكنـه أن يحدد خاصية عادات مختلف الطبقات الاسلامية فى مصر .

فى اثناء التوجـه الى الحمـام تتحجب كل السـيدات فى الموكب وكذا العروس ، وتحمل العروس فى بعض الأحيان على رأسها وعاء مغطى بشال من الكشمير يتدلى من كل الجهات ويغطى الوجه تماما ويكون الشال مزدانا بالكثير من الجوهرات والأحجار الكريمة التى استعارتها الزوجة ان لم تكن تملكها هى نفسها . وحتى يكون الشال اكثر بريقـا فانه يغطى من الأمام بورقة طويلة من الذهب . وبرغم أن الشال يتدلى حتى القدمين تقريبـا فاننا نستطيع أن نلمح من خلال الفتحات التى يكشف عنها عن ملابس الزوجة البالغة البذخ والمطرزة بخيوط الفضة والذهب . وترتدى الزوجة خفين من جلد الماعز الأصفر ونعلا مطرزا وهى لا تكشف مطلقا عن يديها . ويسـمح شكل ملابسها بأن نكون فكرة عن قامتها ودرجة سمنتها . وهى تسير تحت هودج تغطيه ناموسية من الكريشـة المصـبوغة باللونين الأخضر والأحمر ويحمله الأصدقاء أو الأقارب من أركانه الأربعة . وعندما يحتفل احد المماليك

=

ولا يفوت الزوج بدوره أن يذهب الى الحمام العـــام ـــ وهذه عادة يتبعهـــا الاثرياء على الدوام حتى عنـــدما يكون لديهم فى منازلهم حماماتهم

=

بزواجه على هذا النحو فان المماليك هم الذين يحملون اركان الهودج ويسير مع العروس تحت الهودج اثنتان من خيرة صديقاتها مزينتان بأغلى الحلى وتسير خلفها امها ، ويتقدم المسيرة رجال يحملون الدفوف وبعدهم خادم يسير امام الهودج حاملا على راســـه طبقا من الفضـــة أو النحاس المحلى بالذهب مغطى بقطعة من الحرير المطرز . ويحتوى هذا الوعاء على زوج من الأحذية الخشبية (القبقاب) المزدان بشريط من الفضة ، ويحتوى كذلك على مشط من العاج محلى بالفضة كذلك ، وقمعين صنوبين من السكر ناصع البياض وشمعتين بيضاويتين ومنديلين من الموسلين المطرز بالفضة ، وأخيرا على رطلين (الرطل = ١٨٠ درهم ويساوى تقريبا نصف كيلو جرام ونصف الجرام ، ١٠٠ رطل = ٥٥ كيلو جرام) من البن احدهما مغلف بشكل مختلف عن الآخر ويضم الموكب فتيات ومدعوات يصل عددهن الى ٢٠ ، ٣٠ ، أو ٦٠ سيدة .

ويلاحظ فى حفلات زفاف الطبقة الدنيا وجود نفس العادات مع تعديلات طفيفة . فبدلا من المجوهرات والأحجار الكريمة التى تزين الشـــال الذى يتدلى حول العروس ، يرصع الشال بكمية كبيرة من النقود الفضية ، ويحمل رجال من العامة أطراف الهودج الذى يسبقه بعض العبيد يرتدون ملابس على نمط القسطنطينية وموسيقيون يركبون الحمير ويقوم رجل يسير بالقرب من العروس برشها من آن لآخر بماء العطر بينما تقفل المســـيرة جمهرة من النساء ينشدن الأغانى التى تنشد عادة فى مناسبات العرس .

وخارج مدينة الاسكندرية شاهدنا عروسا بدوية كانوا يتجولون بها ، وكانت تركب فوق جمل ، وتصحبها الماشية والاثاثات وكل الأشـــياء التى تلقتها كمهر ، وكان الموكب بطيئا ، بل كان أحيانا يتوقف وقفات قصيرة . وكان البدو يطلقون الأعيرة النارية من بنادقهم كما كانوا يعزفون الموسيقى بينما يواصل النساء غناءهن بلا انقطاع .

وجدير بالذكر ان هذه الاحتفالات التى تتم خارج البيت والتى عرضـــنا للتو تفاصيلها لا يمارسها البكوات وكبار الشخصيات بالقاهرة ، ذلك أن احتفالات العرس عند هؤلاء تتم داخل البيوت ، كما أن المشايخ وبقيـــة المسلمين الذين حصـــلوا على قدر كبير من التعليم قد هجروا بالمثل عادة تقديم الدليل على بكارة زوجاتهن للأقارب والأصدقاء باعتبار ذلك شـــيئا يخدش الحشمة .

اما عامة الشعب والأقباط فانهم وحدهم الذين ما يزالون يمارسون هذا السلوك .

الخاصة . وهو يقوم بابلاغ رغبته فى ذلك الى اسطى الحمام عشية اليوم الذى يرغب أن يذهب فيه الى هناك ، فيسارع العمال بتجهيز الحمام بطريقة لائقة ويزينونه بالورود فى حالة السيدات أما فى حالة الرجال فيكتفى باحراق البخور فيه وفى نفس الوقت يكون العريس قد دعا ١٥ — ٢٠ من أصدقائه ليصحبوه ، وبعد أن يدخلوا صالة الحمام لا يقبل دخول اشخاص آخرين . وهم فى الغالب يحضرون معهم بياضاتهم واغطيتهم وفوطهم ، كما يجلبون معهم عازفين للترفيه عنهم . ويأتى مدير الحمام نفسه لاستقبال الجميع ويقود العريس الى الحمام وينسحب ليأتى بعد قليل حاملا الأرجيلة وعندما ينتهى العريس من حمامه يقوده مدير الحمام مرة أخرى الى الحجرة الأولى . وفى اليوم الأول الذى يمضيه هؤلاء فى الحمام لا يأكلون شيئا ، ويحصل مدير الحمام من العريس على ٦٠٠ — ١٠٠٠ ، وأحيانا الفين من البارات حسب درجة ثرائه .

ويؤدى الأثرياء حفلة الحمام هذه مرتين .

وأخيرا يحل اليوم الكبير حيث ينبغى أن تذهب الزوجة الى بيت زوجها ، ويأتى الأب أو واحد من أصدقائه ليأخذها من بيتها ويسير خلفها موكب لا يقل روعة عن موكبها الى الحمام ، وتسير العروس تحت هودج وتغطى طيلة الطريق بقناع لا يكشف شيئا ويسير أمامها العبيد حاملين مجوهراتها وملابسها فى سلال مزدانة ، لكنها لا تتوجه مباشرة الى منزل زوجها ، بل تقوم بجولة طويلة زيادة فى الأبهة ، وعندما تصل الى بيت الزوجية ، يحتفل بقدومها باقامة وجبة باذخة فى مسكن النساء ولا يكون الزوج من بين المدعوين اذ هو يتوجه فى المساء الى المسجد للصلاة ، يصحبه أقاربه وأصدقاؤه وتسبقه جوقة من الموسيقيين ، وعند عودته الى بيته تقدم القهوة والشربات ثم يدخل حجرة العروس وتنسحب بقية السيدات فيما عدا القابلة والبلانة ويقترب الزوج من زوجته المغطاة بنقابها ويسمى باسم الله ، اله محمد ، بينما قلبه يدق خوفا وأملا وعندئذ تنسحب بدورهما السيدتان الغريبتان وعندما تصبح الزوجة بمفردها مع زوجها فانها تقدم له العسل والفطائر وماكولات أخرى على هذه الشاكلة رمزا معبرا عن العاطفة والمودة التى هى حق لكل منهما على الآخر والتى هى الضمانة الأكثر وثوقا لكفالة حياة عائلية هانئة .

وتتلقى الزوجة ثلثى مهرها عند دخولها الى منزل الزوجية ، ويكون هذا المبلغ ملكا خاصا بها وهى تستطيع أن تتصرف فيه على النحـــو الذى يعجبها ولا يمكن للزوج أن يحاسبها عليه مطلقا ، بل ليس له مجرد الحق فى مناقشـــتها فى أمره .

ويحسن بنا هنا ان نلاحظ بأننا سوف نكون قد اخطأنا على نحو كبير اذا ما اعتقدنا أن المســلمات ــ برغم خضوعهن لنفوذ أزواجهن ــ يمكن ان يعاملن باســـتبداد وطغيان من قبل أزواجهن فان وضعهن على العكس من ذلك طيب لحد كبير ، كما انهن فى نفس الوقت الذى تقضى فيه التقاليد والقوانين عليهن بنوع من الانسحاب والتقوقع الدائم ــ يتوصلن لامتلاك نفوذ لا شك فيه على عقول أزواجهن كما ان هؤلاء لا يستطيعون مطلقا ان يسيئوا معاملتهن بل ولا حتى ان ينهروهن بحدة اذ للزوجة فى هذه الحالة او تلك ان تطلب الانفصال وتعود الى بيت أبيها .

ويتكفل الأهل بتعليم الزوجة واجباتها وحقوقها الزوجية ، ولا يتدخل لأزواج مطلقا فى الأمر ، ويتم ذلك عادة قبل الزواج . وهكذا تعمل عادات واصول اللياقة على التخفيف لحد ما من تزمت تلك الولاية المســـتبدة التى تعطيهـــا الشريعة للرجال على زوجاتهم . ومع ذلك فالنساء ســـعيدات بقدرهن ، ولا يمكن لهن أن يتصورن مجرد تصـــور ، كيف يمكن أن تكون نساء الغرب ، فى حالة أكثر امتيازا مما هن عليه .

٢

الانفصـــال والطلاق

جعلت الشريعة الاسلامية من الطلاق امرا بالغ السهولة اذ يكفى ان يقول الرجل لزوجته : أنت طالق ــ حتى يكون الطـــلاق قد وقع دون ان يكون القاضى فى حاجة لأن يتدخل فى الأمر او ان يقف على دوافع هـــذا الطلاق . وهنا تتســـلم الزوجة الباقى من مهرها وتحمل معها مجوهراتها وبقية متعلقاتها وتنسحب من بيت الزوجية . وقد حدد محمد الأمر على النحو التالى فى القرآن : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بانفسهن اربعة اشهر وعشرا فاذا بلغن اجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى انفسهن

بالمعروف»[1] «لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين . وان طلقتموهن من قبل ان تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم الا ان يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم»[2]. وحسب أوامر المشرع هذه ، فان الزوج اذا ما طلق زوجته فى اليوم الأول لزواجهما دون ان يباشرها — وهذا امر يحدث فى بعض الأحيان — فليس ينبغى عليه أن يدفع لها الا نصف مهرها ، أما اذا ما حدث لزوج طلق زوجته أن استعادها مرة اخرى وكرر الزواج والانفصال ليبلغ عدد مرات ذلك ثلاثا مع نفس المراة ، فانه لا يستطيع ان يتخذ منها بعد ذلك زوجة شرعية ، الا اذا مرت قبل ذلك بأحضان رجل آخر . وقد يبدو هذا التشدد من جانب المشرع للوهلة الأولى همجيا أو باعثا على الضحك ومع ذلك فاننا نجد فيه فكرة عميقة ومعرفة عظيمة بنفوس البشر ، فبوضع الزوج هكذا عرضة لنوازع الغيرة — وهى عاطفة بالغة العنف عند الشرقيين — فسوف يكون عليه ان يتروى ولا يستجيب ببساطة لابسط مشاعر الغضب فيقرر هكذا ببساطة وبمثل هذه السرعة الفائقة طلاقا ظالما فى معظم الأحيان ، سوف يتحمل هو قبل غيره عواقبه القاسية اذا ما عاد به الندم والعاطفة ذات يوم الى مشاعر ارق . ولهذا السبب فقد حدث اكثر من مرة أن قام الزوج المطلق — وهو يتحسر على جمال وفضائل زوجته فى الوقت الذى يريد فيه ان يذعن لأحكام الشرع — بدعوة احد اصدقائه الى اتخاذ طليقته — هو — زوجة له ، ويتفق مع هذا الصديق على ان يقوم بتطليقها دون أن يقربها فى فترة هذا الزواج القصير المدى ، ومع ذلك فينبغى أن يظل هذا الاتفاق سرا على الناس جميعا بخلاف الأطراف الثلاثة المعنية ، ويتحتم على وجه الخصوص ان يكون ثمة ثقة تامة فى الزوجة لأنها هى التى سوف تلعب الدور الرئيسى فى مثل هذا التواطؤ الغريب . ومع ذلك فقد حدث فى بعض الأحيان ان نسى مثل هذا الصديق — بعد ان اخذه جمال عروسه تلك — نفسه لدرجة يخون معها ما بينه وبين صديقه الغيور من ثقة وصداقة بل ويحتفظ بتلك الزوجة التى كان عليه فقط أن يتظاهر بالزواج منها .

وحيث ان محمدا قد تنبأ بأن الطلاق يمكن ان يقع بسبب تافه كمجرد نفور طارىء ، فقد نصح الزوج المطلق — حتى يتجنب بقدر الامكان

(١) القرآن الكريم. آية ٢٣٤ البقرة. (المترجم).

(٢) القرآن الكريم. ٢٣٦ - ٢٣٧ البقرة. (المترجم).

مثل هذه المأساة العائلية ــ بأن يبقيها فى بيته مدة ثلاثة اشهر على أمل أن يؤدى إعمال الفكر او تؤدى بعض المجاملات المتبادلة الى اعادة الود بينهما قبل انقضاء هذه المهلة ، وبرغم الحكمة البادية فى مثل هذا الأمر فانه نادرا ما يحدث ، اذ من المعتاد فى القاهرة ان تخرج المراة من بيت زوجها بمجرد ان يتم طلاقها منه . ويمكن للمطلقة ان تتزوج بعد مضى ثلاثة اشــهر من انفصالها اى بعد أن تأتيها عادة النساء الشهرية ثلاث مرات ، ويعتبر اعلانها هى للأمر كافيا ، فاذا ما حدث ووجدت نفسها حاملا فى هــذه الفترة فان الأب المطلق لا يمكنه أن يطلب طفله الى حضـــانته الا بعــد ان يبلغ من العمر ٧ سنوات بالنسبة للذكور ، اما بالنسبة للاناث فانه لا يستطيع ان يطلبها الى حضانته الا بعد أن تصل الى سن البلوغ ، وفى نفس الوقت ، فانه ــ الأب المطلق ــ ملزم بأن يدفع مصـــاريف رعاية واطعــام وتعليم الوليد مهما كان جنســـه .

وقد يحدث ان تنتقل الأم الى بيت زوج جديد ، وفى هذه الحالة تعهــد بوليدها الى رعاية جدته او واحدة من اقرب قريباتها فتاة كانت أو ارملة ولا يمكن للأب ان يســترد طفله الا فى حالة ما اذا لم يكن لزوجته اسرة ، ونادرا ما يحــدث ذلك(١) .

والزنا هو اخطــر اتهام يمكن ان يوجهـــه زوج الى زوجتـــه ، لكن

---

(١) نضيف الى هذا العرض لقواعد الطلاق ان الرجل اذا ما طلق زوجته قبل أن يختلى بها فانه ليس ملزما نحوها الا بنصف المهر ولكن لو حدثت خلوة بينهما ولو مرة واحدة فهو ملزم قبلها بدفع المهر كله . وتحمـــل البنت أو المراة المطلقة معها الى بيت أبيها كل ما خرج منه بالاضافة الى حقوقها هى قبل طليقها وهى عبارة عن الثلث الأخير من المهر ، وهى تتسلمه عنــد خروجها من بيت زوجها ويكون ذلك دليلا على القطيعة وكما سبق القول فليس ثمة اجراءات قضائية أو عقــود مكتوبة للتصــديق على الزواج او لتسجيل الطلاق ، ونمتنع هنا عن الادلاء بآرائنا حول غرابة وشذوذ هــذه العادات كما قد يراها من تختلف انظمتهم عن هذه النظم ، ومع ذلك فقــد يكون المشرع العربى قد استهدف من وراء ذلك التشريعات ان يتفادى مضار اكبر خطورة ، فلكل الشعوب طباع خاصة بها كالأجواء التى يعيشون فيها، وعلى اولئك الذين يريدون الحكم على انظمة وعادات الآخرين ان يراعوا هذه الحقيقة التى لا مفر منها وان يقرروا نتيجة لذلك . وهذا هو العـــذر الوحيد الذي يمكن التماسه لمحمد .

المشرع جعل هذا الاتهام عسيرا على الاثبات لدرجة لا يمكن معها أن نذكر الا عددا بالغ الضآلة لسيدات ادن او عوقبن على مثل هذه التهمة . ومع ذلك فاذا ما أقسم شخص ما خمس مرات أمام القاضى ان زوجته قد خانته ، ثم اقسمت هى خمس مرات على عكس ذلك فان القاضى يحكم بطلاقهما ويصبح انفصالهما أبديا . ولسنا بحاجة للقول بأن ابناء الطبقة العليا أو حتى الطبقات البسيطة يتفادون على الدوام الفضيحة التى تنجم عن حكم كهذا ، اذ لا يعرض نفسه وعرضه لمثل هذه المهانة الا ضعاف النفوس وقليلوا الحياء ، لكى يشبعوا شهوة الانتقام والرغبة فى التشهير التى تستبد بهم .

ولا يمكن للمراة بمطلق حريتها ان تغادر بيت الزوجية . واذا ما نشأ نفور او كراهية او كان هو يهملها أو يسىء معاملتها فانها تستطيع أن تحمله عن طريق عروض سخية تقدمها له أن يقبل الانفصال بينهما ، فاذا ما رفض وظل سادرا فى اساليبه السيئة فانها تتوجه الى القاضى ويفحص الأخير شكواها ويحكم بالطلاق اذا ما اقتنع بالأسباب التى قدمتها له ، وفى هذه الحالة لا تفقد المراة اى حق من حقوقها وتحتفظ بكل مهرها وكل امتيازاتها ، أما اذا قبل الزوج الطلاق الذى عرضته عليه زوجته فلا يمكنه أن يردها الى عصمته الا بعد أن يعقد عليها عقد زواج جديد .

وكنتيجة حتمية ، فلابد أن يكون الطلاق فى بلاد ليس للمراة فيها فى غالب الأحيان حق اختيار زوجها ، أكثر انتشارا منه فى البلاد التى تتم فيها الزيجات نتيجة لعواطف وميول متبادلة ، كما انه أكثر شيوعا من جهة أخرى بسبب السهولة التى منحتها القوانين للأزواج ، وهذا ما يحدث فى تركيا ومصر . وبالرغم من الحقوق التى رتبها محمد للنساء قبل أزواجهن ، وبالرغم مما فرضه على الأزواج بضرورة ابقاء زوجاتهم فى البيت ثلاثة اشهر بعد الانفصال الأول فان الطلاق بالغ الشيوع . ومع ذلك فلابد ان نقر بأن ليس ثمة ما يشين امراة مطلقة ، فهى تستطيع العثور على زوج آخر بسهولة ، لكن حياة الناس تتأثر على الدوام من مثل هذه الحرية المعيبة وان كان الأمر المؤكد — نقول هذا باسم الحقيقة — أن التقدم الحضارى قد جعل من مثل هذا الفعل المعيب أقل انتشارا بين الطبقة العليا فى المجتمع ، بل يكاد ينظر اليه كأمر ماس بالشرف . وسعيدة هى تلك الأمم التى يمكن للعقل والأخلاق عندها أن تنتزع السوءات من جذورها وبخاصة عند هؤلاء الذين

يعانون من جموح عواطفهم وشهواتهم : وتلك هى طباع المصريين . ونحن فى وضع يسمح لنا بتكوين هذا الراى عنهم بعد تلك الفترة التى اقمناها فى وطنهم ولعله ليس ببعيد ذلك اليوم الذى ستبذل فيه الجهود لاعادتهم الى حظيرة العلوم والفنون ومختلف مناحى الحضارة ، بل ويمكننا أن نتجاسر بالقول بأن جهودا كهذه لن تلقى أية صعوبة ، فالنجاح فى هذا الأمر يتجاوز بكثير مرحلة الأمل .

ولابد قبل أن ننهى هذا الفصل أن نتحدث عن بعض الاعتبارات العامة حول حياة ودور النساء فى مصر وحول الطريقة التى تمضى عليها حياتهن ، فهذا الجنس الذى كان موضوعا لاهتمامنا وعنايتنا هو ابعد ما يكون — كما سبق أن لاحظنا — عن ان يحصل على نفس الامتيازات التى يحصل عليها المسلمون الرجال ، فالمراة — وقد انعزلت عن المجتمع — محكوم عليها بالعدم المطلق وبالعار ، ويضعها المسلمون فى عداد الكائنات التى لا تحظى بقدر كاف من الذكاء ونعمة العقل . ويعود هذا التهوين من شأن المراة الى الخليفة عمر وذلك حين منعهن من الاسهام فى ممارسة الواجبات الدينية ، فلقد صك بذلك امرا لا راد له بالحط من شأن النساء ، وان كان محمد نفسه ليس ببعيد عن مشاركته فى ذلك ، فنهجه الدينى مجحف بالجنس اللطيف ، ويمكنك بلا جدال ان تهدم الدعائم التى تنهض عليها جنته الموعودة ، فما عليك لكى تفعل ذلك الا ان تستبعد منها اولئك النسوة الفانيات . ولكن ، او لم يكن بمقدوره أن يعثر على وسيلة اكثر انصافا كى يربط احلامه الرائعة بالعقل والعمل ؟ .

وحيث ان الرجال يضعون النساء فى مرتبة أدنى منهم فانهم يكنون نحوهن نوعا من الاستخفاف والاحتقار تتعرض معه النساء على الدوام لاهاناتهم بل، ولضروب من قسوتهم الرهيبة ، لكن اساءة معاملتهن تلك — كما سبق لنا القول — لا تأتى من جانب الزوج بل تتعرض النسوة لذلك من جانب اهلهن قبل الزواج ، ثم يتعرضن لنفس المخاطر بمجرد أن يصبحن مطلقات ، وليس بمقدورهن ان يؤمن انفسهن ضد هذا العسف الا فى حماية زوج . ومن نافلة القول أن نلفت النظر الى اننا ننحى باللوم هنا على الطبقات الدنيا من سكان المدن ، وعلى أولئك الذين تكاد لم تمسهم الحضارة فى الريف . اما الرجل التركى ، او ذلك الرجل الذى ينتمى الى اعيان المصريين فانه ينظر الى ضرب زوجته باعتباره عملا اجراميا يمثل ما هو باعث على

العار . لكن هذه النظرة الانسانية والعاقلة ليست للأسف هى الشائعة ولا يدعمها القانون بسطوته . وسوف تجعلنا الحكاية التى سنقصها هنا نقف على راى المسلمين فى النساء — ومن الممكن أن نقص آلاف الأمثلة — لكننا نكتفى هنا بتلك الحكاية التى كنا نحن بأنفسنا طرفا فيها .

كنا فى قرية الرحمانية ، عندما لجأت امراة وعديد من الرجال الى منزل واحد من زملائنا ، وركعت وركع الجميع على ركبهم طالبين العدل أو بالأحرى الانتقام ، حيث يفضل الشرقيون استخدام تلك الكلمة الأخيرة ، وكانت المراة ملطخة بالدم . طامن زميلنا من روعها واكتشف أنها مضروبة فوق رأسها ، وأراد أن يخلع النقاب الذى يغطى وجها ، لكنها قاومت ، فكرر المحاولة وانتزع النقاب لكن البائسة — التى كانت تتمسك وهى فى آلامها تلك ، بالواجبات التى تفرضها على جنسها عادات وتقاليد بلادها — غطت وجهها بيديها ، واحتراما من زميلنا لمعتقدات كهذه فقد قص الشعر المحيط بالجرح وضمده بنفسه ، حيث لم يكن ثمة طبيب ، وربط الضمادة بقطعة من قميص مزقه لهذا الغرض ، وعندما شاهده بعض المسلمين والاقباط يقوم بهذا العمل ، اظهروا بالغ دهشتهم علنا ، بل وعبروا عن استنكارهم لقيام رجل يشغل منصبا عاما مثله بالانحدار لدرجة يضمد معها كائنا حقيرا ، وتلك رؤيتهم للمراة . وعندما صدمته همجيتهم تلك أراد أن يطردهم ، لكنهم ظلوا يقولون له أنه بذلك يسىء الى كرامته .

ويضيف زميلنا : « توجهت على الفور الى حاكم الولاية وعرضت عليه الأمر ، فخولنى كامل السلطة فى عقاب المذنب الذى كنت قد أمرت بالقاء القبض عليه . وعندما عدت الى منزلى وجدت هذا الرجل .

— اهو أنت أيها الهمجى الذى عامل هذه المسكينة بهذه الوحشية ؟

فأجابنى ضاحكا :

— ماذا ؟ اتظنها وحشية أن تضرب امراة ؟

— وذلك الدم الذى أسلته ؟

فأجاب — لا يمحو دم الرجل الا الدم ، لكن ليس هكذا هو الأمر بالنسبة للنساء .

واستفزنى الهدوء الذى يصطنعه فى ردوده فقلت له :

ــ نحن قضاتك . وتلك القسوة التى ابديتها جريمة كبرى فى نظرنا وسنعاقبك .

ــ وهل ستعاقبوننى لو اننى جرحت بقرة ؟

ــ بلا جدال . اذا لم تكن ملكا لك .

ــ اذن فاستمعوا لأسبابى ، وسوف ترون انه كان على ان اسلك هذا السلوك . لقد انتزع المماليك منى حقلى لكى يعطوه لابن عمى . ثم جاء الفرنسيون ليصلحوا من مظالم المماليك : افلا يحق لى اذن أن استرد أملاكى السابقة ؟ لكن ابن عمى واخته وابنه اعترضوا على ذلك فضربتهم ، وسأظل اضربهم حتى يعيدوا الى ارضى . اننى لا اطالب الا بما هو حق لى ، بل اننى الجأ لهذا الغرض الى عدالة القوانين الفرنسية .

ــ حسن ، ما دمت تتحدث عن القوانين الفرنسية ، فاعرف اذن انها تعاقب السفاحين والذين يسمحون لانفسهم بارتكاب أعمال العنف ضد الآخرين .

واستدعيت الى بيتى اعيان وشيوخ القرية .

ــ ما هو العقاب الذى توقعونه على الذين يضربون أو يجرحون عامدين أحد الرجال ؟

فأجابوا فى وقت واحد :

ــ عصا فى مقابل كل عصا وليس ثمة اكثر من ذلك . اما العقوبات التى نعاقب بها عموما فهى : الغرامات ، الضرب بالعصا ، الموت .

ــ يكفى ، والرجل الذى ماثل امامنا الآن قد جرح هذه البائسة ، وهو يطلب ان يعامل حسب القوانين الفرنسية . فليعلم اذن أن الانسان حسب هذه القوانين لا يستطيع ان يحصل على حقوقه بنفسه ، وان للمراة نفس الحقوق التى للرجل ، وان دمها ليس اقل قيمة من دمه . ونتيجة لذلك فسوف يضرب على الفور ٢٥ عصا .

ــ ٢٥ عصا ! (صاحوا جميعا بلهجة تنم عن دهشة شديدة) ليس هذا عدلا ، فهذا اقصى ما كنا سنوقعه عليه من عقاب لو انه قتلها .

ــ نعم ٢٥ عصا ولتنفذ أوامرى على الفور ، واذا ماتت المرأة سنتخذ اجراءات أخرى .

وعندما حان وقت تطبيق العقاب لم يشأ أى منهم أن يتحمل مسئولية تنفيذه ، فأرسلت فى استدعاء القواس لكنه مارس واجبه برخاوة وحرص ، حتى أن خادما ملطيا كان يشاركنى الشعور بالغضب ، انتزع منه العصا واكمل هو العقاب بالقسوة التى يقتضيها الحال .

وهذه الحكاية تصور ــ دون حاجة منا الى تعليق ــ تقاليد الطبقة الدنيا من الشعب ، وتعطى فكرة دقيقة عن راى ابنائها فى النساء فى مصر ، ويكاد الأمر يكون على هذا النحو فى كل بلدان الشرق .

٣

الطعام

القناعة فضيلة مصرية ، واذا كنا نجد اثرياء المدن الكبرى يتصفون بالشراهة ويصنعون اطعمة بسيطة الاعداد ليتناولوها بكميات كبيرة جدا (ويوجه هذا اللوم الى المماليك بصفة خاصة) ، فان الطبقة العاملة وكذلك الفلاحين شديدو القناعة بشكل لافت للنظر ، فهم لا يتناولون من الطعام الا ما يكفى كى يقيم أودهم ، وفضلا عن ذلك فغذاؤهم هذا بالغ السوء والفقر لدرجة ان المرء لا يكاد يتصور كيف يمكن أن يكفيهم هذا الطعام وكيف يمكنهم والحالة هذه ان يقوموا بأعمالهم الشاقة .

ويحب المصريون قبل كل شىء لحم الضان ، ولكن الطبقات الشعبية لا يمكنها أن تستمتع بمثل هذا الترف الا ايام المناسبات الهامة اما بقية العام فهى تعيش على الخضروات الطازجة والسمك المملح ودرنات النباتات وبقول من نوع الحمص والفول والترمس .. وتباع الأطعمة الأخيرة مطبوخة وتشكل بالاضافة الى بعض الفاكهة الغذاء الرئيسى لسكان المدن .

وبالرغم من ان تربة مصر تنتج القمح بكميات وفـيرة ، وان لبذور القمح هنا خاصية ممتازة ، وان سعرها اقل بكثير من سـعرها فى أوربا الا ان القمح لا يشكل الغذاء الأساسى لغالبية السكان ، كما يحدث فى كل مكان ، اذ يترك الفلاح وصغار الناس بدافع فطرى بل ربمـا يكون الأمر بدافع اقتصادى ــ للأغنياء عادة اكل الخبز الذى ينظرون اليه كأمر من امور الترف ، ليتغذوا هم بوجه خاص على الخضروات التى تزرع فى كل الفصول فيأكلون بدلا من الخبز ــ على سبيل المثال : درنات القلقـاس ، جـذور الجزر ، ثمار البامية ، والباذنجان ، والخيـار ، والشمام والبطيخ والعبد اللاوى (العجور) وانواع اخرى من الشمام تزرع بمصر ، واوراق الخبازى والملوخية والحلبة ، وهذه النباتات مرطبة ومخاطية ــ وبالاضافة الى ذلك يأكلون حبوب الذرة ، والذرة العويجة والترمس والحمص . كما يتغـذون بثمار النخل (البلح) والسـمك المملح واللبن الرائب والجبن والعسـل الأسود . وكما سبق ان قلنا فان اللحم أبعد من ان يكون طعاما يوميا لتلك الطبقـات .

وربما جاز لنا ان نجد فى كسل المصريين الفطرى وفى ندرة الوقود فى بلادهم بعض اسباب هذا الصيام المستمر الذى حكموا به على انفسهم حتى يتخلصوا من حيرة المطبخ ، ولعلها هى نفس الأسـباب التى دفعتهم الى تفضيل استخدام الأطعمة التى يمكن ان تؤكل نيئة وبلا اعداد او تلك التى يمكن طهيها بكميات كبيرة على يد اناس يحترفون ذلك كمهنة لهم ، وفضلا عن ذلك فلو اننا قارنا طريقتهم فى الغذاء هذه وتلك التى كانت لدى قدماء المصريين لوجدنا تماثلا كبيرا سواء فى المأكولات او فى بساطة اعدادها(١) .

---

(١) يقول هيرودت عن غـذاء المصريين بينمـا هو يتحدث عن بعض عاداتهم :

« أما عن الطعام . فقد تفتق ذهنهم عن وسائل دءوبة للحصول عليه بسهولة ، فعندما يكون فيضان النيل فى اوجه ويصبح الريف اشبه بالبحر، تظهر فى المياه كميات هائلة من الزنابق يسميها المصريون البشنين (اللوتس)، فيقومون بجمعها وتجفيفها فى الشمس ثم يأخذون بذورها التى تشبه بذور الخشخاش ويصحنونها ليصنعوا منها الخبز الذى يقومون بانضاجه على النار ، كما يأكلون كذلك جذور هـذا النبات ومذاقهـا طيب لذيذ ، وهى مستديرة وفى حجم التفاحة . وثمة نوع آخر من الزنابق تشبه الورود وتنمو =

وأثناءحرارة الصيف الشديد يأكل الناس بشغف : البنجر والخيار والبصل المنقوع فى الخل ، وهذا النوع من الطعام رخيص الثمن وينادى عليه الباعة فى الشوارع ويعرضونه فى الميادين حيث يتجمع العامة ايام الأعياد ، وفى هذا الفصل أيضا يأكل الناس أوراق الحلبة ، ويصنع المصرى لنفسه وجبة شهية مكونة من الخس والخيار والبطيخ أو الشمام دون ان يقوم بتمليح الصنفين الأوليين ، وهو يأكل السلاطة بشهية عظيمة ولا يكلف نفسه عناء تزويدها بالزيت أو الخل ، ويأكل كحلوى ، كيزان الذرة المشوية تليلا فى الفرن والتى قطعت قبل أن تبلغ مرحلة النضوج .

=
بكثرة أيضا فى مياه النيل ، ويقوم المصريون بجمع ثمارها التى توجد بها كمية من حبوب حسنة المذاق وفى حجم نواة الزيتون وهى تؤكل خضراء أو جافة. أما البردى فهو محصول سنوى ، وعندما يؤخذ من المستنقعات يقطع الجزء العلوى منه ويستخدم استخدامات عدة . اما جزؤه السفلى وما يتبقى من النبات — ويبلغ طوله حوالى ذراع — فانه يؤكل نيئا أما الذين يريدون له مذاقا افضل فيقومون بتحميره فى فرن ملتهب ، وبعض المصريين لا يعيش الا على السمك ، وهم ينزعون احشاءه ويجففونه فى الشمس ويأكلونه بعد ذلك (هيردوت ، الكتاب الثانى ، الفقرة ٦ ، ص ٧١ ترجمة : لارشيه) ويضيف المؤرخ فى مكان آخر من كتابه « يصنع المصريون خبزهم من الشعير ويعيشون على السمك النيىء المجفف فى الشمس والمتبل فى ماء مالح ويأكلون كذلك السمان والبط وبعض الطيور الصغيرة ، وهم يأكلون هذه الأصناف نيئة بعد تمليحها » .

ويتحدث ديودور الصقلى فى نفس الموضوع فيقول :

« يقال ان المصريين فى بادىء أمرهم كانوا يعيشون على الأعشاب فكانوا يأكلون الكرنب وجذور النباتات التى يعثرون عليها فى المستنقعات دون أساس للمفاضلة بينها الا المذاق ، وكانوا يأكلون على وجه الخصوص العشب المسمى المرجية agrostis ومذاقه طيب للغاية وكان غذاء كافيا للانسان ، ومن المؤكد انه كان مفيدا على وجه الخصوص لقطعانهم فقد كان يؤدى الى تسمينها بشكل واضح ولا يزال المصريون حتى اليوم — عرفانا بما أداه هذا النبات من فائدة لآبائهم — يحملون هذا النبات فى أيديهم وهم ذاهبون الى المعابد لتأدية الصلاة لآلهتهم ، والطعام الثانى للمصريين هو السمك ويهيىء لهم النهر كميات هائلة منه ، وتظل كميات كبيرة منه على سطح الأرض بعد انحسار المياه ، كما انهم يأكلون كذلك لحم ماشيتهم ويستخدمون جلودها فى صنع ملابسهم ، وقد تعلموا مؤخرا اكل الفاكهة وأهمها البشنين (اللوتس) الذى يستخدمونه فى صنع الخبز .

وعندما تنقضى مواسم الفاكهة والخضروات ، يصبح الطهاة الذين يقومون بطهو كميات كبيرة من الفول والحمص ... الخ المصدر الوحيد لطعام الطبقة الدنيا من الشعب . ولعل هذه المناسبة التى ينبغى ان نقول فيها كلمة عن طريقتهم فى طهو هذه الأطعمة ، وهى طريقة اقتصادية للغاية وبالغة البساطة فطهاة الشعب — ان كان يصح أن نسميهم بهذا الاسم — لديهم قدور من الفخار كبيرة الحجم ، يقومون بملئها حتى ثلاثة أرباعها بالبقول المغمورة بالمياه وتسمى هذه : قدرة الطبخ بلغة أهل البلاد وبعد ان تملأ القدرة بهذه الطريقة يغلق حلقها تماما بالليمون النيلى وطين الطفل ثم تدفن فى رماد الحمامات العامة الملتهب وتترك هكذا لمدة ٥ — ٦ ساعات وبعد ذلك يصبح الطعام مطهوا تماما وصالحا للبيع ويشتريه الجمهور بكميات قليلة مع قليل من الملح ويزين احيانا بالخس وقليل من التوابل . ويساوى الطبق من هذا الطعام — اذا كان مزودا بالتوابل : فلفل اسود ، فلفل اخضر ، زنجبيل — بارة واحدة أما اذا لم يكن مزودا بالتوابل فلا يزيد ثمنه عن ٦ أجداد(١) . أما اولئك الذين يبغون توفيرا اكبر فيمكنهم ان يكتفوا بكميات من الترمس . ويطهى الترمس بنفس الطريقة السابقة ولكى يفقد الترمس مرارته فانه يستنبت قبل اعداده ثم يغسل وذلك بوضعه فى سلال تدلى وسط النيل وعندما يتم كل ذلك يطهى الترمس . ولا تساوى كمية كبيرة من هذا الخضار — اكثر من ٢ — ٣ أجداد وفضلا عن ذلك ، فهذه الكمية — مع قناعة المصريين الشديدة — تكفى وجبة لرجل .

والبلح الطازج أو المجفف هو ايضا ذو نفع كبير للطبقات الشعبية وبخاصة سكان الريف . ويكاد لا يكون للبدو من طعام سواه . وفى الصعيد، توجد قرى باكملها لا تعيش الا على البلح وحده لمدة تزيد على عشرة اشهر فى العام ، وتؤكل هذه الفاكهة فى حالات مختلفة من النضوج وتستهلك منها القاهرة والمدن الأخرى كميات كبيرة ، ويأتى جزء كبير من البلح الذى يأكله سكان الدلتا من الصعيد ، وهو يصل الى هناك طازجا أو مجففا ، ويصل النوع الأخير اما بكامل هيئته واما منزوع النوى فى هيئة كتلة مضغوطة (عجوة) وهذا ما يجعله قابلا لان يبقى فترة طويلة دون ان يتلف . وعندما تقطع منه قطعة فانها تشبه اللحم المفروم الذى يسميه الجزار فى باريس

---

(١) الجديد عملة من النحاس . والبارة تساوى ١٢ اجداد .

Fromage de cochon والبلح المجفف سواء كان بكامل هيئته أو معدا بالشكل الذى بيناه للتو غالى الثمن لانه ينقل من مكان بعيد ، وبسبب غلو سعره فان الطبقات الدنيا لا تستطيع التزود به ، لذا فهى تكتفى بالبلح الطازج الذى يجمع فى مناطق مجاورة ، ولهذا فهو يؤكل قبل ان يصل الى تمام نضجه .

وتزود التجارة مصر بأنواع عديدة من الفواكه المجففة مثل العنب والمشمش والخوخ والفستق واللوز ، ويزرع فى البلاد التين والزيتون اما عنب كورنيثة المجفف فهو يدخل كثيرا فى اعداد وجبات الأثرياء .

وبخلاف تجار البقول المطهوة ، يشاهد فى القاهرة اعداد من الشوائين الذين يبيعون السمك المقلى واللحم المفروم المعد على هيئة كرات صغيرة مشوية ومغلفة بأوراق العنب على هيئة كرات كبيرة فى حجم العصفور موضوعة فى اسياخ صغيرة من الخشب .

وينظر الفلاحون الى شحوم الحيوانات باعتبارها الطعام الأمثل لكن فقرهم لا يسمح لهم بالحصول على ما يشبع حاجتهم منها على الدوام ، ويستهلك الاقباط كميات كبيرة من زيت الزيتون ويدخلونه فى كل شىء حتى انهم يرشون به خبزهم ، وهذه العادة السيئة سبب لكثير من الأمراض التى تصيبهم هم بشكل خاص ، لكن المصريين على وجه العموم يأكلون بنهم بذور الخشخاش وبذوراً اخرى يستحلبونها ، ومشروباتهم هى الشربات وسائل آخر يدخل فى تركيبه الأفيون بشكل رئيسى ، ويلجأ الاثرياء لهذا المشروب الأخير للسكر لكن الفقراء فى غالب الأحيان لا يشربون الا الماء القراح وأنواعا من الشربات الردىء وتحرم الشريعة الاسلامية الخمور كما يعرف الناس جميعا حتى تمنع السكر ، ويراعى المسلمون المتمسكون بدينهم ذلك ، اما الكبار والتجار والجنود فيرتكبون هذه المعصية فى الخفاء .

ويصنع المصريون عديدا من المشروبات الروحية واحسنها واجودها هو المشروب المصنوع من العنب المجفف اما ما يستخرج من التين والجميز والبلح وثمار التين الشوكي فهى ادنى قيمة ، ويفرط الأقباط فى تناول هذه

الخمور(١) فيشربون منها زجاجات بأكملها وهو ما يؤدى بهم الى الاصـــابة بالدمامل ، أما الذين يشربون من مياه النيل طيلة العام دون مراعاة للفصول ودون القيام بتنقيتها فانهم يتعرضون لمبادىء حمى تهدم بنيتهم بشـــكل غير محسوس .

ذلك أن مياه النيل يصيبها العطب كل عام قرب نهاية أبريل . أما البيرة فهى مجهولة تماما فى مصر اليوم بالرغم من أن هيرودت قد تحدث عنهـــا كمشروب عند قدماء المصريين (٢) .

٤

الملبس

لا تتأثر ملابس المصريين على الاطلاق بأهواء الموضة وتقلباتها مثلما يحدث عندنا . فشـــكلها ثابت لا يتغـــير أبدا. والألوان الزاهية هى اكثر الالوان التي تحظى بالقبول . والاتساع ميزة واضحة فى ملابس المصريين وهم يشتركون فى هذا مع كل الشرقيين حيث لا تستطيع هذه الشعوب تحمل الملابس الضيقة مطلقا : « فاللباس » والقميص والبنيش والجبة والقفطان.. تفصل كلها على نفس الوتيرة ، ومن الطريف أن نذكر هنـــا ما كان يقوله

---

(١) يستهلك المسيحيون فى سوريا والأقباط فى مصر المشروبات الروحية المستخلصة من العنب المجفف بكميات كبيرة ويشرب منه الأخيرون على وجه الخصوص زجاجات بأكملها بعد عشائهم وكنت قد اتهمت من نقل الى ذلك بالمبالغة ولكنه قدم لى الادلة على صـــحة ذلك ومـــع ذلك فقد ظللت على دهشتى من أن مثل هذا الافراط فى الشراب لا يؤدى الى قتل الشارب أو حتى على الأقل الى بلوغه ذروة السكر .

(٢) هيرودت ، المرجع السابق ، ص ٧٧ ويصنع المسيحيون كميـــات قليلة من الخمور فى الفيوم ولكنهم لا يعرفون كيف يصنعونها بشكل طيب ، ولم تكن الخمـــر مجهولة لقدماء المصريين كما تصـــور البعض حسب نص لهيرودت ترجم على نحو غير دقيق فقد رأينـــا فى آثارهم رسوما لحصـــاد العنب وصنع الخمر والآنية التي كانت تقدم فيها . انظر دراسة المســـيو كوستاز Costaz عن وصف مغارات مدينة طيبة . وقد حاول الفرنسيون صنع الخمر فى القاهرة ولكن الحروب أوقفت تجاربهم .

الرجل المصرى عندما يرى احدنا يمر امامه وهو يرتدى بنطلونا يصنع حسب الموضة ، أحضره معه من فرنسا ــ وهو لذلك بالغ الضيق ــ : « ماذا ! هل الأقمشة قليلة جدا لديكم حتى تصنعوه بهذا الشكل ؟ » .

ولكى نتعرف جيدا على الملابس المصرية ، سنقدم فيما يلى بيانا مفصلا لمختلف اجزاء هذه الملابس ، وسنبدأ بملابس الرجال .

اللباس : سروال الصيف ، وهو عادة من التيل .

الشرشير : سروال الشتاء وهو من الجوخ .

السروال : سروال المملوك ولونه احمر ويصنع من حرير وارد من البندقيـــة .

القميص : وذراعاه غير مشقوقين ، ويتدلى حتى العقبين ويلبس فوق السروال وأكمامه واسعة وبالغة الطول .

اليلك : صديرى خاص بالمملوك وهو واسع وقصير وأكمامه طويلة جدا وبالغة الاتساع .

القفطان : رداء مفتـــوح من الامام بكمين كبيرين جـــدا ويلبس فوق الصـــديرى .

الجبة : رداء مفتوح هو الآخر وتلبس فوق القفطان ، واكمامها ليست قصيرة بالمقارنة باكمام القفطان ، ويضاف اليها الفراء فى الشتاء .

البنيش : روب واسع جدا واكمامه بالغة الطول تتجاوز طول الذراع واليد وهى مشقوقة عند اطرافها .

الحـــزام : وهو من الموسلين او الصوف او الحـــرير ويلبس فوق القفطـــان .

الطربوش : وهو من اللباد ويغطى الراس حتى الأذنين .

الشـال : وهو قطعة طويلة من الموسلين أو من قماش صوفى ويلف حول الطربوش عدة مرات . ويصنع شـال الأثرياء من الكشمير .

الصديرى : وهو صغير وبدون اكمام .

العمة : ويطلق الاسم على غطاء الراس بجزئيه (الطربوش + الشال)

القاووق : غطاء الراس عند الاتراك والبكوات وهو مستدير الشكل شديد الارتفاع واكثر اتساعا عند القمة عنه عند القاعدة ، ويغطى جزؤه الأسفل بشال ملفوف حوله بعناية بالغة .

الطرحة : قطعة قماش من الموسلين او جزء من الشال يتدلى خلف الراس بعد أن يلف عدة مرات حول الطربوش ويستقر على الكتفين وله تاثير جميل وتطرز حوافه أحيانا بالذهب .

ولا يقل الحذاء تعقيدا عن بقية أجزاء الملابس ، وهو يتكون من المستت وهو من جلد الماعز يغطى كل القدم ثم البابوش والصرمة وهما أيضا من جلد الماعز وتوضع فيها القدم مغطاة بالمست وعند الدخول الى مسكن مفروش بالسجاجيد يخلع البابوش والصرمة حسبما يقضى الذوق ، وينتعل الناس عند ركوب الخيل أو حتى عند القيام بجولات فى شوارع المدينة ــ الخف وهو من جلد السختيان الأحمر أو الأصفر ، وهذا مشترك بين الرجال والنساء .

ويحب الرجال أن يحملوا فى حزامهم خناجر ثمينة محلاة بالأحجار الكريمة ، وتتجلى أبهة المماليك فى فخامة طبنجاتهم ، ويهوى الأثرياء اقتناء الأرجيلات الرائعة . وتحب كل الطبقات بلا استثناء أن تغطى أصابعها البنصر بالخواتم التى تتفاوت قيمتها حسب الطبقة والثراء . وهذه الخواتم تجملها فصوص الأحجار الكريمة وهى من الفضة بالنسبة للرجال ومن الذهب بالنسبة للنساء .

ومن نافلة القول أن نلفت انتباه القارىء الى أن الزى الكامل الذى بينا تفاصيل كل اجزائه انما هو زى الكبار والأثرياء . اما الطبقات الشعبية فلا تكلف نفسها كل هذا العناء ، فخزينة ملابسهم لا تحتوى على اكثر من ثلاث أو أربع قطع من الملابس لا تتغير الا عندما تصبح مهلهلة الأطراف فالفلاحون رجالا ونساء يذهبون الى حقولهم شبه عارين . اما عمال الطبقات

الدنيـــا وكذلك جمهرة سكان المـــدن فيسترون اجسامهم بالـــكاد ببعض الهلاهيل(١) .

---

(١) يذكر احد زملائنا أن المصريين من كل الطبقات يميلون الى الابهة فى ملابسهم ، وقد شغفت بتحرى هذه الملاحظة مع واحد من خدمنا . كانت خزانة ملابسه لا تكاد تساوى نصف فرنك عندما دخل فى خدمتنا ، ويكفى ذلك لندرك أن خادمنا هذا كان شبه عار . وكان الأجر الذى يحصل عليه منـــا معقولا لحـــد كبير ، كما انه كان يحصـــل على بعض المنافع من اثمـــان المشتروات التى كنت أكلفه بها . وبالاضافة الى ذلك فقد كان يحصل فى الخفاء على هدايا واتاوات ممن يترددون على فى العمل . وقد أدى ذلك كله الى ثرائه شيئا فشيئا ، حتى أنه فى خلال سنة واحدة ــ وقد بدأ يدخل فى طور الرجولة ــ لم يعد ذلك الشبح الذى كانه فى البداية ، فقد نما لحد اننى تعرفت عليه بصعوبة . وقد بدأ بأن اشترى لنفسه ما يلى :

١ ــ قميص من التيل الأزرق له كمان طويلان وهو يعتبر فى الصـــيف الرداء الوحيد عند السكان .

٢ ــ طربوش جديد وله شال من القطن .

٣ ــ مركوب احمر اللون .

٤ ــ حزام من الصوف .

٥ ــ سروال من التيل .

٦ ــ خاتم ، والخاتم يعطى اهمية للأبسه .

ــ ملاية وهى قطعة من نسيج قطنى من اللونين الأبيض والأزرق طولها ٨ اقدام وعرضها ٤ اقدام وتستخدم فى شكل بالطو .

٨ ــ دفية وهى قميص كبير من البوركان الأسود ويستخدمها كبـــار شخصيات القرية .

٩ ــ صديرى من التظن .

١٠ــ جبة وهى نوع من الروب دى شامبر من الحرير أو القطن .

١١ــ قفطان من الجوخ على شكل روب قصير .

١٢ــ بنيش وهو روب كبير من الجوخ ..

ولم يعد ينقصه سوى شـــال من الكشمير ومعطف ليصبح شبيها بكبار القوم فى بلده .

وكان فى البداية يسير على قدميه ثم أخذ يمشى مشاويره على ظهر حمار ثم على ظهر حصان خاص به ، وكان نشيطا فى البداية ، وعندما اصـــبح ميسورا جعل هناك من يعاونه . ثم لجأ الى خادم يخدمه كنت ادفع له اجره ايضا ، وفى النهاية اتخذ الخادم الأول هذا لنفسه خادما خاصا . وانى لمتاكد اننى ــ عندما تركنا مصر ــ كنت على وشك ان ارى الخـــادم الجديد يتخذ لنفسه بدوره خادما له .

وعلى منوال بقية المسلمين . يحلق المصرى راسه بالموسى ولا يترك فوق جمجمته الا خصلة من الشعر . هذه العادة تسبب العديد من الأمراض، وتؤدى بصفة خاصة الى اصابة العيون بالالتهابات والرمد ، اذ لا يمكن لأحدهم ان يخلع العمامة الثقيلة التى تغطى راسه دون ان يتعرض للاصابة بالبرد ، وهى الاصابة التى تؤدى الى تكدس الأورام الصديدية فى العيــون ولتجنب ذلك تغطى الراس بأردية ثقيلة جدا مما يجعل هذا الجزء من الجسم اكثر حساسية لأقل برودة ، ومع ذلك فربما كانت طريقة المصريين هــذه فى حلاقة الراس هى التى تقيهم الاصابة بآلام الراس من حيث أنها تسهل حدوث العرق ــ اذ نادرا ما تصيبهم هذه الآلام ، وينبغى أن نقول كذلك ان المصريين لا يسيرون برءوسهم عارية مطلقا مثلما نفعل نحن فى اوروبا .

ويستدل على ثراء المراة المصرية من زينتها ــ اذ على الرغم من انها لا تســـتطيع ان تتألق بزينتها وحليها الا امام زوجهـــا وامها واخواتهـــا وصديقاتها ، فهى ليست اقل ميلا للأبهة ولا اقل استعدادا للتألق . وهى تغطى جسدها بأغلى الملابس التى تنثر فوقها ببذخ وبدون اى اختيـــار او تناسق حليها ومجوهراتها وكل ما لديها من احجـــار كريمة . وهى تحلى جيدها بالعقود التى يمكن أن نسميها سلاسل من ذهب ، وتتدلى هـــذه السلاسل حتى أسفل الصدر ويتدلى من هذه السلاسل عادة صـــندوقان صغيران يضم أحدهما آية قرآنية ويضم الاخر بعضا من العطور . وتحلى السيدة من الطبقة العليا الجزء الأدنى من ذراعيها بأساور من ذهب يتراوح عرضها بين ٤ ــ ٥ بوصات ويتفاوت مقدار سمكها ، وترتدى فى قدميها اساور مماثلة ، ولكن تلك ليست عادة عامة ، وأصابعها مثقلة بالخواتم التى ترصعها الأحجار الكريمة . ومع ذلك فعندما تنزل الى الشارع فانها تقبر كل مظاهر الثراء هذه تحت البرقع والسبلة وهى قميص كبير من التافتاز يغطى كل ملابسها وينزل حتى عقبيها .وتتزين النساء على هذا النحو عند ذهابهن الى الحمام أو عند قيامهن بزيارة أو عنـــدما يســـتقبلن فى بيوتهن قريباتهن وصديقاتهن .

وحيث اننا قدمنا بيانا بملابس الرجال، فان من المناسب ان نقـــدم هنا الملابس التى تضمها خزينة النساء وهى كما يلى :

اللباس : كالسون أو كيلوت صيفى(١) من الكتان أو القطن .

الشنتيان : لباس الشتاء .

الدكة : حزام يربط به السروال حول البطن .

القميص :

اليلك : روب يرتدى فوق القميص ، وهو مفتوح من الأمام واكمامه طويلة وضيقة .

الفستان : روب يحل محل اليلك وهو غير مفتوح . وقد اعتادت السيدات الأوربيات المقيمات فى مصر على ارتدائه تقليدا لسيدات القسطنطينية اللاتى يرتدينه فى بعض الأحيان .

الجبة : روب يرتدى فوق الفستان واكمامه قصيرة جدا ، ويضاف اليه الفراء فى الشتاء ، ويطلق عليه عندئذ اسم : وش فروة .

الحزام : وهو فى الصيف من الموسلين او الحرير ، وفى الشتاء من الصوف او الكشمير .

وعندما يعقد من الخلف يتدلى على هيئة مثلث .

الطاقية : غطاء يغطى الراس مباشرة ويستبدل دائما .

الطربوش : غطاء راس يرتدى فوق الطاقية .

القمطة : قطعة من الموسلين تلف عدة مرات حول الطربوش ، وهى جزءان ، والجزء الذى يدور حول الراس نفسها احمر اللون او من لون آخر زاه جدا ، ويشكل الغطاء كله حول الراس شريطا اسطوانيا بارزا يرصع باللالىء والأحجار الكريمة .

---

(١) من المعروف أن النساء الشرقيات قد اكتسبن عادة لبس السراويل، وليس هناك فرق فى هذه الناحية بين المسيحيات أو اليهوديات أو المسلمات.

الربطة : وتطلق على غطاء الرأس فى مجموعه .

العقدة : عقد من اللؤلؤ .

الشواطة : مسبحة من اللؤلؤ يربط كل طرف من طرفيها بأحد جانبى الربطة .

الضفاير : خصلات من الحرير تزيد من طول خصلات الشعر .

البرق : قطع ذهبية صغيرة تربط بالضفافير ويتدلى من طرف قطع البرق هذه قطع نقدية صغيرة (سكين) Sequins .

السبلة : قميص واسع من التفتاز يغطى كل الملابس ويتدلى حتى يلامس الأرض وترتديه النساء عند خروجهن وعند ذهابهن الى الحمام او للزيارة ولا يخلعنه الا اذا احلت عليهن من هن فى زيارتها وخاصة اذا كانت الأخيرة تنتمى الى الطبقة العليا .

البرقع : قناع الوجه ابتداء من أسفل الأنف . ويتصل بالربطة من فوق الجبهة من الجانبين . وهو قماش الموسلين أو الكتان الأبيض الناعم ويتدلى حتى الركبتين ، ولا غنى عنه لسيدة تريد أن تخرج خارج بيتها .

الحبرة : قطعة كبيرة من قماش التفتاز الأسود توضع فوق الراس وتغطى به الربطة والملابس واليدين ، وتخلعه المراة عند دخولها احد البيوت .

التزيرة : وهى مجموع السبلة والبرقع والحبرة .

الخلخال : اسورة فى القدم .

ولا تختلف احذية النساء عن احذية الرجال التى سبق أن تحدثنا عنها الا فيما يختص بالأحذية الحشبية التى تستخدمها النساء داخل البيوت ، وتسمى هذه الأحذية : القبقاب .

ونساء الطبقات الشعبية ابعد ما يكن عن الاقتراب من هذه الأبهة فى

ملابسهن ، فهن لا يرتدين فى القاهرة أو الريف الا سروالا من فوقه قميص ازرق اللون واسع جدا . اكمامه طويلة وواسعة تنزل حتى الردفين . وهن فى نفس الوقت محجبات وتضفر شعورهن على طريقة سيدات الطبقة الراقية ، لكنهن يعلقن فى أطراف هذه الضفائر اجراسا صغيرة او اشياء اخرى يتخذنها كزينة وتتدلى بطول الظهر . وتضع الفتيات فى بعض الأحيان اجراسا صغيرة فى اقدامهن ، ويحلى غطاء راس الأطفال بصف من القطع الفضية او قطع من النقود تحيط بالراس(١) . لكن شيئا من هذه الأبهة لا يظهر للعين خارج البيوت ، فكل شيء يختفى تحت الملابس حتى بداية الوجه ، ولا يرى من النساء عادة الا عيونهن بل يختفى جزء من هذه العيون، ويمكن القول أن الأطفال يدثرون هكذا حتى يتفادوا نظرات الحسد التى ترمقهم بها العيون الحاسدة التى يعتبرها المصريون المتطيرون بالغة الأذى ، وتتدلى من اذان نساء العامة أقراط ، وتتدلى الأقراط احيانا من الانوف لكن هذه الحالة نادرة . وتحيط النساء اذرعهن واقدامهن كذلك باطواق من المعدن ، كما يرسمن فوق شفاههن وذقونهن وصدورهن رسوما للزينة زرقاء أو سوداء (الوشم) وهى رسوم تماثل تلك التى ترى المسيحيات اثناء فترة الحج يرسمنها فوق أذرعهن دلالة على التقوى والولاء .

وتنظر السيدات من الطبقة الميسورة ــ شأنهن فى ذلك شأن نساء الطبقات الفقيرة ــ الى مختلف التشويهات التى تحدثنا عنها فيما سبق ، باعتبارها نوعا من الجاذبية او على الاقل نوعا من التزين ، وبخاصة عادة التقليل من سمك الحواجب ، كما يعنين ايضا بصبغ اليدين والقدمين بالأصفر والأظافر بالأحمر وذلك باستعمال الحناء . وهذه العادة اكثر انتشارا بين الطبقات الشعبية وهى ترتبط اساسا بالتقاليد وبحالة التحفظ التى ينبغى

---

(١) أخبرنا احد ابناء طرابلس أن المسلمين يحيطون رءوس اطفالهم بنقود ذهبية عليها كتعويذ بعض آيات من القرآن ، ولهذا السبب فهم يحتفظون ــ ما يزالون ــ بكثير من قطع النقود الكوفية وهذا ما يسهل على الاوربيين الراغبين فى اقتناء دنانير او عملات تعود لعصر الخلفاء ان يعثروا فى حليات الفتيات المسلمات على بغيتهم . وفضلا عن ذلك فلا تستخدم النقود الكوفية الا كزينة ، ولولا هذه العادة لكانت قد انقرضت منذ وقت طويل .

ان تكون عليها النســـاء أمام الرجال ، فالغرض من هذه العادة منع العين الفضولية من استجلاء درجة بياض الجسم عن طريق النظر الى بشرة اليد اذا ظلت فى لونها الطبيعى .

٥

التقـــاليد والعادات المختلفـــة

ترتبط تقاليد المصريين بأنظمتهم ، لذا يمكن القول بأن هذه التقاليد انما هى وليدة هذه النظم . ومما لا جدال فيه أن معظم قوانينهم تقوم على معرفة دقيقة بالطقس وأنها تبدو متمثلة تماما لطبائع الناس وكذلك للموقع الجغرافى للبلاد . ويمكن القول كذلك بان المشرع العربى قد حسب مـــدى سـرعة ونجاح انتشـار مذهبه السياسى والدينى الجديد وذلك بقياســـه لعقول وأذواق مواطنيه فتجنب تلك المعركة ــ الخطرة على الدوام ــ التى يدخلها المجددون ضد عواطف واهواء اولئك الذين يريدون اصلاحهم ، لذا فقد اعلى من شأن اتباعه فى نظر انفسهم بفعل ديانة اسسها بشكل ماهر واستطاع ان يتوصل الى ان يبرهن على عظمتها لاناس جهلاء سذج ، فلقد احترم تقاليدهم العائلية ، وكان متسامحا مع هفواتهم ونقاط ضعفهم ، وعندما شاء ان يقدم مكافأة لأولئك الذين يتمثلون مبادئه السهلة، تملق عواطفهم الجموح حين وعدهم بأنهم سيكونون خير أمم الأرض وعندما راى نفسه واثقا من ان مذهبه يتدعم بشرهم بمباهج سماوية مثالية ، ولقد توج النجاح آماله ، وحصل محمد على نفس النجاح الذى حازه ليكورج(*) دون أن يؤسس انظمته الفكرية على قوة من الاخـــلاق او على انارة الســـبيل امام أمته ، ولسوف تظل عقيدته هذه فى أوج فعاليتها فى الشرق طالما ظلت شعوب هذا الشرق بعيدة عن مدارج التقدم والحضارة الحديثة . وفضلا عن ذلك فانه ليبدو أن طبيعة عقلية الشرقيين تؤمن لمثل هذه العقيدة طول البقاء .

(*) Lycurgue مشرِّع اسبارطة ، عاش فى القرن التاسع قبل الميلاد . وجدير بالذكر اننا نقدم هنا ترجمة للأصل نصا وروحا وان كانت لنا تحفظات هامة على كثير مما ورد فى هذه الفقرة ــ ومع ذلك فقد آن لنا ان نلم بكل ما يقال عنا ، فليس كل ما يقال صحيحا على اطلاقه، بالاضافة الى ان هذه الأفكار قد تجاوزها حتى الفكر الأوربى نفسه اليوم . (المترجم)

اذن فليس المجتمع هو الذى ينظم التقاليد فى مصر ، كما أن « الموضة » لا تغير من هذا المجتمع بحسب أهوائها وتقلباتها ، فكل شىء فيه يستند الى النظام الروحى والدينى ويظل — مثله — فى حالة من الثبات لا تقبل التغيير ، فكل ما كتبه الرحالة القدماء الموثوق بهم عن العرب ما يزال على حاله حتى اليوم ، ولو انهم عادوا الى الحياة اليوم ليخوضوا فى نفس الأمر لوجدوا انه لا ينبغى عليهم ان يغيروا اليوم شيئا مما قالوه فى ذلك الماضى البعيد ، والى أن يحين ذلك الوقت الذى تتفجر فيه ثورة يبدو انها ما تزال شديدة البعد ، فلسوف تظل عادات الشرقيين الأسرية هى هى . وعلى كل فسوف نكتفى بأن نقدم هنا لمحة سريعة عن حياة المصريين الخاصة ، فعن طريق مثل هذا الفحص فقط يستطيع المراقب ان يكون حكمه بل أن المراقب لا يمكنه أن يعرف مدى عمق الروح القومية الحقيقية لشعب ما الا اذا فحصه باهتمام من هـذا المنظور .

ان المجتمع الذى تستعبد فيه نساؤه لا يقدم مطلقا هـذا المزيج من الرقة واللياقة اللتين تميزان الأمم الأوربية على وجه الخصوص ، وحيث اننا لا نكاد نحس بأثر للنساء على العادات الاجتماعية فى مصر فمن الممكن ان نتفهم بسهولة لماذا تتميز التقاليد فى مصر بوجه عام بهذه الغلظة الهمجية التى هى بالتأكيد غلظة تقاليد العرب الغزاة . وتلك فى الواقع هى الملحوظة التى تتضح لأول وهلة ، فرياضة الشعب والعـابه ومسراته ذات طابع خليع ، متهور ووحشى فى وقت معا ، ، وسوف يكون الأمر بالتأكيد على نحو مخالف لو كان للنساء نصيب فى صنع هذه التقاليد ، فالاعتبارات التى ستولى لهن — من حيث جنسهن — سوف تؤدى غريزيا الى تولد مشاعر اللياقة . وعندئذ سوف تكون الأمة هى الصانعة لشكل مجتمعها .

وتتوزع حياة المصرى من ابناء الطبقة الميسورة ما بين الصلاة والحمام والملذات الحسية والكسل وتدخين النارجيلة وشرب القهوة . وقد يجوز لنا ان نقول بأن الشعب كله يقضى جل وقته فى التدخين ، ولا يستخدم الأغنياء الا تبغ اللاذقية(١) الذى تستهلك منه كميات كبـيرة فى مصر ، أما الفقراء

---

(١) اللاذقية هى "لادوسيا Ladocié القديمة وقد بناها سيلوكيس Sèleucus وسماها على اسم أمه ، وتقع على الساحل السـورى ويزرع التبغ على التلال المحيطة بها .

فيقنعون بالتبغ المحلى الذى لا يمتاز بنفس المذاق اللذيذ الذى لتبغ اللاذقية لكن سعره مناسب . وتشرب القهوة فى فناجين جد قصيرة وبدون سكر ، وهناك بعض من الناس يشرب ما يزيد على العشرين فنجانا من القهوة فى اليوم الواحـــد .

ويكون ابناء الطبقة الشعبية من خلاصة نوع من القنب الذى يسمونه الحشيش مستحضرا مخدرا يتعاطونه بلذة شديدة ويؤدى هذا المستحضر الى السكر أو بالاحرى الى احداث نوع من الخدر ، وفى هذه الحالة من الخدر الجسمانى والروحى يحصل البؤساء على هدنة من آلامهم ومضايقاتهم . اما الاغنياء فيبحثون عن هذا الخدر عن طريق خلاصة او عصارة الخشخاش المطبوخ . ومن خاصية هذا المشروب أنه يسبب نوعا من الأسى العميــق ويصبح الجسم والعقل بعد تناوله اكثر تهالكا عما كاناه من قبل .

ومسكن الحريم مكان له حرمته والأزواج وحدهم هم الذين يستطيعون التردد عليه بحرية ولا يمكن لأبواب هذا المكان المحرم أن تفتح مطلقا لرجل آخر بخلاف الطبيب او الكاتب اى ذلك النوع من موظفى السكرتارية الذين تستخدمهم عادة نســـاء الطبقة العليا . ولا يستدعى الأطباء الا فى الحالات العاجلة والملحة وفضلا عن ذلك فليس بامكانهم أن يروا مريضـــاتهم الا فى حضرة الأماء او الأغوات(١) بل أن النساء ـــ حتى فى هذه الحالة ـــ لا يخلعن نقابهن . اما الكاتب ، فلا يسمح له مطلقا بالدخول الى الحجرة التى تشغلها سيدته فيبقى فى الحجرة المجاورة ويفتح باب اتصال بين الحجرتين ويكتب هو حسب الأوامر التى تملى عليه ، وفى كثير من البيوت يكون للكاتب حجرة تقع أسفل مسكن الحريم ، وتملى عليه المباشرة (الوكيلة) ـــ وهى سيدة تعمل فى خدمة ربة البيت ولكنها ليست من الاماء ـــ اوامر سيدة البيت .

وتراعى هذه التقاليد بشدة عند كل الأسر المتميزة والتى تتباهى بنسبها العالى ، بل إن السؤال عن حال السيدات يعتبر امرا معيبا مهما كان الدافع الذى يمليه ، فالرجل على سبيل المثال لا يسمح لنفسه بأن يسأل رجلا آخر عن اخبار زوجته ما لم تكن ثمة روابط حميمة بينهما بل انه فى هذه الحالة أيضا يستخدم تعبيرا يصلح لمثل هذه المناسبات مثل : كيف حال العائلة ؟

---

(١) بدأ البكوات (المماليك) يقتنون الأغوات فى الفترة الأخيرة

أو كيف حال (الناس اللى فوق) ؟ وكذلك لا تسمح آداب اللياقة بادخال العوالم فى بيوت العائلات المتمسكة بالأصول والتقاليد ، اذ لا يمكن لهؤلاء العوالم أن يدخلن مثل هذه البيوت الا أيام الاحتفالات والمناسبات الكبرى ، ولا يكون ثمة من شكوى الا أن فى اغانيهن أو رقصاتهن شيئا من الخلاعة لا يليق . اما رقص الغوازى الذى يرى فى شوارع القاهرة ، فمثل هؤلاء الغيورين على التقاليد يستبعدونه بغلظة .

ومع ذلك فينبغى القول بانه ليست كل العائلات على هذه الدرجة من التعنت ، بل أن هناك الكثيرين ممن تسمح تقاليدهم المتراخية لزوجاتهم بأن يحكن المكائد الغرامية فى داخل الحريم نفسه او فى خارجه بمعونة من امائهن ، فيتظاهرن على سبيل المثال بانهن ذاهبات الى الحمام أو للقيام بزيارة ويذهبن بدلا من ذلك الى لقاء غرامى ، ولابد أن نستنتج أن البطالة التى يحيون فيها وكذا حرارة الطقس الملتهبة هى التى تهيج شهواتهن وتحملهن بلا انقطاع على الاستجابة لملذات الحواس ، فما أن تلهب خيالهن رغبات أو احتياجات جديدة حتى يطرقن كل وسيلة لاشباعها ، ولكن الذى يضع حدا لذلك كله هو خوف المراة من ان يطلقها زوجها بل وأن تلقى الموت على يديه .

ويشكل السقاءون نوعا من رسل الغرام ، ويلعبون دورا رئيسيا فى مكائد الحب . ولسيدات الطبقة الراقية عبيد من نفس جنسهن (اماء) يعهد اليهن بالعناية بأمورهن ، وعلى رأس هؤلاء جميعا الخازنة وهى التى تعنى بالمجوهرات والنقود وخزينة الملابس ، وهى أول من تفوز بالعتق ، ويليهما فى الترتيب والأهمية — من حيث الوظائف — تلك التى تأمر باعداد القهوة والشربات : اى تلك المكلفة برعاية واجبات الضيافة ، ويليها تلك الأمة المكلفة بالتفتيش على المطبخ ولها السطوة على كل الاماء ، وتتفاوت درجة تقسيم هذه الأعمال بحسب طبقة وثروة ربة البيت ، بل ان بعض هذه الأعمال توكل الى عائلات حرة مثل اعمال المباشرة او الوكالة . ولا يحق للسيدات ان يستخدمن خدما الا من نفس جنسهن أو من الأغوات ، وثمة شيوخ عميان يأتون لتعليم العبيد الصلاة . ويشغل الأغا (الطواشى) حجرة فى الطابق الأرضى وبامكانه ان يدخل فى حرية الى جناح الحريم وهو يقوم بنقل أوامر رب البيت الى ربة البيت ، ويمكن القول بأنه يستخدم كحلقة اتصال بين الاثنين .

ونادرا ما تخرج المصريات الى خارج بيوتهن ، واذا حدث ذلك فانهن يفضلن ساعة قدوم الليل لقضاء مشاويرهن الصغيرة . اما عند سفرهن فيوضعن داخل هودج عرضه قدمان وعمقه ثلاثة اقدام وتعلوه قبة صغيرة على هيئة قوس ، ويحمل الجمل اثنين من هذه الهوادج بعد شدهما الى جنبيه ، كذلك لا تتجول السيدات فى حدائق بيوتهن وهى حدائق تنقصها الممرات ، ويمضين اياما باكملها على ارائكهن ويتسلى بعضهن بنزل حرير او قطن الهند ، ويقوم من تستطعن التطريز منهن بتطريز المناديل التى تستخدم كغطاء للراس أو الشيلان (الشال) التى يصنع منها حزام أزواجهن بكشكشات صغيرة .

ومن السهل التعرف على الاماء من حيث أن شعرهن يرتفع فوق رءوسهن ، وفستانهن مقفل وتغطى رءوسهن واكتافهن بدلا من القناع الكبير أو الطرحة قطعة من قماش التيل أو القطن ، كما يغطين بها وجوههن فى حضرة الرجال .

ومع ذلك فان نساء الطبقات الشعبية لا يستشعرن مثل هذه المضايقات اذ يقدر عليهن على الدوام الانهماك فى أعمال خارج بيوتهن ، لكنهن طيلة الوقت متحجبات بالبرقع وبخاصة اذا ما لمحن رجلا ، واكثر ما يشغلهن هو احضار طعام ازواجهن ، والذهاب لجلب المياه فى جرار يحملنها على راسهن بمهارة (١) ، وفى نفس الوقت فأكثر الفلاحات لا يعرفن الحياكة ، لذا يتركن ملابسهن الخفيفة ــ التى تغطيهن وقد تدلت مزقها ، اما لانهن لا يستطعن رتقها ، واما لانهن لا يجدن ضرورة فى تكليف انفسهن هذا العناء ، ويجدن سعادة فائقة فى الا يعملن شيئا ثم فى ان يقعين على حصيرة او حتى على الرمال . وهذه البلادة التى نلاحظها فى كل بلدان الشرق ، ينبغى أن تجد لنفسها فى مصر بالذات بعض العذر ، اذ أن حرارة الجو المرتفعة تحتم الاسترخاء . وتحب المصريات عموما تدخين النارجيلة ،

---

(١) عندما لا يكون حجم هذه الجرار كبيرا فانهن يحملنها على اكفهن ويتكئن بمرفقهن على الجنب ويرفعن اليد الأخرى الى أعلى، وتتفق هذه الطريقة تماما مع طريقة المصريات القدامى ويكفى للاقتناع بذلك ان نلقى نظرة على الرسوم المنقولة عن تلك الرسوم الموجودة فى كهوف كثيرة فى صعيد مصر .

لكن هذا المزاج نادر الشيوع عند نساء الطبقة الراقية ، وهؤلاء لا يدخن مطلقا فى حضرة ازواجهن ولا يحصلن على مثل هذه المتعة الا خفية .

وكما سبق لنا القول ، فان الحمام هو احد المتع الرئيسية عند المصريين من كلا الجنسيين على قدم المساواة ، وللسيدات من الطبقة الميسورة حمامات فى بيوتهن يعتنين بتزويدها على الدوام بالمياه الساخنة والبخار ، ويتبادلن فيما بينهن الزيارات الى حمام كل منهن كما لو كانت زيارات الى مكان بهيج ، وهناك يستعرضن مجوهراتهن واجمل ملابسهن وكل ابهتهن ويستخدمن ببذخ صارخ ماء الورد والعطور ، ويقضين يومهن هناك يتناولن القهوة والشربات والفطائر وينغمسن فى كل أنواع التسلية والترفيه(١) .

وتراعى السيدات فيما بينهن — شأنهن فى ذلك شأن الرجال — وبكل الاهتمام والتدقيق هذه الطقوس والاعتبارات التى لهن بحكم الطبقة والثروة والصمت والاحترام ملازمان العظمة ، واذا ما كان ثمة سيدتان قد نشأتا معا وعاشتا معا فى مودة منذ طفولتهما ، ثم تزوجت احداهما من ثرى(٢) ، أو ذى مكانة مرموقة فان لهجة الحديث بينهما تتغير على الفور ، وللرجال احتفال خاص بمراعاة واجبات الذوق واللياقة فيما بينهم وبأن يقدموا من تلقاء أنفسهم دلائل الاحترام والتقدير فالأدنى يقبل يد الأعلى بل ويقبل أحيانا طرف ردائه اذا كان ثمة فارق كبير بينهما أو يكتفى أحيانا برفع اليد اليمنى الى الصدر لتاكيد ندية الصداقة التى بينهما ، أما عندما توضع اليد على الرأس فانها تعبير بالخضوع من المرءوس الى رؤسائه الكبار .

---

(١) عندما تقوم سيدة بزيارة اخرى تكن لها بعض الود أو الصداقة فانها تدعوها لأخذ حمام وكذا النوم عندها ، وينتج عن ذلك ان تستمر الزيارة أحيانا لعدة أيام .

(٢) هذه الطريقة لدى الشرقيين فى قياس لهجتهم وحركاتهم بحسب الثروة والجاه ، تلاحظ على وجه الخصوص عند المماليك ، فهؤلاء الرجال الذين كانوا — كلهم على وجه التقريب — أبناء لرعاة أو لفلاحين يحرصون على الحصول على قدر من الثروة والتكريم يتناسب مع طبقتهم الجديدة التى أمكنهم الارتفاع اليها .

لكن احترام الأبناء لآبائهم وأمهاتهم يذهب لأبعد من ذلك ، فهم لا يخرجون من كنف الحريم قبل سن البلوغ ويخضع الذكور منهم لهذه القاعدة ، ومع ذلك فهم لا يسكنون نفس الحجرة التى تقيم فيها الأم ، ويأتون كل صباح لتقبيل يدها ويظلون للحظات واقفين أمامها وأذرعهم معقودة على صدورهم ، ثم ينزلون بعد ذلك الى والدهم ويقدمون له نفس امارات الاحترام ، ومع ذلك فالأب لا يقبل وجودهم على مائدته الا اذا كان ذلك فى يوم يعد من اعياد الأسرة . وهو — كذلك — لا يسرف فى تدليلهم ويحتفظ معهم باستمرار باللياقة الواجبة ، وهذه عادة عامة عند كل الطبقات وتستطيع الطبقة الدنيا وحدها أن تخرق هذه القاعدة ، وليست المرأة اكثر احتراما من جانب زوجها فمن النادر أن تدعى للطعام معه وتظل سيدات الطبقات الشعبية واقفات بينما يتناول الأزواج الطعام ، ولا يجلسن لتناول طعامهن الا اذا فرغ من ذلك الأزواج .

ويخصص اليوم السابع لمولد الطفل لأفراح كبرى تجرى داخل الأسرة، وفى هذا اليوم تأتى كل السيدات اللاتى كن من قبل اماء عند أم المولود لزيارتها ، فتستقبلهن المباشرة فى أول حجرة وتأمر بتقديم القهوة والشربات لهن ، وبعد ربع ساعة تتبل ربة البيت التى كانت قد انسحبت عند قدومهن الى حجرة اخرى ، عندئذ يهرع نحوها الجميع حتى يحظين بنوال شرف السماح لهن بتقبيل يدها ، ثم تجلس السيدة وتظل معتوقاتها واقفات أمامها، وبعد ما يقرب من نصف ساعة من الحفل ، تنسحب السيدة وتعطى لمباشرتها الأمر فى أن تبقى من معتوقاتها ، اولئك اللاتى تريد هى الاحتفاظ بهن وتخرج الأخريات على الفور .

وعندما يصعد زوج الى حجرة زوجته فانه يعلن ذلك مسبقا عن طريق احد الطواشى او واحد من العبيد ، لكنه لا يظهر مطلقا اذا كان بالحريم غريبات . . وتراعى الزوجة أن تبعد عن ناظره الاماء اللاتى يمكن لجمالهن أن يغويه ، ومع ذلك ، فانه اذا ما لمح واحدة منهن ونالت اعجابه وأبدى الرغبة فى أن يبقى وحده معها ، فان زوجته تبدى الكثير من التلطف لحد تنسحب معه من الحجرة . ولكى تحتفظ زوجات البكوات بالسطوة التى لهن على أزواجهن فانهن يقدمن لهم على الدوام تضحيات من هذا النوع ، بل ويذهبن الى حد تقديم الاماء الجميلات كهدايا لأزواجهن

ويزينهن بالمجوهرات والملابس الفاخرة . وكانت زوجة مراد بك تقــدم له مثل هذه الرعاية ، لكن هؤلاء المحظيات اللائى يقمن بامتاع الزوج مسايرة لرغبات سيدتهن يحتفظن لها على الدوام بامارات الاحتــرام والتبجيــــل ويحرصن على الدوام على مراعاة مصالحها .

ولم يكن من النادر ـــ وخاصة فى الأزمنة الأخيرة ـــ أن ترى أرملة واحد من البكوات أو الكشاف تتزوج واحدا من مماليك زوجها ، وفى هذه الحالة يظل هذا الملوك يحتفظ لها بأكبر قدر من التقدير والرعاية ، مهما كانت المكانة التى سيصل اليها فيما بعد ، واذا ما كانت هــذه الزوجة مدققة فى مثل هذه الأمور ، فانه لا يجرؤ أن يسمح لنفسه بالتصرف بحرية مع الاماء ، ولكنه فى نفس الوقت يجاهد كى يخفى عنها مغامراته التى يمكن له أن يمارسها خارج نطاق الحريم . ويحكى أن ابراهيم بك الذى كان من قبل مملوكا لمحمد بك ثم تزوج من أرملته بعد وفاته ، قد ضبطته زوجته هذه ذات يوم مع واحدة من امائها فقامت ـــ وقد طعنت فى كرامتها ـــ بضربه بقسوة وهى تصب عليه شتائمها ، لكن الخوف من مثل ذلك لم يستطع ان يكبح جماح شهوات هذا البك ، ويقال ان زوجته تلك ، الغيـور والمتجبرة فى وقت واحد كانت تأمر باغراق ـــ أو دس السم ـــ لأى واحدة من امائها تشك هى فى أن لها علاقة بزوجها .

وفى مصر ، لا ينام الرجال بجوار زوجاتهم ، وهذه عادة عامة عنــد كل الطبقات ، وللاغنياء حجرات مستقلة ، اما الفقراء فيختارون الركنين المتقابلين من حجرتهم التى هى عبــارة عن خص أو كوخ فقير ، ويوضــع الفراش وسط حجرة كبيرة ، وهو بالنسبة للرجل الميسور سجادة مبسوطة على الواح خشبية ، وتحيط بالسجادة اربع مخدات فخمة ، اثنتان منها على اليمين واثنتان على اليسار ليحصر بذلك الفراغ الذى ينبغى أن يشغله الفرد ويوضع أعلى ذلك غطاء أو ناموسية من الحرير أو الموسلين(١) ، وقــد

---

(١) لا غنى عن الناموسية فى مصر حيث تمتلىء الحجــرات بحشرات الفراش . وبدون هذا الاحتياط لا يكاد المرء يستطيع النوم ، اما ابناء الطبقات الشعبية فانهم وحدهم ـ بحكم التعود الطويل ـــ الذين يستطيعون تحمــل ازعاج هذه الحشرات .

شاهدنا بعضا منها مطرزا بالذهب والفضة . ولا يكلف الفقراء انفسهم مثل هذا العناء فهم يتمددون على حصيرة مصنوعة من سعف النخل وينامون بكامل ملابسهم .

وقلما يغير الناس من كلتا الطبقتين من ملابسهم الداخلية اثناء النوم، ويساهم ذلك فى وجود الحشرات الضارة بملابسهم كالقمل والبراغيث ، كما يؤدى الى تكاثرها .

ويلجأ الناس لعادة بالغة الغرابة لايقاظ الشخص النائم ، فلا يتم ذلك باحداث صوت أو هزة حتى ينهض من نومه ، لكن واحدة من الاماء تاتى محدثة بعض الصخب وتدغدغ له بيدها باطن قدمه ، وبذا تنتزعه هذه الدغدغة برفق من نومه . وهذا الاحتياط الناعم يشى برخاوة من يلجأون اليه ، فهو دليل على الحياة المخنثة التى يحياها هؤلاء ، وهو احتياط يمكن القول بأنه لم يكن بمقدور اهالى سيباريس(*) القدامى أن يخترعو امرا يفوقه رقة ودقة .

وفى ختام فصلنا هذا نقدم جدولا مقارنا بين المواقيت الفرنسية والمواقيت التى تقابلها عند المسلمين ، ويحتاج هذا الجدول الى شرح تمهيدي :

يقسم المسلمون فترة اليوم ابتداء من غروب الشمس ، ويحسبون ٢٤ ساعة فى المسافة التى تفصل بين الغروبين ، ولكن بعد ان يصل العدد الى رقم ١٢ يعودون ثانية مثلنا للعدد ١ ، ٢ ، ٣ .. الخ . فاذا حسبنا مثلا أن الغروب قد تم فى الساعة ١٢ ، فانه تأتى بعد ذلك الساعة الواحدة ثم الساعة الثانية ، وهكذا .. الخ .

وعند معرفة الوقت الفرنسى ، فان من الممكن تحديد الساعة عند المسلمين وذلك بعد اضافة العدد ٥ ، وعلى هذا فاذا كانت الساعة لدينا فى فرنسا الرابعة صباحا فانها تكون عند الاتراك التاسعة وعندما تكون عندنا ٥ ، ٦ ، ٧ ، فهى عند الأتراك ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، وعندما تكون لدينا ٨ ، ٩ ، ١٠ ، فهى لدى الأتراك ليست ١٣ ، ١٤ ، ١٥ وانما ١ ، ٢ ، ٣ .

(*) سيباريس : مدينة اغريقية قديمة اشتهرت بالثراء والترف .
(المترجم)

وهكذا فانه يمكننا أن نتبنى كقاعدة عامة المبدئين التاليين :

١ ــ باضافة ٥ الى رقم الساعة الفرنسية فان حاصل الرقمين يوضح لنا الساعة عند المسلمين اذا لم يكن الحاصل يتجاوز الرقم ١٢ .

٢ ــ أما اذا ما تجاوز الحاصل الرقم ١٢ فان الزائد يؤخذ منفصلا ليكون هو الوقت عند المسلمين . فاذا ما افترضنا ان الساعة هى الثالثة عند الفرنسيين فباضافة ٥ تصبح الساعة الثامنة لدى المسلمين، أما اذا افترضنا أنها ٩ لدى الفرنسيين فاننا نجد أننا باضافة ٥ سنحصل على رقم ١٤ وهو ما تجاوز ١٢ وبطرح ١٢ منه يتبقى لدينا ٢ ويكون هذا الرقم هو الوقت عند المسلمين .

ونظرة سريعة الى الجدول التالي تبين لنا مثل ذلك الارتباط في كل ساعات الليل والنهار .

جدول ارتباط التوقيت

الساعة فى فرنسا	الساعة عند المسلمين	الساعة فى فرنسا	الساعة عند المسلمين
منتصف الليل	٥ ليلا	الواحدة بعد الظهر	٦ نهارا
الواحدة صباحا	٦ »	الثانية »	٧ »
الثانية »	٧ »	الثالثة »	٨ »
الثالثة »	٨ »	الرابعة »	٩ »
الرابعة »	٩ »	الخامسة »	١٠ »
الخامسة »	١٠ »	السادسة »	١١ »
السادسة »	١١ صباحا	السابعة »	١٢ المغرب
السابعة »	١٢ »	الثامنة »	١ ليلا
الثامنة »	١ نهارا	التاسعة »	٢ »
التاسعة »	٢ »	العاشرة »	٣ »
العاشرة »	٣ »	الحادية عشرة »	٤ »
الحادية عشرة »	٤ »	منتصف الليل	٥ » وهكذا
الظهر	٥ »	—	—

٦
الطبــاع

المصرى خجول بطبعه ، وهو يتفادى الخطر بقدر ما يستطيع . لكنه ــ ما ان يجد نفسه وسط المخاطر بالرغم من حيطته ــ يبدى همة ما كنت تظن فى البداية انها لديه ، وليس ثمة ما يساوى رباطة جاشــه وفى نفس الوقت تواكله ، ولقــد وأتتنا الفرصة لتسجيل هذه الملاحظة عــدة مرات اثناء حملتنا ، وهذا ما يبرهن على ما سبق أن قلناه من أن اصلاح مساوىء نظام الحكم سوف يؤدى بسهولة فائقة ، الى ان يرد لهذا الشــعب كل الفضائل التى فقدها ، بل التى لا يظنها هو نفسه كامنة فيه . كما ان ذلك سوف يوقظ فيه كل مشاعر النبل والهمة وعظمة الروح التى خنقتها الى حين تلك الانظمة الشيطانية التى يرزح تحت نيرها ، اذ تعمل هذه الانظمة الخبيثة على تدمير اخلاقيات الافراد(١) بشكل محزن ، من هنا ، ذلك الشــح الوضيع الذى يلاحظ عند ابناء الطبقة الدنيا من المجتمع وذلك الرياء الذى نجده لدى كل افراد المجتمع . فحيث ان المصرى يلقى الهوان فى طــاعة الكبار ، الذين يعرفون تماما معنى تلك السلطة التى فى حوزتهم والتى لا حدود لها والذين يتحكم فيهم خيلاؤهم الشرس ، فانه ــ أى المصرى ــ يحمل بين جوانحه روحا منكسرة تشى عن نفسها فى كل حركاته وايماءاته فيتذلل ويتحسس كلماته مع كل مّن يخشى قوتهم ونفوذهم ، وعندما يتاح له أن يدرج فى مصاف الاثرياء ، فانه يعمل على اشعار البؤساء الذين يأتمرون بأمره بوطأة استعلائه وتحكمه ، وتلك نتيجة طبيعية للتربية التى تلقــاها وللامثلة التى رآها فى حياته والتى آن أوان أن يحتذى بها .

ولا يستحى الفلاح أو الحرفى ــ مهما كانت مهنته ــ من أن يستجدى، حيث لا يهمهم كثيرا ما ســوف يقال عنهم وعن حالهم . بل انهم يفعلون كل

---

(١) لا نقصد بحديثنا هذا النظم الاسلامية ، ولكننا نقصد تلك القواعد والقوانين الهمجية والاستبدادية للبكوات المماليك ، والتى شوهت لحــد كبير اشكال ونظم الادارة التى وضعها سليم وسليمان الثانى .

ما فى وسعهم ليظهروا أمام الناس بمظهر البؤس والعوز بقدر الامكان . وفى المساء حين يترك العامل الورشة التى يعمل بها . فانه يلح فى الحصول على أجره عن ذلك اليوم ، ويظل يعذبك حتى تدفع له ، وقد يكون هـذا الالحاح القلق تعبيرا عن حاجة حقيقية عند البعض ، لكنه عند البعض الاخر مجرد تعبير عن تخوف العامل من ان لا يحصل على ثمرة عمله وجهـده ، وفضلا عن ذلك فان الكثيرين منهم لا يبدون مثل هذا التلهف فى الحصول على أجورهم الا لكى يقدموا للقائمين على شئون الأجور والمال ، الدليل على عوزهم وبهذه الطريقة يتفادون تلك المظالم والمغارم التى تهدد على الدوام اولئك الذين يبدو عليهم انهم يعيشون فى بحبوحة من العيش .

وعندما تعطى للمصرى مالا ، نقدا أو عينا ، فانه يحرص على الدوام أن يحرك ابهام يده اليمنى قائلا ــ كمان واحد ، ويذكرنا هذا بخصلة كانت للشيخ مربك (وربما موسيا او مصبع) شيخ احدى قبائل بدو الافراد . فقد جاء ذات يوم يشكو الى حاكم ولاية البحيرة من أن بدو بنى عـــون شنوا عليه الحرب وانه يحتاج إلى دعم لصدهم، وطلب لذلك فصيلة من خمسين رجلا . ووعده القائد بالاستجابة لذلك ، ثم بدات المحادثة تخوض فى أمور عامة ، وعندما آن له أن يمضى فقد عاد يذكر القائد من جــديد بالدعم الذى وعده به ، وساله عما ستكون عليه هذه المعـونة ، فاجابه القائد بانها ستكون عبارة عن خمسين جنديا ومدفع فهتف الشيخ فى حدة : خمسين جنديا ؟ فقط خمسين زودها واحدا ، اجعلهم واحــدا وخمسين ، واحدا وخمسين : وفى أثناء ذلك كان يحرك ابهـام يده اليمنى بطريقــة استجداء مضحكة ، حتى أننا لم نتمالك انفسنا من الضحك ، ومع ذلك فقد استوجب الأمر أن نسترضيه بأن نجعل الفصيلة تتكون من ٥١ رجلا بدلا من ٥٠ .

ومن الصعب أن نوفق بين عادة حب المال لدى المصريين وبين خمولهم وبلادتهم التى يمكن القول بانها قاعدة لطباع المصريين ، بل بين ذلك وبين سلوك الحذر والاحتراس الذى يسيطر على أبناء البلاد . فلم نسمع على الاطلاق اية شكوى من سرقات المنازل ، أو قل ان هذه حالة نادرة تمـاما بل اننا سوف ندهش اكثر من ذلك اذا ما علمنا أن البيوت والمحلات التى تضم بضائع غالية لا يقفل معظمها الا بضبات (ضبة) من الخشب غير جيدة الصنع . وباستثناء العربان والبدو ، يتميز المصريون بالاستقامة التى تعود

فى جانب كبير منها الى قسوة العقوبات التى توقع على اللصـــوص ، فكثيرا ما تبقى بالات البضائع الغالية الثمن لأيام عدة على الرصيف أو فى الطرق العامة فى حراسة ذمة الأهلين ، ولم نسمع ان مالكا قد شــكا من نتائج مثل هذه الثقة .

ذات يوم قام أحد الدلالين الأتراك لنا بعملية تجارية عادت عليه بربح قدره ٨٠ فرنكا ، وبعد فترة من الوقت ذهبنا لنحدثه فى أمر صفقة أخرى لا تقل عن الأولى عطاء بالنسبة له ، وكان جالسا على المقهى يدخن نارجيلته بعظمة ، وبصعوبة شديدة أصاخ السمع للعروض التى قدمت له ، ولاننا الححنا فى الطلب فقد رد : لست احتاج شيئا ، اذهبوا الى فلان فهو بائس فقير وسيفعل لكم ما تطلبونه منى ومثلى تماما .. لقد ذكرنا هذه الواقعــة ذات الدلالة لكى نقدم مثالا على ذلك التناقض الذى يسيطر دائما والذىيقوم بين الطباع وبين السلوك . ومع ذلك فليس ثمة ما هو اكثر كرما ولا اكثر عظمة من ذلك بل ولا اكثر حكمة مما يتضح فى هذا السلوك . السنت على حق اذن حين آمل بأنه سيكون فى الامكان ان ندخل عند أمثال هؤلاء القوم افكارا اكثر عدالة اذا ما اشعت عليهم أضواء الحضارة الأوروبية(١) . ولست امل على الاطلاق من تكرار مثل هذه الحقيقة التى لا جدال فى صحتها .

---

(١) ولكن على الرغم من هــذا المثال الطيب فان الشعب فى مجموعه لا يتصف بالكرم ، وذلك ناتج عن الحاجة اكثر منه عن الطبع ذلك ان الكرم يفترض الميسرة واذا ما ظهر المصرى بذلك فسوف يتعرض لمظالم الحــكام وانتهاباتهم .

اهكذا ينبغى ان يقتل الخوف والطغيان اجمل الفضائل ؟ ومما يدل على ان المصريين اســخياء بطبعهم ــ بل مجبولون على فعل الخير ــ ان أولئك الذين استطاعوا منهم بفضل مكانتهم ونفوذهم وثروتهم الا تنالهم مظــالم وانتهابات حكام الطغاة ، يعيشون فى بيوتهم فى ابهة وترف ويقومون عــدة مرات فى العام بتوزيع الهبات والعطاءات .

٧

عن الماشية والخيول وكافة دواب الحمل

لا يمكن للمصريين أن يكون لديهم ذلك العدد من القطعان الكبيرة من الحيوانات التى لدينا ، والسبب فى ذلك بالغ الوضوح ، فالمراعى عنـدهم ليست بمثل وفرتها عندنا . فاذا ما استثنينا مصر السفلى وشطآن وادى النيل بعرض ١ ــ ٣ فراسخ ، فسوف نجد أن اراضى مصر قاحلة تماما ، بحيث يستحيل اطعام الماشية ، ومع ذلك فسكان الريف يمتلكون جميعـا بعض الأبقار والجاموس وبعض الماعز وبخاصة فى الدلتا ، لكن الجمال والخيول والحمير توجد بأعداد اكبر ، لأن مهمة اطعام هذه الحيـوانات اقل صعوبة ، اذ لا يقدم للخيول سوى التبن (قش مدروس تحت النـورج الذى يقوم بدرس القمح والشعير) والبرسيم . ويطعمون فى الربيـع بالشعير بعشبه وهو يزرع لهذا الغرض ولا ينبغى أن يترك فى الارض حتى يبلغ مرحلة النضوج ، ويقوم زراع الشعير بتشكيل حزم صغيرة منـه يبيعونها فى المدن : كل حزمة بواقع ١ ، ٢ مدينى . اما المماليك وغيرهم من الأثرياء الذين يحرصون أن تكون خيولهم قوية جميلة المنظر ، فيطعمونها بالشعير الحب(١) .

ولا تلقى الجمال مثل هذه العناية الكبيرة اذ لا يقدم لها سوى القش والفول المطحون بالرحى ، وبالاضـافة لذلك فان الجمال تقـرض أوراق وبراعم الاشواك التى تنمو على حواف الترع وشواطىء النهر ، وتقدم لها فى الربيع أوراق الأشجار ، وهو طعام مفضل لديها ، وعندما تصبح حرارة الصيف ملتهبة يجمع الفلاحون أوراق الأشجار ليستخدموها شتاء فى اطعام الثيران والماعز .

---

(١) يطعم العربان خيولهم باشياء قليلة جدا . وهذه الخيول نحيلة وقوية وتتحمل المشـاق والحرمان لدرجة أكبر من الخيول الجميلة المنظر ، وهى لا تشرب سوى مرة واحدة فى اليوم ، ويردد العرب دائما هذه الحكمة : يا بخت الخيل عند الغز ، يا بخت العرب مع الخيل ، وذلك تعبيرا عن ان العربى يحصل على منافع كبيرة من حصانه باقل التكاليف فى الوقت الذى يحصل فيه حصان المملوك من سيده على نحو ما على اكبر النفع .

والحمار هو دابة الركوب المعتـادة لأبناء الشعب ، وقد تعـود الفرنسيون على تلك الدابة بسهولة ، وفى الحقيقة فان الحمار فى مصر لا يتميز بهذا البطء ولا بالمظهـر الدنىء اللذين لنظيره فى أوربا . فسرعته مناسبة وخطوه جميل ويخب بسرعة طيبة ، وهو شديد التحمل ، وقد رأينا فى الصحراء حميرا صغيرة الجسم لكنها تحمل فوق ظهرانيها ما يقـارب من نصف حمولة الجمل ، ومع ذلك فان الحمار يقاوم التعب بأحسن مما تستطيع الجمال .

وتوجد فى القاهرة أنواع عديدة من هذا الحيـوان ، والنوع الكبير منه جميل الشكل ، ويستحق بالفعـل الأطراء الذى امتـدحه به بوفون Buffon ويبلغ علوه من ٣ ــ ٣ ١/٢ أقدام دون أن ندخل فى ذلك ارتفاع الرأس ، ورقبته عريضـة قصيرة ورأسه مرتفع جميل ، وقامة جسمه متناسقة ، وله ملمح نبيل وعيناه مليئتان بالحيوية . انه حيوان قوى ، جميل الخطو ، ويناسب الفرسان لكنه غالى الثمن ويفضل فى معظم الأحيان على الحصان اذ يباع بحوالى ٦٠ ــ ٧٠ قرشا أسبانيا ، ومن نافلة القول أن نؤكد بأن هذا النوع جميل جدا ويستحق بالفعل تلهف الناس على استئجاره للسير به فى شوارع المدينة ، وهو مملوك لأفراد يستطيعون شراءه .

أما ذلك النوع من الحمير التى يقودها المكاريون فهو أصغر بكثير لكنها بالمثل بالغة الجودة . ويدفع فى الجولة التى تمتد من أول القـاهرة الى آخرها حوالى ٩ ــ ١٠ بارات . ويكلف ايجار الحمار ليوم بأكمله ٣٠ ــ ٤٠ بارة وكان السعر أقل من ذلك بكثير قبل مجيئنا الى مصر . وبسبب ارتفاع السعر بالغ الوضوح ، فمع مجىء الفرنسيين تضاعف عدد الجولات فى شوارع المدينة . ويتبع المكارى حماره جريا على الأقدام ، ويحمل فى يده قضيبا صغيرا من الحديد تتدلى منه الجلاجل ، وصخب هذه الاجراس الصغيرة تجعل الحمار يخب ، فاذا لم يجر بالسرعة المطلوبة ينخسـه المكارى بهذا القضيب ، فهو مدبب من أحد طرفيه .

ويوجد فى القاهرة عدد كبير من البغال يستخدمها رجال الدين وكبار التجار ، وثمنها هى الأخرى مرتفع . وقبل مجىء الفرنسيين الى القاهرة

لم يكن يحق لأحد سوى المماليك ان يمتطى ظهور الخيل(١) . وكان من عادة المماليك أن يعدوا بخيولهم عدوا ولوحظ انهم لا يسيرون بخيولهم هـــذه وهى تقفز ، وكانوا يدربون هذه الخيول بأن يندفعوا الواحد ضد الاخـــر ، وأن يتلامسوا بفعل الاقتراب ثم يتجاوز الواحد منهما الآخر ثم يناوشـــان بعضهما البعض بالسيف وكانت احدى تدريباتهم المفضلة أن يوقفوا حصانهم فجاة وهو فى أقصى سرعته ، وكانت هذه الحـــركات المفاجئة والعنيفـــة والصعبة تعرض الحصان لانحراف خطر مما يحطم له ساقيه . لذلك فان أغلب الخيول التى تدربت على هذا النمط المملوكى كانت تعانى من هـــذا العيب ، فقد كانت سيقانها ضعيفة لحد كبير ، وقد لاحظنا أكثر من ذلك أن معظمها يتميز بشيء من الصلابة والقسوة ، كما أنها تعانى من ضيق فى حركاتها ، وذلك ناتج بلا جدال عن القيود التى وضعت فى اقدامها لأوقات طويلة .

ومن النادر أن نرى فى مصر حصانا خصيا ، فهم يركبون الخيل فى سن الثالثة ، وعندما يتجاوز عمر الخيول العاشرة يكف استخدامها ، وثمة خيول مصرية بالغة الجمال لكنها مع ذلك ليست من نوع واحد ، وخيـــول الصعيد اكثرها جدارة ، فسيقانها ــ شأنها فى ذلك شأن كافة الخيـــول العربية ــ دقيقة رفيعة ، وعينها يقظة ورأسها مستقيمة . أما كفلها فانه أقل بدانة مما لخيولنا الرعوية وحركاتها أنيقة وخطوها مناسب ، خاصـــة اذا لم تكن قد أتلفتها طريقة المماليك فى التدريب، ومع ذلك فربما لم يكن فيها جميعا نفس ما فى خيولنا الحربية من نبل وعزم ، ولن يجد الفرنسيون مثيلا لهذه الخيول المصرية فى تقفزها وليونتها ، لكنها أقل من خيولنا احتفاظا بقوتها ، كما أنها أقل منها احتمالا للمشاق ، ويقال انها بالغة الخفة وأنها

---

(١) يؤكد بعضهم أن المسيو روزتى Rosetti قنصل النمسا قد أراد ذات يوم أن يتمتع بهذا الحق لكن الناس أنزلوه من فوق ظهر الحصان .

تتفوق على خيولنا فى سرعتها ولكنى شاهدت فرسا فرنسيا تسبق حصانا عربيا قويا بمسافة كبيرة(١) .

والخيل فى مجموعها ليست فى مثل عنف خيولنا ، فالأمر يمضى غاية فى الهدوء فى حظائر الخيول ، ومن السهل أن تضعها بالقرب من الفرس دون أن تضطرب الأمور .

وفى أثناء اقامتنا فى مصر كان سعر الحصان يبلغ من ١٢—٢٠ لويس وينبغى أن نلاحظ أن المماليك كانوا قد رفعوا سعره فى هذه الفترة .

ولا يركب العربان مطلقا الا الفرس ويعلقون اهمية كبيرة على الاحتفاظ بأنسابها الطيبة نقية بعيدا عن اى اختلاط ، بل ولديهم خبراء فى علم اجناسها ، والفرس المسمى كويت هو اكثرها امتيازا ولا تقدر بثمن، ويبلغ ثمنها من ٥ — ٦ آلاف فرنك ، وقد رأينا منها اثنتين او ثلاثا رائعة الجمال .

وللخيول العربية صغيرة الحجم والتى قد لا تلفت الانتباه بأناقة شكلها ميزات تعوضها عن مظهرها المتواضع هذا ، اذ هى فى العادة اكبر سرعة من الخيول الاخرى كما أنها أكبر منها بكثير مقاومة للتعب .

---

(١) تتطلب الخيول فى مصر عناية فائقة ، فبعد اقل جولة تقوم بها ينبغى أن يقوم احد الخدم بجعلها تمشى حتى يجف عرقها ، وبدون هذا الاحتياط يمكن أن تموت على الفور ، وهى فى العادة جفولة وتتعرض كثيرا لمرض الرئتين، ويستخدم الشرقيون ركابا للسرج ، عرضه كبير ويستخدمونه فى نفس الوقت كمهماز ، وتكفى ضربة قوية لهتك مخذ الحصان ، ولجامها قوى وجاف والطريقة التى يستخدم بها هناك تؤدى سريعا الى تحطيم فك الخيول فلا يمكن ايقافها بعد ذلك — اذا ما اخذت تعدو — الا عن طريق هذا اللجام .

٨

تقاليـــد عربان البحيرة

يمكننا أن نحصى فى ولاية البحيـــرة الواقعة ما بين الاســـــكندرية والقاهرة والفرع الأيسر للنيل سبع قبائل أساسية من العربان ، اســـتقر عديد منها هناك منذ زمان بعيد .

واكبر هذه القبائل عددا قبيلتا الهنادى والجوابى ، ويمكن ان يبلغ تعداد الأولى ٠٠٠ر٣٠ شخص رجالا ونساء بينما تكون الثانية على نحو ما أمة صغيرة من الرعاة ، يحكمها شيخ كبير ورث المشيخة عن اجداده . وحيث أن عائلته هى اقوى عائلات القبيلة فانه يمارس سلطته المطلقة بحق الوراثة ، حيث لا توجد هناك أية قوانين وضعية . وتنقســم القبيلة الى ثلاث طبقات تنقسم كل منها بدورها الى عائلات ، أما مكان الاقامة فواحـد بالنسبة للجميع ، ولكل واحد قطيعه من حول خيمته وهذه القطعان تتكون من جمال وماشية صغيرة ، ويمكن للعربى المتواضع الثراء ان يمتلك ٤ أو ٥ أو ٦ من أناث الجمال واثنين من ذكورها ، بخلاف الماشية الصغيرة التى يمتلك منها عددا كبيرا .

وتغير القبائل أماكنها فى فترات منتظمة الى حد ما ، ويحدد مناطق تجوالها الأمل فى العثور على المراعى اللازمة لامداد قطعانها بالغذاء ، ولهذا تذهب الجوابى كل عام من مريوط الى الصعيد ، وهكذا فانهم يمرون بوادى بحيرات النطرون ويحملون معهم كميات من الملح ويحصلون فى مقابل ذلك على ثمن تحدده العادة ، وفى نفس الوقت يذهب هؤلاء العربان انفسهم الى الواحات لشراء البلح الطازج أو المجفف ليبيعوه بعد ذلك لصغار التجار فى مصر .

وتقاليد هؤلاء العربان بسيطة ورعوية وتنأى بهم عن القيام بالسطو والنهب ، اذ لا يمكن أن يوجـــه مثل هـــذا الاتهام الا لعدد جد ضـــئيل من أمتهم الصغيرة تلك ، ولا يحدث بينهم الا قدر ضئيل من السرقات التى يلقى مرتكبوها عقابا رادعا من الشيوخ .

وفى اثناء جولاتهم تلك ، والتى تتم ببطء شديد ، يمشى الاقوياء من الرجال صغار السن على اقدامهم بينما يركب الشيوخ والأطفال على ظهور الجمال ، وتسهر النسوة على شئون النقل مع ازواجهن ، وهن لا يغطين وجوههن الا امام الأغراب ، وتبتدىء الجمال المسيرة تليها قطعان العائلات المختلفة ، وهذه القطعان منفصلة فيما بينها . ويبلغ تعداد حيوانات القطيع ٢٠٠ ، ٣٠٠ ، ٥٠٠ واكثر .

وملابس افراد هذه القبيلة هى نفس ملابس بقية العربان ، فالرجال يرتدون قميصا خشنا ومعطفا من الصوف الأبيض او الغامق ويلفونه فوق رءوسهم ليتقوا حرارة الشمس ، كما يستخدمونه غطاء فى الليل ، وللشيوخ معطف من الصوف الابيض . لكنه اكثر نعومة ، ولا ترتدى النساء الا جلبابا خفيفا ويزين خصلات شعرهن بزينات متعددة .

ويرى قليل من الخيل لدى الجوابى حيث لا يتجاوز عدد فرسانها الاربعين ، بينما يبلغ تعداد فرسان الهنادى اكثر من ثمانمائة .

وابناء قبيلة الجوابى شديدو التدين ، وهم يتبعون الديانة الاسلامية بشكلها الأنقى ولا تعرف عائلاتها الكبيرة عادة التدخين ، فهذه العادة لم تدخل القبيلة مطلقا ، كما انهم يمتنعون عنها اما احتراما لعاداتهم القديمة واما بدافع دينى غامض بحيث لم نجد فى هذه الأمة الصغيرة الا عجوزا واحدا يهوى تدخين التبغ وينتسب هذا الشيخ الى عائلة قديمة ويقابل فعله هذا الذى يتعارض مع العادات المتبعة بتسامح اعتبارا لسنه ، ولا تدفع الجوابى ضرائب مطلقا ويكتفون بأن يرسلوا كل عام الى قائمقام دمنهور هدية تتألف من بعض الجمال .

وتعيش الجوابى فى قناعة شديدة ، وهى عادة شائعة ــ كما راينا ــ عند كل العربان ، ويكتفى المرء هناك بوجبتين ، واحدة عند الظهر والأخرى عند غروب الشمس ، وتتكون الوجبة من اثنين او ثلاث بلحات مع شىء من الخبز مغموس بالزبد الذائب على النار . ويكاد المرء لا يتصور كيف يمكن لأجسام تغذت على هذا النحو ، ان تتحمل تلك المشاق التى لم نسمع عنها ، وتحت سماء ملتهبة لهذا الحد . ولايكاد يبلغ اجمالى كمية الطعام التى يتناولها المرء فى اليوم ٦ أو ٧ اوقيات ، وبرغم ذلك فالعربان بوجه عام

خسنو الصحة ، واذا ما استثنينا امراض العيون ـــ وهى الأمراض المتوطنة ـــ فانهم أقل من غيرهم عرضة للامراض من كافة شعوب أوربا(١) ، وفضلا عن ذلك فهم لا يتناولون المشروبات الروحية ويكتفون بشرب البان النوق والماء القراح ، وتصنع آنية الشرب التى يستخدمونها من الخشـــب ، أما تلك الآنية الطينية المعروفة باسم القلة فليست شائعة عندهم ، وشرب القهوة يعد واحدا من المتع التى نادرا ما يسمحون بها لانفسهم ، وليس بينهم من يعتاد عليها سوى الشيوخ ، ولا يقدم هذا المشروب فى الخيمات الاخرى الا عند الترحيب بزائر غريب .

والجوابى مضيافون بالغو الكرم ، ويمنحون حمايتهم لكل الناس بلا تميز ، بل انهم يدخلون فى حماهم حتى المجرمين المطاردين ، ويقيم الغريب فى خيمة مضيفه الذى يبذل كل جهده لكى يكرم وفادته ، وتغطى النســـاء وجوههن امامه دلالة على الاحترام . وتتجلى مودة العربان وكرمهم خاصـة فى الوجبات التى تقدم للمسافرين الذين يلجاون اليهم طلبا للضيافة ، فهذه باذخة بالنسبة لظروف المضيفين ، وتتكون من الأرز والخبز والبصل المشوى وخروف مسلوك يقدم فى طبق كبير انتزعت منه فقط بعض اجـــزاء لتحميرها وتقدم هى الاخرى على المائدة ، وزيادة فى تكريم الضـــيوف يحرص المضيف على أن يختار لهم بنفسه احسن قطع اللحم ، وقد يدهش المرء من عواطف واحاسيس هؤلاء الناس الذين هم بالكاد فى أول اطوار الحضارة ، ومن اخلاصهم وحماستهم حين يتحدثون عن مباهج حيـــاتهم تلك .

ويتكون اثاث الخيمة من سجادة خشنة وبعض الأوانى الخشبية او الفخارية واسلحة من أنواع مختلفة واحيانا بعض ادوات من الحبال واثاث من نوع خاص . وليس فى خيمة شيخ القبيلة ما هو اكثر من ذلك ، وربما يكون الشىء الوحيد الذى يميزها عن بقية الخيام هو فخامة الســـجادة المفروشة فيها . والتى ليس فيها برغم ذلك شىء غير عادى وقد يصل ثمنها الى ٣٠ ـــ ٤٠ قرشا اسبانيا .

---

(١) أنظر : Volney, Etat politique de la Syrie, p. 361 et s.
وكل ما قاله هذا المؤلف عن بدو سوريا ينطبق على بدو مصر .

ويقوم العربان بجولات طويلة للغاية فى الصحراء . ويتوغلون فيها احيانا لمدة تبلغ العشرين يوما واكثر ، ويجعلهم تعودهم الطويل يتعرفون على السهول الرملية ، فهم يعرفون الأماكن التى توجد بها المياه وليس ثمة من صحراء مهما كانت قاحلة لا تحتوى على مصادر للمياه أو على الأقل لا تحتوى على آبار للمياه الصالحة للشرب ولو كانت مالحة بعض الشىء ، وفضلا عن ذلك فهم يحملون على جمالهم الماء والمؤن الضرورية ، ويحتفظ المسافر بالماء فى آنية كبيرة من الجلد يغلقها بسدادة خشبية ويعطرها بالمستكة .

اما البدو الذين يعيشون على السلب والذين سنتحدث عنهم بعد قليل فانهم يجمعون كل ما سلبوه ليقتسموه فيما بينهم حسب قواعد متفق عليها حتى يتجنبوا الاقتتال فيما بينهم ، ونادرة هى الحالات التى يستوجب فيها ان تعود الخيل او الأمتعة المسلوبة على واحد دون الآخر ،ونادرا كذلك ما يفوتهم ان يخصصوا جزءا من هذه الأسلاب لشيخ القبيلة حتى ولو كان غائبـا .

والنساء عند هذه الشعوب الجوابة لسن متعطلات ، بل يصنعن قماش الخيام وينسجن بانفسهن السجاجيد لتاثيث هذه الخيـام ، وهن يستطعن صباغة هذه السجاجيد بالوان زاهية ومتنوعة وتكاد هذه الألوان ان تكون اكثر ثباتا من الوان اجمل سجاجيد الأناضول . وعندما يذهب بعض العربان الى المدن ، فانهم ياخذون على عاتقهم القيام بالأعمال التجـارية الخاصة بالقبيلة كما يحضرون الأصباغ اللازمة لعمل النساء .

ومن حق العربى ان يتخذ لنفسه عدة زوجات ، ولكنه نادرا ما يستعمل هذا الحق ، فلكل عربى زوجة واحدة ، ويشترى الأغنياء منهم اماء زنجيات وعبيدا سودا فى بعض الاحيان . وتسمح لهم الشريعة بالطلاق شأن بقية المسلمين ، لكن عادة الطلاق ليست منتشرة بينهم بنفس درجة انتشـارها عند سكان المدن المصرية . بل ان من يطلق زوجته منهم يجر على نفسـه نوعا من الاحتقار ويعرض نفسه للرفض العام . وقد شوهدت بنت احـد الشيوخ الكبار وهى ترفض ان تعيش مع ابيها لأنه طلق امهـا ، كمـا لم يستطع ابنه الشاب الذي كـان يدير شئون عـائلته بـذكـاء كبير أن يمنع نفسـه من ان ينظر لهذا السلوك من جانب ابيه باحتقار شديد .

ويدفع لنساء هذه القبيلة مهر كما يسمح لهن بامتلاك القطعان .

والحرية هى كنز العربان الثمين . فهم ينفرون من أى نـــوع من الخضوع وهم يفضلون ان يقدر عليهم البقاء فى عزلتهم الواسعة تلك فى الصحراء من ان يتحملوا خضوعا من اى نوع . ولا يريد الجوابى أن يرتبطوا بشكل مطلق بزراعة الاراضى اما لانهم يخشون ابدال طباعهم واما لأنهم ينفرون غريزيا من الزراعة واما تمسكا منهم بعاداتهم القديمة . وفى بعض الأحيـــان يبذرون قطعة من الأرض روتها الأمطار ، ومع ذلك فان توقـــع حصولهم على محصول وفير فى العام التالى لا يغريهم مطلقا على البقاء ، بل انهم يكتفون بما حصلوا ويحملون خيامهم الى مكان آخر .

ونحن نرى من هذهالتفاصيل كيف اننــا هنا فى أوربا ســوف نكون مجحفين تجاه العرب لو اتنا نظرنا اليهم كأناس همج ليس لديهم شـــفقة ولا رحمة ، فلقد ترددنا عليهم كثيرا وكنا شهودا على مودتهم وفطـــرتهم البسيطة وفضائلهم الرعوية ، واذا كان ثمة من بينهم قبائل تســتحق لوم الأوربيين فنحن لا نستطيع ان نعمم هذا اللوم دون ان نحكم على انفسنا بالجور وعدم الانصاف ، فتقاليد الجوابى وكذا تقاليد عدد كبير من قبائل أخرى لا نستطيع أن نتناولها بالحديث هنا، ليست باقل جدارة بأن تتخـذ نموذجا يحتذى من تقاليد اية أمة متحضرة .

وتوجد على مشارف ولاية البحيرة بخلاف قبيلتى الهنادى والجوابى ، القبائل الآتيـــة :

١ ــ قبيلة الأفراد ، ويمكن القـــول بأنها ليست سوى فـــرع من الهنادى وتكون من حوالى ٣٠٠ فارس .

٢ ــ قبيلة الجويلى ، وتضم اكثر من ٤٠٠ فارس .

٣ ــ قبيلة بنى عون ، وتبلغ قوتها ٣٥٠ رجل يركبون الخيـــل .

٤ ــ قبيلة أولاد على ، وتبلغ قوتها ٣٠٠ رجل يركبون الخيل .

والقبائل الثلاث الأخيرة متحالفة فيما بينها ، وهى فى حالة حرب مستمرة مع القبائل الأولى . وهذه القبائل المختلفة قد انقسمت علي نحـــو

ما السلطة المطلقة على الولاية ، ونشروا مساعدتهم وحمايتهم على بعض القرى ضد عشائر اخرى من البدو فى مقابل اتاوة سنوية . وعندما ترفض واحدة من هذه القرى أن تدفع المبلغ المتفق عليه او اذا لم تستطع ذلك فان الحماة المدعين يغيرون من أدوارهم ، وينتظرون حتى يصل الفلاحون ومعهم ماشيتهم الى الحقول ، وعندئذ تنشق عنهم الأرض فجأة ، وينتزعون كل ما يستطيعون ، ولا يردون ما سلبوه الا اذا حصلوا على ضعف الاتاوة التى سبق الاتفاق عليها ٧ ويتم هذا الصلح بالاتفاق بين الطرفين . لكن الغرم يقع على الدوام على الفلاحين الذين لا يمكنهم أن يعرضوا انفسهم لمثل هذا الابتزاز البشع دون دوافع قوية . اما اذا ما اتفق الفلاحون فيما بينهم ، فان القبيلة الحامية تقوم بحصارهم حتى يدفعوا الاتاوة مع المغارم التى يحلو للاقوى أن يفرضها . ولكن اذا ما حدث ــ صدفة ــ أن حملت القرية السلاح لتدفع المعتدين بالقوة فالويل للفلاح الذى يقتل بدويا او حتى يحدث فيه جرحا ولو بسيطا ، والويل لأسرته ولذريته ، فالدم لا يعوضه الا الدم ، ولسوف يقتقم الجريح واهله او حلفاؤه لعاره الآن أو فى المستقبل .. وعند موت احد البدو يعهد الى ابنه أو الى اقربائه الاقربين بمهمة الثأر وهذا فرض مقدس ذلك ان قانون الدم عند البدو هو اهم القوانين التى تطبق عندهم . وقد حدث مرات كثيرة ان طلب ثأر واحد من الاهل او الأجداد بعد أن كانت قد انقضت فترة كبيرة من الزمن منذ موته . وعندما تسنح فرصة الانتقام فان المتضرر أو من يتصرف باسمه لا يفوته أن يمسك بها ، وعندئذ لا يعرف لغضبه حدود ، ومع ذلك فيمكن شراء الدم بجعل مالى ، لكن مثل هذا الاتفاق ينبغى أن يصدق عليه كل افراد العائلة والا اعتبر كأن لم يكن . وبخصوص الجرح البسيط يمكن الاكتفاء بمبلغ يتفاوت قدره بحسب الجرح، ويدفع هذا المبلغ نقدا او عينا ، أما بخصوص الموت فيفضل الانتقام ولسوف تجلل أسرة المتوفى نفسها بالعار الشديد إذا هي قبلت فى مقابل دم القاتل فدية مهما كبرت ، تاركة بذلك روح قتيلها هائمة(١) .

---

(١) يدخل Volney فى بعض التفاصيل المتصلة بهذه العادة الهمجية ، لكننا نكتفي بأن نحيل قراءنا الى مؤلفه :

Etat Politique de la Syrie,

ونقدم هنا امثلة على تطبيق قانون الدم كيما نبين كيف أن العرب قساة فى هذه النقطة .

ذات يوم تقابل اثنان من الأعراب : احدهما من الافراد والاخــر من الهنادى بالقرب من بسنتاواى ، وهى قرية تقع على بعد ١٢ فرسخا جنوب شرق الاسكندرية . وكان الافراتى يقود تسعة أو عشرة ثيران تملكها هذه القرية فسأله الهنادى :

ـ هل صحيح انكم فى سلم مع الفرنسيين ؟
ـ صــحيح .
ـ اليس من الأحسن ان تتحالفوا معنا بدلا من ان تتحالفوا معهم ؟
ـ ماذا تريد ؟ هكذا اراد الشيخ مربك .

فقــال الهنادى :

ـوهذه الثيران ، هل تقودها الى معسكر الفرنسيـين .
ـ لا ..
ـ لكنى امنعك من ذلك وسآخذها منك
ـ لا تقدر على ذلك ..

وهنا هوجم البدوى المتحالف معنا ، وبعد معركة خفيفة ، خدش أثناءها الهنادى خدشا بسيطا فى يده فصاح : « يا ربى : اتقاتلنى بدلا من أن تقاتل الفرنسيين ؟ » .

فأجابه الآخر فخورابما احرزه من كسب :

ـ لا عليك الا أن تنشد السلام . ابتعد .
ـ السلام : سأصنعه بارادتى ، ولكن (واشار الى يده) .. الدم!
ـ حسن ، لا عليك ، اطلب ما تريد .
ـ اعطنى ثورا من الثيران التى تقودها فينتهى الامر .

وانتهت المعركة بالفعل بهذه الطريقة . ومع ذلك دفعت القرية الأجر المقدر لحارس ثيرانهم هذا بالرغم من أن الثيران قد نقصت واحدا بسبب غلطة منه هو .

ويعرف الفلاحون معرفة تامة ذلك الطبع الحقود الذى للبدوى ، حتى انهم يتحاشون ان يجرحوه أو ان يقتلوه مهما كان حجم الضرر الذى وقع منه عليهم .

ذات يوم لمح احد البدو بينما هو يمر على حصانه فى سوق دمنهور بقرة اعجبته فالقى على عنقها حبلا به عقدة متحركة وجذبها اليه وسار بها، وبعد ان افاق الفلاحون من دهشتهم جروا خلف السارق وادركوه في اللحظة التى كان فيها على وشك ان يجتاز ومعه غنيمته ترعة مليئة بالمياه ، فأوقفوه، وبعد ان استعادوا منه بقرتهم ذبحوا حصانه أمام عينيه ، ثم ارقدوه هو نفسه على بطنه وضربوه بالعصا ٢٥ ضربة ، وبعد ذلك أنهضوه واطلقوا سراحه . ووصلت فى هذه اللحظة الى المكان داورية فرنسية قد ارسلت فى اثر البدوى ، ودهش القائد وسريته الصغيرة من أن الفلاحين قد قتلوا الحصان ولم يقتلوا اللص وسألوا سبب هذا الأمر العجيب ، وعندئذ اجاب اكبر الفلاحين سنا عن طريق مترجم بانهم قتلوا الحصان عقابا للبدوى ، وبأنهم استبقوا البدوى حتى لا يعرضوا انفسهم لحق لا يمكنهم الافلات منه وهو حق تعويض الدم .

واذا كانت الشراسة والعناد اللذان يبدوان فى طباع البدو الحقود ، يكفيان لتقديم فكرة سيئة عن اخلاقيات هؤلاء القوم ، فان من الصعب ان يكون حكمنا عليهم بأفضل من ذلك اذا ما نظرنا الى اخلاقياتهم بمعيار الصفات الحميدة والفطرة السليمة ، ولقد قدموا لنا اثناء مدة الحملة اكثر من دليل على ما يمكن للمرء ان ينتظره وان يخشاه منهم لكننا نكتفى هنا بان نروى الحكاية التالية لأنها تقدم لنا أمرا من اكثر امورهم غرابة .

بعد عـدة أيام من عملية ١٤ فلوريال(*) التى هـزم فيها ٤٠٠ من الفرنسيين وردوا خمسة وعشرين ألفا من البدو والمغاربة والفـلاحين المتمردين ، جاءنا الشيخ مربك شيخ الأفراد لزيارتنا وسألناه أين كان وقت الأحداث،فأجاب ببساطة « كنت على بعد ١/٢ فرسخ من ميدان المعركة مع كل أبناء القبيلة على خيولنا ومسلحين — آه ؟ وماذا كنتم فاعلين بسلاحكم؟ — كنا سنبث الاضطراب فى صفوفكم بإعمال السيف فيكم واكمال هزيمتكم لو دارت الدائرة عليكم » ، وقد أدهشتنا هذه الاجابة لكنا تمالكنا أنفسنا وسألناه : — ولكن ، ألسنا فى سلم معكم ؟

— هذا صحيح ، لكن لا ينبغى أن يدهشكم سلوكنا فطريقة البدو دائما هى الانقضاض على الضعيف ولكن نحن ؟ نحن الذين صادقناكم ! هـذا صحيح ، لكن الصداقة بيننا لا تستمر الا طالما أنتم أقوياء . ولقد أتيح لمبدأ الشيخ مربك هذا أن يطبق بتمامه بعد عام كامل ، فقد كان البدو قبـل معركة هليوبوليس على استعداد للعمل لصالح العثمانيين ، بل أن قبائل عدة كانت قد انحازت بالفعل الى صفوفهم ، ولكن مـا أن تقهقر الجيش العثمانى حتى انقض هؤلاء الحلفاء الخطرون عليه ونهبوا مؤنه وأبادوا عددا كبيرا من جنوده حتى كادوا أن يأسروا الصدر الأعظم نفسه(١) .

(*) الشهر الثامن من التقويم الرسمى لفرنسا ، ابتداء من ٢٢ سبتمبر ١٧٩٢ ، وقسمت بمقتضاه السنة الى ١٢ شهرا ، بواقع ٣٠ يوما للشهر . أما الأيام الخمسة الباقية من السنة فقد عرفت بأيام الشعب وجعلت كلها أعيادا ، ويعرف اليوم السادس — فى السنوات الكبيسة — بيوم الثورة ، وقد قسمت الشهور الى ثلاث عشريات ، وجعل اليوم العاشر من كل منهـا يوم عطلة . والأشـهر الاثنى عشر هى : فنديميير ، برومير ، فريمير ، نيفوز ، بليفوز ، فنتـوز ، جرمينال ، فلوريال ، بريريال ، مسـيدور ، ترميدور ، فريكتيدور . (المترجم)

(١) ونحكى كذلك الحكاية التالية وهى ان كانت لا تضيف شـيئا الى ما ذكرنا الا أن لها جانبا فكاهيا لحد ما . فى أثناء معركة دارت بين البدو الحـامين لدمنهور مع بدو آخرين حمـاة لقرية سرنباى ، ذهب الأولون للاسـتيلاء على ماشـية القرية الأخيرة ، ورد الآخرون على الشر بالشر فانتهبوا دمنهور ، وبرغم قصر مدة المعركة فانها قد تركتا البلدتين بلا ماشية على الاطلاق .

وعندما ذبح البدو . والفلاحون المتحالفون معهم ، الحامية الفرنسية فى المنصورة وكانت تقدر بـ ١٢٠ رجلا ، اتاح الحظ لجنديين من التابعين للواء الثالث ان ينجوا بحياتهما ، واصطحبهما البدو اسيرين ، وكان هذان البائسان بالاضافة الى ثالث امكنه الهرب هم كل من بقى من افراد الحامية على قيد الحياة بعد الكارثة التى حلت . وبرغم كل شيء فنحن مدينون لهما بالمعلومات التى سنتقدمها هنا ـ برغم النقص البادى فيها ـ حول مختلف عادات هؤلاء البدو .

كان معسكر القبيله يقع على بعد ثلاثة فراسخ من المنصورة . وقد اشاع الأسيران فى البداية اكبر قدر من الدهشة بين سيدات واطفال احدى القرى حيث توقف الذين كانوا يقتادونهما ليحصلوا لهما على بعض الطعام . وعندما وصل الأسيران الى خيمة العربان ، ابلغا بأن ليس ثمة ما ينبغى ان يخشياه على حياتهما ؛ وبرغم ذلك فان قيام هؤلاء الهمج بذبح اسير فرنسى آخر وفى برود تام امامهما لم يوح لهما بكثير من الثقة فى مثل هذه الوعود . لم يفرض على الاسيرين القيام بأى عمل . بل لقد قضيت لهما بعض طلباتهما .

وقد لاحظ الأسيران ان طعام القبيلة شديد البساطة ، فكمية من العدس وبعض البقلاوة تقدم فى طبق يشبه المقلاة ، او بعض الحب المجروش المغلى وعليه شيء من الزبد يكفى وجبة لرجل ، وفضلا عن ذلك فهذه الأصناف تقدم بكمية قليلة للغاية ، وقد تبين للأسيرين ان اهم اشخاص القبيلة ، برغم مكانته وثروته وهو يرتدى قماشا من الحرير ويتمدد على حشية ويغير باستمرار من ملابسه ـ لم تكن تقدم له اية طقوس تدل على الاحترام كما انه يأكل مع الجميع دون تمييز . وكان هذا الرجل يتناول القهوة مع عدد صغير من ابناء القبيلة ، كما شاهد الأسيران عددا كبيرا من العربان يدخنون النارجيلة . وكانت ملابس هؤلاء لا تختلف فى شيء عن ملابس البدو الآخرين الذين سبق ان تحدثنا عنهم .

وفى اثناء الفترة التى اقامها الأسيران فى معسكر هؤلاء العربان ، لاحظا ان هؤلاء يغيرون من اماكنهم باستمرار ولكن دون ان يبتعدوا كثيرا عن المكان الذى تركوه ، وكانوا يهدفون بتنقلهم هذا الحصول على المراعى اللازمة لقطعانهم الكثيرة .

كانت القبيلة فى مجموعها تمتلك حوالى المائة من الخيول ومثلها من الجمال وأعدادا هائلة من الغنم والماعز والماشية كبيرة الحجم . تلك كانت كل ثروتها ، وكانت نفس الخيمة حسب أقوال الأسيرين تضم الأسرة بأكملها بلا تمييز بين سن أو جنس ، فكان الأب والأم والأطفال يقضون النهـــار والليل معا دون أن يكون ثمة فاصل بين هـــذا أو ذاك من افراد الأسرة ، ولم يكن النساء متحجبات وكن يلبسن فى آذانهن اقراطا من المعدن واساور ، وكان أزواجهن يعاملونهن برقة ، وعنـــدما كن يلمحن الفرسان عائدين من تجوالهم ، كانت كل واحدة من أولئك اللاتى يشـــارك أزواجهن فى هـــذا التجوال ، تهرع للقائه : وتبدى له أكبر أمارات الابتهـــاج والفرحة اذا كان يحمل معه اسلابا ، أما اذا كان قد عاد خالى الوفاض فانها تلقاه فى صمت . وكانت الأسلاب توزع بين أولئك الذين شاركوا فى الغارة .

وكانت النساء والرجال ــ وبخاصة الرجال ــ يؤدون صلوات عديدة، ودين القبيلة هو نفس دين محمد ولكن مع شىء من الخلط برغم انه لم يكن بمقدور الأسيرين أن يلاحظا ذلك .

ويبدو أن النســاء اكبر عددا من الرجال وهن يشتغلن فى عمل قماش الخيام . والأطفال كثيرو العدد وترضعهم أمهاتهم حتى سن السنتين أو ثلاث سنوات ، ويظلون عراة تماما حتى سن السادسة أو الثامنة ، وفى هـــذه السن ترتدى البنت قطعة من القماش ــ أو قميصـــا ــ حول خصرها . والرقص هو اللعبة المفضلة عند هؤلاء الأطفال ، وهو عبـــارة عن القفز بشـــكل دائرى مع تحريك الخصرين وكل منتصف الجسم بطريقة خليعة ، وهم يرقصون معا بينما يقومون فى نفس الوقت بالغنـــاء .

وهؤلاء العربان ، وبخاصة نســـاؤهم ، كثيرو الكلام ، وتدور بين النساء مشاحنات عديدة تنتهى على الدوام بالصلح بينهن بعد جلبة وصيحات كثيرة . واحترام المسنين هو احد الفضائل الأساسية لهذه القبيلة ويشعر الأولاد نحو والديهم بتقديس كبير ، وامراض العيون هى على وجه التقريب المرض الوحيـــد الذى يصيب هؤلاء العربان ، فلم نر من بينهم لا مقعـــدا ولا كسيحا ، والأدوية التى يستخدمونها بالغة البســـاطة . وهم يجبرون الأطراف المكسورة بربطات منفرة وخشنة . وهم يعمرون حتى يبلغوا سن

الشيخوخة الطاعنة ونادرا ما يعانون من الأمراض التى تهاجمنا مع تقدم السن .

ولنا ان نشعر بالأسف لأن الأسيرين لم يستطيعا ملاحظة الاحتفالات الجنائزية للقبيلة وكذا بعض العادات الأخرى المثيرة للفضول . هـذا كل ما امكنهما ان يخبرانا به . ونضيف اليه هنا بعض الأمور التى تتصل بالعربان بوجه عام حتى نفرغ مما ينبغى أن نقوله بشأن هذه الشعوب .

لقد لوحظ أن عربان الصحراء الغربية وبخاصة فى ضواحى الاسكندرية كانوا احسن تسليحا واكثر شراسة من عربان الصحراء الشرقية ، ويعود هذا الاختلاف بشكل اكيد الى السهولة التى يجدها عربان الغرب فى التزود بالأسلحة والذخائر من الاسكندرية . كما أن فرصتهم فى التزود بالسلاح اكبر حيث ان الاتاوة التى يحصلونها من الحجاج الذين ينزلون من البحر الى الاسكندرية اكبر بكثير من تلك الاتاوة التى يحصلها العربان الآخرون ، ذلك لأنهم هم اول من ينبغى ان يدفع لهم . وفضلا عن ذلك فان ما يؤدى الى جعلهم اكثر انعزالا عن غيرهم من العربان هو ان ولاية البحيرة لا تجذب انتباه الحكومة بشكل كاف . اذ انها اقل خصوبة وبالتالى اقل انتاجا من باقى الولايات .

وينقسم العربان فيما بينهم من حيث طريقة السكنى — الى عربان يقيمون فى خيام وعربان يقيمون فى منازل — وقد يبدو هذا القول من قبيل تحصيل الحاصل ، لكننا هنا نلفت النظر الى انه ثمة من بين البدو — حتى هؤلاء الذين يتميزون بالشراسة وحب الحرب - مزارعون طيبون بؤساء يقيمون فى قرى فقيرة ويزرعون على التخوم بعض مساحات من الأرض القابلة للزراعة ، وتسكن بقية القبيلة تحت الخيام حيث تناسب هذه الطريقة بشكل افضل تقاليدهم العسكرية وحيث انها كذلك تسهل غاراتهم وتسمح لهم بأن يغيروا مكانهم بحرية حتى يعثروا على المراعى الضرورية لاطعام قطعانهم .

ويشكل العربان المرابطون طبقة أخرى من العربان الطلقاء ، وهم يعيشون على زراعة بعض الأراضى المهجورة وعلى تجارة الماشية . وهم فى أوقات الحصاد ، يساعدون الفلاحين فى اعمالهم فى مقابل أجر ، كما انهم

يقومون أيضا بنقل البضائع ويؤجرون جمالهم للفلاحين ومتعهدى المواكب ، ويجلبون الى المدن منتجات كثيرة من داخل البلاد . ويسمى هؤلاء بالعربان المسالمين وهم بالتأكيد يستحقون هذه التسمية اذ ليس ثمة ما هو أبسط ولا أكثر براءة وفطرة من طريقتهم في الحياة .

ويقطن مناطق من ولايتى الشرقية وقليوب أعداد كبيرة من قبائل البدو ، وبعض هذه القبائل رحل وبعضها يمكن القول بأنه متوطن . ولا تختلف تقاليدهم فى شىء عن تقاليد الآخرين لذا فلن ندخل بشأنهم فى تفاصيل تعد من قبيل الحشو . وقد قدمنا فى الفصل الأول أسماء القبائل ومقدار القوة الحربية لكل منها.

٩

الحمامات العامة

يمكن أن نحصى أكثر من مائة حمام بالقاهرة ، يواظب السكان على الذهاب إليها وبخاصة في الشتاء حتى يتسقوا مع أحكام شريعتهم ، اذ يسمح الصيف للطبقة الدنيا منهم بالتطهر والاغتسال فى النهر حيث تكون مياهه شبه فاترة ، أما الشتاء ببرده فانه يحرمهم من هذه الوسيلة الاقتصادية ، وهنا يتوجه الى الحمامات حوالى مرة كل أسبوع أولئك القادرون منهم ليحصلوا بمصاريف زهيدة على متعة يطمح اليها الفقراء والأغنياء معا .

أما رجال الطبقة الممتازة ، أو بالأحرى أولئك الذين يحوزون ثروة كبيرة — حيث ان السلطة فى مصر أكثر منها فى البلدان الأخرى ترتبط بدرجة الثراء — فانهم يمتلكون فى بيوتهم حمامات خاصة . وبرغم ذلك فان هذا لا يمنعهم من ان يلتقوا بين الحين والحين فى الحمامات العامة ليروحوا عن أنفسهم فيما بينهم ، كما يذهب الى الحمامات العامة كبار رجال السلطة ، ولنفس الغرض ، وفى هذه الحالة ، يخطر مدير الحمام فيكف عن استقبال اى وافد ، ويقوم باستدعاء فرقة موسيقية واعداد وجبة شهية ، ويظل هؤلاء هناك يروحون عن أنفسهم حتى حلول المساء ، ويحصل مدير الحمام دوما على ما يكفيه لحد الرضا من كرم هؤلاء السادة الكبار

اذ يدفعون له عند خروجهم فى مقابل كل بارة يحصل عليها من أبناء الطبقات الشعبية قطعة من الذهب .

ويذهب الى هناك ايضا ، المماليك الذين لم يصلوا بعد لمرتبة الحكم ، ويقودهم الى هناك الخزنة دار ، ونقدم لهم فى بعض الأحيان وجبة حافلة ويروحون كذلك عن أنفسهم .

ويوجد بكل حمام مغطس ملىء بمياه شديدة السخونة وبعد ان ينتهى المرء من استحمامه يغطس فيه للحظات . وطريقة الاستحمام التى تتبع هناك تختلف عن طريقتنا نحن فى ذلك . فبعد أن يدخل المرء ، يستقبله الخدم فى الحجرة الأولى حيث يودع ملابسه ، ويعقد حول جسمه فوطة بسيطة ثم يقاد الى ممر يحس وهو سائر فيه بوهج الحرارة يشتد شيئا فشيئا لتصبح قوية عند اقترابه من الحجرة الثانية ، وهناك يجد نفسه وسط سحابة من بخار ساخن معطر يخترق مسام كل جسمه ويرتد على قطعة من قماش صوفى ، فيقترب منه على الفور خادم يلبس فى يده قفازا ، أو يمسك بفوطة من صوف ناعم ، وعندما يتأكد ان البخار قد اخترق كل المسام بشكل كاف واحدث بالأطراف نوعاً من الليونة ، يبدأ بأن يطقطق كل مفاصل الروافد ، وتكاد هذه العملية لا تسبب سوى الم خفيف تعوضه تلك الليونة التى تحدثها بعد ذلك فى حركة الجسم ، ويستطيع الأوربيون الذين لم يعتادوا مثل هذه العملية ويخشون نتائجها — أن يرفضوها بمطلق حريتهم .

وبعد ذلك يدلك الخادم الجسم بالقفاز أو قطعة الصوف التى بيده . ويكون التدليك قويا لحد يظن معه المرء ان جلده سينفصل عن جسمه ، ويتوالى سقوط خيوط سوداء اذ يتخلص الجسم من كل الوساخات التى كانت عالقة به ، بل ان المسام نفسها تتخلص من أقل شىء يمكن أن يسدها ، وفى أثناء هذه العملية يكون النزيل الصبور غارقا فى عرقه ، ثم يقتاد بعد ذلك الى حجرة مجاورة ليبقى وحده ويغتسل بمياه تأتى من عينى ميناه ، احداهما ساخنة ومياه الأخرى باردة ، ثم يرتدى قميصا ليعود فى النهاية الى الحجرة الأولى حيث يقدم له الخادم وهو جالس على أريكته النارجيلة وفنجاناً من القهوة ، وعندما يحين خروجه تكون ملابسه قد عطرت بدخان خشب الصبر وترشرأسه وكل جسمه برغاوى صابون

معطر ، أما النساء فيستخدمن فى نهاية حمامهن عجينة تنزع كل الشعر الزائد من جسمهن(١) .

ويقوم مدير الحمام بتعطير الحجرات واعداد ماء الورد ، ويحصل عادة مقابل كل هذه الخدمات على ما يكفيه إذا كان رواده من الأثرياء، ونادرا ما يكون مكان الاستحمام واحدا بالنسبة للجنسين ، اذ ينقسم المبنى الى قسمين لكل منهما مدخل مستقل ، وفى هذه الحالة الأولى يخصص لكل من الجنسين موعد خاص . وتذهب النساء عادة الى الحمام فى وقت متاخر ، وما ان يدخلن حتى تعلق قطعة قماش مطرزة أو سجادة لتنبه الجمهور الى حضورهن ، ومنذ ذلك الوقت لا يمكن لأى رجل أن يدخل ، ويستبدل بكافة الخدم الذكور على الفور وبدون استثناء خادمات ، واذا دخل رجل برعونة الى حمام وقت وجود النساء فسوف تحدث ضجة شديدة ولا يمكن له الا ان يدفع ثمن رعونته .

ومن جهة أخرى ، فعلى الرغم من ان عادات الشرق وتلك القسوة التى يبديها المشرع ضد النساء ، تنهض على الشك وعدم الثقة فى المراة ، فان هذه القسوة تخف حدتها شيئا ما عن طريق الحرية التى منحت للنساء فى التجمع بالحمامات ، فهذا التجمع هو على نحو ما عيد تستخدم فيه النساء كل زينتهن وأناقتهن ، حيث لا امل لهن فى جذب انتباه الرجال وسماع العبارات التى تطرى جمالهن ـــ ذلك الأمل الجميل لجنسهن كله ـــ ما دمن لا يظهرن فى محفل عام دون أن يكون رأسهن ووجههن بل وجزء من نصفهن الأعلى مغطى بالطرحة ، ومع ذلك فهذه البهجة التى تحملهن على التباهى والتفاخر بفخامة ملابسهن وروعة زينتهن هى واحدة من الانتصارات التى ترضى غرور كبريائهن ، فما أن يدخلن الحمام حتى يسارعن باسقاط تلك الأقنعة المزعجة ليستعرضن تحت نظر رفيقاتهن بريق حليهن ، وغاية كل منهن بل ومطمحها أن تخسف بجانب جمالها جمال الأخريات ، بعدد قطع النقود الذهبية المدلاة من خصلات شعرها ، وبروعة الماسات والحلى التى تتزين بها وبالفساتين الغالية التى ترتديها . ومع ذلك فهذا الاشباع البسيط

---

(١) ينبغى على المراة المسلمة الا تستبقى سوى شعر الحاجبين والرموش، وهى عادة شبه دينية توجب عليهن التخلص من بقية شعر الجسم .

للكرامة والكبرياء الأنثوى تحرزه اية واحدة منهن بعدد قطع النقود الذهبية المدلاة من خصلات شعرها وبتلك الروعة التى تكفى لكى تقتــل من الغيظ اثنتين أو ثلاثا من منافسـاتها ، فأمام من سوف تتباهى بتفوقها ذلك (١) ؟

ولا تختلف الخدمة التى تحصل عليها المراة ولا طريقة استحمامها عما تلناه بخصوص الرجال فيما عدا ان قطعة الصوف التى يدلك بها الجســم تكون اكثر نعومة لحد طيب وفيما انهن يستهلكن قدرا كبيرا من الصابون . وتسرف سيدات الطبقة الراقية فى اســتهلاك العطور وماء الورد ، وهو ترف لا تقدر عليه الأخريات حتى ايام العرس والأفراح(٢) .

---

(١) لا يسمح للرجال كما سبق القول بدخول الحمامات التى بها نسـاء ، والرجال الوحيدون الذين يتمتعون بهذه الميزة هم الموسيقيون ويختارون من بين العميان المسنين ، ويمكن القول انهم يعطون المراة تلك الفرصة الفريدة للاستماع الى اصوات الذكور .

(٢) يمكن أن يكلف ايجار الحمام بدون أثاثات من اى نوع متعهده فى اليوم الواحد من ٦٠ الى ١٨٠ بارة حسب موقع وجمال وفخامة المبنى ، ويلزم ١٠٠ خردة لأكثر الحمامات تواضعا ، ولتأثيث حمام بشكل لائق اى ليكون فى مستوى معظم حمامات المدينة فان ٢٠٠ — ٣٠٠ خردة تعتبر مبلغا كافيا، وتبلغ مصاريف الحمام المعد جيدا من ٨٠٠ — ١٠٠٠ خردة ، وتتكلف صيانة الأثاث فى اليــوم الواحد ١٠ — ٤٠ مدينى ، ويتكلف اطعــام الحيوانات المستخدمة ٢٠ مدينى (ويدخل ثمن شراء هذه الحيوانات ضمن المبلغ المقدر للتأثيث) ، وتجفيف الحمام ودفع أجور العاملين به يلزم مبلغ ١٢٠ — ١٨٠ مدينى يوميا يحصل منها الحارس وحده على ٣٠ بارة . ولا يحصــل خدم الحجرة الأولى على دخل ثابت ، فهم لا يتلقون أجرا الا ما يحصلونه من هبات الرواد ، اما القائمون بالخدمة فى الداخل فيحصلون على ٢/٣ أو ١/٢ أو ١/٣ ما يدفعه الرواد ، ويبلغ عدد خدم الحمام الواحد ١٢ — ١٣ خادما .

وفى منشأة من هذا النوع يبلغ عدد الوافدين ٥٠ — ٦٠ شخصا فى اليوم الواحد وأحيانا يزيد العدد عن ذلك . ويدفع عن الحمام الكامل كحد اقصى ٢٠ — ٣٠ بارة ، ويحصل العامة على حمامهم بسعر اقل ، فلا يدفعون اكثر من ٨ — ١٠ أو ١٥ بارة على الأكثر . ومما يعوض المتعهد عن ذلك زيارات الكبار وهم يدفعون بسخاء كما ســبق القول . ويمكن أن نعمم ما قلناه على كل الحمامات فى مصر اذ هى لا تختلف الا من حيث درجة فخامة المبنى ، لكن طقوس الحمام وتكاليفه تكاد تكون هى هى .

١٠

المقــاهى

تضم مدينة القاهرة حوالى ١٢٠٠ مقهى بخلاف مقـاهى مصر القديمـة وبولاق ، حيث تضم مصر القديمة ٥٠ مقهى اما بولاق فيبلغ تعداد مقاهيها المـائة . وليست لهذه المبانى اية علاقة بالمبانى التى تحمل نفس الاسم فى فرنسـا الا من حيث استهلاك البن على الرغم من أن هــذا المشروب يعد ويشرب بطريقة مختلفة ،فليس فى هذه المبانى اثاثات على الاطلاق وليس ثمة مرايا أو ديكورات داخلية أو خارجية ، فقط ثمة منصات (دكة) خشبية تشكل نوعا من المقاعد الدائرية بطول جدران المبنى ، وكذلك بعض الحصر من سعف النخيل ، او ابســطة خشنة الذوق فى المقــاهى الأكثر فخــامة بالاضافة الى بنك خشبى عادى بالغ البساطة . تلك فقط هى اثاثات المقهى المصرية ، وهناك يضطجع المترددون على الحصر التى تغطى تلك المنصات الخشبية وتقدم القهوة مغلية فى فناجين يبلغ حجمها ثلث حجم ما نستخدمه نحن من فناجين ، ولا تشرب القهوة الا ملتهبة لكنهم يرشفونها ، وتلك عادة شـائعة فى الشرق تتطلب نوعا من التعود ، وتوضع الفناجين فى صــحون صغيرة من النحاس ، تشبه الآنية المصنوعة من الخزف والتى نعرفها باسم ظرف البيض ويسميها العرب باسم : ظرف ، أما الفناجين فهى أحيانا من البورسلين وتستورد من المانيا ، أو هى فى الغالب من الخزف وتزينها عدة نقوش وهى تستورد كذلك من المانيا ، ويكاد يكون استخدام الســكر فى صنع القهوة غير معروف . وعندما وصل الفرنسيون الى مصر ظل الأهلون لفترة طويلة يسخرون من عادتهم وضع السكر فى البن . وفى نفس الوقت ، يحتفظ مدير كل مقهى بعدد كبير من النارجيـلات مبسمها من العـظم أو من الرخام او الالبستر (الرخام الشفاف) بدلا من أن يكون من الكهرمان الأصفر ويعدها للزبائن الذين يطلبونها ، وينبغى على كل مرتاد أن يحمــل معه تبغه ، بل ان المعتادين على التدخين نادرا ما يسيرون دون نارجيلاتهم .

وتخضع مقاهى القاهرة للاشراف المباشر لرئيس يشترى لنفسه حق التزامها وتدفع له كل مقهى رسما صغيرا فى بداية السنة التركية «الهجرية» (اول المحرم) ويبلغ هذا الرسم ١٠ ــ ٤٠ مدينى وتعفى من دفعه المقاهى

الفقيرة . ويستطيع كل من يريد ان يبنى مقهى أن يفعل ذلك بمطلق حريته لكنه لا يستطيع مباشرة العمل فيها قبل الحصول على تفويض من المشرف على الحرفة ، اذ هو على نحو ما ملكف عادة بالادارة الداخلية والاشراف على هذه المنشآت ، كما انه ملزم بتقديم مرتكبى المخالفات من ابناء هـذه الحرفة الى العدالة ، وتوكل مهمة الاشراف هذه عادة الى اغا الانكشارية (الكخيا المتولى) الذى يدفع حق هذا الالتزام الى السلطة .

ويتردد علي المقهى الفخم ما بين مائتين الى مائتين وخمسين فردا فى اليوم الواحد ، ويتناول الفرد عادة ٢ ــ ٣ فناجين من القهوة فى مقـابل ١/٢ ١ بارة للفنجان ، وثمة أناس ــ فقراء مع ذلك ــ يبلغ استهلاكهم فى اليوم الواحد ٢٠ فنجانا ، لكن الاستهلاك المعتاد يبلغ من ٦ ــ ٧ فناجين ، ويكسب مدير المقهى كثيرا اذا كان زبائنه من الأثرياء .

وثمة كثير من المقاهى يباع فيها الأفيون وهو نوع من المعجون المخلوط بالأعشاب ، وتتخذ الطبقة الدنيا من الشعب من هذه العقاقير وسيلة للسكر والانتشاء ، ويعتاد عليه ثلثا عدد الحرفيين وكذا الأمر بالنسبة للفئـات الأخرى من السكان ، كما أنهم يسكرون داخل بيوتهم بالرغم من أن الدين يحرم ذلك ، ويمتثل البوليس ويعاقب السكاري الذين يكون هذيانهم بالغ الصخب ؛ وفيما عدا ذلك لا يضايقهم أحد ويكونون بمثابة تسـلية بهيجة للناس بسبب هذيانهم وحركاتهم المجنونة(١) .

ويوجد فى كل مقهى عدد من الرواة والمنشدين يحكون أويغنون حكاية

---

(١) لا يشبه السكر الناتج عن الأفيون ذلك السكر الذى تحدثه الخمور ، فعندما تتخدر حواس رجل ما بفعل الأفيون فانه يبدو فى حالة شديدة من البهجة ويضحك بصوت عال ويكون هذيانه عادة مرحا ، وفى بعض الأحيان يغرق فى احلامه السعيدة وفى احيان اخرى يشرك معه الناس فى احلامه وسعادته ، وقد يتخيل نفسه سلطانا او شيخ بلد ، كما قد يظن نفسـه أحيانا ممتطيا صهوة حصان ويطلب من الآخرين ان يعاونوه فى وضـع قدمه على الأرض .

واذا ما عارضه أحد فانه لا يغضب مطلقا وانما يصبح جبانا يفزعه اقل صوت . وبعده ينتقل من اشد حالات الابتهـاج والمرح الى اشـد حالات اليأس والحزن فيبكى ويعول ويسقط فى غيبوبة .

صحيحة او وهمية عن شخصية خارقة ورد اسمها فى النصوص الدينية أو التاريخ الاسلامى ،ويكون الالقاء عادة حيا مليئا بالقوة والحيوية ، كما أن الأغنيات تمتلىء بعبق السحر ووهجه ، وتكون نغمة الحكى مرتفعة أما نغمة الحوار فمتوسطة ، ويتوقف الراوى فى معظم الأحيـــان ليسأل مستمعيه ما ان كانوا يشكون فى صحة حكاية او ما ان كانت الحكاية (فى مجملها) جميلة او خيرة ، ويزيد منشدو المقاهى هؤلاء حكاياتهم حيوية عن طريق حركات بالغة التعبير ، ويصحبونها أو يسقونها بموسيقى غريبة تصـــدر عن الة موسيقية وترية . وهى مصنوعة من الجلد ويحك العازف بقوســـه الشعرات المشدودة بالآلة والتى تستخدم كأوتار فتصدر نغمات خشـــنة صماء ، ويدفع مدير المقهى فىبعض الأحيان لهؤلاء المنشدين ، لكنهم فى العادة لا يحصــــلون من أجر الا ما يدفعه الجمهـــور عن طيب خاطر . وتاريخ الاسكندرية وجنكيز خان هو الموضوع الذى يستوحى منه هؤلاء المنشـــدون العرب مادة اغنياتهم ويضيفون الى ذلك الوف الحكايات الرائعة بالاضافة الى قصص المعارك البطولية التى يغترفونها من أحداث بلادهم .

ويستدعى المماليك من الطبقة الحاكمة والمشهود لهم بالشجاعة هؤلاء المنشدين الى منازلهم ويكافئونهم بسخاء .

وفى المقاهى الفخمة تسمع أحيانا الحان من تلك الألحان الشائعة فى مصر ، يؤديها بعض الفنانين الذين يحصلون على اجورهم من أصـــحاب المقاهى ومن يتطوع من الزبائن . وفى هذه الحالة يستمع الرواد فى صمت ، بحيث لا تسمع صيحة ولا ضجة ، ويبدو الفنان وهو يؤدى أغنية غارقا فى حلم عميق وهذا واحد من الملامح المميزة للطبع الشرقى . وفى بعض الأحيان يتنافس شخصان أو عدد اكبر على دور شطرنج ويخيل اليك وانت تشاهدهم مندمجين فى اللعب انهم بكم قد حرموا من نعمة الكلام ، ويتطلع المتفرجون دون أن ينبسوا بكلمة أو يهمسوا بفكرة ، ويمضى الأمر فى شـــكل تمثيل صامت (بانتوميم) الا اذا جاء الى المقهى مخمورا أو فاقد وعيه ليعكر صفو هذا الهدوء ، وليدخل على اللاعبين ومشاهديهم البهجة بأفانين هَذَيانِه (١) .

---

(١) قدمنا فى فترة ســـابقة فكرة تقريبية عن المصـــاريف اللازمة لادارة وتأثيث حمام عام ، ونفعل الآن نفس الشىء بالنسبة للمقهى علما بأننا قلنا

=

١١

الرياضة والألعـــاب

تتفق ألعاب الشرقيين مع حدة طباعهم ، ونستطيع ان نتعرف فيها على ذوق شعب مولع بالتفكير يعجبه أن يتأمل حتى وهو يمارس ضروب اللهو التى يهواها : فالطاولة والضامة والشطرنج هى الألعاب التى يفضـــلها المصريون وهى كذلك الألعاب التى ينغمس فيها ابناء الطبقات الراقية على وجه الخصوص ، والتى يفضلها الشعب بصفة عامة على بقية اللعبات ، وتتمتع الشطرنج بشكل خاص بتفضيل الجميع . والناس هناك شـــديدو الولع بهذه اللعبة ، وليس من النادر أن ترى لاعبين متنافسين يقضيان فى الدور الواحد اياما بأكملها . ورقعة الشطرنج شأنها شأن الدمى شديدة البساطة ، ولا يعود ذلك الى أن المسلمين ينفرون من الصور والرســـوم فحسب ، بل لأن صناعهم فى نفس الوقت ليسوا شديدى المهارة كما انهم لا يحصلون فى مقابلها على أجر يتناسب مع ما يبذلونه فى صنعها من جهـــد اذا ما عنوا بتجويد عملهم(١) . ورقع الشطرنج والضـــامة المصنوعة من الخشب الثمين لا يســـتخدمها الا الأثرياء وكبار القوم ، أما أبنـــاء الطبقة

=

كلمة موجزة عنها فى الفصل الأول . يبلغ ثمن أثاثات أجمل مقهى بالقاهرة عندما لا يكون قد سبق استعماله ٤٠ خردة بينما لا يتجاوز ثمن أثاث المقهى المتواضعة ١ ـــ ١٢ خردة = ٧ ـــ ٨ حصيرة ، ١٥ كنكة قهوة ، ١٥ فنجانا من الخزف ، عدد من الفناجين الصغيرة والظروف النحاسية التى يوضع فوقها الفنجان ، تلك هى كل الآنية التى ينبغى شراؤها ، ويلزم زيادة على ذلك ٢٥ ـــ ٣٠ بارة يوميا ثمنا للخشب ، ورطل من البن يبلغ ثمنه ٤٠ بارة ونفقة خادمين ومدير المقهى . وهذا كله شىء بالغ الضآلة ، لذا فان حالة القهوجى بائسة جدا فى مصر ، وقد رأينا مقهى بكامل أثاثه تؤجر فى اليوم الواحد بمبلغ ٦ ـــ ٧ بارات . ويتعهد المستأجر بصيانة الأثاث .

(١) ومع ذلك فقد رأينا فى مصر رقع شطرنج بالغة الفخامة ومصنوعة بشكل جيد لحد لايمكن أن تصنع مثيلاتها فى أوربا بسهولة . وهى مصنوعة من العاج وخشب الأكاسيا ، وكل ما فيها منفذ بشكل بديع ، ورسوماتها بالغة الجمال حتى ليندهش المرء كيف لا يلقى مثل هذا الفن ما يستحقه من رعاية ، ولا يملك مثل هذه الرقع الجميلة الا الأثرياء وكبار القوم .

الشعبية فيستخدمون قطعة قماش خيطت فوقها مربعات من قماش الجوخ من الوان مختلفة ، وتستخدم قطعة القماش هذه كرقعة للعب ثم كعلبة توضع فيها الدمى بعد انتهاء اللعب .

وثمة العاب مهارة اخرى تتطلب شيئا من التأمل : وتنتشر هناك لعبة المنقلة ، ويلعبها اثنان مع كل منهما لوحان حفرت فيهما ستة ثقوب ، ويضع اللاعبان فى كل ثقب من هذه الثقوب ست قطع من الحجارة او مثلها من الزلط ، ثم هناك تلك اللعبة التى يطلق عليها العرب اسم طاب والتى تحدث عنها كثيرا العلامة Th. Hyde وهى بدورها منتشرة بين الشرقيين . وتلعب بواسطة دمى مختلفة الألوان عددها فى سوريا ٢١ وفى مصر ١٩ أو ١٧ لكن عددها على الدوام فردى ، وتوضع فى الصف الخارجى عند بدء الدور . وقد شاهدنا هذه اللعبة عند بعض المارونيين فى القاهرة . كان ثمة رقعة بها أربعة صفوف فى كل صف ٢١ مربعا ، ويمسك كل لاعب بأربع من العصى الصغيرة والمسطحة : سوداء من جانب وبيضاء من الجانب الآخر . وعندما تتم اللعبة فى الهواء الطلق تلقى هذه العصى على سكين مغروسة فى الأرض ، وعلى مسلة مرشوقة فى كنبة عندما يلعبها تاجران داخل متجرهما، وعند بدء اللعب يختار أحدهما اللعب عن اليمين ويختار الآخر اللعب عن اليسار بهدف أن تتقابل الدمى . وعندما يحصل الأول على طاب أو ثلاثة ابيض وواحد اسود(١) يترك قطعة من قطعه الموجودة بالمربع الأول من صفه الى المربع الأول من الصف الثانى من جهته . فاذا لم يحصل على طاب يحل الدور على الثانى وهكذا حتى يحصل احدهما على طاب، ولا يمكن تحريك اية قطعة من الصف الخارجى لأول مرة الا بعد حصول صاحبها على طاب . وهذا بيان بالنوبات الأخرى : دق اثنين : اى اثنان ابيض واثنان أسود ، وفى هذه المرة تحرك القطعة التى سبق تحريكها فى الطاب الأول لمربعين ، دق ثلاثة اى ثلاثة اسود وواحد ابيض وفى هذه المرة يمكن تحريك الدمية لثلاثة مربعات ، اربعة اسود وبعدها تتحرك الدمية أربعة مربعات، ستة او اربعة أبيض وتكسب ستة مربعات ، واللاعب الذى يحصل على

---

(١) يقول Th. Hyde ثلاثة اسود وواحد ابيض ، اذن فاحدنا قد فهم الأمر على نحو خاطىء أو لعل قواعد اللعبة هى التى تتغير تبعا للبلاد التى تنتشر فيها .

طاب اربعة او ستة يستمر فى اللعب ويحرك دماه ، واللاعب الذى يدفع دماه كلها فى الصف الثانى يتدرج بها فى الصف الثالث ، وهكذا بالتبادل بين هذا وذاك حتى يتخلص احدهما من دماه .

ويلعب الأتراك والعرب ايضا لعبة بالزوج والفرد . وقد شاهدنا فى القاهرة بعض المسيحيين من اهل البلاد يثبتون على الأرض قطعة من الفضة ويحاولون لمسها بكرة صغيرة ، وثمة قاعدة تنظم الحالات التى تتقابل فيها كرات اللاعبين ، لكنا للأسف قد اهملنا تدوين القـــواعد التى تنظم هـــذه الألعاب ولعـــل الكثير من قرائنا سوف يغفرون لنا عن طيب خاطر هـــذا التقصـــير من جانبنا .

وركوب الخيل هو الرياضة المفضلة عند العثمانيين وكبار الأتراك . وهم فى هذه اللعبة ينمون بالدرجة الأولى مهارتهم الحربية، اذ يتجمع كبار الشخصيات فى القاهرة مرتين فى الاسبوع فى ميدان واسع يسمى المصطبة. ويصحبون معهم اعدادا كبيرة من العبيد والخدم ، وكلهم يركبون الخيل مثل سادتهم ويتدربون على الجريد ، فينقسمون الى فريقين يحمـــل كل منهما على الآخر بأقصى سرعة ، وكل واحد مســـلح بعصا من الجريد طولهـــا اربعة اقدام ومتوسطة السمك ، ويقذف بها منافسه افقيا وبقوة شديدة ، وثمة فرسان يبدون فى تدريبهم هذا من القوة والحيوية حـــدا يمكن معه لقذيفتهم تلك ان تكسر ــ فيما لو اصابت ــ عظام غريمه ، والمهـــارة هنا هى ان يتفادى الغريم عصا غريمه او ان يتلقاها باليد ، وقد عرفت واحدا من الكبار انكسرت ساقه فى شبابه بهذه الطريقة . اما اولئك الذين يفضلون التدريب على اطلاق النار فيضعون اصيصا (بردك) فوق كومة من الرمال ، ويصوبون عليها بالبنادق وهم يجرون فوق خيـــولهم بأقصى سرعة . وهم يستخدمون فى هذا التدريب السهام بالرغم من انه لا تنقصهم البنـــادق ، ولا يلجأ الرماة لتلك الوسيلة الا لاجادة التصويب ، ذلك ان الهواء الذى يجذبهم بشدة عندما يجرون بأقصى سرعتهم سوف يمنع وصـــول الشرارة الى الرصاصة فلا تنطلق ، بينما لا يوجد مثل هذا العيب عند التـــدريب بالسهام . ويتسلى السادة ايضا بجذب الأقواس ، وتشاهد فى الميادين عمد صغيرة نصبت تكريما لأولئك الذين اظهروا فى التدريب قدرة خارقة للعادة .

وعندما يبلغ ارتفاع النيل حدا معينا يتنزه الكبار فى قواربهم الفخمــة ، ويمارسون التجديف فى بركة الفيل والأزبكية ، وهناك يطلقون بنادق الرش ويصحبون معهم موسيقيين ليسروا عنهم اثناء نزهاتهم النيلية .

ويتدرب عامة الناس ايضا ، وهم فى هذا يقلدون الكبار ، فيفعلون على نطاق ضيق ما يفعله هؤلاء على نطاق واسع ، فقد شاهدنا على سبيل المثال خدم الشخصيات الكبيرة فى القاهرة يتدربون على قذف عصا طولها ٥ ــ ٦ أقدام فى اتجاه افقى ، وهم بهذا يهيئون أنفسهم لتدريب الجريد الذى سبق أن تحدثنا عنه ، وكانوا يمارسون تدريبهم وهم يجرون على أقدامهم حتى يكونوا اكثر مهارة عندما يحين وقت الرمى من فوق ظهر الحصان . ويتبارز أهالى المدن وكذا الفلاحون بعصى كبيرة مع مراعاة قواعد معينة ، وقد جرت العادة أن يقوم المتبارز فى بداية اللعب بحركات معينة هى بالتأكيد نوع من التحية ، يحاول بعدها كل من المتبارزين أن يضرب غريمه فى رأسه ، وهى العضو الوحيد فى الجسم الذى ينبغى استهدافه . وتتجلى المهارة فى تفادى الضربة ، وهذه المبارزة تشبه فن لاعبى العصا المشــهورين فى نورمانديا وبريتانى . وثمة مصارعون مصريون يمسكون بعصا فى يدهم اليمنى وحشية صغيرة فى يدهم اليسرى ، ويوجهون الضربات الى الذراعين فقط ، ويسمى هذا التدريب « لعب الكب » . وقد شاهدنا كذلك فى شــوارع القــاهرة مصارعين لا يرتدون من الملابس سوى سروال بالغ الضيق وكل جسمهم مدهون بالزيت ، ويتماسك هؤلاء المتصارعون ويحاولون أن يطرحوا بعضهم البعض أرضا ، لكن حركاتهم تنقصها القوة والحيوية والمهارة . وبعد دقائق طويلة يحدثون فيها بضع حركات نسميها تجاوزا مجهودات ، يدع احــد المتصارعين نفسه ليسقط وتنتهى بذلك المصارعة . وأمثال هؤلاء المصارعين لا يمكن لهم أن يتجاسروا على عرض مهارتهم تلك فى فارس ، حيث يبرع المصارعون هناك فى مثل هذه التدريبات الجســدية ، لكنهم يلفتون النظر ، فى مصر ، وبرغم كل شىء ، فليس ثمة فى بقية ولايات السلطان من هم اكثر من هؤلاء مهــارة .

١٢

الأعياد الدينية ، المبادىء الرئيسية للعقيدة الاسلامية

ترتبط اعياد المسلمين بمناسبات دينية : وفى مصر ، يحرص الناس. . على الاحتفـــال بعيد لا يتصل بالمعتقدات الدينية هو عيد فتح الخليج فى القاهرة ، او عيد وفاء النيل ، وهو عيد وطنى ، يعود الى ازمنة ضاربة فى القدم . اما بقية الأعياد فتتوالى بالترتيب التالى :

شهر محرم	:	عودة المحمل من مـسكة .
شرحه (كذا)	:	عيد مولد النبى .
الشهور التى تلى ذلك	:	احتفالات متوالية بمولد الأولياء .
آخر أيام شعبان	:	ليلة اول رمضان ويعلن فى هذا العيد بدا الصيام لمدة شـــهر قمرى له نفس الاسم (رمضـــان) .
آخر أيام رمضان	:	عيد كبير يستمر ثلاثة أيام .
٢٧ شوال	:	سفر المحمل .
١٠ ذو الحجة	:	العيد الكبير ويتفق مع وصـــول الحجاج الى مـــكة .

ويتصدر احتفال عيد الخليج الباشا وكبار شخصيات الحكومة ، مثل شيخ البلد والقاضى والدفتردار او مستشار الحكومة وكخيا الجاويشية ، وفرقة الانكشارية والكشاف وكل كبار الشخصيات ، وعند الصباح يصل الباشا مع اهل بيته اى مع ضباطه ورجاله ، ويصل البكوات مع مماليكهم ، ويصحبهم جمهور كبير من الموسيقيين ويحتلون جزءا من الميدان ، بينما تكون التوارب تغطى سطح الترعة ، وتمتاز قوارب السيدات بفخامتها وبهوادجها التى تغلق عليهن بدافع الغيرة ، ويخلع الباشا جبة على كل من الأغا وبقية كبار الضباط ثم يعطى الاشارة ، وعندئذ يقوم عمال معدون لهذا الغرض برمى تمثال او عمود طينى فى النيل وسط ضجيج الهتافات والآلات الموسيقية، ثم يقطع السد وتتدفق مياه النيل على الفور فى شوارع المدينة لتصبح اشبه

بالبحيرات وقبل ان ينسحب الباشا يلقى فى النهر بقبضـة من العملات الذهبية والفضية يتسابق الى الفوز بها غواصون مهرة ، وينقضى ما يتبقى من النهار فى افراح ومسرات تستمر حتى الليلة التالية . ولهذا الاستبشار والابتهاج العام ما يبرره ، حيث ان الفيضان هو ضمان الازدهار للجميع . فعندما يحل الفيضان يبدأ الناس يأملون فى محصول وفير بل يمكن القول بانهم قد بداوا يحلمون بما يعدهم به من منافع(١) .

وفى ايام العيد يقوم الممثلون المهرجون الذى يعرفون باسم البهلوانات بامتاع الجماهير بحركاتهم ودعاباتهم . ويمكن القول بأن ضروب اللهو لهذا الشعب تتجلى فى العروض الهزلية بل والمرتجلة الى حد ما والتى يعرضها فى الشوارع مهرجون متجولون كما انها تتجلى فى المقالب التى يعرضها بعض الحواة المهرة الى حد ما فى فنهم . وقد شاهدنا فى شوارع القاهرة عدة مرات رجالا يلعبون العرائس . ويلقى هذا العرض الصغير اقبالا كبيرا ، والمسرح الذى يستخدم لذلك الغرض بالغ البساطة وبالغ الصغر . ويستطيع شخص واحد بمفرده ان يحمله بسهولة . ويقف الممثل فى المربع الخشبى الذى يمده بطريقة تمكنه من رؤية خشبة العرض والمتفرجون من خلال فتحات صنعت لهذا الغرض دون أن يراه احـد ، ويمرر دماه عن طريق فتحـات اخرى ليجعلها تؤدى الحركات التى يريدها عن طريق خيوط يحركها على هواه ، وحيث أنه ليس من المناسب ان تصدر هذه الدمى اصواتا تماثل قوة صوته هو ، فانه يجعل صوته الطبيعى حادا ، ويتم ذلك بواسطة أداة صـغيرة يضعها فى فمه ويجعله بالغ الرقة ومصحوبا بانغام الناى وقت الحـوار الذى يديره على السنة هذه الدمى الصغيرة ، ويمضى الأمر على ما يرام اذا لم تكن التمثيلية معيبـة ، وتبدأ الدمى عادة بتهنئـة بعضـها البعض ثم يتشاجران بعد ذلك وتنتهى تلك التمثيلية الهزلية عادة بالشجار وفى الواقع فان عـددا كبيرا من المشاهدين يهوى هـذا النوع من ضروب الترفيه ، ويضطر البهلوان لأن يجاريهم فى ذلك .

---

(١) تسمى الدمية التى تلقى فى النيل عروسـة اى الزوجة الجديدة . ويعتقد أن هذه العادة تعود الى ديانة قدماء المصريين الذين كانوا يخصصون فيها يقال عذراء شابة ليلقوا بها فى النهر ، حسبما يقول كثير من مؤرخى مصر القديمة .

وقد راينا واحدا من الحواة يجوب شوارع القاهرة ومعه صنبور متقطع اى تسيل المياه منه ثم تنقطع فجاة لتسيل لبعض لحظات . ويطلب الحاوى من صنبوره — حسب حالته الميكانيكية التى يعرفها جيدا — ان يتدفق بالمياه او ان يتوقف ، لكن الناس تنطلى عليهم الخدعة ويصفقون لتلك المهارة المزعومة ويكافئونه باعطائه قطع النقود ، ويلقى آخر بحفنة من التراب فى اناء ملىء بالماء ثم يسترد التراب جافا من الاناء .

ويمسك ثالث بكاس له قاعان يغلقهما غطاءان ، وبعد أن يتحدث الى جمهوره طويلا وبعد كثير من المداعبات والتهريج ينفخ فى فوقعة كبيرة ، ثم يرفع غطاء احد القاعين ليظهر بيضة ، ثم يواصل مداعباته وهزلياته ثم يكشف عن القاع الآخر للكاس ليظهر كتكوتان يظنهما الجمهور بديلا عن البيضة التى رأوها فى البداية ، ويلقى مشعوذ رابع بقفل مغلق فى وجه طفل فينفتح القفل ويمسك بخد الطفل من الداخل والخارج . وهؤلاء المشعوذون يرفهون عن الشعب ويدفع لهم جمهورهم مبالغ شديدة التواضع ، وهم لا يطلبون من جمهورهم الدفع مقدما ، وعندما تنتهى اللعبة يدفع من يشاء على قدر ما يشاء .

وفى شهر رمضان ، وهو فى وقت معا وقت سفر المحمل ووقت صيام الاتراك (المسلمين) يسرى اهالى القاهرة كثيرا عن انفسهم وبخاصة فى الليل . وينام الأغنياء نهارا حيث لا يسمح الدين بالأكل طالما لا تزال الشمس فى الأفق ، ويتناولون طعامهم عند قدوم الليل . ومع ذلك فانه يرى بالميادين اثناء النهار ، وبخاصة فى ميدان الرملية ، فى سفح القلعة ، جمهور من الحواة يشبهون أولئك الذين تحدثنا عنهم .

ويشاهد فى مصر كذلك اشخاص ليست لهم من مهنة أو وسيلة لكسب العيش الا عرض القرود والحيوانات التى تمتاز بالذكاء ودفعها لتقديم ألعاب لتسلية العامة . وثمة آخرون ، اكثر حيلة ، يعرضون الثعابين ويجعلونها ترقص على نغمات تعزف على آلة ما(١) وقد يبدو هذا الأمر بالغ الغرابة

(١) كتبنا فى مكان آخر من هذا المؤلف فقرة عن سحرة الأفاعى المحدثين وهم امتداد للسحرة القدماء ، وانظر كذلك نبذة عن مدينة رشيد ، تأليف جولوا ، ص ٣٥٤ . (المجلد الثالث من الطبعة العربية ـ المترجم) .

لمن لا يعرف حب الزواحف بشكل عام للموسيقى بحيث يرفعون رأسهم والجزء الأمامى من جسمهم عند سماع صوت المزمار ، وهذه الحركات هى التى تشكل رقصة الثعابين ، ومن السهل كذلك دفع القرود للرقص فهى من نوع فى اليمن ويجلبها العربان من هناك حيث هى اكثر وداعة من بقية اصناف القرود ويقومون بتربيتها .

ولابد فى النهاية من كلمة عن الممثلين الهزليين وعن بعض العروض التمثيلية فى مصر ، ونحن لا يخالجنا الشك فى وجود ممثلين حقيقيين فى مصر مع وجود تمثيليات تتبع كافة قواعد التمثيليات . وقد شاهدنا فرقة من الممثلين الهزليين فى القاهرة تتألف من مسلمين ويهود ومسيحيين ، ويدل مظهرهم على أنهم لا يصادفون حظهم فى هذه البلاد، وهم يستخدمون فناء بيتهم كمسرح وثمة ساتر يحجب خلفه ملابسهم ، ويذهب لمشاهدة هذه الفرقة كثير من الأوربيين الذين اقاموا فى مصر منذ عدة سنوات دون أن يشاهدوا اية عروض مسرحية ، كما تستدعى هذه الفرقة الى بيوت التجار الايطاليين وتقدم عرضها فى حجرة أعدت لهذا الغرض ، ومع ذلك فلم نجد فى هذا العرض ما يرضينا : لا الموسيقى ولا اداء الممثلين ، بالاضافة الى اننا لا نعرف من العربية ما يكفى لكى نفهمهم جيدا ، كما اننا وجدنا أن ليس ثمة ما يدعو لعناء ان يترجم لنا معنى التمثيلية ، فقد كان كل شىء رديئا وعاريا من الذوق كما كان الأداء متكلفا ، وكان الأمر يدور حول امرأة عربية تستدرج المسافرين الى خيمتها لتسرقهم وتسىء معاملتهم ثم تطلق سراحهم ، وعندما كانت المرأة قد تمكنت من سرقة كثيرين وتهيأت لتفعل الشىء نفسه مع آخرين ... عبر احد التجار — من النظارة بصوت عال عن القرف الذى يسببه له العرض ، وحتى لا يبدو الآخرون اقل رهافة حس منه فقد سارعوا بايقاف العرض ، بينما لم يكن الممثلون قد وصلوا بعد الى نصف التمثيلية .

كان ينبغى ان نتكلم هنا كذلك عن العوالم اللائى سبق لنا أن تحدثنا عنهن ، ولكن حيث أن هؤلاء النسوة كثيرات فى القاهرة ، وحيث انهن يشكلن على نحو ما طائفة حرفية فسوف نتحدث عنهن فى الفصل المخصص للحرف .

الفصل الرابع

الإنسان المصري في طور الشيخوخة، الموت والجنازات

١

عن احترام الشيخوخة

قد لا يكون من المناسب أن نبحث عن ممارسة الفضائل الطبيعية عند الشـــعوب المتحضرة حيث تتوافق الأنانية والمصـــالح ، ابناء الحضـــارة الشرعيين ، مع أضواء المعرفة اذا صح القول . ذلك أن أفق المعارف عند الشـــعوب كلما اتسع كلما ابتعدت هـــذه الشعوب عن حياة الطبيعة ، ولا ينبغى ان نمضى بهذه الفكرة لحد ابعد من ذلك ، ومع اننا لا ننتوى هنـــا ان نعقد مقارنة متعسفة ، الا انه ينبغى علينا القـــول بأن الشرقيين وان كانوا قد اهملوا تعلم العلوم والآداب ، الا انهم قد اســـتطاعوا على الأقـــل ان يحتفظوا ببعض آثار من العادات والفضائل البدائية . والا ، فهل ثمة عند أمم الشرق ما يســـتوجب المديح اكثر من ذلك الاحترام العميق الذى يكنونه نحو الشيخوخة ؟ ويتميز المصرى على وجه الخصوص بهذا الشعور النبيل ، ولقد حض عليه محمد فى تعاليمه لحد وجد من الضرورى أن يجعل من ذلك مبدأ دينيا ومدنيا فى وقت معا ، وحتى اليوم ، فان شيئا لم يستطع ان ينال من قوة هذا المطلب الذى حتمه المشرع ، كما أن الوضع الحالى للتقاليد سوف يهيىء لهذا الأمر فرصة لبقاء اطول . وفى مقابل ذلك ، فان المفكر يستطيع ان ينعى على الشعوب الأوربية ــ التى تطورت صناعاتها ومعارفها لحد مذهل ــ هذه اللامبالاة الشديدة نحو الشيخوخة ، فى الوقت الذى تعمل فى مجتمعاتهم قوانين تنطق بالحكمة وتشهد بالعبقرية والاحساس العظيم لواضعيها ، وكذا بتلك الدرجة الكبيرة من التحضر التى وصل اليها اولئك الذين شرعت من اجلهم هذه القوانين ، لكن المرء ليدهش حقاً عندما لا يجد فى مجموعة القوانين هـــذه فصلا مخصصا للواجبـــات التى ينبغى مراعاتها نحو كبار السن . ونستعير هنا ، حول هـــذا الموضوع ، بعض الأفكار التى وردت على لسان مؤلف كتاب رسائل عن مصر : Lettres sur l'Egypte الذى انتقدنا بمرارة واحيانا بتحامل صارخ ، وترسم

اقواله بدقة ذلك الفرق الكائن بين أفكار وعادات شـعوب الشرق ، وبين مثيلاتها عند شعوب الغرب بخصوص الشيخوخة :

« ان الشيخوخة عند كل الشعوب المتحضرة ، حيث يعيش الانسان وسط عائلته فترة اقل ، لا تلقى من الاحترام نفس ما تلقاه فى مصر ، بل انها تكاد تكون فى معظم الأحيان نقيصـه ، حيث ينبغى على الملتحى ذى الشعيرات البيضاء أن يصمت أمام غرور الشباب ومباهاته ، وان يلعب دور طفل حتى يمكن تحمله فى داخل نطاق العائلة ، فما أن يحس الانسان عندنا بأن سنوات العمر قد بدأت تثقل كاهله ، وبأن مباهج حياته تتضاءل ، حتى يرى نفسه وقد أصبح عبئا ثقيلا على أولئك الذين يدينون بوجودهم له. وعندما يصبح فى حاجة الى المواساة والسلوى يرى نفسه وقد أنكر عليه حق الرعاية وأغلقت دونه القلوب ، عندئذ تزحف الى جسمه برودة قاتلة وترتجف من برودة الوحدة روحه دون ان يجـد من حب زوجه وحنانهـا ما يبعث بالدفء اليه ، فى مثل هذه الأمم يموت العجوز ـ وهو الذى كان من قبل والدا عطوفا ـ قبل وقت طويل من نزوله الى ظلمات القبر .

فلنخلع اذن النقاب عن وضع ليس عاما لحسن الحظ ، فتلك المشاهد المؤثرة التى كنت اراها كل يوم فى هذا البلد (مصر) قد اضطرتنى أن اقـدم لكم هذا النقيض المقابل ، فهنا (فى مصر) ، يبتسم العجوز الذى تلامس لحيته صدره وهو يلقى الاحترام ، يبتسم ـ برغم وطأة وضـعف هـذه الشيخوخة ـ لأحفاده وهم يأتون لمداعبته ، وينشرح صدره وهو يرى أربعة أجيال تهرع اليه لتقدم اليه ما تفرضه عليها الشفقة الحنون ، فيتذوق بذلك بهجة الحياة حتى آخر لحظة من لحظات عمره(١) .

وفى واقع الأمر فان الأوربيين لا يمكنهم ان يرضوا عن أنفسهم بثقـة واعجاب عندما يرون هذا الاحترام الذى يبلغ مرتبة التقديس والذى توليه الأمم الاسلامية لكبار السن ، فهؤلاء الناس الذين نطلق عليهم ذلك النعت المقزز المرعب : المتوحشون والبرابرة ، يقدمون لنا فى هذا الخصوص مثالا يجدر بالاحتذاء ، على اجمل الفضائل فى حين أنها قل ان تنال اهتمامنا مع أنها تستحق كل اجلال . اما هنا فى مصر فكم يعرف الشيوخ ما سوف يلقون

---

(١) Sayary, Lettres sur l'Egypte t. I, p.

من محبة الشباب وعواطفهم ! لذا فانهم هناك لا يلجأون لتلك الحيل التى لا جدوى منها لتفادى ما تعده لهم الأيام ـــ حيث هم شيوخ ـــ من اهانات ، انهم على العكس من ذلك يتباهون بخطوط السن التى تغضن وجوههم ، ولحيتهم البيضاء سببا للاحترام المهيب ، وملابسهم تتسق مع كرامة ووقار عمرهم ، وكل شىء فيهم يفصح عن المهابة والأهمية ، فاذا تكلموا أنصت الجميع لما يقولون فى احترام شديد ، وليست اقوالهم بالأقوال الباطلة التافهة ، ولا هم يستشعرون مطلقا تلك المرارة التى تقطر بها عادة سنوات العجز والشيخوخة . انهم يتركون الحياة بلا الم ، بل انهم لا يكادون يشعرون بذلك على الاطلاق . فبقدر ما يزيد قربهم من تلك النهاية المحتومة بقدر ما تتضاعف عناية ذويهم بهم ، فلا يعانون من الألم الذى تسببه رؤية ابناء عاقين يتشوفون لساعتهم الأخيرة حتى يقتسموا « أسلاب » تركاتهم فمثل هذا النهم البشع لا تعرفه مطلقا امم الشرق . ومهما كان هؤلاء الأولاد فاسدين فانهم على الدوام يجدون الدموع التى يذرفونها بغزارة على مقبرة ابيهم ، بل انهم ليقبلون عن طيب خاطر القيام بأية تضحيات مهما عظمت لو كان فى ذلك ما يمد أياما ثمينة فى عمر آبائهم . ولهذا السبب ، فجريمة قتل الوالدين ، تلك الجريمة البشعة التى يثير مجرد اسمها الهلع فى القلوب ، والتى لم يقرر بشأنها المشرعون القدامى اى جزاء ، كما لو كان من المستحيل عليهم أن يتخيلوا أن تقدم كائنات وهبها الله نعمة العقل أن ترتكبها على الاطلاق(١) ، مثل هذه الجريمة البشعة ، لم تعرفها مصر ، بل كل الولايات التركية ، على الاطلاق .

والشيخ العجوز هو الحكم الطبيعى الذى يفصل فى المنازعات الصغيرة التى تنشأ بين افراد أسرته ، وما يقضى به ، حكم تلتزم به كافة الأطراف بلا تردد ، كما لو أنها حكمة مقدسة تلك التى جاءت على لسانه .

ويترجم العرب كلمة Vieillard (مسن ـــ عجوز) بكلمة : شيخ ، وهو لقب شرف يوحى بمعنى التشريف والسيادة(٢) ، فالمشايخ هم الذين

---

(١) نذكر فى هذا الصدد أن سولون قد اهمل سن قانون بخصوص قتل الوالدين اذ كان ينظر لهذه الجريمة باعتبارها أمرا مستحيلا . انظر : Plutarque

(٢) بل ان كلمة Seigneur « سيد ـــ شريف » تشتق من الكلمة اللاتينية Senior وهى تساوى كلمة شيخ . وفى كل العصور نجد أن فكرة الشيخوخة تحمل معها فكرة الاحترام والسيطرة .

يحكمون القبائل ويمارسون على النفوس سطوة تماثل سـلطة الحكام ، والكلمة الأولى فى كل العائلات المصرية للأكبر سـنا ، وهو الذى يتقدم الاحتفالات العامة ، وله مركز الصدارة فى المجالس ، ويقف الناس جميعا عند قدومه ، وتوجه اليه على الدوام علامات الاحترام والتقدير ، وأمامه يتحفظ الشباب وينضبط وهو الجموح بطبعه ، وينصت بشـغف الى ما يقصونه من حكايات ويجد فى احاديثهم ما يرضيه ، بل اننا نكاد نصل لحد الاعتقاد بأن هذا التواصل الحر غير المتكلف للتجربة ، يساهم اكثر من اى شيء آخر فى اضفاء الوقار على طباع الرجل الشرقى منذ نعومة أظفاره ، وهو الوقار الذى لا يتكون عند أبناء الشعوب الأخرى الا فى سن متأخرة ، وبفعل تقدم العمر .

وفضلا عن ذلك فان الشرق ـ الذى نتفق على انه مهد الحضارات ـ كان مسرحا للتقاليد الأبوية القديمة ، ففى هذه المنطقة من العالم تسـتمر التقاليد وقتا أطول من غيرها ، حتى اننا ما زلنا نجـدهم يعيشون بـكل بساطتهم التى كانت لهم وهم يعيشون تحت الخيام ، وثمة تقـاليد عديدة تعود الى عصور متأخرة للغاية ، لكنها ما تزال مستمرة داخل العائلات ، وعندما استولى العرب على آسيا نشروا فيهـا مع معتقداتهم الدينية تلك العادات الاجتماعية التى لآبائهم . وحيث أن احترام الشيخوخة بالغ القدم بالفعل فى مصر كما تشهد بذلك نصوص عديدة من الكتابات ، المقدسة ، فان هذا التقليد قد ازداد صرامة بفعل سطوة التقاليد العربية ، حيث الصولجان معقود للسلطة الأبوية التى يبدو ان طبيعة الحياة نفسها تهيئه لها ، وهو نفس ما كان يحـدث فى مصر القديمة عنـدما كانت ما تزال مزدهرة(١) . أما السبب الذى ظلت بفضله هذه الفضيلة الحميدة بعيدة عن اى تغيير ، فهو أن الشعوب التى تمارسها لا تعانى من ذلك الفساد الروحى والأخلاقى الذى تعانى منه عادة المجتمعات الكبيرة ، وتجد سعادتها فى المباهج الطبيعية، ونادرا ما تبحث عن هذه المباهج بعيدا عن وقائع حياتها الداخلية . ولان

---

(١) لم يكن يتفق مع المصريين من الاغريق بخصوص احترام الصـغار لكبار السن الا أهالى لاسـيديمونيا ، فاذا ما قابل شاب عجوزا فانه يدع العجوز يسبقه وإذا مـا قـدم إلى مكـان بـه بعض الشبـان فـانهم ينهضـون. انظر هيرودت ج ٢ ، الفقرة ٨ ، ترجمة Larchet طبعة ١٧٨٦.

أبناء هذه الشعوب كذلك سعداء فى جهالتهم حيث هم محرومون من الميزات التى تهيئها المدينة عادة ، فانهم كذلك بعيدون عن المساوىء التى تجرها المدنية معها . واذا كانت اوربا هى وطن الفنون ومسرح ملذات الشباب ومغامراته ، فان الشرق ــ ومصر بوجه خاص ــ هو على نحو ما ، جنة للشيوخ .

٢

الجنازات

يكن المصريون المحدثون ــ شأنهم فى ذلك شان اسلافهم القدامى ــ احتراما خاصا للموت ، وتصحب الجنازات باحتفال كبير وان كان الأمر يتم بشكل مغاير لما كان يحدث فى الماضى ، اذ لم تعد تحفظ اجسام الموتى، لكنها ــ على الأقل ــ تودع فى احترام كبير فى القبر ، مثواها الأخير . ويبدى اهل المتوفى واصدقاؤه امارات على حزنهم ، ويجهز الموتى بشىء من الأبهة ، كما ان احترام المقابر واحد من المبادىء الاسلامية التى لا يمكن خرقها(١) .

وليس ثمة ما يستطيع ان يصور الم اسرة حرمها الموت من عضو عزيز منها . ففى الأيام الأولى بعد الموت ، يكون يأس مرعب ثم يأخذ شيئا فشيئا ملمحا اقل جزعا . وتستسلم السيدات تلقائيا لأحزانهن الشديدة فيملأن الجو بالعويل ويتركن البيت الذى اختطف منه الموت واحدا من الأهل، او الابن او الزوج ليعلن للجيران وللمارة عن طريق صرخاتهن المدوية ، المثيرة للحزن الشديد ، بأنهن قد أصبن بخسارة لا تعوض . ويهرع الناس نحو المراة المكلومة ويحاولون تهدئة اضطرابها ، بينما هى فى أحزانها وجزعها. تنزع شعرها وتضرب بقوة صدرها فيصحبونها الى المنزل الذى حل به الموت ويدخلون معها، وتتجمع كثيرات حول الميت: تحرك بعضهن ساقيه او ذراعيه ، وتضع اخريات ايديهن فوق قلبه ليتاكدن انه ليست هناك

---

(١) يقسم المصريون عادة بقبر آبائهم ومن الشائع هناك أن تسمعهم يقولون : بتربة الوالد ، بتربة أمى .

علامة او نبضة تدل على الحياة ، وبعد ذلك يذهبن لابلاغ شيخ الجامع الذى يعد على الفور بعض النائحات المأجورات (الندابات) ، وهؤلاء النسوة مدربات على الاجهاش بالبكاء والعويل وعلى القاء المراثى المؤثرة ، وعلى اطلاق صيحات لها ايقاع حزين ، ويستدعين فى رثائهن اهل المتوفى وأصدقاءه، وينشدن اناشيد تقال فى هذه المناسبات بنغمة بكائية ، وقد يكون ما يقال كلمات عادية شائعة مما يؤدى لحدوث مفارقة بين ما يقال وبين النغمة التى يلفظ بها، وإذا كان المتوفى ثريا، تقيم الندابات وسط عائلته فترة طويلة اما اذا كان غير ذلك فانهن يرحلن بعد عدة ايام ، بل وفى بعض الأحيان ينصرفن مباشرة بعد اتمام الدفن .

والرجال عادة اكثر ثباتا فى هذه الظروف المؤسية ، فالمهم صامت ، يمارسون خلاله تعذيبا للنفس تكاد تظنهم يستعذبونه ، ومهما كانت المرارة التى تفعم قلوبهم ، فهم يجاهدون أن يكتموه ، ويساهم جمود ملامحهم بالاضافة الى ايمانهم العميق بالقضاء والقدر ، فى جعل هذه المرارة رازحة ، ومع ذلك فهم يهجرون لعدة ايام مجتمع اصدقائهم ، فليست احزانهم برغم وقارها اقل حدة . وهناك عادة أن يقوم الناس من اعضاء الأسرة المكلومة ــ فى بعض الأحيان ــ بصبغ ايديهم بالنيلة كما يمتنعون عن الاغتسال المعتاد طالما ظلت الصباغة فى ايديهم ، كما لا تكف النساء بالمثل عن البكاء الا اذا اختفتهذه الصبغة تماما .

ويتم الدفن بعد فترة قصيرة من اسلام المتوفى للروح اذ ينقل الى المقابر فى ظرف ٥ ــ ٦ ساعات من موته الا اذا كان ثمة دوافع تبعث على الشك فى اننا بصدد حالة استغراق فى النوم نتيجة لفقدان شديد للوعى ، فهذه العادة ــ عادة الدفن السريع ــ التى تنقصها الحيطة تتسبب فى بعض الحالات فى حدوث جرائم غير مقصودة ، فمن الممكن لنا ان نفترض فى بلد كهذا لا يزال فيه الدواء شبه مجهول ، بأنهم قد يعتبرون موتا حقيقيا ما هو ليس باكثر من غيبوبة حدثت بسبب هبوط فى بعض وظائف الجسم . ولهذا فمن الممكن ان تقع بعض المساوىء نتيجة لهذه العجلة الشديدة فى اجراءات الدفن . فما ان يموت احدهم حتى يرسل فى احضار الرجال او النساء ، حسب الجنس ، الذين يحترفون غسل الموتى ، ويقوم هؤلاء باخطار بيت المال ، ويطلبون الاذن بالانتقال الى البيت الذى به الجثة ، ويسجونها على طاولة وينظفونها فى عناية فائقة ، ويغطون فى حضرة اقرب الأهل الأعضاء

الجنســية للمتوفى ، ويلفونه بعد ذلك بقماش ابيض غير مخيط ، واذا كان الميت واحدا من العامة فانه يكفن باحسن ملابسه حالا ، لكن المســلمين المتنورين يدينون هذه العادة باعتبارها عادة سخيفة ومضحكة . وتوضع الجثة فى تابوت عمومى لا غطــاء له ويغطى بقماش مطرز ، وتكون رأس الجثة دائما الى الأمام ، كما يحرصون على وضع عمامة فوقهــا اذا كان الميت رجلا أو زهورا اذا كانت الجثة لامراة .

بعد هذه التجهيزات تبدأ الجنازة مسيرتها نحو المسجد ، ويفضل فى ذلك الجامع الأزهر باعتباره اقدس مساجد القاهرة ، ويتقدم الجنازة عدد من العميان بيدهم عصى ، ويسيرون فى ثلاثة صفوف من ســتة اشخاص وهم متشابكو الأيدى ، وينشدون بنغمة وقورة ومهيبــة صيغة العقيــدة الاسلامية . لا اله الا الله ، محمد رسول الله ، ويكررون ذلك حتى القبر ، ويلى هؤلاء مباشرة خدم المتوفى وهم يرتدون ملابس قاتمة ، وبعد هؤلاء تأتى الندابات مرتديات ثيابا زرقاء طويلة وحجابا أبيض ، ليسبقن مباشرة الجثة المحمولة على اكتاف رجال أربعة ، والموضوعة داخل التابوت ، وخلف النعش تسير العائلة يصحبها عادة شيخ الجامع ، وفى النهاية ، يختتم الجنازة اناس من العامة وتسير الجنازة فى سرعة وتناسق .

ويوضع الجثمان للحظة فى المسجد ، ويؤدى الابن الصلاة على ابيه او يؤديها خلف واحد من رجال الشرع ، وعند الخروج من المسجد ينسحب جزء من الموكب ، ويصحب المشايخ الجثمان حتى مكان المقبرة ويتبع هؤلاء عادة بعض اطفال المدارس ، ويحصل رجال المسجد على اجرهم عند المقبرة نفسها ، وتلك عادة عــامة .

وبعد الوصول الى المقبرة ، يؤخذ الجثمان من النعش ، وينزل رجل فى الحفرة لياخذ الجثمان ليودعه القبر بحيث تكون راسه متجهة الى الشرق ، وبعد ذلك يلقى اقرب اهل الميت بيده قليلا من التراب على الجثمان ويغطيها الحفارون على الفور . وبعد ذلك يجلس الاغراب الذين صاحبوا الجنــازة

ويأكلون حول الحفرة ، ويعود الأهل مع الندابات ليقمن عندهم لأيام عدة مما يسبب مضايقات للجيران(١) .

ولا تدفن النعوش مطلقا ، فالجثمان ــ كما سبق القول ــ يودع فى الحفرة التى اعدها الحفارون الذين ارسلهم الشيخ لهذا الغرض فى مقابر الأسرة التى بنيت من قبل ، وهى فى المقام الأول عبارة عن قبر من الحجارة تصف تحتها الأجساد بجوار بعضها البعض ، وطالما لم يبل لحم الجثة فلا ينبغى ازعاج الميت ، ولكن عندما يبلى ما يغطى العظام فان العظام تجمع فى لحد واحد ، وينظر الى الاحتفاظ بأى جزء من الجثة باعتباره جريمة ، اذ ينبغى ان تدفن الجثة بأكملها ، وعندما يموت أحد بعد قدوم الليل يتحتم انتظار شروق الشمس ليتم نقله الى المقبرة ، ويعتبر المسلمون ان من مبادىء دينهم الا يدفن الميت الا والشمس فى الأفق ، بل ويعلقون على مراعاة او خرق هذه العادة اهمية كبيرة حيث لها صلة بالسعادة او الشقاء فى دار الخلود . ويقوم الأغنياء بدفع نفقات مقابر الفقراء ، ومقابر هؤلاء فى الواقع بسيطة لكن اهليهم وزوجاتهم يزينونها بزرع الورود بدافع من العاطفة .

وتوجد مقابر المسيحيين فى القاهرة بمصر القديمة ، ولا يسمح لهم بالدفن فى مكان آخر ، وللأرمن مدفن خاص بهم وهذه الطائفة من المسيحيين ليست كبيرة العدد اذ لا يكاد يبلغ تعدادها ٤٠٠ ــ ٥٠٠ شخص مستقرين بالمدينة .

---

(١) فى مصر عادات كثيرة تشترك فيها مع كل ولايات الدولة العثمانية ، لكن ثمة عادات خاصة بمصر وحدها ، قد يكون من الطريف أن نعرضها ومن هذه العادات الخاصة بمصر بكاء الندابات اثناء الجنازة ، ولا يحدث هذا عادة فى القسطنطينية ولا فى سوريا بل يمكن القول بأنهن غير معروفات فى القسطنطينية اصلا . وفى مصر تظل زوجات المتوفى يطلقن الصرخات تسعة ايام متوالية ويستقبلن صديقاتهن اللاتى يأتين للبكاء معهن او يتظاهرن بالبكاء . ومع ذلك فالمسلمين من الطبقات العليا وكذا العلماء ينظرون الى هذا العويل باعتباره مخالفا لدين محمد ، ذلك أن الميت لم يفارق هذا العالم ــ فى رأيهم ــ الا للذهاب الى مكان اسعد (الجنة) ، لكن الدموع ينظر اليها بتسامح لأنها تصدر عن عاطفة محمودة ، وعندما يموت رجال ميسورون يتمتعون باحترام كبير ، لا تحدث اية دلالة على القنوط او اليأس ، بل يحدث العكس احيانا فتنطلق زغاريد الفرح .

ويتمسك بعض المسيحيين فى مصر القديمة بعادة قديمة ، هي أن تكون لهم مقابر صغيرة فى بيوتهم يحتفظون فيها ببقايا جثث ذويهم ، وربما لا تكون هذه العادة سوى اثر من ديانة قدماء المصريين ، لكنها محرمة بشدة فى القاهرة اما بدافع صحى واما بسبب عدم التسامح من جانب المسلمين ، ويلاحظ هذا الميل نحو المقابر المنزلية بين كبار الاقباط بوجه خاص ، لذا فقد شيدوا بيوتا لهم فى حى منعزل فى مصر القديمة ليقيموا هناك مدافن لذويهم ، ويتوجهون الى هناك من القاهرة حيث يقيمون — على فترات من العام ، كما يحتفلون هناك بالأعياد الكبرى لطائفتهم مع الأهل والأصدقاء ولا يوجد فى اى مكان آخر اثر لهذه العـــادة القديمـة .

وفى نفس الوقت فان الندابات وكذا الاشارات الخارجية الدالة على الحزن عند موت واحد من الأهل ، جزء أساسى بالدرجة الأولى من الطقوس الجنائزية القبطية ، بل انهم يذهبون فى اشارات الحزن تلك لأبعد مما يذهب المسلمون ، فهم يملأون الضواحى المجاورة بصيحاتهم التى تعقبها على الفور صـيحات الندابات ويستمر هـــذا العويل احيانا عدة أسابيع ، بل يمكننا الافتراض بأن الأقباط هم الذين نقلوا هذه العادات الى المسلمين ، حيث من الثابت أن المسلمين فى الأجزاء الأخرى من آسيا لا يراعون هـــذه العادات على الاطلاق ، وثمة نص عند هيرودت ننقله هنا ، يؤكد بالمثل أن البــكاء — مصطنعا كان أو صحيحا — والذى يستسلم له الناس عند نعى قريب ، له اصل فى مصر بالغ القدم . يقول المؤرخ الاغريقى : « عندما يموت رجل هام يغطى كل نساء منزله رءوســـهن بل ووجوههن بالطين ويتركن الميت فى المنزل ويحزمن وسط جسمهن ويكشفن عن صدورهن ويعبرن المدينة وهن يدققن على صدورهن وتصحبهن فى ذلك قريباتهن(١) » السنا نجد فى هـــذه العادات التى تمارسها هاتان الأمتان (المسلمون والمسيحيون) تماثلا كبيرا مع تلك التى نقلها هيرودت الموجز على الدوام والذى يبدو لنا عند قراءته انه قد تحدث بتفصيل اكبر ممـــا يفعل عادة ؟ ان هؤلاء الأهل المكلومين فى الماضى قد تركوا مكانهم بلا جدال لندابات اليوم . ويقدم لنا بقية وصــفه نفس التطابق مع اختلافات طفيفة للغـــاية(٢) .

---

(١) هيرودت : جـ ٢ ، الفقرة ٨٥ ، ترجمة Larchet طبعة ١٧٨٦ .

(٢) يقدم لنا ديودور الصقلي نفس التفاصيل فيقول : « ما إن يموت
=

وعندما يشعر رجل ما بدنو اجله فانه ينظم شـئونه ، واذا ما كان حذرا فانه يجمع عددا صغيرا من اصدقائه ليشركهم فى رغباته الأخيرة ، وتحتم الشريعة قبل توزيع التركة ان تجنب أولا المبالغ اللازمة لتسديد الديون ، وكذا الهبات الخيرية التى يكون المتوفى قد التزم بها . وللأبناء الشرعيين حق الارث ، أما غير الشرعيين فلا يحق لهم الارث دون نص صريح من الموصى . وهذه الترتيبات خاصة بالذكور وحدهم أما البنات والزوجات فليس لهن حق الارث فى الملكيات العقارية . وسوف نتحدث بتفصيل اكبر عن هذه القوانين الجائرة فى الفصل القادم من مؤلفنا (الفترة الخامسة) والخاصة بالأنظمة والمؤسسات .

ويمكن للأرملة ان تتزوج مرة اخرى بعد مضى اربعة أشهر وعشرة ايام على وفاة زوجها اذا لم تكن حاملا ، وفى الحالة الأخيرة يمكنها أن تتزوج بعد الوضع ، وللأبناء ايضا حق الزواج بعد موت والدهم لكن اللياقة تحتم انقضاء فترة بين حدث محزن لهذا الحد وبين فعل يتطلب على الدوام مظاهر الخفة والفرح ، وفى ذلك تناقض واضح ، ولذا فان من يستبيح لنفسه ان يعقب جنازة اى من والديه بحفل زفافه يغطى نفسه بوصمة لا تغتفر لدى الرأى العام .

٣

المقابر

يبدى المصريون المحدثون اليوم عناية بمقابرهم تماثل عناية اسلافهم فى الماضى ، تؤدى بهم لاقامة منشآت باذخة اقل عظمة حقيقة مما اسسه

= احد الناس حتى يسارع اهله واصدقاؤه فيغطون رأسهم بالطين ويسيرون فى الشوارع يبكون حتى يتم دفن الجثمان » ولكن ثمة شيئا عند ديودور اكثر تحديدا عندما يتحدث عن حداد المصريين عند موت احد الملوك « عند موت الملك تدخل مصر كلها فى حداد : فيمزق الناس ملابسهم وتغلق المعابد ابوابها وتعلق الأضحيات وتوقف الأعياد والاحتفالات لمدة ٧٢ يوما . ويقوم عدد من الرجال والنساء يبلغ ٢٠٠ — ٣٠٠ شخص ، ورأسهم مغطاة بالطين ويحزمون صدورهم برباط ، بالانتحاب والرثاء على صوت الموسيقى مرتين فى اليوم » . انظر ديودور ، الكتاب الأول ، الفصل الثاني .

القدماء ، لكنها على روعة غير عادية اذا ما وضعنا فى الاعتبار حالة المصريين فى الوقت الحاضر . لقد حدثت ثورة تامة فى التقاليد والديانات والعادات الاجتماعية ومع ذلك فقد ظلت ضفاف النيل كما كانت فى الماضى ، هى المكان الذى يحترم فيه اكثر من غيره اجداث الموتى وترابهم ، فليست هناك كما يحدث فى البلدان الاخرى تلك الأحواش الفقيرة والمتهدمة التى تضم مقابر اولئك الذين انطفأت شمعة حياتهم ، ولا يحدث فيها ــ كما يحدث فى أماكن اخرى ــ ان يطأ المرء بقدميه وهو يسير فى ارض قاحلة او يجوس خلال الأعشاب البرية عظاما بشرية مبعثرة كيفما اتفق ـ نعم ليس ثمة مثل هذه الاعمال المجوجة والناتجة عن الاهمال واللامبالاة ، والتى تكشف عن مدى ما تلقاه ارواح الموتى من اهانة وازدراء على يد الأحياء . فكل شىء هنا ــ فى هذا الصدد ــ يختلف ، فثمة اشجار باسقة تظلل المقابر ، او ثمة على الأقل ورود زرعتها بين القبور عاطفة محبة ، تحول مثل هذا المكان المقبض الى نوع من الحدائق العامة ، وثمة مقاعد وفراغات بين المقابر ترسم نوعا من الشوارع الصغيرة نرى على امتدادها آثار عمل الانسان .

يالروعة بناء المقابر ! ويالروعة النقوش التى تغطيها .. ان المرء ليؤخذ بهذه الروعة الورعة لحد ان يتذكر ما كان يحدث فى الأزمنة الخوالى : « تتجلى عناية القدماء بمقابرهم فى تلك الأموال الطائلة التى ينفقونها عليها، وفى اقامة الاهرامات والتنقيب فى الجبال واستخدام الرسوم بالغة البذخ .. وباختصار فى تلك الروعة المدهشة » . وما يزال نفس هذا الميل موجودا حتى اليوم . وينفق المصريون فى هذا المجال من المال اكثر مما ينفقون على ملابسهم ومساكنهم. هنا يتجلى معنى ما قاله ديودور الصقلى عن أسلافهم من أنهم يعتبرون بيوتهم مجرد نزل عابرة لا ينبغى التوقف عندها طويلا، لذا فعنايتهم بها قليلة، فى الوقت الذي يعتبرون فيه المقابر بمثابة دار للخلود فيشيدونها بكل الفن والمهارة وهو أمر كانوا ضليعين فيه . لقد تغيرت ديانتهم بشكل كامل ، ومع ذلك فقد ظلت العادة كما كانت فى الماضى، فبجوار كل مدينة كبيرة توجد مدينة صغيرة للموتى ، حيث يكون لكل اسرة

ميسورة لحد ما مدفن خاص بها وحيث تزين كل المقابر بالنقوش والرسوم الجميلة(١) .

ويختار المصريون المحدثون لمقابرهم ـ شأنهم فى ذلك شأن المصريين القدماء ـ المناطق المرتفعة فوق مستوى النهر حتى لا تصل مياه النهر اليها فتهدمها ، ومن جهة اخرى فان الأراضى القابلة للزراعة فى الوادى غالية الثمن وضرورية للاحياء لدرجة لا يمكن معها ان يجعلوا منها مأواهم الأبدى ، وعلى هذا فينبغى ان يكون المكان الذى يستخدم كمقبرة قاحلا اجرد لا يبنى او يزرع فيه . والأرض التى خصصت للناس فى مقرهم الاخير ينبغى ان توقف عليهم والا تقلق هناك اجسادهم بأن يسمح للفلاح ان يغرس فيها سلاح محراثه . واذا امتلأت مقبرة ما فلن ينازع أحد عظام الموتى فى مكان خصص لها فلا تخلى المقبرة من العظام ليخلو المكان لموتى جدد .. هناك فى هذه المقابر يرقد الفقير مستريحا تحت المكان الحجرى الذى خصص له . اما الغنى فان ما دفعه فى شراء تلك المساحة الضيقة التى يشغلها قبره لن يضيع هباء ، وهكذا ، فما ان تغطى المقابر مساحة من الأرض التى خصصت للمدافن حتى تسمح الحكومة بأرض جديدة لنفس الغرض ، وتهجر الأولى ، ومع ذلك يظل ينظر اليها الناس باحترام ورع ، ويصبح من اعمال الخير ـ لوقت طويل من هذا الهجر ـ أن يضع الناس الورود فوق رخام المقابر .

ويقع المدفن ، او مدينة المقابر ، فى مدخل المدن عادة ، وخارج نطاقها ، ويستطيع كل انسان أن يدخلها بلا عائق اذ ليس ثمة حائط او سور يعوق الاقتراب منها . ويا لها من مفاجاة بالنسبة للاجنبى الذى لم يكن قد راى حتى هذه اللحظة الا الأكواخ التى يسكنها الاحياء فى الريف عندما يرى هذه المقابر الباذخة ! فثمة غابة من العواميد والنصب التذكارية والأضرحة .. تغطى مساحة شاسعة : وقد يظن المرء فى البداية انه امام مدينة بديعة هجرها عشية الأمس سكانها . وعندما يرى شوارع المدفن فقد يظن انه فى سهل مزروع بالمقابر . وفى كل مكان ستتجلى فنون

(١) انظر وصف مدينة طيبة فى دراسة المسيو جومار عن المغارات والكهوف .

العمارة التى تتضاءل الى جوارها ــ وبخاصة الأضرحة الكبيرة ــ عمـارة المساجد وقصور الكبار .

وتصنع العواميد وشواهد القبور من الرخام الأبيض : أما أساس المقابر فمن الحجارة وتصنع القبة من الخشب وتغطيها طبقات من الجبس او الجير شديد البياض . ونقوش المقابر ذات ذوق شرقى وهى عبارة عن نقوش وزهور من مختلف الأنواع رسمت بعناية ، وتغطيها أوراق مذهبة مما يعطيها مشهدا بديعا . أما أولئك الذين لم يحوزوا الا ثروة متواضعة فيكتفون بالكتابة على مقابر أهليهم بالأسود ، لكن الكتابة التى ينفـذها الأغنياء على مقابرهم ذهبية اللون . وتتكون المقابر العادية من حجـر فوق اللحد يرتفع من أحد جانبيه عمود يحمل عمامة وينتهى جانبه الآخـر بقطعة حجر مسطحة ، تنتهى بشكل مدبب وشذبت جوانبها لتأخذ شكل مسلة وتنقش عليها النقوش ، وهى فى بعض الأحيان رسم لشجرة سرو أو رسم لورود ينفذ بعناية شديدة . وتتكون مقابر السـيدات من حجرين مسطحين ينهض أحدهما عند الراس والآخر عند القدم ، وهما مليئان بالرسوم والنقوش وينتهى كل منهما بشكل مسلة لكنها لا تحمل عمامة . وتصـنع هذه الحجارة من الجرانيت أو من الحجارة الجبلية ، ولا تكون فى هـذه الحالة مزدانة بأية نقوش . وفى بعض الأحيان تغطى المقبرة كتلة صماء من الحجر وهذا أمر كاف عند الأتقياء الورعين ، فكل انسان يبذل ما يستطيع لتكريم ذكرى ذويه . وفى آسيا حيث الأراضى خصبة والأمطـار غزيرة يزرع الأتراك فى المدافن أشجار السرو ويشبه المدفن عندئذ غابة واسـعة ، اذ ترتفع هذه الأشجار الى علو شاهق . ومهما بلغ عمر الشجرة فلا يسمح بقطعها ، فقطع هذه الأشجار جريمة لا يغفرها القانون .

ويوم الجمعة بوجه خاص هو اليوم المحدد لزيارة المقابر ، وتذهب الأسرة الى هناك بأكملها فتصحب الأمهات أطفالهن ويتجمع هناك الأصدقاء ويجلسون حول مقبرة الفقيد ويتربعون على الحصر ليتناولوا بعض مايحملون من هبات ، ويتحدثون بمرارة عن الخسارة التى حدثت وعن فضائل الفقيد وكفاءاته ومميزاته . وهم يذهبـون الى مدينـة المـوتى هذه عند شروق الشمس ويمضون فترة الصباح كلها فى الصلوات والدعوات الدينية . وفى

هذه الأيام المهيبة يبلغ الزحام درجة تبدو معها المقابر وكأنما تقطنها جماهير غفيرة ويمكن ان نتخيل احجبة النساء وهى ترفرف وملابس الرجال الزاهية بكل الألوان الفاقعة والمتنوعة وفخامة مبانى المقابر التى تغطى السهل . فنتذكر على الفور تلك الأساطير القديمة التى ولدت على نفس هـــذه الضفاف .. اذ تبدو هذه الأماكن وكأنها مقر لأشـــباح محظوظة ، يخيـــل للمرء أنها تهيم على وجوهها وهى تخطو خطوها البطىء وسط مساكن الموت هذه . أما تلك المجموعات المبعثرة هنا وهناك تحت أشجار الأكاسيا والجميز ، فتبدو وكأنها تقدم لعيون المسافر لوحة من جنة الدار الآخرة تكملها وتجسدها مخيلته .

وتمتلك العائلات الغنية كما سبق القول مقابر رائعة الجمال ، ويعتبر بعضها فى الواقع مساجد صغيرة ، وهى محاطة بسور ويدفن فيها عبيـــد الأسرة وخدمها ويدفن السادة تحت القبة ثم تجمع عظامهم بعد ذلك فى قبر واحد ــ اما المقابر الأخرى فهى اكثر بســـاطة ، وتتكون من اســـاس من الحجارة تعلوه اربعة عواميد تحمل اقبية وسقيفة اما على شكل قبة او على هيئة هرم ، وتوضع الأجساد عند الأساس ، اما المقبرة او القبو فتظـــل خالية وتبنى تحت القبة التى تحدثنا عنها .

وفى معظم الأحيان ثمة مربع محفور وسط المستطيل الذى يغـــطى المقبرة ، ويملؤه الناس بالتراب لتزرع فيه الزهور بدافع المحبة والاعتزاز والتبجيـــل .

أما العامة الذين لا يقدرون حتى ان يثبتوا مجرد حجر عادى علامة على المكان الذى يرقد فيه أعزاؤهم ، فأنهم يكتفون برفع مستوى الأرض حول حفراتهم ، ويزرعون فيها بالمثل ورودا يأتون كل اسبوع لريها .

ومدافن المصريين تحظى بتقديسهم ، وهم يحرصون على ان يبعدوا عنها كل ما يمكنه ان ينال من قداستها . وتحاط مدينة القاهرة بأحـــواش مقابر سبق أن تحدثنا عن فخامتها ، لكن ينبغى أيضا ان ننوه بمدينة الموتى فى سيوط (اسيوط) فى صعيد مصر ، فهى تقع عند سفح جبل على حافة واد يانع الخضرة ويخترقها طريق واسع للغاية يفضى الى الصحراء . ويحيط كل مقبرة جدار ابيض ، تعلوه رسوم زاهية اللون ، وتظلله النخيل واشجار

الأكاسيا والجميز . وتعمل عاطفة الاحياء نحو ذويهم هنــاك على مضاعفة عدد هذه الأشجار والعناية بها .

وهكذا فان المصريين الذين تربط بينهم على الدوام المودة وصــلات الدم ، يقدمون بعد موت أحبائهم علامات مؤثرة على ذلك الحزن العميــق الذى انتابهم بفقد هؤلاء . فهم — مثل أسلافهم — يحسون بقوة بمبــاهج المشاعر الأسرية ، وتصدمهم بشكل مؤثر تلك الضربات التى تحرمهم من مخلوقات عزيزة عليهم ، خسارتها لا تعوض . وهكذا أيضا نراهم بعد أن يكونوا قد تذوقوا سعادة ان تشملهم المحبة اثناء حياتهم ، يتمتعون بعد أن يتركوا العالم الأرضى ، بسعادة أن يخيم على ذويهم الأسف على فراقهم .

٤

الحداد والنــدابات

لدينا فى اوربا وقت محدد للحداد الكبير ، أما الحداد الصغير فيلى ذلك . لكن هذه الممارسات مجهولة فى الشرق ، فهناك يعبرون عن الحزن والأسى بطريقة اخرى ، كما ان للألم هناك لغة غير تلك التى لدينا . فخلال عدد من الأيام حددها العرف ، تظل المرأة تبكى وفاة اقاربها سواء داخــل بيتها او فى المسجد أو على القبر . وثمة وقت من أوقات النهار مخصص لهذا الواجب الحزين . وينفذ هذا الواجب بدقة تســـتعصى على الفهم . صحيح اننا نلاحظ فى بعض الأحيان نوعا من التكلف فى هذه الممارسات الخارجية ، اذ ليس من النادر على سبيل المثال أن نرى النسوة يعبــرن الشارع وهن فى طريقهن الى المسجد أو الى المقابر ، دون أن يبدين اية دلالة على الحزن ثم ينهضن من هناك بعد أن يكن قد أطلقن صرخات الحزن المؤثرة لمدة تقرب من ساعة ، ويرحلن دون أن تحتفظ ملامحهن باقل اثــر لانفعالهن ، وبرغم ذلك فان هذه المظاهر صادقة وحقيقية عند العدد الأكبر من هؤلاء النسوة ، ولكى تقتنع بذلك ، فيكفيك أن ترى كما رأينا بائسات يهزهن الخوف من فقد احد اقاربهن ، يحادثن أنفسهن ويعبرن بصــوت خفيض وبطريقة تثير الشفقة عن القلق الذى يأكلهن ، وكثيرا ما سمعنا نســوة ينطقن اثناء سيرهن فى الشوارع بالدعوات الحارة كى يبعد الله المصيبة التى تهدد أسرتهن . ولا يقطع حديثهن الا العبرات التى تمزق صدورهن ،

ويعبرن عن مشاعرهن تلك بلا حرج وبلهجة صادقة ويدعين الله ان يطيل عمر من يعانى من الخطر على حساب عمرهن . يقلن ذلك بحرارة لدرجة يكون من الظلم معها أن تشك فى اخلاصهن . فاذا كان الخوف من الخطر يعذبهن بمثل هذه الطريقة المؤلمة افلا ينبغى أن تفترسهن الأحزان اذا ما تحققت مخاوفهن ؟ وكثيرا ما راينا سيدة فقدت طفلها العزيز وهى تندفع الى خارج بيتها نائحة باكية ، لتجوب الشوارع لتلقى بصرخاتها المنتحبة تنادى طفلها بصوت يمزق القلب : يا والاد .. ياوالاد ! (يا ولد .. يا ولد).

والسيدات وحدهن فى مصر يقمن محافل البكاء بعد موت اقاربهن . أما الرجال فعليهم كما سبق القول ان يظهروا قدرا أكبر من ضبط النفس فاذا تألموا فان المهم مركز . بل انهم يطلبون من النساء ـ اذا ما ذهبن الى بعيد فى التعبير عن بؤسهن(١) ـ أن يعتدلن ويتحلين بالصبر . وفى جهاز الدموع والأحزان يتجلى حداد مصر ولا يؤمن الدين زمنا محددا للحداد، ومع ذلك فإن الناس يرتدون ملابس قاتمة علامة على الحداد، لكن ابناء الطبقات العليا لا يخضعون لهذه العادة ، فما أن يدفن شخص منهم وتؤدى عليه الصلوات حتى لا يعود ثمة اى حداد دينى ملزم . ويكتفون بقضاء عدة ايام فى استقبال المعزين . ويدعى الى وجبة جنائزية كل أصدقاء المتوفى ، وتخصص هذه الوجبة لذكراه التى تكون موضوعا للحديث ويأخذ كل مدعو فى تعديد مناقبه .

أما الندابات اللاتى يتبعن مراسيم الدفن فهن نساء من الشعب مدربات منذ زمن طويل على العويل وتصنع صرخات الياس . وليس ثمة مسلم متنور الا ويدين هذه العادة الكاذبة ، ومع ذلك فقد لاحظنا انها لا تصدم الرأى العام ، وتلجأ زوجة الواحد من الكبار عندما تخشى انها لن تستطيع أن تسكب وحدها على المرحوم قدرا كافيا من الدمع ، أو ربما عندما تجد أن مهمة الانتحاب لمدة طويلة بلا انقطاع تفوق طاقتها ـ تلجأ الى استدعاء الندابات اللاتى يقمن فى الحجرة من البيت التى كان الجثمان مسجى فيها ، وهناك يقمن بتأبين الميت ولكن بطريقة شديدة النحيب .

---

(١) ليست النساء المسلمات وحدهن كما سبق القول هن اللاتى يبكين موتاهن . فربما تتفوق عليهن المسيحيات فى هذا الخصوص . وهذه العادة عامة فى مصر .

وتبدأ احداهن باطراء فضائل المتوفى ، وما ان تلفــظ أول كلمة حتى تطلق الأخريات فى صــوت واحد صيحات مفــزعة كما لو كان ذلك للتعبير عن حجم الخسارة التى أصابت العائلة . وتشرب الندابات من ابريق موضوع على موقد فى نفس الحجرة وعقب كل نوبة تأبين ـــ قدحا من القهوة ومع ذلك فليس فى صرخاتهن ما يمس قلب الأجنبى ، فهن يعولن اكثر ممــا يبكين بعاطفة . واغلب هؤلاء التعيسات لا يسكبن دموعا ويقتصر عملهــن على الاتيان ببعض الحركات وأن يرثين بنــوع من الايقاع الحــــزين ، ولا يسمح النقاب الذى يغــطى وجههن ، والذين بدونه لا يمــكن لهن أن يتجاسرن على الظهور امام الناس ـــ لا يسمح للمرء أن يكشف كذب بكائهن.

وعلى الرغم من الاحتقار الذى يبديه المسلمون المتنورون لهــــذه الاحتفالات الجنائزية والتى تشبه مسرحية هزلية أكثر مما هى تعبير حقيقى عن الالم ، فان من المحتمل ان تظل هذه العادة لوقت طويل فى كامل قوتها ، اذ من الصعب ان تقتلع من جذورها معتقدات امتد بها العمر وتجسدت فى هذه العادة الضاربة فى القدم ، وانه لأمر اكثر مشقة عند شعب روتينى يبدو كما لو كان يرى على نحو ما ، فى حذوه حذو أسلافه ، أمرا له قداسة الأديان .

الفصل الخامس

النظم والمؤسسات

١

رجال الشريعة والقضاء

بعد ان انتهينا من الحديث عن التقاليد الأسرية والعادات الاجتماعية للمصريين المحدثين ، وبعد ان تعقبناهم فى مختلف اطوار حياتهم من المهد الى اللحد فسوف نهتم الآن بأنظمتهم ومؤسساتهم المدنية والدينية ، ولعل هذا هو اهم فصل فى مؤلفنا ، اذ كان من المستحيل على الرحالة الذين جاءوا الى مصر قبل هزيمتها على يد الفرنسيين ان يحصلوا فى هذا الصدد على افكار ومعلومات موضوعية ، فقد كان ثمة عقبات كبيرة تحول دون أبحاث بهذه الدقة، كما أن مثل هذه الأبحاث كانت تثير الهلع كما كانت تثير ريبة وشكوك الحكومات المستبدة، التى كانت تتولى شئون البلاد. لقد كان الأمر يتطلب وجود ودعم جيش منتصر مسيطر ، وعلاقات يومية ومباشرة مع السكان من كافة الطبقات حتى يمكن دراسة قوانين مصر ونظامها المالى والادارى . وقد سبق أن قدمت دراسة « استيف » Estève لوحة كاملة عن الدخل العام وتوزيع واستخدام الضرائب ومختلف أنواع الملكية ، اى انها قدمت باختصار لوحة عن كافة فروع الحكومة التى كان عملها الاشراف على مالية الدولة .

ولقد كانت المهام التي أوكلت إلى الأستاذ استيف هى التى مكنته من أن يرى بعينيه كل شىء وان يسبر فى ثنايا ذلك غور تلك الادارة البطيئة والمعقدة . علينا اذن فى فصلنا هذا ان نهتم بالدرجة الأولى بالنظم والمؤسسات التى لا يدخل فى نطاقها الموضوع الذى عالجه زميلنا وان نبدأ بالقوانين المدنية التى يخضع لها المصريون فى الوقت الحاضر ولكن من الأمور الملحة قبل أن نمضى فى تمحيص هذه القوانين ان نتعرف على الأشخاص الذين كانوا أعضاء فى هذه المؤسسات او قائمين على أمر هذه النظم . وحيث ان الشريعة الاسلامية وكتابها « القرآن الكريم » هما القاعدة الرئيسية التى تنهض عليها القوانين المدنية فان رجال الدين قد أصبحوا فى نفس الوقت رجال القانون . وهؤلاء ينقسمون الى عدة طوائف ومهامهم

بالغة التنوع . فبعضهم تقتصر مهمته على العناية بالمساجد ومن هـؤلاء الامام ، وهذا النوع من الرجال ليسوا بالأغنياء ولا بذوى المكانة ، فبامكان كل مسلم ملم بالقراءة والكتابة واقامة الصلاة ان يكون اماما لمسجد . وهو ليس من رجال الدين المتخصصين ولا يرتدى زيا خاصا . وهذا النوع من العمل وراثى فى العائلات ومن الممكن التنازل عن هذه الوظيفة لآخر مقابل جعل من المـــال .

والقاضى هو الذى يفحص الأئمة ويمكنه ان يقبلهم او يرفضهم حسبما يتراءى له عن المرشح وهل هو فى مستوى الوظيفة أو ليس فى مستواها، وليس ثمة هيرارشية (هرمية) بين الأئمة فهم ائمة المساجد وليس اكثر من ذلك . وللباب العالى عليهم وعلى كل العلماء نوع من السطوة الروحية ، ولكن اذا حدث أن كان ببعـــض فرماناته ما يتعارض مع بعــض ما جاء فى القرآن فانهم لا يلزمون انفسهم بطاعتها عن اعتقاد اذ لا ينبغى عليهم أن يطيعوا الا الله ورسوله .

ويشكل الاشراف فى مصر طبقة منعزلة ، وهم يتمتعون بنفوذ كبير ، وسبب مكانتهم تلك هو اللقب الذى يحملونه ، فشريف معناه متميز ، وهذه الصفة لا تخلع الا على احفاد محمد من ابنته فاطمة ، ويحق لهم وحدهم لبس العمامة الخضراء ، ويقول بعض العلماء : ويل لمن يدعى لنفسهالشرف دون أن يكون كذلك وويل لمن يهجر الأشراف ! ونحن نجد أشرافا من مختلف الطبقات ، وثمة أشراف لا تعرف ما هى مهنتهم بالضبط ، بل وثمة منهم من يمارسون اعمـــالا مرذولة ، وينقل النساء هـــذا اللقب لاولادهن من الجنسين وحيث أن من حقهن أن يتزوجن بلا تمييز ، أى سواء من شريف او من مسلم ليس من الاشراف فبامكاننا أن نستنتج كيف يمكن أن يتضاعف عدد أفراد هذه الطائفة .

ويختار الباب العالى واحدا من ابرز هؤلاء الاشراف ليعينه نقيبـــا للاشراف . وهى وظيفة محترمة ويقيم من يتولاها فى القاهرة ، ويأتى هذا النقيب عادة من القسطنطينية مع القاضى . ويدفع فى مقابل وظيفته تلك حوالى ٤٠٫٠٠٠ مدينى ويحصل على دخل عديد من القرى الصغيرة هى بمثابة اقطاع لوظيفته . ولا يعهد لشخص ما بهذا المنصب الا لمدة عام يثبت فى نهايته النقيب أو يستبدل به غيره حسب مشيئة السلطان .

ويحاكم كل الاشراف أمام نقيبهم على ما يأتون من اخطاء بسيطة ، لكن ليس من سلطته أن يحكم على واحد منهم بالموت ، فالقاضى وحده هو الذى يختص بمحاكمتهم فى الأمور المدنية والجنائية مثلهم مثل بقية المسلمين، وعندما يحكم على واحد منهم بالاعدام يتولى النقيب تنفيذ الحكم . وللاشراف سجن خاص بهم ويستخدم جزء من دخول القرى الموقوفة على النقيب لأحكام المساجين من الأشراف(١) .

وليس ثمة بلد يتمتع فيه الأشراف بامتياز أكبر مما يتمتعون به فى مكة. اذ لهم الحظوة على سائر المسلمين فى كل الاحتفالات الدينية ، ولهم بخلاف ذلك امتيازات كثيرة ، ومع ذلك فشريف مكة ليس سوى أمير زمنى وليست له أية قداسة دينية ، بل ان الصلاة لا تقام مطلقا باسمه ، بل تقام الصلاة على الدوام فى الحرم المكّى باسم السلطان .

ولقد سبق لنا أن تحدثنا عن العلماء ، وهؤلاء ينقسمون الى ثلاث طبقات كبرى : رجال الدين ، علماء الشريعة ، القضاة . والأولون هم الأئمة ، والآخرون هم رجال الافتاء وهم بمثابة محامين استشاريين يبدون آراءهم فى كافة الأمور ، أما الفئة الثالثة فهم قضاة العدل ، ويمنح القضاة من الدرجة الأولى لقب مولاى ومعناه سيد أو شريف . اما شيخ الاسلام — أو مفتى القسطنطينية — والوزير الأكبر (الصدر الأعظم) فهما أهم شخصيتين بعد السلطان فى كل الامبراطورية . وهما يمثلان السلطان : الأول فى الشئون الروحية والثانى فى الأمور الزمنية ، وليس من حق السلطان ان يعدم المفتى بنفس الطريقة التى يعدم بها المذنبون العاديون ، وعندما يدان شخص ما وهو يتقلد هذا المنصب الخطير بجريمة كبيرة فانه يلقى عقابا خاصا ، ربما كان أكبر بكثير من ذلك العقاب الذى يوقع على المجرمين العاديين .

وتعرض على المفتى المسائل العويصة التى قد تظهر عند تطبيق بعض

---

(١) يوجد كذلك اختلاف فى طريقة اعدام الأشراف ، اذ لا يمكن ان تفصل رءوسهم عن أبدانهم ، ويرسل النقيب الى السجن من يقوم بخنق المحكوم عليه بالاعدام ، ولا تعلق اجسادهم كذلك بعد تنفيذ الحكم بل تدفن على الفور .

احكام الشريعة ، ويتوجه اليه للحصول على حكم منه باعتباره رجل الشريعة المكلف بابداء الراى فى العقوبات التى تطبق فى بعض الجنايات . وهـذا الحكم الذى يصدره عن هذه الأمور الجنائية أو فى غيرها من المسائل المدنية مثل حقوق أطراف النزاع فى قضية ما يسمى فتوى ، وهى تماثل منطوقا شرعيا تحدد مسار حكم القاضى ، ويحرر هؤلاء فتواهم كتابة ، ولكن عندما يطلب الى المفتى ايضاحات حول نقطة غامضة فى القانون فانه يستدعى كبار العلماء ليناقش الحالة معهم ، ومن النادر ان يلجأ قاض ضليع فى الفقه الى طلب راى المفتى بل واكثر من ذلك ان يلتزم بقراراته . ولكن عندما لا يكون القاضى ضليعا فى الفقه كما يحدث فى معظم الأحوال، فانه يلجا على الدوام لطلب راى المفتى قبل أن ينطق بالحكم .

ولكل من المذاهب الاسلامية الأربعة التى تحدثنا عنها فى الفصل الاول مفت خاص بها فى القاهرة . لكن هذه الوظائف لا تمنح ، بل هى لقب أو جدارة تنال بالسمعة ، أما فى المدن الأخرى والتى تحظى ببعض الأهمية فان المفتى يقوم بارسال قاض يمثله فيها ، ولا يمارس هـذا « المـولى » وظيفته الا لفترة قصيرة من الزمن ، وامثاله فى تركيا يغيرون كل شـهر ويدفعون ثمنا لوظائفهم مبلغا يتفاوت بحسب ثراء المدينة التى سيمارسون فيها عملهم ، والمولى بعد الحاكم هو السلطة الأولى فى المدينة .

وثمة فى مصر نظام للخلوات ــ وهى تماثل الأديرة ــ وتنتشر الى حد ما فى الولايات التركية الأخرى ، ويسمى المنتسبون اليها دراويش . وهم يعيشون فى جماعة ويرحلون من خلوة الى اخرى وليس محرما عليهم أن يتزوجوا لكن لا يمكن قبول زوجاتهم معهم فى الخلوة ، وعلى هؤلاء أن يقمن فى مساكن خاصة ، ولكل جماعة من الدراويش دخول تأتيها من هبات موصى بها ومن منشآت أوقفها عليهم الخيرون من المسلمين ، ولكل طريقة رؤساؤها ، ولكل خلوة رئيس يسمى شيخا ، وفضلا عن ذلك فان هؤلاء الدراويش يتمتعون باحترام عام ، ولكنهم يتهمون بالتفلسف وهذا اتهام خطير عند شعب جاهل يتشبث باخطائه بحكم التعود الطويل . فالشرقيون يسمون فلاسفة كل العقول التى لا يسهل عليها أن تتقبل بسهولة الكثير من الأفكار والآراء ، وبخاصة تلك العقول التى ليست على استعداد للاعتقاد فى معجزات النبى . ومع ذلك فمن الصعب ان نتقبل اتهاما كهذا يوجه الى

الدراويش ، فهم ليسوا متنورين للحد الذى يتعمقون معه فى موضوعات جادة بل يبدو أن مثل هذه الموضوعات لا تثير اهتمامهم . ومهما يكن الأمر فانه يظن بكثير منهم الهرطقة وعدم الورع . ويقول خصومهم بأنهم يجعلون من ايمانهم بالله نهاية المطاف لعقيدتهم ، فلا يلتزمون بعد ذلك باقامة الصلاة او الامتثال للفروض ، وبأنهم لا يخضعون الا من حيث الشكل ، وبأن كل ما يتظاهرون به فارغ لا قصد منه سوى الرياء . وثمة طوائف دينية اخرى كثيرة من المسلمين ولكن حيث أن بعض هؤلاء من النساك العاكفين وبعضهم الآخر حجاج جوابون فسوف يكون من الصعب علينا أن نقدم تفاصيل موضوعية عنهم ، ولكننا نكتفى هنا بأن نتحدث بعض الشىء عن الأولياء ، وهم بالنسبة للمصريين موضع تقديس خاص .

ليس ثمة شعب لم يخلط بمعتقداته وممارساته الدينية صورا من صور الامتثال المضحك ، فلقد صور المصريون فى عصورهم القديمة الاله فى اشكال بالغة الغرابة والوحشية ، وقدس الاغريق آلهتم الذين اظهروهم فى شكل النهمين الى الملذات الخليعة والمنفرة ، اما الرومان فقد كان لديهم عرافوهم الباحثون عن شكل المستقبل بفحص امعاء وجروح الأضحيات ، وكم من مرة استسلم الشيوخ العظام لأول جمهورية عرفها التاريخ لشهية الدجاجات المقدسة ، أو لنتيجة استجلاء جروح الأضحيات حتى يقرروا مصير الوطن ، اما عبادة الكهنة الغالبين فهى اكثر الامور المفزعة التى يقدمها لنا التاريخ ، ومع ذلك فقد ظلت لوقت طويل عزيزة على الغالبين ، وهكذا ، وكأن هذا قدر لا يمكن الافلات منه ، اذ يبدو انه لصيق بكل انظمة البشر ، كرس المحدثون شأنهم شأن القدامى أخطاء ومعتقدات بعيدة عن العقل ربما لم يعد من الممكن اغتفارها مع هذا المدى الذى بلغه عقل الانسان عما كان عليه فى تلك الأزمان الضاربة فى القدم . وفى هذا الصدد لا يقل المصريون المحدثون غرابة عن اسلافهم وان كانوا اقل منهم عبقرية ومهارة، فهم يقومون بعبادة امور يمجها العقل مثل الأضرحة والأولياء حيث يعتقد الناس هناك ان الله قد كلف أولياء بخدمتهم وهيأهم للامر بطريقة شاملة أصبحوا معها لا يبالون ــ اى الاولياء ــ بكل ما هو ارضى ، بل انهم جميعا قد فقدوا الشعور باحاسيسهم الدنيوية ، وهكذا يلقى البلهاء فى حياتهم الاحترام والاكبار باعتبارهم أولياء وقديسين . وثمة بعض من هؤلاء يتمتعون بقدر ضئيل من المواهب الروحية والخلقية ، لكن هؤلاء ينسحبون الى

الأماكن المعزولة ليعيشوا كنساك زاهدين وينهمكون فى الصلوات والتأمل، وثمة أولياء من كلا الجنسين ، ويرى هؤلاء على الدوام وهم يسيرون عراة كما ولدتهم امهاتهم ، لكن التقديس أو قل هو العمى العــام يكون بالنسبة لهم بمثابة الرداء(١) . ويدفن هؤلاء الأشخاص بعد موتهم فى احتفال كبير ، وتصبح مقابرهم بالنسبة للناس اماكن ملئى بالمعجزات ، وفى الأرياف ، وكذا فى الاحياء البعيدة عن وسط المدن ، يوجد الكثير من هذه الأضرحة التى تدين بوجودها لهبات المسلمين المتحمسين ، وهى على شكل قباب صغيرة تتفاوت درجة فخامتها ، وثمة رجال مكلفون بالحفاظ عليها وللقيام بوظيفة الامام فى هذه المساجد ــ المقبرة ، لكن هذا العمل على الدوام ليــس مجزيا ، وكثيرا ما نقابل فى الشوارع رجالا تغطيهم الهلالية ، يتموج شعرهم المتهدل ويمسكون بيدهم عصا : هؤلاء هم شــيوخ مقابر الأوليــاء جاءوا يتكففون الناس .

وفى بعض الأحيان يلعب بعض المخاتلين دور الولى حتى ينعمــوا بالترحيب والاحترام ، وبخاصة كرم الضيافة ، ولكن بعد وقت يطــول أو يقصر ، يتوصل الناس الى اكتشاف الخدعة ، ويكون الهجر والاحتقار هو نصيب هؤلاء الأولياء المزيفين .

٢

الاعياد الدينية ، المبادىء الرئيسية للعقيدة الاسلامية

سبق لنا أن تحدثنا عن أعياد المصريين اثناء حديثنا عن الاحتفــالات وضروب اللهو عند الشعب المصرى ، وعلى الرغم من ان اعياد المصريين كلها تعود الى اصل دينى ، فليس ثمة سوى عيدين من هذه الأعياد يمكن اعتبارهما بحق اعيادا مقدسة ، وهذان العيدان هما عيد رمضان (عيــد الفطر) وعيد اضحية ابراهيم (عيد الأضحى) .ويبلغ طول العيد الأول

---

(١) يروى عن كثير من الأولياء انهم لم يكونوا على الدوام بمنأى عن ملذات الحس ، ويقــال ان القداسة التى يتدثرون بها قد سهلت لهم على الدوام وسائل اشــباع كل ملذاتهم دون أن تمس قداستهم حيث انهم لم يخدشوا الحياء العام او يخرجوا على مقتضيات اللياقة .

ثلاثة ايام ، وفى هذا العيد يشكر المسلمون ربهم لانه قد مكنهم من أن يمضوا فترة الصيام على خير ، اما العيد الثانى ، العيد الكبير ، فيتم الاحتفال به فى العاشر من ذى الحجة وهو آخر شهور السنة ويستمر أربعة أيام بالنسبة لعامة الشعب ، لكن الأثرياء وكبار الشخصيات يحتفلون به لاسبوع كامل ، ويتفق حلول هذا العيد مع وصول الحجاج الى مكة فيذبحون على الجبل أضحياتهم . وفى يوم العيد تذبح كل اسرة مسلمة فى كل انحاء مصر حملا أو اى حيوان آخر بحسب امكانياتها ، اما الأغنياء فيذبحون ذبائح عدة بحيث يخصص لكل فرد من الأسرة ذبيحة على الأقل ، لكن الفقراء يكتفون بأضحية واحدة .

ومما هو جدير بالذكر ان الأعياد الدينية التى قررها محمد لا تشبه فى شىء اعياد المسيحيين ، اذ هى ليست أياما للراحة ، فهى لا تفترق عن بقية الأيام الا فى الصلوات الاضافية والأدعيات التى تتلى فى كل مسجد، وبخلاف ذلك فان المحلات تظل مفتوحة ويستطيع العمال ان يقوموا باعمالهم المعتادة ، لكن الناس يفضلون أن يرفهوا عن انفسهم ، فيرتدون اجمل ملابسهم ، وتغص الشوارع بأناس انغمسوا فى المرح .

وذكرى مولد النبى هى الأخرى مناسبة لمباهج كبرى للعامة فتمتلىء الميادين بالمهرجين والحواة والعوالم وباعة الحلوى ، ومع ذلك فلا ينظر لهذه المناسبة باعتبارها عيدا اجباريا اذ يمكن الاحتفال أو عدم الاحتفال به والعادة وحدها هى التى اقرته . وعند حلول المساء يسارع الناس باضاءة الأنوار ويستمر اللهو حتى وقت متأخر من الليل .

وثمة عادة خاصة بمصر لا تشاركها فيها فيما يبدو بقية الدول الاسلامية ، تلك هى عادة اقامة الاعياد للاولياء ، حيث لكل قرية ولكل حى من مدن مصر الكبرى ولى يحتفل الشعب بيوم مولده ، وبرغم ذلك فلا تقام أية صلوات اضافية فى المساجد وعلى الرغم من الدافع الدينى لهذهالاعياد الا أن رجال الشريعة لا يشاركون فيه على الاطلاق ، ويتركون شئون

الاحتفال للسكان من كافة الطبقات وهؤلاء نهمون على الدوام للبهجة وضروب اللهو(١) .

ومع ذلك فشهر رمضان هو اهم الأوقات التى ينغمس فيها المصريون فى المسرات ومختلف ضروب اللهو ، فهو فى مجموعه شهر صيام وشهر مهرجانات . وقد يبدو من الغريب ان يختاروا مثل هذا الوقت للقيام بممارسات متناقضة : التوبة وتطهير النفس من ناحية ، والملذات من الناحية الأخرى ، ولكن ، فلعل المشرع قد اراد بذلك ان يخفف من وطأة تلك التوبة المهلكة فعمل على أن تصحبها أوقات تخصص للمسرات (كذا !) اذ يستطيع الناس بشكل افضل ان يتحملوا من ضروب الحرمان تلك التى تعقبها المسرات والملذات .

ولن يكون بمقدورنا أن نكون فكرة تامة عن شهر رمضان ، شهر صيام المسلمين ، اذ اتخذنا من صيام المسيحيين طرفا للمقارنة ، فلقد منح محمد نفسه كامل الحرية فى تقديره لنمط الرجل الفاضل الذى ينشده والذى سيحوز مباهج العالم الآخر ، لدرجة انه قرر نظاما بهذه القسوة يؤمنه مع اتباعه فى هذا الصيام السنوى . فالصوم يستمر لشهر قمرى كامل ، ويأتى فى أوقات غير محددة اذ يأتى أحيانا فى الصيف وأحيانا فى الشتاء ، لكن الشريعة تظل فى كلا الفصلين على قسوتها ، فينبغى على المرء أن يحرم نفسه من كل طعام ابتداء من شروق الشمس حتى غروبها ، ولا يستطيع خلال هذه المدة لا أن يشرب ولا أن يدخن ، ومن السهل أن نتخيل قسوة مثل هذا الصيام ، اذا ما تصورنا كيف يكون العطش فى منطقة مدارية كمصر ، هو اشد اشكال الحرمان استعصاء على التحمل . وفى الوقت نفسه ، يكون على العامة الذين لا يستطيعون الاستغناء عن عملهم اليومى الذى يتكسبون منه عيشهم ، الانتظار حتى نهاية اليوم ليرووا غلتهم ، ويرى المرء فى فترة هذا الصوم حمالين يسيرون — كما فى الأيام العادية — وهم يحملون احمالا ضخمة او يعملون بطريقة شاقة اطول وقت من النهار ، دون أن يرطب حلقهم الجاف قطرة من ماء ودون أن يتناولوا وجبتهم الصغيرة

---

(١) يفضل المصريون الاحتفال بأعيادهم ومسراتهم فى الليل . وهذه فى الغالب عادة كل الشعوب التى تعيش فى جو حار . فالليل فى المناطق المدارية فى الواقع هو الوقت الذى تنشط فيه أجسامهم وملكاتهم .

المجهودة لتنشيط قواهم التى هدها العرق والتعب . ولكن ما أن يأتى المساء حتى يتغير المشهد ، انهم لم يعودوا نفس الرجال ، فالليل بطوله ينقضى فى الولائم وضروب اللهو والفجور . فى النهار يفعل كل امرىء قدر طاقتـــه كى ينهى أعماله بسرعة ليخصص بضع ساعات للنوم ، فترى الفـــلاح راقدا تحت النخلة بعد أن انهى فى فترة الصباح عمله ، وترى التاجر يرتد عـــلى بنك دكانه ، والعامة ممددين فى الشوارع بجوار جدران مساكنهم . بينما الغنى راقد بالمثل ، نعسان ينتظر على أريكته الفاخرة الفترة التى تسبق غروب الشمس . واخيرا تأتى تلك الساعة التى طال انتظارها ! فينهضون على عجل ويهرع كل امرىء للحصول على مكان مرتفع . وتتجمع النســـاء فى شرفات منازلهن ليرين حركة اختفاء الشمس ، وتبدأ الشمس تشـــحب رويدا رويدا ويتآكل قرصها ليختفى وراء الأفق ، وتنمحى ـــ والنـــاس فى مشقة الانتظار ـــ اشعتها حتى ان العامة وسكان القصور والقابعات فى معاقل الحريم ـــ كل هؤلاء يحيون بصوت جماعى تلك النهاية التى تلكأت طويلا طويلا ـــ وتعلن الاغنيات الجدلانة حلول وقت المسرات ووقت الطعام، وتدوى من كل المساجد أصوات المؤذنين الجادة تنادى الناس للصـــــلاة ، وتحدث همهمة واضطراب عام ، فيتفرق النـــاس على الفور ، وتنفــض الجماعات ويتبعثر المتجمعون اما الى المقاهى وأما الى البيـــوت والمساجد والميادين العامة ، ويأكل كل امرىء بشراهة ، ويقيم الأثرياء مآدب باذخة ويقدمون للفقراء فضلات موائدهم . ويقدم الطعام للجميع بلا تمييـــز ، لكل الحاضرين ، وهذه العادة الحميدة بلا شك ، تطبق فى كل ولايات السلطان .

ويعقب الطعام الاحتفالات والألعاب . وتسيطر الخلاعة الجامحة على كل ضروب اللهو فى ليالى الفسق هذه ، وتظل المساجد مضاءة حتى بزوغ النهار ، ويقضى أفاضل الناس ليلهم فى حديث نافع ، لكن الجمهور يذهب الى المقاهى حيث الرواة والمنشدون يقصون بحماسة ملتهبة ، مغـــامرات عجيبة تخلب الألباب بطريقة فريدة ، ويهرع البعض الى الحمامات ، فهناك على وجه الخصوص تزدهر الملذات وتتم لقاءات الغــــرام ، والعـــاملون بالحمامات ، المعتادون على هذا النوع من الأمور ، هم على الدوام عصب هذه المغامرات العاطفية ، وهكذا ينتقم الجنس من سجانه وطغاته ، ولكن ينبغى ان تحاط مثل هذه المغامرات بأكبر قدر من السرية ، والا فان غضب الزوج المطعون فى كرامته لن يعرف لنفسه حدودا ،

ويمكن القول أن الميادين العامة هى الأماكن التى تعرض فيها اكبر مشاهد الدعارة والفسق مدعاة للخجل . فهناك يقدم بعض الحواة والمشعوذين مشاهد شهوانية تنتهى بلوحات بالغة الانحطاط والفظاظة تشكل فسادا مدهشا للتقاليد ، والممثلون الرئيسيون فى هذه اللوحات هم على الدوام شيخ وطفل . وبرغم ذلك ، فلو اننا حكمنا على تقاليد الأمة باكملها عن طريق الميل الذى يبديه ابناء الشعب عادة نحو هذه العروض ، لكونا بالتاكيد فكرة خاطئة وظالمة ، فمثل هذه العروض الماجنة لا تجذب الا السوقة والرعاع ، ومثل هؤلاء الناس فى كل مكان ، نهمون لرؤية مشاهد الغلمة والفسق بكل عريها ، لكن ما يدعو الى الأسف حقا هو أن تسمح السلطات بمثل هذه العروض .

بل ان مباهج رمضان تصل الى معاقل الحريم ، ففى رمضان يسمح للسيدات باستدعاء العوالم وبعض الموسيقيين ، ويجلس الزوج باسترخاء ولا مبالاة على اريكته ، ومبسم نارجيلته فى فمه ، والى جانبه احب زوجاته الى قلبه ، ليستمعا بمتعة شديدة الى أغنيات العوالم وصوت الموسيقى ، ويحيط الزوجين بعض العبيد ، واقفين من حولهما او جالسين القرفصاء على حصيرة . ولا بد أن يبدى المرء اعجابه بذلك التمثيل الصامت (بانتوميم) للعالمة الشابة وهى تصور فى خلاعة وشهوانية ، الصراع بين الفسق وبين العفة ، ويحيط بقامتها الرشيقة حزام معقود برخاوة ، يبدو كانه الحاجز الوحيد الذى يصد عنها هجمات الحب . وتعود لتعقده من جديد — برخاوة أيضا — كلما بدا أنه قد بدأ يستجيب بفعل قوة لا تقاوم وهى ترقص على نغمات الآلات ، لكن الحزام تزعزعه حركات الراقصة فينفك من جديد رويدا رويدا . عندئذ تتنبه العفة فجاة بعد ان نومتها الشهوة ، فتعقد الراقصة الحزام من جديد ، وبنفس الرخاوة ، ويتخذ الرقص مظهرا اكثر جدية ووقارا . لكن ذلك يخلى مكانه مرة اخرى لحيوية الاحساسات والشهوة التى تبدو العالمة فريسة لها .. وتتجدد نفس الظروف وتضعف العقدة الرهيفة التى تحول دون الحب ، وتعقدها الراقصة من جديد ، لكن الحب ينتصر ولا يعود أحد يعترض على انتصاره وتستجيب العالمة فى النهاية لعواطفها ، فتبطىء من حركاتها وتبدو غارقة فى هيام لذيذ ويصفق الحاضرون لها بحماسة واعجاب ، ويحدث تمثيلها الشهوانى الصامت اثرا يفوق الوصف على مشاهديها ، وبخاصة على الزوجة ، فتخرج

عن طورها ــ كما شــاهدنا ذلك عــدة مرات ــ متأثرة بتلك الرقصــة الشــهوانية ــ فتصل صوتها بصوت المغنين وتقلد حركات العالمة .

لن نمضى طويلا فى وصف تقاليد المسلمين أثناء شهر رمضان ، فقد حان الوقت لأن نعود الى موضوعات اكثر جدية . لنلق نظرة سريعة على الدين بشــــكل عام ، حيث أن من الصــحيح ان للدين فى مصر بصــفة خاصة ــ واكثر من كل البلدان الأخــرى ــ تاثيرا على كل النظم المدنيــة والعادات الاجتماعية .

ينبغى على المسلم ان يعتقد بوحدانية الله(١) ، فى رسـالـة محمد ، مع الايمان بكل ما جاء فى القرآن باعتباره كلاما مقدســا(٢) ، وان يؤدى الصلوات الخمس مع اداء الوضوء الذى لا غنى عنه لممارسة هذهالصلوات، وان يحرص على صيام رمضان ، وأن يؤدى للفقراء جزءا من دخوله هى حق لهؤلاء الفقراء(٣) ، وان يحج الى مكة مرة واحدة فى العمر .

ويعترف المسلمون ــ شأنهم شأن المسيحيين ــ بقدرة الله وعدالته ومعرفته بالغيب لكنهم يعتقدون أكثر من المسيحيين بالقضاء والقدر ، وان كانوا يختلفون فى درجة تمثل هذه الفكرة ، ويقودهم هذا الاعتقــاد الى استسلام لا حدود له يميزهم عن سائر الشعوب ، ويعتقــدون فى نفس الوقت ان الأفعال الانسانية وأحداث العالم محددة بنظــام ثابت ، حتى أنه ليس بمقدور المرء ان يتوقع بما سيكون ضارا به حتى ولو كان مرضــا معديا(٤) . ويفسر استســلامهم الطبيعى على الدوام بأنه خضــوع أعمى لمشيئة القدر .

---

(١) ينبغى الاعتقــاد بصورة مطلقة فى وحدانية الله فعلى المسلم الحق بان يؤمن بأن الله احد وبأنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

(٢) يعتقد المسلمون ان الله أنزل القرآن على محمد عن طريق الملاك جبريل آية آية على مدار ٢٣ عاما .

(٣) من اهم الصــدقات الاجبارية التى على المسلم تقديمها ، صــدقة عيد الفطر .

(٤) ينقسم المســلمون حول هذه النقطة . فيذهب الأحنــاف والأتراك عموما الى أن الاجراءات الصحية تعتبر مظهرا مبينا لقدرة الله ، لــكن بقية المذاهب اقل تعنتا .

ويرى المسلمون انه لا يمكن تمثل الله على أية صورة ، كما يرون انه لا ينبغى التعمق فى البحث فى ذات الله ولكن يقبغى فقط البحث فى صفاته، ويرى بعضهم أن الروح منبثة فى كل خلايا الجسم ، وانها تجرى مع الدم فى العروق ، ويرى آخرون انها مثل الشمس تتوزع اشعتها على كل اجزاء الجسم ، وقد قال محمد عن الروح انها من أمر الله . وعلى العموم فان المسائل الميتافيزيقية التى مزقت مدارسنا المسيحية طويلا ، لا يميل اليها علماء المسلمين الا قليلا ، فمعتقداتهم افكار مسبقة ، وهم لا يسعون لتفسير ذكاء العقل الانسانى وينظرون الى موسى والى المسيح باعتبارهما من الأنبياء ، فالمسيح هو روح الله جاء عن طريق نفخة من جبريل فى العذراء ، وعندما قام برسالته على الأرض صعد الى السماء حيث الذات العليا ، وحيث يعيش الآن وأن الكفرة الخاطئين فى تواطئهم الاجرامى لم يقتلوا او يعذبوا الا شبيها له .

ويتفق العلماء على ان اليهود والمسيحيين الذين عاشوا قبل رسالة محمد كانوا مؤمنين بحق ، ولكن حيث أن هذه الرسالة الاخيرة قد جاءت لتغير وتصلح من كل الشرائع التى جاء بها الأنبياء السابقون ، فان اتباع موسى الحاليين وكذا اتباع عيسى كفار وغير مؤمنين .

ويرى المسلمون أن العالم مخلوق وأن الله وحده هو الأزلى ، ولا يعود زمن الخلق الا الى الف عام وبضعة قرون ، والفترة التى ينبغى أن يحياها العالم غير مؤكدة ، وينصح محمد اتباعه الا يحاولوا مطلقا البحث فيها ، وقد خلق الله الخلق فى ستة أيام : فخلق الأرض فى يوم السبت ، وشكل الجبال فى اليوم التالى ، وفى اليوم الثالث خلق الأشجار والنبات ، وفى الرابع خلق الآلام والفتن الاجتماعية (وهو يوم سىء الطلع) وفى اليوم الخامس خلق الظلمات والنور ، وفى السادس خلق الحيوانات . وظهر آدم فى اليوم السابع لاول مرة على ظهر الأرض ، وكان قد تشكل منذ اربعين يوما .

ويؤمن المسلمون ايضا بهذا الاعتقاد الباعث على الأمل والمواساة : الايمان بخلود الروح ، وهذه الفكرة هى بمثابة المحور لكل معتقداتهم . وعند الموت تصعد روح المسلم الحق الى الجنة ، وهى خضراء على الدوام، لتنتظر يوم الحساب الأكبر الأخير ، أما روح المسىء فتبقى أسيرة فى

المناطق المعتمة والآسنة ، ولكن عندما تقوم الساعة ، وتحل ساعة الحساب ، فان العالم سوف ينقلب راسا على عقب ، وتتشكل الأرض من جديد . وتنفتح فى النهاية أبواب الجنة وابواب النار ، ويتفحص الله محاطا بكل رسله اعمال البشر ، وتعود الأرواح الى الأجساد التى ستنهض من تلقاء نفسها بكل حيويتها ، وعندئذ يدخل العادلون فى جنة النعيم لكى لا يخرجوا منها ، أما الآخرون فيذهبون ليكفروا عن جرائمهم ، ولكن ليس ثمة عذاب أبدى الا لمن لم يصدقوا رسالة وكلمة محمد(١) .

---

(١) السعادة التى وعد بها محمد أتباعه حسية خالصة ، وهى عبارة عن ملذات شهوانية أبدية ، ويقول المسلمون أن كل انسان يوم البعث سيكون فى قوة وقامة الانسان الأول ، التى لم تكن تقل تبعا لأقوالهم عن خمسين قدما ، وسوف تكون النساء على درجة من الجمال تشعل معها قلوب الرجال بعاطفة تتجدد على الدوام ، ويستطيع الرجل اشباعها الى مالا نهاية دون نفور او ملل . اما النساء فلن يحملن مطلقا ، لأن هذه الملذات ستكون على نحو ما ملذات علوية ولن يترتب عليها شىء من نقائص الطبيعة البشرية . وسيحتفظ العقل وكل الاطراف بكل حيويتها ، كما أن الذين سيعمرون هذه الجنان سيتمتعون بسعادة لا تحول وبكل مباهج الوجود وملذات الحس ، اذ ان اجسامهم ستظل على قوتها ابدا . ويشيع الاعتقاد فى اوروبا أن محمدا قد استبعد النساء من جنته(*) ، وهذا خطأ . فقد قال مؤلف كلاسيكى : « ان ما قيل عن الرجال بخصوص الجنة هو نفسه ما قيل عن النساء » وحيث انهن خاضعات لنفس الفروض الدينية مثل الرجال فينبغى أن يتمتعن بنفس المكافأة . فالصلوات الخمس وصيام رمضان والحج الى مكة ، كل هذه فروض الزامية على الجنسين . لكن النساء لا يسطعن لا اداء الصلاة ولا صيام رمضان أثناء فترات الدورة الشهرية ، لأنهن فى هذه الفترة لا يتمتعن بالطهارة الواجبة للعبادة . ويؤكد الكثيرون ان النساء كان بمقدورهن ان يتوجهن الى المساجد فى ايام النبى ، لكن الخليفة عمر عندما لاحظ ما يسببه وجودهن من سرحان عند الرجال وما يمكن أن ينتج عن ذلك من فضائح ، أمرهن ، بأن يؤدين الصلاة فى بيوتهن .

(*) وهذا ما نجده عند منتسكيو حين يقول : « وحيث أن النساء من طبيعة دون طبيعتنا وحيث أن انبياءنا قد قالوا انهن لن يدخلن الجنة .. Lettres Persanes, Lettre XVII.

بل الى فولنى Volney نفسه برغم من تبحره فى دراساته الشرقية قد ذهب الى ذلك حيث يقول فى كتابه :
Voyage en Egypte et en Syrie, t. II, P.323.

وليس ثمة طريق للحصـــول على مكافاة الحياة الأخرى الا الطهـــارة والصلوات ، ويستطيع المسلم ان يؤدى صلاته فى أى مكان ، فيبسط على الأرض سجادة او حصيرة او حتى شال غمامته ، ويستدير بوجهه جهة مكة، وصلاته قصيرة لكنها حية ، واذا لم يكن ثمة ما يمنعه من الذهاب الىالمسجد فينبغى ان يؤدى صلواته هناك ، فهذا افضل ، ان الله حقا فى كل مكان ، لكن من الأفضل أن نعبده فى بيته .

وفى داخل كل مسجد ، ثمة حوض كبير ملىء بالمياه ، هناك يغســـل المسلمون الأجزاء المستورة من جسمهم (الاستنجاء) ويطهرون أيضــــا لحيتهم وذراعيهم حتى المرفقين . وعندما يجوبون صحراوات لا ماء فيها ، فانهم لا يعفون من اداء نوع من الوضوء ، يحل فيه الرمل الناعم أو التراب الطاهر محل الماء الذى ينقصهم (التيمم) .

والهدف من صيام رمضان بلا شـــك ارغام المسلمين عـــلى ان يولوا اهتماما اكبر الى واجباتهم الدينية ، حيث ان عليهم فى هذا الوقت أن يحرموا انفسهم من جزء كبير من الملذات الحسية ، فان ارواحهم التى تحررت طيلة النهار من الهموم التى تشغلها عادة ، يمكنها أن تنغمس فى حماسة اكبر فى التأمل والصلاة . وهم لا ياكلون الا فى الليل كما قلنا ، والليل هو كذلك الوقت الوحيد الذى يسمح لهم فيه أن يقربوا زوجاتهم . ومن جهة أخرى فقسوة الصيام لا تمتد لأبعد من ضروب الحرمان هذه ، اذ باستطاعتهم ان ياكلوا كل شىء كما يحدث طيلة العام . ورمضان هو زمن الصوم الاجبـــارى الوحيد ، وللمسافر الذى يقوم برحلته اثناء الصوم الا يصوم ، لكنه ملـــزم بأن يعوض بعد ذلك الأيام التى سيفوته أن يصومها .

والحج الى مكة واجب الزامى ينبغى على كل مسلم حق القيام به ، ومع ذلك فحيث ليست هناك سن محددة لأداء الحج ، وحيث انه ليس ملزما

** « ان محمدا برغم شدة ولعه بالنســاء لم يمنحهن شرف معاملتهن كجزء من الجنس البشرى . فهـــو لم يشر اليهن لا بخصـــوص الفرائض الدينية ولا بخصوص مكافآت العالم الآخر ، لكن هذا الزعم لم تكذبه كل مؤلفات رجال الدين الاســـلامى فحسب ، بل ان القرآن نفســـه ليس فيه ما يؤكد صحة هذا الزعم .

بذلك الا عند المقدرة ، فكل مسلم يؤجل هذه الرحلة ، وقد ينتهى به الامر بان يعفى نفسه نهائيا من الحج . ومن هنا يحدث أن كثيرا من المسلمين يموتون دون أدائهم للحج .

ويحرم محمد على اتباعه ـ وهو الذى يحتم عليهم الطهارة الخارجية فوق كل شيء ـ الاتصال بزوجاتهم اثناء الدورة الشهرية التى تتعرض لها النساء ـ وكذلك اثناء الاربعين يوما التى تعقب الولادة ، لكنهم يستطيعون الاتصال بنسائهم أثناء الرضاعة ، ويخول للمراة التى تحمل اثناء الرضاعة ان تواصل ارضاع طفلها اثناء الأشهر الاولى من الحمل ، على الرغم من أن الاطباء يرون أن لبن الأم فى تلك الظروف لا يكون صحيا .

وتسمح الشريعة الاسلامية بأكل لحوم الحيوانات المجترة ، لكنها تحرم من بين كل الحيوانات ذات الظلفين اكل لحم الخنزير ، ولا يحرم اكل الخيول الا اتباع المذهب الحنفى ، وينبغى على المرء ان يغسل الاناء الذى شرب منه الكلب سبع مرات قبل ان يستطيع استخدامه من جديد ، وتختلف المذاهب حول علة هذا المبدأ ، فيرى البعض ان الكلب دنس بطبعه ، ويرى آخرون ان الدنس فيه فقط هو انفه وفمه . ويرى فريق ثالث ان محمدا لم يقدم هذا النصح الا خشية ان يكون الكلب قد تناول طعاما او شرابا غير طاهر . ونحن ندخل فى كل هذه التفاصيل ، كى نعطى فكرة عن نوع عقلية المذاهب المختلفة ، فهى لا تختلف مطلقا الا حول مثل هذه الأمور الواهية .

وينظر الى الدم باعتباره غير طاهر ، لذا لا يمكن تناول لحم حيوان نفق بشكل طبيعى ، او قام البعض بخنقه ، فلا بد ان يذبح وان تسيل دماؤه ، ويخضع لهذه القاعدة ايضا الصيد الذى يقتله طلق نارى ، لذا يسارع المسلمون بقطع رقاب الطيور والأرانب او الحيوانات الاخرى التى يصيبونها بطلقاتهم ، والسمك وحده لا يتطلب مثل هذا الأمر(١) .

---

(١) ليست النباتات ولا الحيوانات دنسة ، ومع ذلك يمتنع المسلمون عن اكل لحوم الفرائس لسبب يعود الى نفور طبيعى اكثر مما يعود الى دافع دينى . ويرى المذهبان الشافعى والحنفى تحريم استخدام الزواحف كغذاء ، لكن المالكيين يستثنون من ذلك الثعابين اذا ذبحت .

وقد لاحظنا ان ثمة تماثلا كبيرا بين تعاليم المشرع العربى ومحرمات موسى ، ومن الواضح أن محمدا قد استعار عن المشرع اليهودى اجـراءا صحيا أراد أن يجعله غير قابل للنقض من قبل الناس . صحيح أن لحـم الخنزير له آثار بالغة الضرر على بنية من يتعودون عليه فى البلدان شديدة الحرارة مثل افريقيا وآسيا ، بل ان هناك من يؤكد ان الجذام ليس له من سبب الا التعود على أكل لحوم الخنزير . وليس لمحمد من هدف فى الزام اتباعه بالوضوء وطهارة الجسم سوى ضمان صحة اتباعه . والقـــرآن ملىء بالمبـادىء الحكيمة حـول طريقة الحياة ، وكلها تهدف بوضـــوح لنفس الغـاية . وختاما نقول ان المسلمين ينفذون بدقة كل ما فرض عليهم، ونادرون أولئك الذين يسمحون لأنفسهم من بينهم بالخروج على أوامر النبى ومع ذلك فلسوف تكون سعادتهم اكبر لو ادركوا المغزى الفلسفى العميـق لبعض هذه الأوامر والمعتقدات ؛ تلك التى تبدو سليمة وموائية وهى تحـدث اثرها المطلوب فى اجسامهم .

٣

الحـكومة

كانت حـكومة الاقليم تتكون قبـل مجىء الجيش الفرنسى من الباشا ورؤساء الأوجاقات السبعة و٢٤ بك . وكان البك الأول يتولى وظيفة شيخ البلد ، وكان يحكم القاهرة ومصر ؛ أما المنصب الثانى فهـو منصب أمير الحج ، على الرغم من ان هذين المنصبين — حسب دراسة عن نظام البلاد الادارى — يمكنهما ان يجتمعا فى منصب واحد . وامير الحج موكل بحراسة المحمل ، ولا يعنى لقبه شيخا آخر سـوى امير الحج أو أمير الحجـاج . والشخصية الثالثة فى الحكومة هو الدفتردار او المستشار . وبعد هـذه المناصب العليا يأتى البكوات حكام الأقاليم ، وتتحدد درجتهم بحسب اهميـة ولاياتهم ، وعلى هذا كان حاكم جرجا يعد اول هؤلاء البكوات وكان يحمـل لقب باشا بذيلين(*) أما البكوات الآخرون فاقل امتيازا .

(*) يذكر الصديق الأستاذ رينيه جورى فى احدى دراساته المخطوطة — وهو باحث مدقق — انه كانت هناك ثلاث درجات لرتبة الباشا هى كما يلى : —
=

وكانت كل السلطة التنفيذية مركزة فى يد شيخ البلد ، وهو فى الواقع حاكم مطلق ، الا اذا جاءت ظروف غير عادية لترغمه على اقتسام السلطة . وهكذا كان الأمر وقت نزول الجيش الفرنسى أرض مصر ، فقد كان مراد بك — وهو الذى كان اميرا للحج وشيخا للبلد والذى لم يكن يحتفظ مع ذلك الا بجزء من اختصاصات هذين المنصبين — يحكم ثنائية مع ابراهيم بك شيخ البلد الأصلى . وكان يتحتم ان يوقع شيوخ البلد كل الأوامر المتصلة بالاجراءات الاستثنائية والضرائب الاجبارية الباهظة على الولايات والمدن حتى تصبح سارية المفعول ، وهكذا يمكن القول بأنه قد ركزت فى يده على الدوام قوة وسلطة الحكومة .

وكان حق تحصيل الضريبة المخصصة لمكة من اختصاص امير الحج . لكن هذه الضريبة اصبحت شيئا مخالفا لما كانت عليه فى فترات سابقة، حيث ظلت تنكمش شيئا فشيئا بفعل سطو البكوات الآخرين حتى لم تعد حصيلتها تبلغ الا مقدارا ضئيلا .

وكان شاغلا هذين المنصبين بدرجة باشا بذيلين وكذلك كان حاكم ولاية الشرقية واسلام باشى الذى كان مكلفا بالسير امام المحمل عندما يعود الى القاهرة لكى يمد المسافرين بالمؤن والجمال والخيول والبغال .. الخ . التى قد يكونون بحاجة اليها بعد سفر بهذا الطول . وفى البداية لم يشا سليم الذى قسم وظائف الدولة على هذا النحو وحدد كذلك اختصاصاتها ، ان يتم اختيار هؤلاء الموظفين الكبار من بين المماليك او السناجق ولا من ابناء البلاد لأسباب اكبر اذ كان العثمانلى على الدوام

= ١ — باشا بذيل : وهذه الدرجة تعادل رتبة الفريق .
٢ — باشا بذيلين : وهى تعادل ما كان يسمى برتبة الميرميران .
٣ — باشا بثلاثة ذيول : وهى تعادل ما يسمى برتبة المشير .
ولم يكن يحمل الرتبة الأخيرة فى كل انحاء الامبراطورية العثمانية الا ثلاثة فقط هم :
الصدر الأعظم ، قبطان باشا ، والى مصر .
وعند مرور موكب أى باشا كانت تسبقه حربة مرفوعة مثبت بها عدد الذيول التى تحدد درجته كما كانت توضع امام بيوتهم فوانيس مذهبة او فضية تنتهى رءوسها بريشة واحدة أو اثنتين أو ثلاث بيضاء أو بنية اللون، ويتفق عدد هذه الريشات مع درجة الباشا ساكن البيت .

يكنون نوعا من الاحتقار للعرب ، وكان هؤلاء بدورهم برغم ريائهم للعثمانلى وخداعهم لهم يكنون لهم نفس الاحتقار . ويعود تعيين الـ ٢٤ سنجقا كذلك الى عهد سليم . وقد خول هذا الأمير لـ ٢١ منهم بأن يكون – لكل – فرقة من الموسقيين تتألف من ٦ طبلات ، ٦ نقارات (دفوف) ، ٦ مزمار ، نفيرين ، وصنجة واحدة ، وكانوا يحصلون على عطاء يصل الى ١٫٠٠٠ اردب من القمح فى العام . أما البكوات الثلاثة الآخرون فلم يكن لهم الحق لا فى الفرقة الموسيقية ولا فى العطاء السنوى . وكان يختار من هيئة الـ ٢١ هؤلاء حكام ولايات : الشرقية ، المنصورة ، البحيرة ، المنوفية ، اطفيح ، الجيزة ، البهنساوية ، الفيوم. وكان بك جرجا يحكم البلاد التى تمتد من المنيا حتى آخر حدود الصعيد . وكان الدفتردار ايضا يخرج من بينهم .

وكانت الوظائف المشار اليها سنوية ،وفى نهاية العام ينتقل شاغلو هذه الوظائف الى مراكز أخرى أو يصبحون افرادا عاديين كما ان بامكانهم ان يثبتوا ، وهذا ما كان يحدث عادة وخاصة فى السنوات الأخيرة . اما الباشا فكان يتغير على الدوام حسبما يتراءى للباب العالى او بنصيحة من المماليك . وفضلا عن ذلك ، فقلما كانت تسمح الشقاقات والنزاعات المستمرة التى تهز مصر لأصحاب المناصب البقاء فى مناصبهم تلك ، فقد كانت العصب المتشاحنة على الدوام يقلب بعضها البعض وتتبادل السيطرة والمناصب ، وذلك هو الذى تقدمه حكومات المماليك منذ حوالى نصف قرن.

وكانت للبكوات الثلاثة الأخيرين فى سلسلة الـ ٢٤ سنجقا مهام ثانوية . فكان احدهم كخيا او وكيلاً للباشا ، وكان الثانى شركة – بك ، وهو يقتسم منصبه مع زميل له ولم يكن اى منهما يتمتع بسلطة من اى نوع ، اما المنصب الثالث فكان يشغله كذلك اثنان من البكوات ، وكان احدهما يحكم البلدة المسماة مقران فى ضواحى الجيزة ، اما الآخر فكان يحكم المنطقة المجاورة للمنصورة .

وقد نظم سليم سبعة أوجاقات أو سبع فرق عسكرية : اولها فرقة (أوجاق) الانكشارية (ومعناها الفرقة الجديدة) ويشكل العزبان الأوجاق الثانى ، والمتفرقة الأوجاق الثالث ، والجاويشية الرابع ، والجامولیان الخامس ، والتافكجيان السادس ، واخيرا ياتى أوجاق الشراكسة . وكان

للأوجاقات الأربعة الأولى نظم خاصة بكل منهم ، أما الثلاثة الأخرى فتخضع لقانون عام .

وكانت حراسة القلعة موزعة بين الباشا واوجاقى الانكشارية والعزبان ، وكان الباشا يحتل بابين من الأبواب الأربعة الموجودة فى القلعة: احدهما يؤدى الى الجبل والثانى الى قراميدان . اما الباب الثالث فيسمى باب الانكشارية ويسمى الباب الأخير باب العزبان . وكان يحرس باب الانكشارية كخيا (متولى) وكان تحت امرته ٦ جاويشية و٥٠ أودا باشى . وكان لكل من هؤلاء الضباط مساكن بالقرب من الباب ، ولهم اربعة رؤساء يختارون من بينهم هم الذين يصبحون جاويشية ، وكان الأوده باشى أو رئيس الحجرة لا يركب الا الحمار . وكان للجاويش الدلامة السوداء ، وخفان احمران وقاووق أو عمامة من القطيفة السوداء .

والدلامة ليست الا جلبابا واسعا من الجوخ الاسود . وعندما يصبح هذا الشخص سراجا للاغا ، يضيف الى قاووقه قطعة من الموسلين الأبيض.

لكن هذه الفرق العسكرية قد دبت فيها اليوم عوامل الوهن ، فالمماليك وحدهم هم الذين يصنعون القانون، وجنودهم هم الذين يحتلون الميادين الهامة ويديرون شئون الفرق الأخرى . ولم نتناول فى حديثنا عن الوظائف الهامة للحكومة اختصاصات القاضى ، ذلك أن اختصاصات القاضى ذات طابع مدنى صرف ، وهو يعين من قبل الباب العالى — مثل الباشا — ويختار القاضى قضاة الأقاليم ، وهو يختارهم جميعا من اهالى البلاد ، ومن خريجى الأزهر ، حيث درسوا الشريعة وكيفية تطبيق القانون . ويفضل خريج الأزهر هذه الوظيفة على كل الوظائف الأخرى ، لأنها تقود بسرعة نحو الثروة وتحظى باحترام الناس .

وقد حدد السلطان سليم القلعة كمقر اقامة للباشا ، ولا يجوز له أن يختار مقرا آخر .

وكان هو الذى يخلع الخلعة على من وقع عليهم الاختيار لشغل

المناصب ويتلقى هدية من كل من يعينهم(١) ، ولكن بعد أن استعاد المماليك سطوتهم تغير كل شيء ، ولم يعد الباشا في السلطة الا مجرد ظل يعاني كل نزوات المماليك ، بل يمكن القول بأنه كان واقعا تحت رحمتهم ، وهذا هو الحال الذى كانت عليه مصر عندما دخلتها قواتنا .

قلنا ان امير الحج او امير المحمل كان موكلا بوجه خاص بقيادة الحجاج الى مكة ، وبتامين طريق العودة لهم . وحيث أن سفر المحمل كان حدثا هاما بالنسبة لمدينة القاهرة بل لمصر كلها ، فسندخل فى بعض التفاصيل عن الحفلات التى كانت تتم بهذه المناسبة .

عندما يقترب الموعد المحدد لسفر المحمل يتجمع فى القاهرة كل المسلمين القادمين من افريقيا ، والذين يريدون الانضمام الى المحمل ، ويصل آخرون من القسطنطينية ، من روميلى ومن الاناضول ، عن طريق البحر ، وحتى يختصروا الأسفار عليهم أن يقوموا بها إذا ما سلكوا الطريق المعتاد. ويعسكر هؤلاء الحجاج خارج المدينة ، ويكون عددهم فى بعض الأحيان كبيرا جدا ، اذ يخرج من مصر وحدها ما بين ٢٠٠٠ — ٣٠٠٠ حاج . وحيث ان هؤلاء الحجاج مضطرون لاجتياز مناطق شاسعة ، تكاد تكون كلها صحراوية ومبتلاة بعشائر العربان ، الذين ليست لهم من حرفة سوى السلب والنهب ، فانهم مرغمون على التزود بالسلاح والذخيرة ، وتهيىء لهم حكومة مصر فوق ذلك ركبا قوامه ٥٠٠ فارس تحت امرة أمير الحج ، يضيف اليهم هذا القائد بيته العسكرى (مماليكه) وبعض جنود من البرابرة، بالاضافة الى الرجال العاملين فى خدمة كبار الشخصيات الموجودة بالمحمل. ومن حق أمير الحج أن يرث كل حاج يموت فى الطريق ، وليس من حق احد أن يطالب بشيء من مثل هذه التركات . وتستغرق رحلة الذهاب اربعين يوما ومثلها فى رحلة العودة ، وبذا تمتد فترة المحمل الى حوالى الثلاثة اشهر . وتبدأ مسيرة المحمل فى السابع والعشرين من شوال ،

---

(١) كانت الخلعة عند الاتراك كما هو معروف ، تقدم الى المحتفى بهم فى حفل تنصيبهم ، وهى عبارة عن قفطان وجبة ، ولم يكن يقدم فى المناسبات الثانوية سوى القفطان ، وهو معطف مفتوح من قماش متين ، بطانته بيضاء بورود صفراء . وقد جرت العادة أن تزدان الجبة بفراء ثمين ، وأحيانا كان يكتفى بتزيين حوافها ، وكانت الجبات التي يخلعها السلطان غالية الثمن .

لكن الصعوبة التى نجمت عن فرض اتاوة اصبحت تؤدى منذ عدة سنوات الى تعطيل السفر حتى ٢ او ٣ من الشهر التالى . ويختار كل حاج أن يركب نوع الدابة التى تروقه ، وهم يفضلون على وجه الخصوص البغال والحمير لأن هذه الحيوانات اكثر من الحصان تحملا للتعب وضروب الحرمان .

وقبل الرحيل بعدة ايام تعرض الكسوة او السجادة المخصصة لتزيين الكعبة فى موكب باذخ. وهذا الموكب عيد شعبى كبير، فيذهب كل سكان القاهرة فى جماهير غفيرة الى الميدان الكبير الذى تطل عليه القلعة والذى يسمى قراميدان ، وهناك يسلم الباشا ــ يحيط به عدد كبير من البكوات مع بيوتهم(١) ، ورجال الأوجاقات والأغا وكبار موظفى الحكومة ــ يسلم السجادة المقدسة الى يدى أمير الحج بعظمة وخيلاء ، وتحرر حجة بهذه الوديعة ، وبعد ذلك يكون من واجب كل ائمة المساجد وكل المتدينين بالمدينة ان يصحبوا السجادة ، فتحمل على جمل وتمر فى باب النصر ويمضى الموكب الى معسكر الحجاج ، وتوضع السجادة فى صندوق مغطى باقمشة فاخرة مطرزة تطريزا فاخرا ــ ومنذ هذه اللحظة يقيم البك أمير الحج وسط المعسكر ، ويضرب كل المسافرين تجارا كانوا او حجاجا خيامهم حول خيمته ، ويكون من حق اى منهم ان يشرع فى السفر ، لذلك ينتهز كثير من التجار هذه الفرصة الفريدة لكى ينقلوا بضائعهم دون أن يدفعوا رسوم الدخول أو الخروج ، فيحملون على ظهور الجمال صبغة التيلة والأصواف وبضائع ثمينة اخرى وكثيرا من الأموال ، ويجلبون معهم عند العودة شيلان (شال) الكشمير والموسلين والاقمشة الفاخرة والبن(٢) .

---

(١) يقصد بالبيت عند الحديث عن احد البكوات كل رجاله ومماليكه .

(٢) من نافلة القول ان نلفت الانظار الى أن للحج الى مكة الذى فرضه محمد اغراضا سياسية اكثر منها دينية ، اذ كان يأمل عن طريق الحج أن تزدهر التجارة فى شبه الجزيرة العربية لتصبح واحدة من اهم أسواق التجارة فى العالم .

وقد تحقق هدفه ولو كان جزئيا ، اذ يمكن القول بأن الدافع وراء سفر نصف الحجاج على الأقل ليس سوى مصالحهم التجارية ويلاحظ مؤلف كتاب Tableau de L'Empire ottoman ــ ونحن نقره على ذلك ــ أن « محمدا قد حدد لعيد الأضحى وقت قدوم الربيع حتى يجعل السفر على الحجاج اقل مشقة ، ولكى يسهل فى نفس الوقت نقل وبيع البضائع » =

ويكون وصول الجمل المقدس(١) ، اشارة ببدء الرحيل ، ويقـود هذا الجمل الى المعسكر جمهور غفير . وعندئذ تطوى كل الخيـام ويتوغل المسافرون فى الصحراء وبعد اقل من ساعة لا يعود الميدان الواسع الذى كان الحجاج يشغلونه سوى مكان موحش . ويسير امير الحج فى المقـدمة وتصطف فرق الحراسة على جانبى الموكب ، وكذلك عند مؤخرته ، ويظلون على هذه الحال حتى وصول الركب الى مقصده .

ولا نستطيع ان نوفى فخامة هذا الحفل ما يليق بها من وصف على الرغم من انها فى الأزمنة الأخيرة قد فقدت الكثير من روعتها التى كانت لها ، فقد كان على مراد بك فى معظم الأحيان — وهو الموكل اليه منصب امير الحج — أن يقاتل العربان فى الصحراء ، بعد ان اصبحوا اكثر سطوة بسبب ضعف اسلافه ، ولو كان مجرد تامين طريق المحمل والتجارة التى كانت تحظى برعايته كفيلا باعادة ازدهارها السابق ، لربما كان بمقدور هذا الرجل المقـدام ان يفعـل ذلك ، لكن حوادث السلب ، والانتهـابات ،

ذلك ان الحج ليس له مبدئيا سوى قصد سياسى يتخفى تحت ستار الدين، والغرض الرئيسى منه هو التجـارة واقامة اسـواق هائلة » ولقـد تفهم المسلمون جيدا أهداف المشرع بحيث جعلوا من هذه الرحلة أمرا مفيدا فى العلاقات التجارية . ويصعب علينا أن نكون فكرة صـحيحة عن الثروات التى تكدست فى مكة أو تلك التى تتكدس فى الكعبة وقت الأضحيات ، وتتم هناك عمليات تجـارية كبرى ، وتكون حركة البيع والشراء والتبادل خلال خمسة عشر يوما عظيمة ، لحد ان الذين يشهدونها لا يستطيعون تقدير قيمتها ولو بشكل تقريبى .

(١) يعود ظهور الجمل المقدس فى مواكب الحج بل ووجود هذا الجمل نفسه ، الى خرافات المسلمين وبساطة مفاهيمهم . اذ هم يدعون ان محمدا فى رحلاته قد حمل عرشه (!) على ظهر جمل وقد تناسـل هـذا الجمل بعد ذلك . وقد حرص السلطان على ان يتملك اثنين من هذه الجمال التى تعد مطية النبى المفضلة ولكن حيث ان من الخطر أن تتعرض هذه الجمال لمتاعب الحج ، فانه يلجأ الى جمال اخرى يقال ان لها نفس الأصل وتربى فى دمشق وفى القاهرة . وهذه الجمال اقل تكلفة وتقوم بالرحلة الى المدينة المقدسة . وتخليدا لذكرى ان محمدا كان يقوم بأسفاره على الدوام من مكة الى جبل عرفات على جمله فان الحجاج يحرصون دائما ان يصحبوا جمل القاهرة المقدس ، وكذا جمل دمشق المقدس ، فى كل الأسـفار التى ينبغى عليهم القيام بها فى اليومين اللذين يسبقان ذبح الاضحيات .

بالاضافة الى الحالة المتدهورة للحكومة ... كل ذلك لم يكن يوفر ما يكفى من الأمان للسكان أنفسهم ، وهم الذين لم يعد بامكانهم القيام بأعمال كهذه، اصبحت تعد ضربا من المضاربات غير مأمونة العواقب .

٤

القضـــاء

يرتبط القضـــاة الموكلة اليهم مهمة اقامة العدالة فى مصر بالهيئـــة القضائية الاسلامية التى مقرها القسطنطينية ، ومن بين امتيازات البـــاب العالى حق اختيار القضاة من الدرجة الأولى ، كما انه قد احتفظ لنفســـه بحق تعيين باشا ، ولكن اذا كانت سلطة الباب العالى فى تعيين البـــاشا ليست سوى وهم ، واذا كان نفوذ ممثله قد تضاءل لحد العدم شبه التام، فان الأمر لم يكن كذلك بخصوص ادارة القضاء ، اذ لم يكن فى هذا الأمر ما يتعارض مع رغبات المماليك ، او ما يضعف من نفوذهم السياسى ، لذا فقد قبلوا عن طيب خاطر ان يرسل اليهم السلطان رجالا موكلين بتلك المهمة الصعبة : مهمة تطبيق الشريعة . بل انها لمشقة وفرها هو عليهم ، وعـــلى هذا فانه لم يحدث مطلقا ان عارض المماليك سلطات القسطنطينيةالقضائية فى حق تعيين رؤساء المحاكم بمصر . بل انهم باستقبالهم لهؤلاء القضـــاة الذين لن يؤثروا مطلقا على نفوذهم السياسى ، كانوا يهيئون لأنفسهم مزية لا تكلفهم شيئا على الاطلاق ، تلك هى مزية تقديم الدليل على الولاء للسلطان.

ويشكل القضـــاء فى تركيا على نحو ما طائفة مهنيـــة لها رؤساؤها الخاضعون للاشراف المباشر للمفتى الاكبر(١) ، وكل مناصب هذه الهيئـــة

(١) المفتى والصدر الاعظم هما اكبر شخصيات الدولة بعد السلطان ، وتتكون الهيئـــة القضائية من علمـــاء كبار ، وفى عهد السلاطين الأول كان العلمـــاء ينقسمون الى ثلاث درجات : الائمـــة (امـــام) وهم الموكلون بالعبادات ، المفتى اى فقيه الشريعة ثم القضاة : فقهاء العدل ، وهؤلاء الأخيرون هم اكثر الجميع امتيـــازا ، وقد منح مراد الأول لأكبر القضـــاة لقب قاضى العسكر وانشأ محمد الثانى منصب قاضى عسكر ثان ،واعلى عليهما سليمان الأول مفتى العاصمة وهو الآن شيخ هيئة العلماء ويحمل

قابلة للتغيير ، فالتغييرات فيها بالغة الشيوع ، ويمكن لنفس الشخص ان يصبح بالتناوب شاغلا وظيفة اعلى او ادنى من تلك التي كان يشغلها ، ويقوم احد كبار اعضاء هذه الادارة القضائية بتعيين كل قضاة مصر ، وعددهم ٣٦ قاضيا بما فيهم قاضى العسكر المكلف بادارة شئون القضاء في القـــاهرة، والذى يعتبر القاضى الأول فى الاقليم ، وعلى الرغم من صدارته على كل القضاة الآخرين بسبب علو منصبه وكبر دخله وما له من اعتبار ، فان القضاة الآخرين لم يكونوا تابعين له ، اذ كانوا يتبعون القسطنطينية مباشرة ، ومعظم هؤلاء القضاة يجهلون لغة البلاد ، وكان قاضى العسكر على الدوام يستعين بتراجمة كانوا يقراون النصوص ويترجمونها كما يحلـــو لهم ، كما كانوا يحصلون اتاوات شتى .

وقلما كانت مدة ممارسة اى من هذه الوظائف تتجاوز السنتين ، بل كثيرا ما كان يخرج القاضى من وظيفتـــه بعد عام واحد . وكان كل واحـــد من هؤلاء القضاة يتلقى عند رحيله من القسطنطينية قرارا يحدد الولاية التى سيدير شئون القضاء فيهـــا . كما يحدد المـــدة التى سيقضيها فى وظيفته ، واذا لم يتلق القاضى بعد هذا القرار امرا بتثبيته فانه يوقف مباشرة اعماله القضائية . وقد جرت العادة فى هذه الحال ان يترك مقره المعتـــاد كشىء انتقالى الى ان يتم تثبيته أو وصول بديل له . وفى هذه الفترة يتولى رجـــل الشرع العمل نيابة عن القاضى ، ويستلزم هذا الأمر دفع رسم الى القاضى المساعد بالمحكمة ، وكان قاضى العسكر عادة لا يبقى فى مكانه الا لعام واحد ثم يمضى بعد ذلك الى وظائف اخرى ، وعندما يصل القاضى الجـــديد من القسطنطينية ، فانه فى غالب الأحيان يبيع الوظائف التى كانت فى حوزته الى سلفه ، ولسنا نعرف مقدار الثمن الذى يمكن أن يبلغه هذا النـــوع من

=

لقب شيخ الاسلام ، وصدارة المفتى مقصورة على قضاة العاصـــمة ، ويشكل قاضى عسكر الاناضـــول المحكمة الثانية فى الامبراطورية ويحكم باسمه فى كل القضايا المتصلة بالمواريث فى كل اقاليم آسيا ، وهذه واحدة من المهام الاساسية لوظيفته ، ويدفع له كل شهر مبلغ يتفاوت قدره من رؤساء قرى ومقاطعات ولايته ، وقد اصبحت وظيفة القاضى قابلة للتغيير كل عام عند نهاية القرن الأخير ، وكان من النادر ان يشغل الشخص نفسه الوظيفة الواحدة مرتين الا اذا اتخذت ترتيبات معينة مع خلفه ، وكانت وظيفة الصدر الرومى ـــ وهى التى تعلو كثيرا على مركز قاضى عسكر الأناضول ـ هى وحدها التى تستثنى من هذه القاعدة.

التراخيص ، ولا المبلغ الذى يفرضه صاحب الوظيفة حتى يتنازل عنهـا ، وكانت هذه الصفقات تتم بالتراضى بين الطرفين ، وبهذه الوسيلة كان القاضى يظل فى عمله لمدة تبلغ اربع او خمس سنوات .

واذا ما لاحظ الباشا المقيم فى القاهرة بعد انقضاء عمل القاضى ان مساعد هذا القاضى ليس جديرا بأن يخلفه فى عمله ، فان بامكانه ان يكلف الامام الخاص به بهذا العمل الهام ، وبهذه الطريقة اختار ابراهيم بك منذ عدة سنوات ـــ عندما كان فى منصب قائم مقام ـــ الشيخ العريشى لكى يقوم بصفة انتقالية بمهام القاضى ، بسبب غيبة امام الباشا .

وكان نفوذ قاضى القاهرة يمتد الى مصر القديمة وبولاق ، أما الجيزة فكانت لها محكمة خاصة بها، وكان القاضى يعين ممثلين عنه فى دوائر القاهرة المختلفة : ٩ فى المدينة ، واحدا فى بولاق ، وآخر فى مصر القديمة ، وكان هؤلاء القضاة المرؤوسون ، الذين لهم بدورهم مساعدون ، يفصـلون فى القضايا باسم القاضى ، وعندما كان يتغير قاضى العسكر ، كان هؤلاء القضاة يشترون من خلفه حق التثبيت فى وظائفهم ، وكان من المتبع فى البـداية حسب الانظمة السائدة أن يفصل فى كل القضايا المقدمة الى دائرة ما ، ثم حدثت فى الآونة الأخيرة مجموعة من التجديدات فى هذا النـوع من فروع الادارة كما فى بقية فروعها ، وترفع القضـايا الكبرى عادة الى محـكمة القاضى ، الذى يكلف احد ممثليه بالانتقال الى مكان الجنـاية ، والبدء فى التحقيق .

ويتسلم القاضى عند دخوله الوظيفة فرمانا من الباب العالى يعهد اليه بوظيفة قاض ، ويخول له ان يختار العدد الذى يراه مناسبا من المساعدين، ومع ذلك فقد كان هذا العدد محددا بفعل العادة التى لها فى الولاية الاسلامية قوة القانون .

والحكم فى اية قضـية لا نقض له(١) . ومع ذلك فقد وضـع الدين شروطا مقيدة تنفى عن هذا الاجراء التشريعى صفة الاطلاق ، فعنـدما

---

(١) نقرا فى مجموعة فتاوى المفتى بهجت عبد الله افندى أن كل قضية تحمل الى القضاء وتفحص ويفصل فيها لا تحمل الى القضاء مرة أخرى .

تكون القضية خطيرة او عندما تحظى باهتمام الشخصيات الكبيرة ، فان القاضى يستضىء بنصائح رجال الشرع ، ويستطيع الأطراف أن يحصلوا مقدما على نوع القرار الذى يصدره المفتى ، ويلجأ القضاة عادة الى هؤلاء المفتين ولرأيهم سلطة معترف بها ، ويصدر المفتى على الدوام فتواه أو رأيه القاطع ، واذا كان حكم القاضى قد صدر فهو عندئذ بمثابة قضاء من عند الله ، ومع ذلك فاذا حدث أن اجمع مفتو المذاهب المختلفة على الانتقاص من قرارات القاضى ، فان القاضى يعترف بخطئه ويسحب حكمه الأول .

والقوانين التى يحكم بمقتضاها كلها مكتوبة ، وتستخلص أصولها من القرآن ، وتفسيرات هذا الكتاب السياسى والدينى هى ثمرة عمل جمهور كبير من المفسرين ، نميز من بينها كتب ائمة المذاهب السنية الأربعة وهذه المذاهب هى : الحنفى ، المالكى ، الشافعى ، الحنبلى . وكل علماء مصر تقريبا يتبعون المذهب الثالث ، ومع ذلك فان القضاء فى مصر — ومنذ ثلاثة قرون — يتم وفقا لاحكام المذهب الحنفى السائد فى القسطنطينية .

اما مهام قاضى العسكر المختلفة فهى :

١ — الفصل فى القضايا .

٢ — اختيار ائمة المساجد .

٣ — ادارة الأوقاف الخيرية .

٤ — تقسيم التركات .

٥ — تحصيل الرسوم المقررة على بيع ونقل الملكيات .

ومصاريف القضاء — كقاعدة عامة — تحصل من موضوع النزاع . أو من الشخص الذى يحكم لصالحه ، ويعتبر المسلمون أن فرض مصاريف على الشخص الذى لم يحكم لصالحه عمل متناقض وبالغ القسوة ، ويفصل فى القضايا عادة على الفور ، ومع ذلك فثمة قضايا يستغرق فحصها عدة أيام ، بل يصل الأمر احيانا الي شهرين او ثلاثة شهور .

وفى كل قضية نمير اربعة أطراف : القاضى ، المدعى ، المدعى عليه ، موضوع النزاع . ولا يفصل فى أية قضية فى غيبة واحد من هذه الأطراف. ولا تحدث اية ادانة مطلقة عن الأخطاء . وعنــدما يرفض المدعى عليــه الحضور فانه يستدعى بالقوة ، وعندما لا يستطيع احد الأطراف ان ينتقــل الى المكان الذى تنظر فيه القضية ، يقوم القاضى بتعيين شخص مشــهود له بالاستقامة والنزاهة ليمثله ، وكل طرف يدافع عادة عن موقفه ، ويمكنه ان يعهد بذلك الى رجل شريعة أو الى صديق ، ولا يتلقى الشهود مطلقــا اجرا على شهادتهم ، ويمكن دعوتهم الى القسم لكنهم ليسوا ملزمين بذلك، لكن المذهب المالكى وحده هو الذى يحتم ضرورة القسم .

ولم تكن مصاريف القضاء قبل مجىء الحملة منظمة ، وكان قاضىالعسكر او ممثلوه يحصلون حوالى ٢/١ ٢٪ من قيمة الأشياء موضوع النزاع ، لكنهم فى العادة كانوا يفرضون رسما اكبر ، وكان ذلك أمرا بالغ السهولة لدرجة انهم كانوا يحددون حســبما يتراءى لهم رسوم القضــايا . ومن هنا كانت مصاريف الدعوى تصل فى بعض الأحيان الى ٨٪ أو ١٠٪ بما فى ذلك أجور الكتبة والمترجم . وقد وضع الفرنسيون حدا لهذه الانتهابات البربرية كما سبق ان قلنا ، ومع ذلك ، فاذا كان رافع الدعوى شخصية كبيرة فان القاضى لا يســتطيع ان يفرض رســما اكبــر من ٢/١ ٢٪ ، وفى نفس الوقت لم يكن القاضى يتقاضى شيئا من الفقراء ، ونادرا ما كان ينقض ما يعلنه مسلم امامه من انه فقير . ومن المبادىء التى تشيع بين القضاة ، أن الفقير طرف له قداســته .

هكذا وضع العرفوالأخلاق حدودا لجشع القضاة . بل لقــد لوحظ ان قاضى العسكر ، وهو رجل ذو طباع حادة وله سطوته واحترامه ، كان يكتفى بما يقدم له دون ان يفرض بنفسه شيئا ، حتى يحتفظ بتقدير الكبــار وحب العامة . ومنذ أن تغلبت سطوة البكوات فى مصر ، اعتاد القضــاة

الا يطلبوا رسوما من أولئك الذين يخلع عليهم البكوات حمايتهم(١) .

وكانت الاحكام التى يصدرها ممثلو القاضى ، بالرغم من كونها مختومة بخاتمه ، تخضع فى حالات كثيرة لنوع من النقض ، وخاصة فيما يختص بالاجراءات التى تتخذ ضد المتنازعين المتخالفين ، أو فيما يختص بالأحكام التى تحدد التعويضات التى يقررها الازواج على انفسهم ، ويمكن لقضايا من هذا النوع ان تحمل من محكمة لاخرى ، وهكذا حتى يأخذ القاضى علما ويصدر فيها حكمه النهائى .

سبق ان قلنا ان قاضى العسكر يشترى وظيفته من القسطنطينية ويدفع التزامها الى رئيس قضاة الأناضول والى شيخ الاسلام ولم نستطع أن نستدل على مقدار ما يدفعه للأول، لكن الثانى كان يتلقى منه عشرة آلاف مدينى فى الشهر(٢). ولتعويض كل ذلك كان قاضى العسكر يفرض على ممثليه اتاوة لا تتجاوز فى بعض الأحيان ٩٠٠مدينى فى الشهر ، ويستطيع هؤلاء القضاة المرؤوسون أن يحصلوا فى مقابل ذلك ثروة طيبة فى وقت قصير . وثمة كثيرون منهم يفصلون فى قضايا كثيرة للغاية ، لكنهم لا يدفعون اكثر مما هو مقرر ، ومن الصحيح انه لا يسمح لهم بالفصل فى كل هذه القضايا ، لكنهم يرفعون رسوم التقاضى الى ٨ — ١٠٪ ، لذا يسهل عليهم على الدوام أن يكونوا ثروات ضخمة فى وقت قصير .

---

(١) يحدث عادة الا تسمح طبيعة الشىء المتنازع عليه بتحصيل رسوم ، مثال ذلك عندما تكون الشكوى مقدمة عن اشخاص وليس عن ممتلكات لكن أمورا من هذا النوع تنتهى عادة عند الشرقيين لأن تقوم بثمن وهكذا اصبح القاضى يحصل رسومه فى مثل هذه القضايا بفرض نوع من الغرامات النقدية .

(٢) يشغل وظائف القضاة الستة والثلاثين فى مصر ، قضاة من الدرجة الرابعة وهم ينقسمون الى ست درجات ، وقد جعل سليم الاول من حق بعض هؤلاء أن يستمروا فى مناصبهم . وهؤلاء القضاة هم مساعدون أو نواب ويشكلون الدرجة الخامسة فى السلم القضائى ، وليس من الضرورى أن يكون منصب هؤلاء قابلا للتغيير ، وهم يشترون وظائفهم من القاضى فى شكل التزام او فى شكل مخالف ، لذا كانوا يستمرون فى مراكزهم لأية فترة حسب اهواء رؤسائهم ، وعندما كانت تنقضى مدة القاضى ، كان هؤلاء النواب الذين يرون من صالحهم الاستمرار فى مناصبهم يسارعون بتقديم ولائهم للقاضى الجديد ونادرا ما كان يرفض واحدا منهم الا اذا كان ثمة ضده شكاوى من نوع خطير .

رأينا من قبل ان وظائف القضاة الـ ٣٦ كانت تباع فى القسطنطينية لرجال مشهود لهم بالاستقامة ، وكانت النتيجة الطبيعية لنظام من هـذا النوع ان كل قضاة مصر كانوا غرباء على البلاد التى عليهم أن يمارسوا فيها وظائف على مثل هذه الدرجة من الخطورة ، وبالرغم من أن احـدا من المواطنين لا يستطيع فى ظل السيطرة العثمانية ان يرنوا الى وظيفة قاض ، فقد رأينا فى السنوات الأخيرة كثيرا من المحاكم يرأسها مصريون ، حيث لم يكن الأجانب الذين يصلون الى مصر ومعهم فرمان تعيينهم فى وظيفة قاض ، يلزمون انفسهم على الدوم بالعمل فى سلك القضاء ، بل كانوا يبيعـون وظيفتهم ، اما الى سلفهم كما سبق لنا القول ، واما الى رجل آخر من رجال الشرع يستطيع أن يدفع الثمن ، وسعر هذه الوظائف غير معروف لنا على وجه التحديد ، ومع ذلك فيبدو انه لميكن يجاوز ٤٠ الف مدينى فى العـام لوظيفة تدر دخلا متوسطا .

وفى اثناء احتلال القاهرة من قبل الفرنسيين ، اغلقت لبعض الوقت كثير من المحاكم الخاصة فى المدينة ، وتوقفت العلاقات المدنية الصرف بين السكان ، وحيث ان المصرى بطبعه شكاك وخجول فى نفس الوقت ، فقد كتم المصريون شكوكهم ، وبدأوا وكأنهم قد انهمكوا فى أعمالهم مراعين نفس الدرجة من الأمن التى كانت سائدة فى الماضى ، ولم نعرف نحن الفرنسيين الا بعد وقت طويل حقيقة التأثير الذى أحدثه فى النفوس مثل هذا الاجراء الشاذ ، لكن الاعتدال الذى سيطر بعد الغزو قد طامن بشكل (لاشعورى) من روع هذا الشعب المتباعد عن الأخطاء ، وهو الذى ما يزال يتذكر فظائع حسن باشا اثناء حملة ١٧٨٦ .

وعندما بدات الادارة الفرنسية تحظى بنوع من الاستقرار ، اى بعـد الاحتلال بعام ، افتتحت كل الغرف القضائية التىكانت قد اغلقت بصـفة مؤقتة فى البداية ، واعطى القائد العام للجيش أوامره فى هذا الخصوص بعد اطلاع على تقرير قدم اليه ،وكلف قوميسيرالحكومة لدى ديوان القاهرة بالتاكد من تنفيذ ذلك ، وعندئذ نظمت رسوم التقاضى وتحددت بنسـبة ٢٪ من قيمة الشيء موضوع النزاع ، وتوزع حصيلة هذا الرسم بين القـاضى والكتبة ، ولم تحدث اية تعديلات اخرى فى ادارة القضاء ، وسارت الأمور على نفس نظمها فى الماضى ، وبدات ثقة الناس التى كانت قـد تزعزعت

لحين تعـود منذ الآن ، ومنـذ هذه اللحظة بدأ المنتصرون يجنـون ثمـار انتصارهم .

ومع ذلك فان نظام التعيين فى الوظائف القضائية لم يعد هو نفسه ما كان فى الماضى ، واتخذت لذلك الاجراءات اللازمة ، فثبت كل رجال القضاء الذين كانوا قائمين بالعمل فى مناصبهم ، وعزل قاضى العسكر الذى كان من انصار أمير الحج ، وخلفه فى منصبه الشيخ العريشى ، وهو الذى ظل فى هذا المنصب حتى نهاية الاحتلال .

واذا ما تأملنا لحظة نمط الأنظمة القضائية العثمانية وطريقة اختيار رجال القضاء ، فاننا سنجد فى هذه الوقائع نفسها منبع المساوىء التى كان ينبغى أن تنجم عن هذه الوقائع بالضرورة ، وفى الواقع ، فان رجال القضاء الغرباء ، بجهلهم لغة البلاد التى ذهبوا اليها ليرسموا قدر وكرامة ونمط حياة مواطنيها ، لم تكن تحركهم اية عواطف من تلك التى تفـرض نزاهة القضاء ، كما ان اعتبارات المواطنة واعتبارات القربى التى لها على الدوام تاثير كبير على القلوب لم يكن لها على الاطلاق وجود عنـدهم ، وحيث انهم قدموا قبضات من الذهب حتى يتولوا امر محكمة ما ، فمن الطبيعى الا يكون سيف العدالة الذى يضعه القانون فى يدهم سوى اداة للاثـراء ، فكانوا يستخدمونه وسيلة لتعويض الأموال التى انفقوها ، بل ولتـكوين ثرواتهم الخاصة ، ووجهت الوسائل الكبرى التى فى حوزتهم نحو نفس الغرض ، غرض تكديس الأموال ، لذلك فانهم لم يدعـوا اية فرصة تفلـت دون ان يستغلوها لتنمية ثرواتهم ، اما أولئك الذين يخفف حب العدل والانسـانية عندهم من جموح ذلك التعطش الى المال ، فقد كانوا اكثر ميلا للعدالة ، بينما لم يكن يكبح جماح الآخرين الا الخوف من تدهور سمعتهم ، وفضلا عن ذلك فان العادة التى سادت فى مصر ،عادة بيع أو تأجير وظائف بمثل هذه الدرجة من الخطورة من شخص لآخر ، هى واحدة من تلك المساوىء الشـيطانية التى لا يمكن لأية حكومة عاقلة ان تتساهل فيها ،اذ هى نوع من الحنث أو الخيانة لا يسمح بقيامها الا البرابرة .

ولنعد الى ممارسة الوظائف القضائية ، يحوز حكم القاضى فى معظم الأحوال قبول كل النـاس المتنورين ، وقد يكون من الظلم ان نوجـه الى رجال القضاء هؤلاء ، ذلك الاتهام القاسى بالمحاباة او الفساد ، وهو الاتهام

الذى يوجهه كثيرون الى القضاة المسلمين عامة ، اذ لا يمكن لقاض أن يتجاسر ويصدر حكما قليل التطابق مع روح الشرع ، أو منحازا بشكل ما لصالح الطرف الذى يريد ان يعمل لصالحه ، الا فى حالة واحدة ، هى تلك الحالة التى تكون نصوص القانون فيها غامضة وتحتمل التفسير على وجوه عدة مختلفة او متعارضة ، لكن المساوىء تنجم بشكل اكبر عن ذلك التقدير العشوائى والجائر لتقدير رسوم التقاضى ، ويتهامس الناس حول تحصيل هذه الرسوم بشكل غير معتاد . وفى القاهرة تنهض الصفات الشخصية لقاضى العسكر وكذا الرقابة التى يمارسها العلماء ــ بل وحكومةالمماليك ــ بحماية شعب على نحو ما ضد جشع القضاة والكتبة ، لكن الأمر لا يسير على هذا النحو فى الأقاليم ،حيثيستطيع القاضى هناك أن يستوثق من صداقة وحماية البك حاكم الاقليم عن طريق تقديم الهدايا او اية وسيلة أخرى ، وبذلك يكون حرا من كافة القيود وهو يقوم بتقدير رسم يفوق بكثير ذلك الرسم القانونى ، ومع ذلك فمن الصحيح ايضا انه حتى فى هذه المناسبات، كان القضاة يستطيعون كبح جماح جشعهم ، وكانوا فى بعض الأحيان يتظاهرون بفرض رسوم لصالح كتابهم ومرؤوسيهم ، على الرغم من ان هؤلاء لم يكونوا يحصلون مطلقا الا على قدر ضئيل من هذه الرسوم ، وكان هؤلاء يلجأون فى معظم الأحيان الى وسائل مشابهة .

سبق لنا القول بأن احكام القاضى تصدر بلا نقض ، وان الدين يعالج جزئيا تلك المساوىء الناتجة عن مثل هذا التفويض الواسع الممنوح للقاضى بفعل العادة ، حيث العادة فى مصر كما فى كل اجزاء الامبراطورية العثمانية هى كل شىء ، بل يمكن القول بانها هى التى تصنع القانون ، لذا فان العادة التى يعتادها امير او رجل او قضاء او حتى ضابط صغير وهو يتعامل مع من هم دونه تصبح الزامية لكل من يقومون بنفس هذه الأعمال ، وتبرهن مثل هذه المساوىء على ضرورة ارساء النظام القضائى على أسس ثابتة ومستقرة ، وهذه الحاجة التىتتضحاهميتها يوما بعد يوم لا تجد الاستجابة الواعية من جانب الحكام ، او قل انها بالاحرى تقع تحت رحمة روتين غير قابل للهزيمة ، لحد يفضل معه الحكام ان يتحملوا مساوئه تلك عن ان يبتعدوا عنها .

وتنهض العدالة فى مصر على اساس المذهب الحنفى ، ولا يمكن أن يحدث الأمر على نحو آخر حيث ان كل رجال القضاء الذين ترسلهم

القسطنطينية يتبعون هذا المذهب ، وهو نفس مذهب السلطان نفسه وكذا شريف مكة ، وقد بدا هذا الأمر منذ بداية القرن السادس عشر ، ومن المحتم ان يكون سليم غازى مصر هو الذى وضع أساس ذلك ، حيث انه هو الذى اقام حكومته على نفس الأسس التى تنهض عليها اليوم ،ومع ذلك فحيث أن المذهب الشافعى هو السائد فى مصر ، وحيث أن كل شيوخ الأزهر يتبعون هذا المذهب فربما كان من الأفضل الامتثال لأحكام هذا المذهب ، وتلك مسألة تتطلب دراسة عميقة أولى بها أولئك الذين يعنيهم الأمر .

وطيلة فترة الاحتلال الفرنسى لم تحصل اية رسوم عن التعيين فى الوظائف القضائية ، ويبرر ذلك تواضع الدخول التى يمكن تحصيلها من مثل هذا الأمر ، ان من الممكن الغاء هذه المساومة على وظائف بهذه الخطورة دونما تاثير كبير على خزانة الدولة ، ومن المعروف ان هذه المساوىء لم تكن تحدث مطلقا فى عهود الخلفاء ، وانما بدات مع بداية الحكم المملوكى ثم دعمتها العادة ودعمها كذلك وبدرجة اكبر ، ذلك النموذج التركى الذى تسوده مثل هذه العادات .

٥

عن الحقوق المدنية

الملكية

لا شك ان النظام الذى يساهم فى ربط المواطنين بمسقط راسهم ، هو واحد من أهم النظم الوطنية ، ونحن هنا نتحدث عن نظام الملكية ، هذا الحق الطبيعى الذى كرسه كل المشرعين ولا يخرقه او ينكره سوى البرابرة، لكن طغاة مصر ، عندما القوا تحت اقدامهم بكل مبدا حكيم وعادل ، لم يحترموا هذا الامتياز المقدس الذى هو فى جملته اساس لضمان السعادة الاجتماعية ، فثمة كثير من المزارعين الاحرار علىضفاف النيل قد اصبحوا مجرد فلاحين اجراء ، او عبيدا مطحونين تحت وطأة تلك الضرائب الباهظة، يفلحون هناك وفى حلوقهم غصة ، اراضى خصبة ، لكنهم لا يستطيعون ان يجنوا لها ثمارا ، فهذا الوادى الخصيب فى الفيوم ، وتلك السهول الخصبة فى الدلتا ، التى كانت غزيرة الانتاج تحت حكم الفراعنة والبطالمة بل وتحت السيطرة العثمانية ،لا تنتج الآن بالكاد ربع ما كانت تنتجه فى

الماضى ، ومن السهل أن نلتمس أسباب ذلك التغيير المحزن ، لكننا لا ينبغى ان نبحث عن التفسير عند الطبيعة أو عند تقلبات الطقس مهما كانت عنيفة ، فالنهر على الدوام هو نفس النهر ، وفيضانه السنوى — شأنه شأن الماضى — يأتى كل عام ليروى الوادى ، فقط اختفى الأمل ، فما عاد يلهب جماسة الفلاح ولا عاد يستثير همته ، اذ هو يعلم الآن ان ثمة اجنبيا بغيضا هو الذى سيحصل على ثمن عرقه هو ؛ نعم ، ماذا سيعود على الفلاح لو انه عمل على انماء محصولات جديدة ما دامت لن تعود عليه ولا على اولاده خيراتها ؟ انه يبذر البذور وهو حانق ، ويجنى محصوله وهو خائف ، ويعمل جهده ليخفى عن نظرات طغاته الجشعين قدرا ضئيلا من الحبوب يمكنه ان يحصل بها على بعض احتياجات أسرته العديدة ، فالفلاح فى هذه البلاد البائسة ليس بمالك للارض ، وليس بمقدوره أن يكون ذلك ، انه ليس بصاحب للارض ، ولكنه قن لها منذ ولادته يعمل لحساب تلك العصبة التى قهرت وطنه واستذلته ، انه رقيق الدولة فى اسبارطة القديمة ، وعبد المستعمرات الامريكية التعس ! .

يرتبط توزيع الأرض فى مصر بعدد قراها ، اذ تمتلك كل قرية مساحة من الاراضى القابلة للزراعة تتفاوت مساحتها ، وتنقسم اراضى كل قرية الى ٢٤ قيراطا ويبلغ عدد القرى فى كل الوادى ما بين ٢٥٠٠ — ٣٠٠٠ قرية كبيرة او صغيرة منها ٤٠٠ من اسوان الى المنيا ، ٥٠٠ من المنيا الى القاهرة بما فى ذلك الفيوم ، ٦٦٠ فى الدلتا ، ١٠٠٠ فى بقية المناطق(١) .

وهناك بعض الافراد يتسمون باسم الملتزمين (ملتزم) ، وهؤلاء هم الذين يمتلكون اراضى هذه القرى امتلاكا فعليا ، ويعنى الفلاحون باقتسام هذه الارض بينهم وبين هؤلاء الملتزمين ، ولكن انظر الى اى حد تضاءلت حقوق الفلاحين ، والى اى حد كذلك وصلت سطوة الآخرين ! .

---

(١) لعل التقدير الاخير مبالغ فيه ولعل تقدير عدد قرى الدلتا اقل من الواقع . لمزيد من التفاصيل انظر دراسة جاكوتان Jacotin عن مساحة ارض مصر وكذلك دراسة جومار Jomard عن المقارنة بين سكان مصر فى الزمن القديم وسكانها الحاليين .

ان مالك عدد معين من القراريط يحصل من الفلاح الذى يفلحها ضريبة ثابتة كانت قيمتها فى الماضى محدودة ، وتسجل هذه الضريبة باسم المال الحر ، وبخلاف ضريبة المال الحر التى تلزم القوانين الفلاح بها ، قام الملتزمون بتحميل الفلاح بعدد هائل من الضرائب والاتاوات لم تكن موجودة قط من قبل ، أو كان ينظر الى بعضها فى البداية على انه — على الأكثر — مجرد هدايا ، لكنها بمرور الزمن اصبحت ضرائب اجبارية واجبة الدفع ، ومسجلة ، وتحصل بقسوة بالغة ، وتسمى حصيلة كل هذه الرسوم التى ينظر اليها السكان باعتبارها نتيجة لقهر وطنهم : البرانى ، وتحمل هذه الضرائب أحيانا اسم : مضاف كما لو كان للاشارة الى أنها مستقلة عن بقية الضرائب ، وانها اضيفت او زيدت على الضرائب المشروعة ، ويحصل الملتزم مجموع هذه الضرائب : المال الحر والبرانى ، ومن هذه الحصيلة يدفع الميرى وهو الضريبة الثابتة والمقررة بموجب قانون ادارى قديم[1] . وهو يحصل باسم السلطان بواسطة الموظف الذى يمثله ، ويتحمل المصريون هذه الضريبة أكثر مما يتحملون الضرائب الأخرى ، اذ هى فى نظرهم اعتراف بسيادة السلطان ولأن لها طابعا مشروعا .

ويشكل ما يتبقى من المال الحر بعد سداد الميرى ما يسمى بالفايظ (الفائض) ويكون بالاضافة الى البرانى مجموع ما يحصل عليه الملتزم من فوائد ، لكن عليه فى نفس الوقت ان يدفع خصما من هذه الفوائد مصاريف ادارية كبيرة، وفاء لمسئوليات تقع على عاتقه ليس من بينها أية مبالغ مخصصة للفلاح ، لا تعويضا عن فلاحته للارض ، ولا كمقابل لمجهوده أيام الحصاد .

ويورث الفلاح لأبنائه حق زراعة الأرض التى فى حوزته ، وعلى هؤلاء اولا ان يدفعوا للملتزم نوعا من رسوم التقلد ، وينظر لهذا الرسم باعتباره هدية اكدتها العادة ، ومع ذلك فنادرا ما يسددها الفلاحون بالرغم من أن للملتزم حق تحصيلها ، وتبلغ هذه الضريبة ثلاثة امثال عائد الأرض المنزرعة ، ويمكن للملتزم حسب تساهله ان يتنازل عن جزء منها او يتنازل منها كلية اذا كانت الأرض ضعيفة ، ولكن اذا رفض الفلاح المورث ان

---

(١) يدفع الميرى عينا أو نقدا ، ويدفع جزء منه فى الصعيد عينا .

يسدد هذه الضريبة بالرغم من أوامر وتنبيهات المـالك الملتزم ، فان الأخير يستطيع ان يرغمه على ذلك بمنعه من استغلال الأرض التى كانت فى حوزة ابيه ، فانظر اذن بأية طريقة وباى ثمن يستطيع الفلاح المصرى ان يورث ابناءه ارثه التعس .

ومن نافلة القول ان نلفت النظر الى ان الفلاح لا يستطيع ان يبيـع الأرض التى يزرعها حيث ان ملكيتها الحقيقية ليست فى يده ، ومع ذلك فقد كان له الحق فى أن يؤجرها لبعض الوقت ويظـل يحتفظ لنفسه بحـق الرجوع اليها ، وعندما يكون الفلاح معسرا غير قادر على سداد ما عليه ، فان الملتزم يستدعيه أمام القاضى ويثبت عن طريق شهود انه لا يسـتطيع تحصـيل شىء منه ، اى من الفـلاح ، وعندئذ يعزل المسـكين من الأرض ويصبح لسيده الحق فى احلال فلاح آخر محله ، ويرشح الفلاح الجديد عادة عن طريق شيخ أول القرية، ويقبل الملتزم هذا الاختيار لكن ذلك لا يعـنى أن الفلاح القديم قد انتزع من أرضه بغير عودة ، فيكفى ان يستطيع دفـع الاقساط المتراكمة عليه لكى يحصل من جديد على ارضه ، ومن جهة أخرى فاذا حدث أن وقع ضرر بين وبالغ القسوة علىالفلاح على يد الملتزم ، فان بمقدور الفلاح أن يهجر حقله ويحل محله فى هذه الحـالة شيخ الفلاحين والملتـزم .

ولا ينبغى ان ننسى انه ليستللقوانين الوضعية ــ لا فى هذا المجال ولا فى اى مجال آخر بمصر ــ لا الدقة ولا الفاعلية التى للمؤسسات والانظمة الأوربية ، ويمكن القول بانه ليسـت للقانون المكتوب ــ على ضـفاف النيل ــ الا اهمية ثانوية ، بينما يرسم العرف أوامر وأحكام رجال القضاء، كما انه هو الذى يبرر تلك الابتزازات الاجرامية للرجال القـادرين من كل الطبقات ، ونتيجة لهذه السوءة البربرية فان الفـلاحين يعيشون فى شكل عبودية اكبر بكثير مما ينبغى ، فاقدارهم تحت رحمة نزوات الملتـزم الذى يستطيع حسبما يتراءى له ان يودى بهم الى حالة من البؤس المفزع او ان يهيىء لهم عيشا رغدا ، ان هذه الأوضاع الشيطانية في مجموعها ليسـت

اقل سوءا من بقية الأمور التى ستوجب نظاما تشريعيا جديدا فى مصر(١) .

وللملتزم الحق ان يبيع التزامه ، وعندما يحدث ذلك يقوم الملتزم الجديد بدفع الميرى بدلا منه ، وبخلاف الأرض التى يزرعها الفلاحون فى القرية ، ثمة جزء من ارض هذه القرية لا يخضع لنفس النظام ، حيث يمكن القول بأن هذه القطعة مقسمة بين الملاك (الملتزمين) بنسبة عدد القراريط التى يملكونها من أرض القرية . وتسمى هذه الأرض : الوسية(٢). ولا يقوم الفلاحون بزراعة هذه الأرض بنفس الطريقة التى تنظم زراعتهم للاراضى الأخرى ، بل ان الملتزم يستخدم فيها من يشاء بالشروط التى تتراءى له . ومع ذلك .فعندما يبيع التزامه فى أرض الفلاحين فانه يبيع كذلك الجزء الذى فى حوزته والمقابل لتلك فى أرض الوسية ، اذ لا يمكن أن تنفصل هاتان الملكيتان .

ويرث ابناء الملتزم الالتزام عن والدهم ، لكنهم لا يخلفونه الا بعد موافقة الباشا ، وفى هذه الحالة يحصل هذا الضابط باعتباره ممثلا للسلطان ، على جعل يصل الى ثلاثة امثال قيمة الفايظ السنوى غير مشتمل على البرانى ، ويؤكد الباشوات هذه الضريبة بأن يدفعوا الى بلاد القسطنطينية جزءا من عائد عقودهم هذه ، ويعدل الباشوات فى معظم الحالات من المبلغ المفروض كضريبة ارث ، ويمارسون فى هذا الخصوص نحو الملتزمين ما يمارسه هؤلاء نحو الفلاحين فى نفس الظروف، وينظر المصريون الى ضرائب الارث هذه باعتبارها استردادا للارض ، وهكذا يصبح ابناء الملتزم اصحاب حق فى الحصول على ممتلكات ابيهم بعد دفع الضريبة المفروضة .

---

(١) يمكن القول بأن الأراضى — فى المنطقة المحيطة بحلب — مقسمة بين السلطان الذى يحصل الميرى من الملاك ، والمالك الذى يقدر لنفسه دخلا سنويا عينا ونقدا والمزارع الذى يحتفظ لنفسه بجزء من ثمرات جهده . وثمة سكان من القسطنطينية يمتلكون اراضى فى هذه المنطقة .

(٢) لا توجد وسية فى الصعيد ابتداء من المنيا .

(وقد بين الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم فى كتابه الريف المصرى فى القرن الثامن عشر أن هذا خطأ وقع فيه علماء الحملة الفرنسية) المترجم.

وفيما مضى كانت مصر مملوكة لجمهرة من كبار المـلاك ، لكن المماليك تخلصوا من هؤلاء حتى يقتسموا فيما بينهم اسـلابهم ، وقد نتج عن هـذا السلب ان اصبح اعضاء الحكومات المملوكية ، يمتلكون كل ارض مصر على وجه التقريب ، فكانوا يمتلكون على الأقل ثلثى الاراضى القابلة للزراعة ، ولا يمنع هذا من أن هناك بعض الأفراد كانوا يحوزون بعض الأملاك الهامة، يذكر من بين هؤلاء الشيخ همام الذى كان حائزا على أراضى عدد كبير من قرى الصـعيد .

وبرغم كل ذلك فسوف نقع فى خطأ بين اذا ما استنتجنا مما تقدم أنه ليست لدى المصريين فكرة صحيحة عن الملكية الحقة ، انهم يعرفون معنى هذه الملكية الحقة بلا ريب ، ولكن كيف يمكنهم ان يتمتعوا بها ، بينمـا كل شىء هنـاك يعترض سبيل سعادتهم ؟ فالعادات وطغيان الحكومات وجشع الملتزمين ، كل ذلك عقبات لا يمكن التغلب عليها . لا مفر من اصلاح تام ، بل يمكن القول بأنه لا بد من توزيع جديد للارض ، ولو كان الفرنسـيون قد استطاعوا ان يثبتوا أقدامهم فى البلاد فليس من شـك فى أنهم كانوا سيصلحون من مساوىء هذا النظام ، واذا ما حدث ووجد ابناء ريف مصر انفسهم يعيشون فى ظل حماية القوانين فانهم سيحصلون فى وقت معا على الأمل والهمة ، وعندئذ فكم من الثروات سوف تغل هذه الأرض الخصـبة المعطاء ، التي استحقت ذات يوم اسم : زرعة روما(١) .

---

(١) لـكى نقدم فكرة تقريبية عن بؤس الفلاحين فسـوف نعتمد على شهادة المعلم يعقوب ، المباشر القبطى الذى اكد لنـا ان ١٠ فدادين من الأرض فى الصعيد تنتج خمسين أردبا من القمح من بذور خمسة ارادب ، كما اكد لنا بالمثل ان الاقساط التى يدفعها الفلاحون للملتزم عينـا لا تقل مطلقا عن ٢ ــ ٥ر٣ اردب من الحبوب عن الفدان ، فاذا قمنا بخصم مصاريف الحرث والبذر ، نجد أنه لا يتبقى شىء على وجه التقريب لهؤلاء الفلاحين التعساء .

٦

عن الرق وعن العتــق

تحتفظ الشعوب الشرقية بتلك العــادة القديمة ، عادة اســتخدام العبيد ، ونحن لن نمسك فى هذا الخصــوص عن ابداء اى رأى مهما بدا قاسيا ، ومهما كانت انتقاداتنا وملاماتنا مشروعة ، فانها تقع جميعهــا على أوربا ، كما ان كل واحدة من هذه الانتقادات والملامات ليست سوى نقد حر لتلك التجارة المخزية التى تسامحت فيها اوربا حتى اليــوم ، فمستعمرات العــالم الجديد ، وجزر البحــر الأفريقى ــ مســارح همجية الشــعوب المتحضرة ــ تقدم أكثر مشاهد العبودية بشاعة ، بل وربما أكبرها اهــدارا للحقوق المقدسة للانسان اذ ينبغى أن نعترف هنا ــ وهذا أمر مخز للحضارة والمدنية ــ أن قدر العبيد فى مصر كما فى كل بلاد الشرق ، اقل حافــزا على الشكوى من قدرهم هناك فى أمريكا ، حيــث يروون بعرقهم ودمائهم حقول سوق لا رحمة فيه ، اما رقيق مصرــ على العكس من ذلك ــ فيمكن القول بأنهم يقبلون فى العائلات كأفراد فيها ، وليس ثمة ما يقومون به من عمل سوى خدمة المنزل ، كما أن حالتهم ليست على الدوام بائسة ، بل ان الرق عندما يكون السيد واحدا من البكوات ، يكون فى معظم الأحوال بمثابة الخطوة الأولى نحو الثروة أو نحو السلطة .

وفى مصر نوعان من الرقيق : السود من وسط افريقيا ويأتون الى مصر والى المدن الكبرى عن طريق قوافل ، والبيض ويأتون من اقاليم آسيا المجاورة للبحر الأسود ، وثمة فرق هائل بين ثمن هؤلاء وثمن أولئك ، فقلما يبلغ ثمن الأســود ٤٠ ــ ٨٠ قرشا اســبانيا ،بينما يعتبر النــاس أن من الطبيعى أن يدفعوا فى شراء شاب شركسى ٦٠٠ــ٨٠٠ سكين Sequin وهو عملة ذهبية ايطالية تقدر القطعة منها بــ ١٢٠ بارة) ــ اى حوالى ٣٠٠٠ فرنك ، وقد كان ثمن الألفى بك الف سكين ومن هنا جاء اســمه : الألــفى .

ويعتبر العبد جزءا مكملا لثروة سيده الذى يســتطيع أن يبيعــه أو يبادله أو يعتقه ، وذلك حسبما يتراءى له ، وليس للعبد ان يمتلك شــيئا خاصا به ، فكل ما يمكن ان يحصل عليه يكون من حق سيده ، ولا يتمتع العبد

بأى حق مدنى ، ويعتمد فى كل اموره على ارادة سيده ، ومع ذلك فاذا قام الأخير باللجوء الى العنف او لاية وسيلة اخرى ــ بفعل مخالف للقوانين او الطبيعة ــ فان العبد يستطيع ان يشكوه امام القاضى الذى يرغم سيده ــ حسب الحالة المعروضة عليه ــ على بيعه للآخرين ، ومع ذلك فنادرا ما يتهم العبد سيده بالطغيان ، فكل ما يفرض عليه من واجبات يتعلق فقط بالخدمات المنزلية ، فهو يعنى بمنزل سيده ويخدم على المائدة او يقوم بأية اعمال اخرى تتصل بشخص سيده ، لكنه بعيد عن الزراعة وعن كل الأعمال الشاقة ، ولعل اشنق عمل يكلف به العبيد ، هو أن يعهد اليهم سادتهم بالعناية بخيولهم ، وهم عامة يعاملون بلطف تام ، ونادرا ما لا ينتهى بهم الأمر الى العتق خلال بضعة سنوات أو عند موت سيدهم .

ويمكن القول بأن العبد الأبيض يعتبر عضوا من اعضاء الأسرة ، وعندما يرضى تاجر عن عبده فانه يشركه فى تجارته ويزوجه من ابنته ويهيىء له حياة طيبة ، أما أولئك الرتيق الذين يكونون فى خدمة البكوات الكشاف أو كبار ضباط حكومة المماليك فان حظهم اكثر بريقا ، فحيث ان سادتهم انفسهم قد بدأوا حياتهم عبيدا ، فانهم بدورهم يولون عبيدهم جل عنايتهم ، ويهيئون لهم نوعا من التدريب العسكرى ليشكلوا فيما بعد جيش المماليك ، وتتجلى قوة كل بك فى عدد رجاله وفى شجاعتهم ، لذا فهو يعنى بتقدمهم وثروتهم كما لو كانوا ابناءه ، وفضلا عن ذلك فقد كان المماليك يدعمون حزبهم عن طريق نفوذ رجالهم ، وهو النفوذ الذى هيأته لرجالهم هذه المناصب التى ولوهم ــ هم انفسهم ــ فيها .

لكن الشجاعة والميزات الشخصية لعبد ما ــ ليست على الدوام هى الأسباب الوحيدة التى تحدو بشريف مملوك ، أن يهيىء لعبده هذا التقدم السريع ، ويؤكد البعض ان الجمال والصفات الجسمانية تلعب دورا كبيرا فى اقدار هؤلاء العبيد ، ويشكل هؤلاء الرجال ذوو الأصل الغامض ، والذين نجهل بلاد معظمهم ، طائفة النبلاء الحقيقيين برغم كل ما قيل ، فهم وحدهم يحوزون المناصب ويعمرون بيوت وعائلات سادتهم ، التى كانت ستخبو فيها بدونهم اضواء الحياة منذ الجيل الثانى ، ومن نافلة القول أن نذكر ان الاماء البيضاوات القادمات من نفس بلدان هؤلاء البكوات والكشاف والمماليك الآخرين ، يتمتعن هن ايضا باعتبار خاص ، ذلك انهن ــ عادة ــ يصبحن زوجات هؤلاء او اماءهم المفضلات .

وبالرغم من الامتيازات التى يهيئها للعبيد المماليك وجودهم بالقرب من البكوات ، فان من الواجب ان نلفت النظر الى أن العرف قد وضع حـدا لتقدمهم ، ويمكن القول بأن المماليك ، ولو انهم كانوا يعدون جزءا من أسرة سيدهم ، لم يكونوا ليتمتعوا بأى حقّ مدنى فى ميراثهم ، فان العلاقة التى نشأت بينهم لم تكن تساوى علاقة التبنى ، فليس للعبد حتى اذا اعتقّ اى حق فى تركه سيده التى توزع على ابنائه الشرعيين ، صحيح أن بمقـدور السيد ان يخصص جزءا من ثروته لصالح العبد ، لكن هـذه الهبة لم تكن لتبلغ مطلقا اكثر من ثلث الثروة ، حتى ولو لم يكن للمتوفى اى أبناء ، وعلى العكس من ذلك فاذا مات المعتوقّ دون ذرية فان ثروته كلها تئول الى سيده القـديم .

وتباع الاماء من كلا اللونين بثمن اغلى من ثمن العبيد الذكور ، واذا ما نشأت علاقة بين السيد وبين واحدة من امائه واصبحت هذه أما ، فانه لا يستطيع أن يبيعها ، اذ تصبح فى حكم الزوجة الحرة حتى يموت سيدها، وعندما تموت هى يصبح ابنها شرعيا ويرث شـأنه شأن أبناء الزوجـة الحرة ، ولكن اذا اراد السيد أن يتخذ من احدى امائه زوجة شرعية فعليه أولا أن يعتقها .

ويمكن للمسلم ان يعـاشر احدى امائه دون ان تخرج من اجـل ذلك من خدمته ، فهو يحتفظ لنفسه عليها بكل حقوق الملكية ، فيسـتطيع ان يستردها وان يجعلها تقوم بخدمته ، بل وان يبيعهامن جديد ولكنه فقط لا يستطيع الانجاب منها ، وثمة امثلة على زواج من هذا النوع ، وان كان المعتاد ان يقوم الزوج بعتق تلك التى يختارها زوجة له.

ويدرك العبد انه مملوك كلية لسيده ، وهو يقف أمامه ويداه مضمومتان الى صدره ، وعيناه مثبتتان على عينيه ليدرس اقل رغبات سيده حتى ينفذها قبل ان يعبر سيده عنها ، وحالته فى نظر نفسه طبيعية وهو لا يسـتشعر مطلقا لا الرغبة ولا الحاجة فى قطع قيوده ، بل ان المعتوق نفسه يظـل يحتفظ لسيده القديم بالاحترام والولاء مما يصعب على اى رجل حر قبوله ، لكن العرفان هو الذى يفسره ، وقد رفع على بك الشـهير بـ (بالكبير) كثيرا من مماليكه الى مراتب البكوات والكشاف ، ومع ذلك فقد كانوا ـ عندما يأتون لزيارته ـ يظلون واقفين فى مظهر خانع ، ولا يجلسون مطلقا امامه

الا اذا دعاهم لذلك ، كما كانوا يحرصون على الا يجلسوا على نفس الاريكة التي يجلس عليها سيدهم القديم ، ويلاحظ نفس التحفظ والمراعاة من جانب المعتوقات نحو السيدات اللاتى كن مملوكات لهن .

ومن المالوف لدى الشرقيين ان يروا العبيد المعتوقين يصلون الى ذروة المجد ، ولا يمكن ان يحتر الرجل مطلقا من قبل الراى العام لانه كان من قبل عبدا ، ودائما ما يسعى الناس لصداقته ومودته ، وهكذا فان الأمر الذى يعد عند الشعوب الأخرى شيئا جديرا بالتحقير ، يصبح هنا وكانه امـــر مرغوب ، بل ثمة من يؤكـــد ان نقيب الاشراف فى مكة قد زوج ابنتـــه من معتـــوق .

سبق لنا ان قلنا ان الرجل الحر الذي يريد أن يتزوج من أمته عليه أن يعتقها ، ونفس الأمر بخصوص اولاده ، فانه لا بد أن يسمح لابنه بالارتباط باحـــدى امائه ـــ اي اماء الاب ـــ والا فلن يتمتع الأطفـــال الذين ياتون من طريق هذا الاتصال باى حق مدنى ، بل سيظلون عبيدا حتى موت امهم الا اذا اعترف الأب بهم ، الأمر الذى يعنى عتق الأم .

وصيغة العتق بالغة السهولة ، فهى عبارة عن كلمة من السيد تقال فى اى مكان ، فى المنزل او الشارع او اى مكان آخـــر ، ولكن اذا خشى العبد من تقلب مزاج سيده فانه يطلب تحرير وثيقة بالعتق تبرهن على صحة عتقه ، ونادرا ما يرفض طلب كهذا ، وليس لحق السيد على عبده من حـــد الا الحق الطبيعى ، وعلى سبيل المثال فان الامة التى من واجبها الاستجابة لكل رغبات سيدها تستطيع أن ترفض اى فعل يهين طبيعتها ، وعندما يرتكب عبد ما جريمة قتل فانه يمثل أمام القاضى مع سيده ويتقدم كلاهما للمحاكمة ، وان كان لاسرة القتيل ان تعفو أو تكتفى بتعويض نقدى ، وقد سبق لنا القول بأن المعتوق لا يرث عن سيده القديم ، ومع ذلك فان سيده ، اذا ما مات دون ذرية فان السلطان والقاضى ـــ وهما الورثة فى هذه الحال ـــ ، فالأول يرث ثروة المتوفى والثانى يرث وظائفه ـــ يعطيان كل شيء او جزءا منه الى معتوقه . وليس هذا حقا مقررا له ، ولكن العرف هو الذى جعل منه نوعا من الالزام ، وفيما مضى ، عندما كان التبنى شائعا ، لم يكن الأمر يصل لهذا الحد ، ويمكن الان للرجـــل ان يتبنى عبـــده ، أو هو على الاقل يستطيع ذلك ، على نفس النحو الذي كان يتم في الماضي

والعتق هو مكافاة على اخلاص وحماسة وتضحية العبيد ، وهـذا الفعل شائع لحد انك لا تستطيع ان ترى الا عددا بالغ الضـآلة من الرقيق وهم يموتون فى ظل حالة الرق ، فجميع العبيـد رجالا ونساءا ، بيضـا وملونين ، يعتقون على قدم المساواة . وثمة طواشيون عند المماليك ، وكان عددهم عند مراد بك يبلغ العشرين ، ولكن لم تجر العادة مطلقا فى القاهرة على اللجوء لخدمات هؤلاء التعساء ، ويدين الدين هذه العادة ولا يمارسها بخلاف المماليك الا عدد بالغ الضآلة من السكان ، فتدمير معين الحياة عند رجل جريمة كبرى فى نظر المسلمين ذوى الحمية الدينية ، ويمكن للطواشى ان يعتقَ شأنه شأن اى عبد ، وهو ما يحدث فى معظم الأحوال ، ولا يحتقـر الطواشى الا اذا كان الاحتقار من نصـيب سيده ، ولا تجلب عليه حالتـه كطواشى اى تحقير خاص ، بل كان يرى طواشيو الرجل القوى يحصلون لانفسهم على شىء من التقدير الذى يحظى به سيدهم .

وبعد موت احـد الأثرياء يقتسم الورثة تركته ، ويدخل العبيد ضمن هذه التركة شأنهم شأن بقية اجزائها ، ولا يستثنى من هـؤلاء الا من اعتقهم سيدهم عند موته ، أو أولئك الذين كان سيدهم قد وعدهم بذلك من قبل ، وفى هذه الحالة فان الأمة التى كانت قد صارت اما بفعل سيدها تأخذ كل حقوق الزوجة الحرة ، وهو الأمر الذى لم تكن قد تمتعت به حتى هذه اللحظة .

— ٧ —

الوصـاية ، التركة ، الشـهود

عندما يموت رجل تاركا ابناء صغار السن ، فان جدهم لأبيهم يصبح هو الوصى الشرعى عليهم ، أما اذا لم يكن هذا الجد على قيد الحياة فان القاضى يختار بمعرفته وصيا على هؤلاء اليتامى ، لكن الوصى ليس له حقَ التصرف فى ثروة القصر ، وتخصم نفقات هؤلاء وكذا مصاريف تعليمهم من ثروتهم ، واذا ما اراد الوصى بدافع من العاطفة ان يستثمر اموالهم ، فانه يقوم بذلك مخاطرة من جانبه يتحمل هو كامل مسؤليتها ، وهو ملزم على الدوام بأن يقدم الى القاضى حساب المبالغ التى فى يديه .

اما التربية فهى مستقلة عن الثروة ، حيث يعهد بها الى الأم حتى سن السابعة بالنسبة للأولاد ، وحتى سن الزواج بالنسبة للبنات ، ولا يفوت

الوصى أن يعلم الأولاد القراءة والكتابة ، وأن يهيئهم لنوع من الحياة حسبا درجة ثرائهم ، ولا يحق الا للأب او الجد أن يعقد زواجا لأبناء دون سن البلوغ ، أما الأقارب الآخرون فغير مخولين فى ذلك ، وعندما يبلغ الأولاد سن الرشد فانهم يستطيعون أن يرفضوا الامتثال للقرار الذى اتخذه الأب أو الجد ، وقد سبق لنا أن قلنا ان سن البلوغ للولد محدد بخمسة عشر عاما ، وفى هذه الحالة يقدم الوصى الحساب الى القاضى عن ثروات هذا الولد الذى سيصبح الآن قيما على نفسه ، ومع ذلك فينبغى حسب المذهب الحنفى أن يعين على هذا الولد وصيا حتى يبلغ سن الخامسة والعشرين ، لكن القضاة لايمتثلون لهذا الرأى ، ويمكن للابن عند بلوغه سن البلوغ أن يترك منزل الأب ولا تعود اسرته ملزمة باطعامه .

وللابن — فى التركات — ضعف حق البنت ، فعندما يكون لرجل بنتان وولد واحد على سبيل المثـــال فان الزوجة تأخذ لنفســـها ٣/٢٤ من التركة ويأخذ الابن ١٤/٢٤ وكل من البنتين ٥/٢٤ ، وعندما يكون للمتوفى وريث ذكر ، فانه لا يكون لاخوة المتوفى او اخواته حق فى الميراث .

وانصبة الأخوة الذكور متساوية فيما بينهم ، واذا لم يكن ثمة ذرية فلا يئول لزوجة المتوفى الا ١/٤ تركته ويئول الباقى لأبيه ، ولا يحـق لأخواته ارثه الا اذا كان الأب متوفيا ، اما اذا ترك المتوفى ابنة فان نصيب الزوجة على الدوام ٣/٢٤ والبنت فى هذه الحالة ١٢/٢٤ واذا كان له أكثر من ابنـــة واحدة فانهن يقتسمن ٢/٣ ثروة والدهن . وعندما تموت الزوجة يحصل الزوج من ميراثها على ضعف ما كانت ستحصل عليه هى فى الحالة المماثلة .

وقبل الشروع فى تقسيم التركات تجنب مصاريف الجنازة ثم ديون المتوفى ، ثم يتم الوفاء بشروط الوصية التى تركها المتوفى بحيث لا تتجاوز الهبات بأى حال ١/٣ صافى التركة ، اما اذا لم يخلف وريثا ممن حقـه أن يهب كل شىء لأحد اصدقائه ، وينبغى ان نستنتج انه فى بلد تتشعب فيها العلاقات الأسرية لهذا الحد ، فان حالة كهذه تبدو بالغة الندرة .

وليس للأبناء الطبيعيين (غير الشرعيين) أى حق فى الميراث ، حتى ولو كان الأب قد تزوج من امهم ، اذا لم يكن هو قد اعترف ببنوتهم ، بل

انه فى هذه الحاله ــ حالة الاعتراف ــ يصبح حتى ابناء الأمة ابناء شرعيين ، ويستطيعون الارث كما بينا من قبل .

ونعتقد حتى تكتمل دراستنا عن المواريث ، ان من الواجب ان نقدم هنا من القرآن النصوص التى تتصل بالمواريث لنرى كيف عبر محمد عن كل الحالات المحتملة : « يوصيكم الله فى اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين ، فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وان كانت واحدة فلها النصف ، ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد ، فان لم يكن له ولد وورثه ابواه فلأمه الثلث فان كان له اخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها او دين ، آباؤكم وابناؤكم لاتدرون ايهم اقرب لكم نفعا فريضة من الله ان الله كان علیماً حكيماً. ولكم نصف ما ترك أزواجكم ان لم يكن لهن ولد فان كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين، ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين، وان كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منها السدس فان كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حليم»(*).

ويمكن لرب الاسرة ان يخصص ⅓ تركته لصالح من يريد ، ولا تعارض القوانين فى ذلك ، وتتأكد هذه الهبة كتابة او عن طريق شهود ، بل أن الكتابة تفترض وجود شاهدين ، واذا انكر الأبناء ان والدهم قد خصص المبلغ المطلوب كهبة ، فانهم يرغبون على القسم ، وينبغى أن نلاحظ ان الشريعة تحتم القسم على من ينكر .

وحيث انه لا يسمح مطلقا بأن يوهب ما هو اكثر من ثلث ما يمكن أن يتركه المرء ، فان ثمة وسيلة للتملص من هذا التشريع لاعطاء كل الثروة كهبة ، ولا يحدث هذا الا عندما يموت رجل دون ذرية . اذ يمكن فى هذه الحالة ان يوقف تركته على احد المساجد ، مع تخصيص حق الانتفاع للشخص او الاشخاص الذين يفضلهم ، بل حتى لذريتهم ومماليكهم ، ولا يمكن ان يوصى بشىء للعبد حيث لا اهلية له حتى يمتلك ، اذ ان تمیصه نفسه ليس ملكا له .

(*) القرآن الكريم، الآيتان (١١، ١٢) من سورة النساء. المترجم.

ويمكن القول بأن الشهادة لازمة فى كل الأمور الهامة ، واذا ما حدث على سبيل المثال ان وقع ايصال من جانب المدين وشاهدين ، ثم مات هذان الشاهدان ، فان للمدين الحق فى ان يرفض السداد ، لكن هذا لا يحدث فى الواقع الا اذا كان الدين كبيرا ، واليكم كيف يفصل فى الأمر : يستدعى المدين ودائنه الى القضاء وعليهما أن يقسما ، ولكن اذا افترضنا ان المدين قد يقسم اليمين باطلا فان الآخر (الدائن) لا يقسم ، لأن القسم دائما على من ينكر . ويفترض القانون ان الكتابة يمكن ان تزيف اكثر مما يفترض انه يمكن للمسلم ان يحنث فى قسمه .

ولا تقبل شهادة المسيحيين او اى رجل ليس دينه الاسلام أمام المحاكم الاسلامية ضد المسلمين ، لذا لا يستدعى الكفار مطلقا عند الفصل فى الأمور المدنية أو الجنائية عند الأتراك ، ومع ذلك فيمكن لقائد الشرطة ان يستعلم من كافر عن أمور تدخل فى اختصاصه ، وثمة أمر آخر يبعث على الدهشة فعندما يدعى على سبيل المثال شخص ان ثمة شخصا آخر قد طلب منه مائة خردة ، وشهد على صحة هذا الدين اثنان ، فان هذه المائة خردة تستوجب الدفع حتى ولو لم يكن قد تم الدين فى واقع الأمر ، ولكن اذا ما عاد هذان الشاهدان بعد ان غلبهما الندم ليعلنا امام القاضى أنهما قد حنثا فى قسمهما ، فان القاضى يلزمهما أنفسهما بدفع هذه المائة خردة الى الشخص الذى دفعها ظلما ، ويحتفظ المدعى النهاب بالمبلغ الذى حصل عليه ولا يلزمه القاضى بأى التزام ، ذلك بأن هـذا المبلغ غـير مستحق قد جـاء فقط من جانب الشاهدين سيئى الذمة ، ولذا يقع العقاب عليهما وحدهما ، اما اذا لم يرجع فى شهادته سوى شاهد واحد ، فانه يقوم بدفع نصف المبلغ المستلب .

ويمكن لرجل ما فى غيبة الشهود ان ينكر دينا مؤكدا ، فالشهود وحدهم هم الذين يبرهنون على صحة الدين ، ويعفيه القانون لذلك من سداد هذا الدين ، واذا ما ظهر شهود على هذا الدين ، فان المدين يلزم بالدفع ويكون الحكم فى هذه المرة بمثابة ايقاف للحكم الأول . وفى الحالة التى يطالب فيها شخص ما بدين لا ينكره المدين ؛ وانما يدعى انه قد قام بتسديده ، فان القاضى يطلب من الطرفين ان يقسما ، ولكن اذا انكر الدائن انه حصل دينه مهما كانت حقيقة ما حدث ، فان المدين يلزم بالسداد مرة اخرى ، لان القانون كما سبق ان قلنا ، يقف فى صف الشخص الذى ينكـــر اذا ما اقسم على ذلك .

— ٨ —

عن الدين ، وعن الاقتراض بالربا

تعتبر شريعة محمد أن الربا جريمة ، وقد حرم هذا المشرع الربا لأنه يطمح الى أن يعتبر كل اتباعه انفسهم اخوة وان يتعاونوا فيما بينهم ، ومع ذلك ، فحيث ان اغراء الكسب اقوى من الخوف من رقابة الدين ، فان المسلمين قد استطاعوا على نحو ما ان يتحايلوا على هذا المبدأ الذى لا يمكن ان يتبعه شعب من المضاربين والتجار : واليكم كيف أن محمدا يجعل من وسيلة التعاقد الزاما شرعيا : « يا ايها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا فان كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا اولا يستطيع أن يمل هو فيملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامراتان ممن ترضون من الشهداء ان تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح الا تكتبوها واشهدوا اذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد(*) » « وان كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة فان أمن بعضكم بعضا فليؤد التى اؤتمن أمانته(**) » . وتبعا لذلك فان المسلم الذى يقترض مبلغا من المال ، أو الذى يعقد دينا ما ، عليه أن يحرر ورقة الى مدينه فى حضور شاهدين ، ولا يستطيع أن يعفى نفسه من هذا الاجراء ، الا اذا كان الدائن يوليه ثقة كبيرة لدرجة يكتفى معها بكلمة من مدينه . ولا تكفى الكتابة وحدها بدون حضور الشهود لادانة رجل خرب الذمة ، يستطيع أن يحلف أمام القاضى بأنه غير مدين بالمبلغ المطلوب ، وهكذا فمن المهم لتفادى مثل هذا النوع من الانكار التأكد من الشهود ، ويكفى الشاهدان وحدهما فى غيبة الكتابة لتاكيد الدين على المدين ، وقد سبق أن تعرضنا لذلك من قبل .

(*) القرآن الكريم ، سورة البقرة ، الاية ٢٨٢ (المترجم)

(**) القرآن الكريم ، سورة البقرة ، الاية ٢٨٣ (المترجم)

ويلزم الشاب البالغ بدفع الدين الذى حرره على نفسه ، وتنظر الشريعة لذلك باعتباره أمرا مشروعا ، حيث انها تعتبر أن الشاب يتصرف عندئذ ، وهو على دراية تامة بالأمور .

ويسمح القانون بالارغام الجسدى لسداد الدين ، فالمدين ملزم ببيع كافة ما يمتلك ، فيما عدا الملابس التى يرتديها ، اذا أرغمه الدائن على ذلك ، وعندما يشك الدائن ان المدين قد اخفى فى بيت احد اصدقائه نقودا او اشياء ليفلت بها من الدائن ، فانه يساق الى السجن ، ويظل هناك حتى يثبت بشهادة شاهدين مشهود لهما بالنزاهة انه لا يمتلك فى الواقع شيئا ، عندئذ يأمر القاضى باطلاق سراحه حتى يستطيع ان يحصل عن طريق عمله على ما يستطيع به سداد دينه . وما أن يجنى المدين بعض المال ، وما أن يبرهن الدائن على ذلك امام القاضى ، حتى يتعرض المدين لارغام جديد ، ولكن لا يسمح للدائن مطلقا باستخدام القوة من جانبه ضد مدينه ، ولا أن يفتشه دون تخويل صريح من المحكمة .

ويخضع الفلاح المزارع لكل صرامة القانون ، فيمكن ارغامه على بيع كل شىء ، حتى ثيرانه ومحراثه ، ولكن حيث أن المشرع يطلب من الدائن قدرا اكبر من الاعتدال نحو مدينه ، فان المدين يتمكن على الدوام تقريبا من الحصول على مهلة للوفاء بالتزاماته ، أو يرتب ذلك مع الدائن بطريق ودى .

والشخص الذى يودع لديه مبلغ من المال او اى شىء آخر أيا كان ، لا يعد مسئولا اذا ما برهن امام القاضى بشهادة شاهدين ، أن الوديعة قد سلبت منه عن طريق قوة قاهرة ، وفى هذه الحالة نفسها فان قسمه وحده يكفى — اذا لم يكن ثمة شهود — لتحريره من كل التزام .

ومع ذلك فان المسلمين فى مصر يبدون الكثير من النزاهة والأمانة فى معاملاتهم ، فيصرفون شئون تجارتهم بذمة طيبة حتى عندما تكون تجارتهم هذه مع تجار من ديانة اخرى ، ويفضل الأوربيون التعامل معهم اكثر مما يفضلون التعامل مع المسيحيين ، سواء كانوا من اهل البلاد او كانوا من السوريين ، الذين هم ابعد ما يكونون عن التباهى بنفس الطيبة ، والذين يتحتم على المرء أن يتخذ أكبر قدر من الحيطة عند التعامل معهم، ولا نستطيع

ان نعطى صورة عن نزاهة المسلمين فى مصر عامة أفضل من أن تذكر على سبيل المثال امانة اناس الطبقات الدنيا ، فنقل الأموال والمجوهرات الثمينة يتم عادة عن طريق قوارب تسبح فوق النيل ، ومن النادر أن تتخذ احتياطات للتأكد من امانة البحارة ، ولم نكد نسمع مطلقا أن احدا منهم قد اساء استخدام الثقة التى وضعت فيه .

وللتحايل على الاجراءات القانونية التى تحرم الربا ، يمكننا أن نتصور ما يلى :

يقترض رجل مبلغا من النقود يريد أن يستغلها ، فيعتبر الدائن نفسه شريكا له فى المشروع ، وعندئذ يحصل على نصيب شرعى من الربح الذى يدره هذا المشروع ، ويسمح القانون احيانا أن يقدم المقترض الى الشخص الذى يقترض منه هدية سنوية أو شهرية طيلة المدة التى يحتفظ خلالها بالمبلغ ، ويمكنه أن يحصل على هديته هذه بقسم منه ، ونحن نرى أن هذا الاجراء يساوى الربا بشكل تام ، بل انه يفوقه فى أنه غير محصور داخل نفس الحدود .

والشخص الذى يستغل مبلغا من المال ، او الذى يحصل على ايجار منزل أو على دخل من ملكية ايا كانت ، يلتزم بأن يقدم كل عام للفقراء $\frac{1}{40}$ من ربح رأس المال ، وللحاكم الحق فى أن يرغمه على ذلك ، اما كل الممتلكات التى تستخدم فى الاستعمال الشخصى كالبيت الذى يقيم فيه المرء أو الأرض التى يطعم اسرته من نتاجها ... الخ فهى لا تخضع لهذا النوع من الضرائب ، اذ يمكن القول بأن هذه الضرائب ليست الا امرا يعود الى ضمير المرء ، ولا تفرض المحاكم ضرورة دفعها ، لذا فان المسلمين ذوى الحمية الدينية ، هم وحدهم تقريبا الذين يؤدونها .

قلنا ان الدائن يرتب أموره مع مدينه ، ونتيجة لذلك فنادرة هى حالات الافلاس بالتدليس فى مصر ، لكن حوادث المصادرة معروفة وشائعة ، وكثيرا ما توضع الأختام على المحلات التجارية وبيوت اولئك الذين تريد الحكومة أن تصادر ممتلكاتهم . وتوضع هذه الأختام بطريقتين : اما بواسطة مسمار يضعه موظفو القضاء فى قفل الباب ، وعندئذ لا يستطيع احد ان يخالف هذا المنع دون أن يعرض نفسه لقطع يده . واما بوضع قليل من الطين على القفل مع ترك علامة ما . وعند مرورنا فى الرميلة مع

فرقة عسكرية من فرقتنا مررنا بمحل يحتوى على كمية هـائله من القمح ومختوم بعلامة الطين ، وكان من المستحيل علينا وقتها أن نترك حامية فى المدينة حيث اننا كنا ما زلنا نحارب المماليك . وحيث ان هذا القمح قد آل الينا بينما نحن لم نصبح بعد فى وضع يجعل الآخرين يحترمون قوتنا ، فقد كان من المحتمل ان يقوم العامة بدافع من الرغبة فى السلب ، أكثر منه بفعل الحقد الذى كانوا يكنونه لنا، كأمر طبيعى فى الأيام الأولى لقدومنا ـ باقتحام هذا المحل وسلبه، ومع ذلـك فان شيئاً من ذلك لم يحـدث، فعندمـا عدنـا إلى المـدينة من جـديد أى بعـد حوالى شهـر ـ وجدنـا المخـزن سليـما لم تمسـه يـد.

— ٩ —

عن الزنا ـــ وعن الاغتصاب

يبـدو ان نبى الاسـلام كان ينظر الى الزنا باعتباره أمرا يبعث على اضطراب الاسرة، وانه ينبغى لذلك الا يفتضح أمـره لا للعامة ولا امام المحاكم . صحيح انه امر بان يرجم اى متزوج يدان بهذه الجريمة ، ولكنه ارغم الرجل الذى ينتهك عرضه ، والذى يريد اتهام زوجته بمثل هذه التهمة ، ارغمه على الصمت حين حتم عليه احضار اربعة شهود عيان ، وجلد من لا يستطيع تقديم الدليل على هذا الاتهام ٤٠٠(*) جلدة. وقد حانت الفرصة ذات مرة لكى يقوم هو بنفسه بتطبيق هذا المبدأ ، حين جاءه ذات يوم رجل فاجأ زوجته وهى ترتكب جريمة الزنا ليطلب اليه تطبيق العقاب على زوجته الآثمة ، فساله محمد ان كان له على ذلك اربعة شهود ، فاجاب الزوج الذى اهين فى شرفه بالنفى . عندئذ قال له محمد انه سيعاقبه بتهمة القذف فى حق زوجته .

ولم يرد الا ذكر امراة واحدة رجمت لانها اتهمت بالزنا ، وقد تم ذلك لانها هى نفسها التى اعترفت بجريمتها ، وعند تنفيذ حكم من هذا النوع فعلى الحاكم او الوالى الذى يمثله ان يلقى باول حجر .

وتقضى الشريعة بجلد العـزب الذى يتهم بالزنا مائة جلدة ، ويجلد العبد الذى يدان بنفس الجريمة والذى يعيش فى كنف سيـده خمسين جلدة فقط.

(*) ومن المعلوم أن يجلد ثمانين جلدة. كما ورد في سورة النور آية ٤. (المترجم).

ويدان الزوج الذى يفاجىء زوجته وهى تزنى ثم قتلها ، بالقتل ، ويلقى عقاب الموت ، فليس له فى هذه الحالة الا ان يطلقها أو ان يلجأ الى القاضى . وعندما لا يتوافر له الشهود فانه يقسم اربع مرات بانه صادق فى اتهامه ، وفى القسم الخامس يدعو على نفسه باللعنة ان كان كاذبا ، وعندما لا ترد المراة بشىء على هذا الاتهام ، فانها تدان بسبب صمتها ، وعقابها فى هذه الحال عبارة عن جلدها مائة جلدة وحبسها بقية عمرها ، اما اذا برهنت على براءتها بنفس طريقة القسم ، فان القاضى يطلق سراحها . ويكون انفصالها عن زوجها أمرا لا محيص عنه ولا رجعة فيه(١) .

وقد يحدث ان يجد رجل ما عبده فى أحضان زوجته ، ومع ذلك فلن يكون له الا حق عقابه او بيعه ، أما اذا قتله او حرمه من اعضائه التناسلية فانه سيكون قد ارتكب جريمة كبرى ، لكن مثل هذه الأفعال العنيفة ستبقى دون شك بغير عقاب ، فى بلد تسيطر فيه السعادة والعواطف الجامحة اكثر مما يسيطر القانون ، وفضلا عن ذلك فسيكون من السهل على فرد ما أن يخفى جريمة قتل يمكن ان يقترفها داخل منزله ، او يستطيع على الأقل ان يجعل هـذه الجريمة تمضى باعتبار ان المـوت قد حدث بشكل طبيعى .

ويعاقب على الاغتصاب بمائة جلدة ويلزم لاثباته أربعة شهود.

وبالرغم من ان البغاء جريمة ، فان الشريعة لم تفرض عقابا زمنيا على تلك اللاتى يمارسـنه . أما الاضطراب الذى تحدثه النسوة اللاتى يعشن هذه العيشة الدنسة ، فهو من اختصاص الشرطة . وعدد هؤلاء التعيسات فى القاهرة وكذا فى كثير من مدن مصر كبير جدا ، والمقيمات منهن بالقاهرة يدفعن ضريبة للوالى . ولم يفرض محمد على الرجال الذين يتصلون بالبغايا عقوبات زمنية ، لكنه انذرهم بعذاب النار بعد الموت .

---

(١) يقول القرآن عن الزوجة التى تتهم بالزنا : «واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن اربعة منكم فان شـهدوا فامسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت او يجعل الله لهن سبيلا » .

ويقول عن الأمة المتزوجة التى تزنى : «فاذا احصن فان اتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » .
سورة النساء

والفتاة التي تحترف البغاء ثم تصبح اما تفقد نجاة احترام العامة ، ومع ذلك فهي لا تحتقر لدرجة لا تجد معها لنفسها بعد ذلك زوجا ، والشخص الذي يتزوجها يقوم بفعل خير في نظر الله ، لانه ينتشلها من الضياع الذي ستنتهي اليه لا محالة ، لكن الرجل الحساس والذي يحرص على تقدير اصدقائه يتفادى ارتباطا كهذا ، لكن امثال هذا الرجل قليلون .

١٠

عن السرقة والقتل — وعن القصاص

تعاقب السرقة بقسوة ، وبرغم ذلك فلا يعاقب المذنب مطلقا بالموت ، الا اذا كانت السرقة قد اقترنت بالقتل ، والشخص الذي يدان بالسرقة مع استخدام العنف داخل محل تجاري او داخل بيت او داخل نطاق ما ، تقطع يده ، ولكنه اذا ارتكب هذه السرقة من شخص او من معروضات ، وباختصار اذا سرق خارج مكان مسور ، فان القانون يحكم فقط بضربه بالعصا وباعادة المسروقات . اذن فاقتحام المسكن وانتهاك حرمته هي التي تشكل خطورة في هذه الجريمة . ولا تصادر حرية المذنب في كل الحالات ، ويتركه القضاء لحال سبيله بعد تنفيذ الحكم عليه .

وليس ثمة عقوبات اخرى للخادم او العبد الذي يسرق سيده . وكذلك لا ينظر للشخص الذي يسرق مسجدا باعتباره اكبر جرما من الشخص الذي يرتكب السرقة في اي مكان آخر .

ولا تضيف العودة الى السرقة شيئا الى الجريمة . فالمجرم يلقى في جريمته الثانية نفس العقاب الذي تلقاه على جريمته الأولى ، اذا ما تمت السرقة في ظروف مشابهة . فاذا كان قد فقد يده اليمنى تقطع له اليسرى ، ويلزم وجود شاهدي عيان لاثبات السرقة ، ولا تقبل شهادة النساء مطلقا . وعندما لا يستطيع المدعي أن يحضر شهودا ، فان القاضي يلزمه بأداء اليمين فاذا رفض يدان ، اما اذا اقسم فيعفى عنه .

واذا تخلص اللص من الاشياء المسروقة ولم يستطع ان يردها ، فانه لا يودع السجن من اجل ذلك وانما يدخل ضمن طائفة المدينين المعسرين ويمنحه القانون نفس التساهل ، ويحكم على من يقوم باخفاء المسروقات باعادة الاشياء التي تسلمها الى صاحبها ، لكن الشرطة تستطيع عقابه

بطريقة أخرى . فاذا كانت هذه المسروقات قد بيعت وتعرف عليها صاحبها واثبت أنها تخصه فى الواقع ، فانه يستعيدها دون أن يكون ملزما بتعويض مشتريها .

وكانت حوادث السرقة منتشرة قبل مجىء الفرنسيين ، وكان عدد كبير منها يرتكب داخل البيوت بالرغم من بشاعة العقاب ، ولكن ما أن أصبح على رأس السلطة موظفون فرنسيون حتى أصبحت هذه الجرائم نادرة تماما .

ولا شك أن اكبر وابشع الجرائم التى على المجتمع أن يقمعها وان يعاقب عليها ، هى جرائم القتل . ويتفق محمد فى الراى حول هذه النقطة مع كل المشرعين القدامى والمحدثين وحكم على القاتل بالموت ، لكنه مع ذلك يتميز عن أسلافه ، اذ هو اكثر منهم حنكة فى ذلك الفن الصعب، فن سياسة الأمم ، ويتجلى ذلك فى تلك النصوص التى جاء بها حول هذه الجريمة ، ليخفف من وقعها وليغير من اثرها ، فقد اباح لأهلّ القتيل ان يكتفوا بتعويض مالى وذلك عندما ترك لهم الخيار بين هذا الاجراء ، وبين انزال القصاص بالمذنب فنحن من جهة نقرأ فى الجزء الأول (*) من القرآن : « يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالانثى فمن عفى له من اخيه شىء فاتباع بالمعروف واداء اليه باحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب اليم » . ومن جهة اخرى نقرأ فى الجزئين الثالث والرابع(**) : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلّا خطأً ومن قتل مؤمنا خطأً فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلّمة إلى أهله إلّا أن يصّدقوا، فإن كان من قوم عدُوٍّ لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين» وفى الجزء الخامس (***) : «من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا».

وتبعا لهذه النصوص المختلفة فاننا نرى أن محمدا مع اعترافه بضخامة الجريمة ، ومع تشريعه بعقابها ، يميل نحو التخفيف ويحبذ التسامح . ومع ذلك فان مشاعر اللياقة هذه من جانب المشرع ، ليست بذات سطوة كبيرة

(*) صحتها فى الجزء الثانى ، الآية ١٧٨ البقرة .

(**) صحتها فى الجزء الخامس ، الاية ٩٢ النساء .

(***) صحتها فى الجزء السادس ، الاية ٣٢ المائدة .

على عقل وروح الشرقيين ، فهذه الشعوب تفضل الانتقام أكثر مما تحبذ هذا التعويض البسيط(١) فليس المال هو الذى يرضيهم وانما ترضيهم راس القاتل ، لذلك فحوادث القتــل نادرة فى بلادهم . وينظر اليه رجال الدين باعتباره تعديا على الله وعلى أهل البيت وعلى الحكومة . ولكن اذا قبـــا الورثة بقبول مبلغ على سبيل التعويض ، فان الله بدوره سيعفو لأنه غفور رحيم ، وستعفو الحكومة أيضا لانها لا يمكن ان تكون اكثر تشددا من الطرف الذي يهمه الأمر . من هنا يأتى قانون حق الدم (الدية) وهو نوع من الاتاوة يفرض على القاتل فى مقابل راسه ، وينظر اليه كإرث حقيقى ، وينتج من ذلك أن كل من لهم الحق فى ارث القتيل يمكن لهم أن يوقفوا تنفيذ القصاص فى قاتله ، واذا كانت زوجة القتيل حاملا فانهم ينتظرون الى اليوم الذى يستطيع فيه الوليد ان يعقل ليفصل فى مصير القاتل .

ويكفى أن يطالب احد الورثة ، مهما كان نصيبه فى الارث ضئيلا بحق الدم ، لكى لا ينفذ حكم القصاص حتى ولو كان الآخرون قد اجمعوا على عقابه . واذا كان احد الورثة غائبا فان القاضى يؤجل تنفيذ القصـــاص ، واذا كان القاتل معروفا ومن السهل العثور عليه ، يطلق سراحه ، أما اذا كان يخشى من هروبه فانه يسجن أو على الأقل يفرض عليه أن يقــدم كفيلا، ويتحاشى القانون على الدوام وبقدر الامكان اصدار حكم بالمـوت ، ولكن اذا لم يرد أهل القتيل قبول أى تعويض ، فان القاضى يصدر فى النهاية ذلك الحكم على القاتل ويسلمه للاسرة ويسأل ما ان كان احد من أفرادها يريـد

---

(١) الانتقام هو العاطفة المسيطرة على المصريين . وبينما كنا فى قرية شنديا (مركز ايتاى البارود) كان بعضنا يتنزه ذات يوم مع القائد فى حديقة منزله ، عندما جاء شاب يبلغ من العمر ١٤ أو ١٥ سنة ليرتمى تحت قدمى القائد راجيا مستعطفا ويداه مضمومتان الى صدره وهو يصيح فيه : الانتقام! فانهضه القائد وسأله عن سبب صراخه فقال : كان والدى شيخا لشئت الأنعام فذبحه شيخ البلد الحالي منذ أربع سنوات ليتولى منصـــبه ، وانى أطلب منك الانتقام لذلك « فأجاب القائد وقد أخذه ثبات الشاب وحزمه : « هل لديك شهود ؟ » فصاح الشاب : « أما شهودى فهؤلاء هم ! » وفى اللحظة أخرج من صدره قميصا مصبوغا بالدم بعث منظره بالفزع الى قلوبنا: « هذا قميص أبى وقد اخترقته الطلقات التى تلقاها وهو مغطى بدمائه ، اننى أحمله فوق قلبى وسيظل فى مكانه هذا حتى انتقم له » .

وتوصلنا الى تهدئة هذا الابن البائس واعدين اياه باننا سندرس الأمر وتركنا وهو نصف راض لأنه كان يظن قبل مجيئه أنه يرى بعينه يوم الانتقام.

تنفيذ الحكم بنفسه . فاذا لم يتقدم احد ، واذا لم ترشح الأسرة جلادا من عندها ، يكلف الوالى الاغا بتطبيق العقوبة .

وتستطيع الأسرة أن تتقدم بعفوها فى أى وقت حتى وقت التنفيذ ، وحيث ان الحكم لم يصدر الا برجائها هي فهي حرة فى ان تعفو عن القاتل فى الوقت الذى يتراءى لها . ويبرهن كل هذا بوضوح على ان القانون لا ينظر الى القتل باعتباره جريمة اجتماعية بقدر ما ينظر اليه باعتباره جريمة فى حق الأسرة ، حيث أن القاتل لا يطارد الا بطلب من اهل القتيل . بل ان الأغا نفسه — وهو يمارس واجباته — لا يستطيع ان يأمر بموت رجل مهما كانت جريمته دون موافقة الحاكم ، وينبغى لكى يسمح لنفسه بالتصرف على نحو مخالف ان يكون المذنب متشردا وليس له اهل ولا نفوذ . وهكذا لم تكن اختصاصات الشرطة فى الأزمان الأخيرة تصل لحد الاعدام ، الا اذا كان الأمر يمس رجالا مجهولين لا اهمية لهم .

ولا يصدر القاضى مطلقا حكما بالاعدام على قاتل الا اذا قدمت البراهين التامة على الواقعة ، والا اذا عرفت الظروف كلها وسمعت شهادة الشهود ، ويلزم وجود شاهدين على الأقل يشهدان بأنهما رأيا ارتكاب الجريمة ، ولا تقبل شهادة واحد بمفرده مهما كان مركزه او نفوذه ، ولا يمكن للنساء أن يشهدن فى قضايا الاجرام ولا يلقى بال لشهادتهن الا فى الأمور المدنية .

وتعتبر شهادة اثنين من دين مخالف ضد مسلم صالحة ومقبولة . وفى الحالة التى لا تكفى فيها الأدلة لادانة المتهم ، فانه يستطيع بتقديم مبلغ من المال لعائلة القتيل ان يمحو عن نفسه هذه الوصمة التى يلطخه بها عادة مثل هذا الاتهام الخطير .

ويعاقب قتل المرأة بنفس الطريقة التى يعاقب بها على قتل الرجل ، ولا يضع المذهب الحنفى اية تفرقة كذلك بالنسبة لقتل العبد .

واذا ما قتل غريب ولم يطلب احد ثمنا لدمه فان وارثه — اى الحاكم — يرفع القضية الجنائية عن طريق ممثليه ، وكما يلاحق السيد الذى يقتل عبده كذلك باسم الحاكم ، الحافظ لحقوق المجتمع حسب راى المذهب الحنفى اما المذاهب الأخرى فترى ان السيد قد عوقب بما فيه الكفاية بفقده عبده .

وموت الفلاح المدين تحت ضربات عصا المالك ، يعرض الأخير لنتائج

العمل الاجرامى ، ولكن النفوذ وسطوة الثروة الكبيرة او سطوة اصدقاء لهم نفوذ ، تجعله فى معظم الاحوال فوق القانون .

واذا كانت الشريعة لم تقرر الا عقابا بسيطا للمسلم الذى يقتل كافرا، فان الحكومة ــ وهى يعنيها ان تحمى كل الناس بما فيهم الأجانب شأنهم فى ذلك شأن رعاياها انفسهم ــ تحكم بالاعدام على قاتل المسيحى أو اليهودى. وفى عام ١٧٧٠ أو ١٧٧٢ اغتيل احد الفرنسيين بيد قواس أحد الكشاف فامر اغا الانكشارية بقطع راس القواس ونفى الكاشف .

واعدام القاتل لا يحقر من شأن أولاده ، فالجريمة عند المصريين وعند كل المسلمين شخصية ، بينما تبدو مصادرة الثروات باعتبارها شيئا بشعا وظالما لورثته ، لكن هذا الاجراء كان يحدث فى بعض الأحيان أثناء حــــكم البكوات ، لكن ذلك كان احدى السوءات التى أدخلوها مع ما ادخلوه من سوءات .

وتحكم الشريعة بالقصاص على الشخص الذى يجرح قرينه « النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص »(١).

والشخص الذى يدان بارتكاب هذا الفعل العنيف ، يستطيع أن يغتفر فعلته بأن يدفع الى المجروح نصف المبلغ الذى كان سيضطر لدفعــــه لو أنه قتـــله .

ولا يمكن ان يحكم بالموت على القاتل الخطأ ، ولكنه يدين لأسرة القتيـــل بثمن حق الدم ، باعتباره قد حرمها من أحد افرادها .

وحسبما يرى العلماء فان الشريعة فوق الحاكم لذا فانه لا حق لأحد فى ان يحكم على انسان مثله بالقتل ، الا اذا كان القاضى هو الذي أصدر هذا الحكم . وفى عهد السلاطين الأول ، كان لاهالى الشخص الذى أمر رئيس الشرطة بقتله ، الحق فى استدعاء هذا الضابط امام القاضى ليطلبوا القصاص منه ، بل ان السلطان نفسه لا يستطيعان يحكم بالموت كما يتراءى له على مذنب فاجاه هو بنفسه وهو يرتكب جريمته . فقد راى الغـــورى

---

(١) القرآن الكريم ، الآية ٤٥ ، المائدة. المترجم.

سلطان مصر بعينيه واحدا يرتكب جريمة زنا ، فجمع القاضى والمذنبين وامر الأول بأن يقتل الأخيرين فأجابه القاضى « اعرف انك شاهدت هؤلاء الذين تتهمهم ، وكان فى يدك السيف لكى تضرب اعناقهم ، لكننى ليس لى الحق فى ان أدينهم بلا أدلة ، احضر لى اذن شهودا حقيقيين افحص لك القضـــية » ويقدم لنا التاريخ مثالا آخر اكثر دلالة على سطوة الشريعة على كبار الأمراء فى ازمنة الاسلام الأولى ، فقد استدعى الخليفة هارون الرشيد فى قضية وعندما حضر الى المحكمة استقبله القاضى جالسا ، وفحص القضية وانهاها بشكل ودى ثم نهض القاضى ــ الذى لم ينهض عند حضور الأمير اذ كان من المحتمل أن يكون مذنبا ــ بعد الحكم ، وصحبه الى حصانه وســاعده على الركوب .

ومع ذلك فتحت الادعاء بأن الصالح العام يحتم على الدوام اتخاذ اجراءات عاجلة ، فقد كان الوالى او رئيس الشرطة الليلية يقطع راس الشــخص الذى يجــده متلبسا بارتكاب جريمـــة ، دون بحث او تحريات قضائية ، ولم يحدث مطلقا منذ أن أستقر الأتراك بمصر أن تجاسرت اسرة رجل مات بهذه الطريقة ان تتقدم بشكوى الى القاضى ، مسيف الوالى صريح وخارج القانون كما يقول العامة ، ولكن سلطة رؤساء السلطة كما سبق أن نوهنا قد اصبحت فى الآونة الاخيرة اقل استبدادا ، فلم يعد الشرطة يقتلون أى شخص الا اذا حصلوا مقدما على تفويض بذلك من شيخ البلد .

وليس ثمة مأوى له حرمته لقاتل ، فهو يلاحق فى كل مكان حتى فى المساجد وحجرات الحريم ، ومع ذلك فان الرجل الكريم الذى يخفيه من غضب الأسرة المكلومة يمتدح بأنه قد قام بفعل خير ســوف تكافئه عليــه السماء ذات يوم ، خاصة اذا لم يكن قد آوى القـــاتل الا لكى يلتمس من ملاحقيه توضيح العقاب الذى يطلبونه ، اما اذا اصر اهل القتيل على طلب راس القاتل فان حاميه يضطر لتسليمه طواعية ، والا يرغم على ذلك بقوة الســلطة .

وحوادث القتل نادرة للغاية فى المدن الكبرى وبخاصة فى القاهرة ، وربما لا يعود الأمر الى قوة القانون بقدر ما يعود الى الطابع الخجــول للسكان ، والى يقظة الشرطة المتحفزة على الدوام والتى تنقض كالصاعقة، ولكن فى الأقاليم حيث لا توجد شرطة عمومية ، وحيث ترين البلادة والخمول

والجهل على الفلاحين وقبائل العربان التى تعمر الريف ، فان حوادث القتل اكثر انتشـــارا .

وقد دخلت فى عهد محمد بك عادة همجية سببت عددا لا يحصى من الجرائم ، ففى موسم البرسيم كان سياس (جمع سايس) المماليك يذهبون الى حقول البرسيم لرعاية الماشية وجمع الكلا ، وقد تسببت هذه الانتهابات فى كثير من حوادث القتل ، وكثرت الشكوى من ذلك لدرجة أن الحكومة تساهلت فى الأمر حتى توفر على نفسها مشقة قمع هذه الأمور الجامحة ، وحتى لا يعود الأمر يسبب لها من الضـــيق ما هى فى غنى عنه ، خولت الفلاحين على نحو ما قتل السياس النهابين ؛ كما خولت هؤلاء كذلك حق الدفاع عن حياتهم . شريطة الا يستخدم اى طرف من الاثنين الأســـلحة النارية ، ولم يكن القاتل من اى من الطرفين يلقى اى نوع من العقاب .

الفصل السادس

عن التجارة والصناعة والزراعة

١

تجارة مصر منذ العصور القديمة وحتى اليوم

كانت مصر على الدوام مركزا لتجارة هامة، وهى تدين بذلك لموقعها الجغرافى بقدر ما تدين به كذلك لكثرة وتنوع منتجاتها الزراعية ، فهى تقع على بحرين ، ويمكن القول بأنها تشغل نقطة التقاء بين ثلاث قارات كبرى من العالم القديم ، وعلى هذا فقد كانت سوقا كبيرا لمختلف الأمم ، حيث سهلت لها سبل الاتصال الملاحة فى نهر النيل وفى ترعه وفروعه التى لا يحصيها عد . لذلك يخبرنا الكتاب المقدس بنبأ أولئك التجار الاسماعيليين الذين جذبتهم التجارة الى مصر ، فساروا اليها ومعهم اشهر أبناء يعقوب الذى اشتروه . ويبرهن هذا النص الهام ــ بالاضافة الى الحكاية التى تليه ــ وبطريقة لا تقبل الجدل، على ان بلاد الفراعنة كانت منذ الأزمنة البعيدة مزدهرة ازدهارا كبيرا بفضل التجارة والصناعة . ومع ذلك فان الخرافات والروحانيات قد وضعت لذلك حدودا ، اذ اتخذت شعوب مصر ــ حسبما يقول هيرودوت ومؤرخون آخرون جديرون بالثقة ــ من البحر عدوا ، ونظروا للاسفار التى تتم عن طريقه باعتبارها أعمالا تدنس مقدساتهم . هل من الممكن تفسير هذه الفكرة العجيبة بنفور المصريين الطبيعى من بقية الأمم او بالرجوع الى البحث فى انساب آلهتهم ؟ لكن بحثا من هذا النوع سوف ينأى بنا كثيرا عن موضوعنا ، ويكفى هنا أن نقول بأن مصر اذا كانت قد ظلت برغم هذا التحريم ــ تحتفظ بأهميتها فى مجال التجارة ، فان هذه التجارة تدين برواجها لخصوبة أرض مصر ، ولاحتياجات الشعوب المجاورة التى كانت تجد فى مصر ، ليس فقط كل ما تحتاج اليه من مواد غذائية ، بل كانت تجد كذلك مختلف المنتجات التى تساهم فى اضفاء طابع الفخامة على مدنها الكبرى .

ولعل اول تجارة شهيرة يذكرها التاريخ هى تجارة الفينيقيين مع المصريين ، وتجارة المصريين مع الأحباش والجزيرة العربية فى موانى البحر الأحمر . وكان الفرس والهنود يجلبون الى الجزيرة العربية أقطانهم وعطورهم واحجارهم الكريمة وبضائع اخرى ، وكانوا يحملون معهم عند

عودتهم المنتجات الصناعية الفينيقية المصرية . وفضلا عن ذلك كانت توجد فى هــذه الفترة وسائل للتبادل التجارى ، لم تنتقل تقاليدها الينـــا على الاطلاق . اما بخصوص اليونانيين ، فعــلى الرغم من أنهم يدينون بأصلهم جزئيا الى المستعمرات المصرية، الا انهم لم يبدأوا الا جد متأخرين فىممارسة علاقاتهم التجارية مع مصر . وقد سمح لهم فى عصر امازيس بأن يتخذوا من نكراتيس(*) مستودعا لتجارتهم ، وهو امتياز لم يكونوا قد حظوا به حتى ذلك الوقت . وقبل هذه الفترة ، كانت المستعمرات اليونانية فى آسيا تستطيع الاتصال بمصر ، وبخاصة منذ الدعم الذى قدمه الايونيون والكاريون Cariens لأبسماتيك على منافسيه ، لكن العلاقات بين مصر واليونان لم تصبح طليقة من القيود الا فى عهد امازيس .

ومن بين كل الشعوب كان ابناء قرطاجة ــ بعــد الفينيقيين ــ هم الشعب الذى اثرى ثراء كبيرا عن طريق التجــارة ، بل ويتفــق مؤرخو الأزمنة القديمة على وضعهم فى الصف الأول . وكانت الأساطيل التجارية لهذه الجمهورية القوية تجوب كل انحاء البحر المتوسط وموانى اسـبانيا والشواطىء الغربية من افريقيا .

ويقول العلامة Huet فى زمن فتوحات الاسكندر : كانت سفن القرطاجيين والفينيقيين التى كانت فى ذلك الوقت تحت سيطرة الفرس ــ تغطى البحار من الهند والحبشة حتى المحيط الغربى » لكن تخريب مدينــة Tyr (حاليا : صور) وانتصارات البطل المقــدونى وتأسيس مدينـــة الاسكندرية قد احدث ثورة كبيرة فى مسار التجارة البحرية ، فقد اصبحت هذه المدينة الجديدة المقر الرئيسى لتجارة الهند فى عصر (فيلادلفوس بطليموس الثانى) ، وصارت فى ذلك الوقت من اغنى دول العالم ، فكانت هى التى تمون كل موانى البحر الأبيض ، اذ كانت اليونان وايطاليا وآسيا وافريقيا تأتى الى أسواق الاسكندرية للحصول على تموينها . وقد بنى بطليموس الثانى مدينة بيرنيس على البحر الأحمر ، وقد سهل ذلك نقل البضــائع التى كانت تصل الى مصر من الهند ، فكانت تفرغ فى بيرنيس ومن هنـــاك تنقلها القوافل الى قفط Coptos على النيل ، ومن هناك تنزل الى النهــر

(*) حاليا : كوم جعيف (المترجم) .

حتى المكان الذى تبدأ منه ترعة الاسكندرية . وقد اهتم هذا الحاكم كذلك بانشاء محطات مريحة فى الصحراء للقوافل مما جعل هذا السفر الطويل اقل مشقة مما يبدو لأعيننا الآن ، ولم يهجر طريق بيرنيس الا فى أواخر عهد البطالمة .

وكانت كورنثة — فى اليونان — مزدهرة فى الوقت الذى كانت الاسكندرية فيه فى قمة مجدها تحت حكم البطالمة ، وقد استطاع اهالى كورنثة الذين اثروا من عملياتهم التجارية ، أن يجعلوا من مدينتهم السوق الرئيسية فى الغرب ، لكن الوقت لم يطل بها حتى عانت من الآثار البغيضة لغيرة روما ، فسلب منها القنصل موميوس Mummius (*) مجدها التجارى بنفس الطريقة التى تدهورت بها مدينة صور فى الماضى بفعل انشاء الاسكندرية ، ففى هذه الفترة اصبحت جزيرة ديلوس Délos (**) — التى كانت لا تعرف حتى ذلك الوقت الا بمعبدها وآلهتها — المركز الرئيسى لتجارة البحر الأبيض .

وفى العام ٧٢٥ من تأسيس روما تضاءلت مصر لتصبح مجرد اقليم رومانى ، ومنذ ذلك الوقت استغل الرومان — وكانوا قد أصبحوا سادة مطلقين للبحار — تجارة الهند لحسابهم ، ومع ذلك فلم تكن أساطيلهم تبحر الى ما وراء الهند حسب شهادة مؤرخى ذلك العصر ، وكان اليهود والرومان كما يذكر بلين Pline يرحلون من الاسكندرية فى منتصف الصيف ، أى فى الأيام الأولى لفيضان النيل بلا شك ، وكانوا يصلون الى برينيس بعد ٢٤ يوما ، ويستغرقون ٧٠ يوما ليصلوا الى الهند ، ولم يكن يلزمهم اقل من عام فى رحلة الذهاب والعودة ، واستمرت هذه الحال حتى الغزو العربى أى منذ اغسطس حتى قسطنطين ، ذلك لأن انشاء القسطنطينية على يد هذا الحاكم قد اضر كثيرا بازدهار تجارة مصر ، وفيما بعد ، عندما عمل الخليفة عمر على انشاء البصرة على نهر الفرات ، اصبحت تجارة الهند وقفا على هذه المدينة الجديدة ، ويمكن القول بأن التجارة قد اصبحت

(*) قنصل الرومان عام ١٠٦ قبل الميلاد ، وقد استولى على كورنثه واخضع اليونان . (المترجم) .

(**) من حزر الأرخبيل . (المترجم) .

محصورة بحدود الخليج الفارسى ، لكن مصر لم تكن قد فقدت بعد ازدهارها القديم . اذ كانت القاهرة التى بناها بعد ذلك الخليفة الفاطمى المعز لدين الله عام ٩٨٤ قد اصبحت مدينة هامة ، وفى القرن الثانى عشر استردت الاسكندرية جزءا من امتيازها واصبحت تنهال عليها بضائع الهند من كل جانب ، لكن اكتشاف البرتغاليين لطريق يؤدى الى الهند عن طريق المحيط الأطلسى ورأس الرجاء الصالح ، كان هو القشة الأخيرة التى قصمت ظهر مصر ، ويمكن القول بأن ذلك قد قلص مكانتها التجارية لدرجة لم تعد تنشغل معها الا بتجارتها المحلية . وقد تأثر بذلك وبنفس القدر اهالى البندقية وجنوة الذين كانوا قد اثروا لفترة طويلة عن طريق تجارتهم مع القسطنطينية والبحر الأسود وآسيا الصغرى ، ثم اضيروا بسبب النتائج التى ادت اليها فى آسيا الاكتشافات البحرية البرتغالية . فقد كان تجار البندقية وحدهم على وجه التقريب هم الذين يستحوذون على كل تجارة مصر فقد كانوا يأتون الى الاسكندرية للحصول على كل المواد الغذائية اللازمة لأوروبا ، ويحملون الى مصر اخشاب البناء والمعادن والاصواف والسلاح والزجاج .. الخ . وفى القرن الرابع عشر ، عندما استطاع اهالى فلورنسا الارتفاع بمستوى صناعة الحرير والزجاج لحد كبير ، فانهم توسعوا فى علاقاتهم ومبادلاتهم ، فكانوا يأتون الى الاسكندرية ويقتسمون التجارة مع اهالى البندقية ، وقد كان هؤلاء من قبل لا يلقون أية منافسة ، وانشا اهالى فلورنسا البنوك ، واحتلوا مركزا بارزا بين الأمم التجارية فى ذلك العصر .

هذه هى كل عصور التجارة المصرية منذ العصور الضاربة فى القدم حتى العصور القريبة من عصرنا . فلنر الآن ماذا اصبحت عليه التجارة تحت الادارة المخزية للمماليك ، وتحت تأثير العثمانيين وهو لا يقل عن تأثير المماليك دمارا .

مما لا جدال فيه انه لو كانت حالة التجارة لبلد ما تعتمد على الحكومة التى تحكمه ، لكانت مصر قد أوقفت منذ زمان طويل كل أنواع التبادل مع الشعوب المجاورة . ومع ذلك فقد كان ثمة تجارة شأنها شأن كل فروع الأعمال التى يحترفها شعب من الشعوب ، لقد كان هذا الضرب من ضروب النشاط يسير نفسه بنفسه ، لأن كل انسان يشعر بحاجته اليه . ان من الممكن اعاقتها ولكن يستحيل القضاء كلية على اثرها النافع . وهذا هو ما

حدث تحت استبداد المماليك ، فكانت المبادلات التجارية تتم على الدوام ، وبالرغم من أن عدد البيوتات الأوربية التى اسـتقرت فى القـــاهرة أو الاسكندرية قد اصبح ضئيلا ، الا أنه كان ما يزال كافيا للقيام بنشـــاط كبير فى مجال المعاملات التجارية بين مصر واوربا . وبخلاف هذه التجارة كان ثمة تجارة أخرى ــ لا تقل اهمية ــ بين مصر والقسطنطينية ، تلك هى تجارة الرقيق الأبيض من كلا الجنسين والذين يبدلون بعبيد سود قادمين من أعماق افريقيا . وكانت القوافل تجلب الى مصر من سوريا وفلســطين المواد الغذائية والبضائع المختلفة ، لتحمل معها بضائع أخرى عند عودتها.

ولكن أهم فرع من فروع التجارة المصرية كان هو استيراد وتصدير البن القادم من الجزيرة العربية ، فكانت السفن تقوم برحلة ســنوية من السويس ، لتتجه الى جدة ، لتحمل من هناك البن الذى كان عرب اليمن قد جلبوه اليها ، كما كانت تحمل الأقمشة والتوابل والبخور القادمة من الهند اما عن طريق الانجليز من البنغال وسورات ومدراس واما بواسطة الهنود انفسهم ، وكانت السفن المصرية تبحر من السويس فى الفصل الذى تهب فيه رياح الشمال ، وكان يلزمها ١٧ ــ ٢٠ يوما للوصول الى جدة . ولم تكن ترفع شراعها الا اثناء النهار ، وكانت تلقى مراسيها فى الليل ، وكانت تحرص على التزام الشاطىء ، ونادرا ما كانت تتوغل فى عرض البحر . وكانت رحلة العودة تستغرق شهرين .

وكانت القوافل القادمة من دارفور وسنار ، وكذلك القادمة من بلاد النوبة ، تجلب الى مصر بخلاف العبيد السود من كلا الجنسين ، اصـنافا عديدة من المواد الثمينة مثل تراب الذهب والعاج والمسك والأبنوس والعنبر وريش النعام والصمغ من مختلف الأنواع . ويفترض مايبه Maillet أن مصر تحصل من فرنسا وايطاليا فى العام الواحد على ٤٠٠ ــ ٥٠٠ الف قرش ، وانها تحصل من أعماق افريقيا على ١٠٠٠ ــ ١٢٠٠ قنطار من تراب الذهب ، وعلى اكثر من مليون ريال فرنسى (écus) من القســطنطينية وآسيا ، ثمنا لاقمشتها وبنها وارزها ومختلف الانواع من البقول .

وتشتمل تجارة التصدير المصرية اساسا على الارز والبن وجلود الماعز والأقمشة والقطن والسكر والقمح والعقاقير الطبية والخضروات الجافة . وكانت الحنة ، وهى نبات يستخدم فى صبغ الأظافر والأقدام والأيدى باللون

الأحمر البرتقالى ، مرغوبة بكثرة فى كل البلاد ، لانه كان من عادة المسلمات بصفة عامة استخدامها .

وكان جزء من مالية مصر يذهب الى تركيا لتسديد الجزية التى يدفعها الباشا للسلطان ، مع ما يرسل من هدايا كان يقدمها للوزراء والمقربين من السلطان ، حتى يثبت فى مكانه ، وكان جزء كبير من مال مصر كذلك يختفى عن طريق ابنائها الذين يخشون على الدوام من السلب ، وقد انتهت هذه العادة المحزنة ـــ وهى شائعة عن كل الشرقيين ـــ بتسرب كثير من الأموال الى خارج مصر ، وبهذه الطريقة ضاعت على مصر مبالغ طائلة ، والى الابد.

وكان ميزان العلاقات التجارية بين مصر واوربا لصالح مصر بشكل كبير ، اذ لم تكن مصر تدفع اموالا على الاطلاق ، وكان المقابل يتم دائما فى صورة بضائع ، بينما كانت اوربامضطرة فى معظم الاحيان الى دفع الأموال . وكانت فرنسا ترسل الأصواف وصبغة النيلة والأسلحة ومختلف المواد اللازمة لصناعة الحداید والنحاس ، أما البندقية فكانت تصدر لمصر العملات الذهبية الايطالية (سكين Séquins) والخرز والمرايا ، اما إلمانيا فكانت ترسل البورسلين والاوانى الزجاجية والمواد اللازمة لصناعة الحداید والنحاس .

وكانت مصر ترسل فى مقابل ذلك السنامكى والصمغ ، وكثيرا من المنسوجات القطنية الخشنة ، وغزل القطن والسكر الخام والبن الى مرسيليا . وكانت ترسل الى البندقية كميات كبيرة من البن والعقاقير الطبية، وكانت ترسل الى ألمانيا العاج والأبنوس والصمغ .

وكان من المفيد فى السنوات الأخيرة ارسال النقود الى مصر ، لان قيمتها الاسمية كانت فى ارتفاع ، ويرجع السبب فى ذلك الى ندرة النقود، والى ان قيمة العملات الوطنية كانت فى تدهور مستمر . اما البضائع الضرورية كالأصواف ونحوها ، فكان يفضل الحصول فى مقابلها ، على بضائع ، حيث كان سعر هذه الاصواف قد ارتفع .

اما تجارة الهند وجدة ، فكانت على العكس من ذلك مكلفة لمصر ، لانها لم تكن تصدر فى مقابلها الى هناك الا أصوافا رديئة ، ولأن تجارة البن

كانت تقتضى منها ان تدفع $\frac{٤}{٥}$ ثمنه نقدا . اما تجارة قوافل افريقيا فلم تكن تتطلب قطعة واحدة من النقد ، وكانت هذه القوافل تجلب كما سبق القول العبيد والصمغ وسن الفيل وريش النعام وتراب الذهب ، وتحصل فى مقابل ذلك على الأصواف الفاخرة والمجوهرات والأسلحة النارية المصنوعة فى أوربا .

ولكى نعطى للقارىء فكرة موضوعية عن تجارة مصر ، نضع تحت يده جداول مختلفة نوضح فيها بالتفصيل كل مواد الاستيراد والتصدير التى تغذى هذه التجارة ، وتعود هذه الارقام الى عام ١٧٧٥ .

تفاصيل البضائع المستوردة

من لندن . مارسيليا . ليفورنيو . البندقية . تريستا . القسطنطينية وازمير ومدن تركية اخرى . الى القاهرة للاستهلاك السنوى بمصر عام ١٧٧٥

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	نوع النقود	السعر	ديوانى	الوزن والمقياس
جوخ انجليزى سوبرفاين (فاخر)	طرد	٥٠	قطعة ذهبية	٢ — ٢ ١/٤	٩٠	ذراع مقاس القسطنطينية
« فرنسى « «	«	٥٠	«	١ — ١ ١/٤	٩٠	«
« هولندى « « «	«	٢٠	«	٢ — ٢ ١/٢	٩٠	«
« فرنسى خشن وعريض	«	٢٥٠	ديوانى	٧٥ — ٩٠	٩٠	«
« انجليزى « «	«	٢٥٠	«	٦٠ — ٧٥	٩٠	«
« فرنسى عريض	«	١٥٠	«	٥٥ — ٧٠	٩٠	«
« منقوش للأرائك والمخدات	«	١٠	«	٦٠ — ٩٠	٩٠	«
أقمشة صوف انجليزى	«	٣٠٠	«	٣٢ — ٣٥	٨٥	«
فلفل	«	٣٠٠	—	٣ — ٣٥	٦٠	قنطار ١٠٠ رطل
زهرة القرنفل	«	١٠	ديوانى	١٦٠ — ١٨٠	٩٠	رطل ١٤٤ درهم
الصبغة المغربية	بالة	١٠	«	٤٦٠٠ — ٤٧٠٠	٩٠	قنطار ١١٠ رطل
ورق بثلاث هلالات وارد فرنسا أو جنيف	«	٠٠٠ر١	—	١٧ — ١٣	٦٠	بالة ٢٤ رزمة
صوف فاخر من انجلترا يسمى باشماوت	«	٥٠	قطعة ذهبية	٢ — ٢ ٣/٤	٩٠	وزنة القسطنطينية
« من لندن موديل فرنساوى	«	١٥٠	ديوانى	٧٢ — ٩٠	٨٥	«
« ألمانى	«	٦٠	قطعة ذهب	٢٠ — ٣	٩٠	«
ورد الشمس ومشروبات روحية أخرى وارد ألمانيا والبندقية	«	٠٠٠ر١	ديوانى	٤٣ — ٤٨	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
نحاس مستعمل	«	٠٠ر١	«	٢٥ — ٢٨	٩٠	«
ورق تبغ وارد سالونيكا وقولة	«	٠٠٠ر٥	فندقلى	٦ — ١٢	١٤٦	أقة
أقمشة قطنية وارد بورصة	«	٢٠٠	ديوانى	٢٤٠ — ٣٦٠	٨٥	القطعة
مناديل من الموسلين	«	١٠	«	٦٠ — ١٠٠	٩٠	الواحدة
سجاجيد متنوعة من القطيفة وسجاجيد سادة	«	٥٠	قرش	١٧ — ٥٠	٤٠	«
قطيفة منقاة مطعمة بالذهب أو الفضة أو سادة	«	٠٠٠ر١	بوطاقة	٣ — ١٢	٩٠	الزوج
أقمشة قطنية وحريرية من دمشق وحلب	«	١٠٠	ديوانى	٤٥٠ — ٥٠٠	٩٠	القطعة
صابون سورى درجة ١	«	٠٠٠ر١	«	٣٠ — ٣٢	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
« ثانى من كريت	«	٠٠٠ر٢	بوطاقة	١٠ — ١٢	٩٠	قنطار ١٢٠ أقة
تبغ سورى	«	٠٠٠ر٤	فندقلى	١٥ — ١٦	١٤٦	قنطار ٤٠ أقة
تين مجفف من سعانخيو وردوس	«	٠٠٠ر١	ديوانى	٥ — ٧	٩٠	أقة دراهم

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	نوع النقود	السعر	ديوانى	الوزن والمقياس
حرير خام من بورصة	بالة	١٠٠	بوطاقة الماليه	٥ — ٦	٩٠	أقة دراهم
« « « زاجورة	«	٢٠	«	٥ — ٦	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
« ابيض وأصفر من قبرص	«	٥٠٠	«	٥ — ١٤	٩٠	أقة ٤٠٤ درهم
« « « « « بيروت	«	٥٠٠	«	٤ — ٤½	٩٠	رطل ٥ر٢٢٩ درهم
« « « « « طرابلس	«	٥٠٠	«	—	—	—
قطن من عكا أو من قبرص وسالونيكا	«	٦٠٠	قرشا	٤٥ — ٦٠	٣٠	قنطار ١٠٠ رطل
تبغ ورق من هنغاريا	«	٣٠٠	فندقلى	١٠ — ١٢	١٤٦	أقة ٤٠٠ درهم
ورق رفيع بثلاث ملالات	«	١٠٠٠	مدينى	٩٠ — ١٠٠	٩٠	الرزمة
ورق خشن	«	٥٠٠	«	٦٠ — ٧٥	—	«
« أصناف أخرى	«	٢٠٠	«	٥٠ — ٦٥	—	«
« من ألمانيا	«	١٠٠	«	٨٠ — ١٠٠	٩٠	«
حديد من ألمانيا	الطرد	٥٠٠	—	١٠ — ١٢	٧٣	قنطار ٥ر٢٣٣ رطل
زفت من ستانجيو ورودس	صندوق	٢٠٠٠	—	—	—	—
زنج[illegible]ا	الطن	١٠	ديوانى	١٢٠٠ — ١٢٥٠	٩٠	قنطار ١٥٠ رطل
حبوب المسابح والمد — عادى	«	٢٠٠	—	١٠ — ١٢	٦٠	« ١٢٠ «
« « «	«	١٠٠	قطعة ذهبية	١٠ — ١٢	٦٠	« بالأرطال
« « « وارد هولندا وألمانيا	«	١٠	«	١٨ — ٢١	٦٠	—
أوراق معدنية رقيقة	«	١٠٠	ديوانى	٥٥ — ٦٠	٩٠	الباكو
لولدة فرنسية	«	٦٠	زر محبوب	١٠ — ١١	١٢٠	قنطار ١١٠ رطل
علب كبيرة	«	١٠	ديوانى	٤٠٠ — ٤٥٠	٩٠	لكل مائة
زيت من كريت	البرميل	١٠٠٠	«	٢٢ — ٢٤	٩٠	أقة بالدراهم
كسرولات فاخرة	الطن	١٠	مدينى	٧٥ — ٨٠	٩٠	«
أسلاك حديدية متنوعة	ط صغير	١٠	بالذهب	٢٦ — ٣٦	٩٠	القنطار ١٥٠ رطل
« نحاس أصفر متنوعة	«	٥	فندقلى	١٨ — ٢٠	١٤٦	« بالأرطال
« نحاسية	«	٢	«	١٦ — ١٨	١٤٦	« «
زئبق	«	٥٠	مدينى	٦٠٠٠ — ٦٤٠٠	٨٥	« ١٢٠ رطل
سلال من مختلف الأنواع	صندوق	٦	ديوانى	٥٠ — ٦٠	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
أقراط — سكاكين من أحجام مختلفة — علب للنشوق — زهور صناعية	«	—	—	—	—	السعر حسب الصنف
حبات مسبحة بيضاوية ألوان مختلفة نمرة ٢ ، نمرة ٣		١٠	ديوانى	٩ — ١١	٩٠	المسبحة
حبات مسبحة بيضاوية نمرة ٤		١٠	«	٤ — ٥	٩٠	«
« مسبحة بيضاوية زرقاء وخضراء		١٠	«	١٩٠ — ٢٠٠	٩٠	بالألف

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	نوع النقود	السعر	ديوانى	الوزن والمقياس
حيات مسبحة بيضاوية منقطة	صندوق	٥	ديوانى	٨٠ — ٩٠	٩٠	بالألف
« « « أوان مختلفة	«	٥	«	٩ — ١١	٩٠	بالمسبحة
« « « من العقيق الصناعى	«	١٠	«	١٩٠ — ٢٠٠	٩٠	بالمسبحة ١٢ـ١٤٠ح
« « « الياقوت نمرة ٢، نمرة ٣	«	١٠	«	١٠ — ١٢	٩٠	« « «
أوراق فضية رقيقة	«	١٠٠	—	٢٤ — ٢٦	٦٠	بالصندوق
رقائق نحاسية	«	١٠	قطع ذهبية	٩١ — ٩٥	٩٠	الباكو ٥ حزمات
مبارد نمرة ١ ، نمرة ٢	«	٥	ديوانى	١٢ — ١٤	٩٠	بالباكو
سيوف عريضة ذات حدين	«	١٠	«	٨٠ — ٨٥	٩٠	الكل
مواسير بنادق	«	١٠	«	٩٠ — ١٠٠	٩٠	«
نحاس جديد مصنع	«	٢٠٠	«	٦٠ — ٦٥	٩٠	أقة بالدراهم
كلور الزئبق	«	١٠	«	٣٦٠ — ٣٨٠	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
معدن مضروب إلى رقائق خفيفة	«	١٥	«	٢٠٠ — ٢٢٠	٩٠	بالباكو
شيلان من قماش الأنجورا	«	٣٠٠	نقد ألمانى	١٧ — ١٨	٩٠	بالقطعة
كركم فى علب صغيرة	«	٢٠	ديوانى	٤٣ — ٥٠	٩٠	الأقة ١١٠ درهم
« غير معبأ	«	١٠	«	٨٠ — ٩٠	٩٠	« بالدراهم
أحذية بدون كعوب (بابوش) وارد القسطنطينية وأزمير	«	١٠٠	«	٦٠ — ٨٠	٩٠	الزوج
مستكة وارد خيوس	«	٤٠٠	مدينى	١١٥ — ١٢٠	٩٠	الأقة ٤٠٠ درهم
صلب عادى	«	١٠٠٠	«	٣٠٠ — ٣٤٠	٩٠	القنطار ١٠٥ رطل
« صنف أجود	«	٥٠٠	«	٣٠٠ — ٣٤٠	٦٠	قنطار بالأرطال
أكسيد الرصاص وارد فينسيا	«	٥٠٠	«	٨ — ٩	٩٠	الصندوق
كبريتات الزئبق	«	٢٠	«	٨٤٠٠ ٨٦٠٠	—	القنطار ١٠٢ رطل
سكاكين ذات مقابض وارد سوريا	«	•	—	—	٩٠	السعر حسب الصنف
سكاكين بدون مقابض	«	١٠	مدينى	٤٠ — ٤٣	٩٠	الحزمة
مقصات ضخمة	«	٥	«	١٣ — ١٩	٩٠	الدستة
أمواس ممتازة وعادية وارد ألمانيا	«	١٠	«	٢٠ — ٢٥	—	—
أكواب زجاجية ومرايا متنوعة وارد فينسيا	«	٥٠	ريال ألمانى	٣ — ٥٠	—	كل حسب حجمه
مرايا وارد ألمانيا	«	٢٠	«	٦ — ٤٠	—	« «
أكواب زجاجية ومرايا وارد بوهيميا	«	١٠	—	—	—	السعر حسب الصنف
مشروبات روحية وارد أسبانيا	«	٥٠	مدينى	٢٤ — ٣٠	٩٠	الصندوق
زجاج مرايا بدون إطار	«	٢٠٠	فندقلى	٦½ — ٨	١٤٦	«
رصاص على شكل سبائك	«	٢٠٠٠	ديوانى	٤٧٠ — ٤٩٠	٩٠	القنطار ١٤٠ رطل
زرنيخ أصفر وأبيض	«	٢٠٠	«	٥٠٠ — ٥٦٠	٩٠	« ١٢٥ «
أكسيد النحاس على شكل قطع	«	٢٠	«	٧٠ — ٧٥	٩٠	الأقة ٤٠٠ درهم

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	نوع النقود	السعر	ديوانى	الوزن والمقياس
إبر نمرة ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤	...	١٠٠٠٠٠	ديوانى	٣٥٠ — ٢٨٠	٩٠	بالألف
دبابيس	—	١٠٠٠٠٠	»	٣٠٠ — ٣٥٠	٩٠	»
سنارات أنواع مختلفة	—	١٠٠٠٠٠	»	٢٠ — ٣٠	—	»
رقائق نحاسية وأسياخ حديد	—	٢٠	مدينى	٢٢٠ — ٢٣٠٠	٩٠	القنطار ١٥٠ رطل
ألواح زجاجية من البندقية سادة ومنقوش	—	—	—	—	—	—
الصنوبر (للصباغة باللون الأحمر)	صناديق	١٠	ديوانى	٨٤٠٠ — ٨٦٠٠	٩٠	قنطار ١٢٠ رطل
حلوى من فرنسا وجنف	العلبة	٢٠٠	»	٨ — ٣٠	٩٠	العلبة
بن مجفف من أرمير	»	٨٠٠٠	»	٨ — ١٢	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
قطران (زفت) من ستانخيوس وروودس	القربة	٥٠٠	—	—	—	—
صبغة النيلة	البرميل	١٠٠	قطعة ذهبية	١٠ — ١٦	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
جوزة الطيب	»	١٠	ديوانى	١٦٠ — ١٧٠	٩٠	رطل ١٤٤ درهم
صفيح بالقفة	»	٣٠٠	»	١٢٠٠ — ١٣٠٠	٩	قنطار ١٠٢ رطل
عقاقير لعلاج العيون	»	٢٠٠	»	٤٧٠ — ٤٩٠	٩٠	قنطار. ١٥٠رطل برميل
جلامين لتنظيف الأسنان	»	٢٠٠	»	١٤٠٠ — ١٤٦٠	٩٠	» ١٠٢ » »
ألواح زنك	»	١٠٠	—	٣٦ — ٤٠	٦٠	قنطارالبرميل ٤٠٠لوح
أكسيد الرصاص الأحمر	»	٢٠	ديوانى	٥٧٠ — ٥٤٠	٩٠	قنطار ١٣٠ رطل
سكر من لشبونة	»	٤٠	قطعة ذهبية	١٠ — ١٣	٩	» ١٠٠ »
قصدير من انجلترا	»	٢٠٠	ديوانى	١٠٠٠ — ١٠٥٠	٩٠	» ١٥٠ »
كبريتات	»	٤٠	»	١٦٤ — ١٧٥	٩	» ١٥٠ »
مسامير كبيرة الحجم	»	١٠٠	قطعة ذهبية	١٩ — ٢٤	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
آنيه حديدية	»	٢٠	مدينى	٢٢ — ٢٥	٩٠	» » »
» نحاسية	»	١٠	»	٧٠ — ٧٥	٩٠	» دراهم
زيت من المغرب وتونس	الجرة	٤٠٠٠	ديوانى	٢٤ — ٢٨	٩٠	» ٤٠٠ درهم
صابون رخو من المغرب	»	٥٠٠	»	٢٢ — ٢٤	٩٠	» دراهم
تبغ بودرة	»	١٠٠	مدينى	٥٠ — ٦	٩٠	» »
ساعات حائط	الواحدة	٢٠	قطعة ذهبية	٣٠ — ٤٠	—	الواحدة
» » كبيرة	»	٥٠	»	١٥ — ١٠٠	—	»
أقمشة من البندقية أرجوانية اللون تسمى ساى	القطع	٢٠٠	»	٣¼ — ٣¾	٩٠	ذراع القسطنطينية
أقمشة أرجوانية اللون	»	٥٠	»	٤½ — ٥	٩٠	»
» تسمى بدوائيل لصف فاخرة	»	٢٠٠	»	٢ — ٢½	٩٠	»
» حريرية وكتانية سادة للقمصان	»	١٠٠٠	نقود ألمانية	٩ — ٧	٩٠	القطعة

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	نوع النقود	السعر	ديوانى	الوزن والمقياس
أقمشة قطنية خشنة من القسطنطينية	القطع	١٠٠٠	ديوانى	٨٠٠ — ٨٥٠	٩٠	القطعة
فانلات منقوشة من ألمانيا	»	٥٠٠	مدينى	٣٠ — ٣٥	٤٠	ذراع القسطنطينية
جوخ خشن وارد ألمانيا	»	٢٠٠	»	٥٨٠ —	—	—
مناديل منقوشة وارد ألمانيا	»	١٠٠	ريال ألمانى	٨ — ١٠	٩٠	القطعة
» كتانية » »	»	١٠٠	»	٢٣/٤ — ٣	٩٠	»
قماش أبيض ومنقوش	»	١٠٠٠	—	—	—	حسب الصنف
» مشمع سادة ومنقوش	»	١٠٠٠	ريال ألمانى	٨ — ٦	٩٠	القطعة
ساعات ذهبية وفضية	الدسته	٢٠	قطعة ذهبية	٢٠ — ٢٠٠	—	الواحدة
عقيق صناعى	»	٢٠٠٠	ديوانى	٢٤ — ٣٠	٩٠	—
مناديل أنواع مختلفة	»	٢٠٠	مدينى	٥٨٠ — ٦٠٠	٩٠	الدستة
ورق مذهب	الرزمة	١٠٠	ديوانى	٢٩٠ — ٣٢٠	٩٠	الرزمة
» »	»	١٠٠	»	٤٩٠ — ٥٢٠	٩٠	»
» مفضض	»	١٠٠	»	٨٠ — ١٠٠	٩٠	»
ساتان من فلورنسا درجة أولى	الذراع	١٠٠٠	»	٩٥ — ١٠٠	٨٥	ذراع القسطنطينية
أقمشة مذهبة ومفضضة من فرنسا وفلورنسا	»	٦٠٠٠	قطعة ذهبية	٣ — ١٠	٨٥	»
ساتان عريض وسميك	»	١٠٠٠	ديوانى	٦٠ — ١٠٠	٨٥	»
» خفيف وغير عريض	»	١٥٠٠	»	٤٥ — ٦٠	٨٥	»
» عريض ومتين من ألمانيا	»	٥٠٠	»	١٢٠ — ١٥٠	٨٥	»
» تفتاز أسود وأبيض من البندقية	»	٤٠٠	»	٩٥ — ١٠٠	٨٥	»
ساتان من فرنسا نمرة ١ ونمرة ٢	»	٥٠٠	»	١٠٠ — ١٢٠	٨٥	»
قطيفه مضلعة وسادة	»	٢٠٠	قطعة ذهبية	١١/٢ — ٢	٨٥	»
ساتان مضلع وساده وارد خيوس	»	٦٠٠٠	مدينى	٦٠ — ٨٥	٨٥	»
» مذهب ومفضض وارد خيوس	»	٤٠٠٠	»	١٥٠ — ٣٦٠	٨٥	»
أقمشة مذهبة ومفضضه من البندقية	»	٢٠٠٠	ريال ألمانى	٣ — ١٢	٩٠	»
كبريت عامود	قنطار	٢٠٠٠	ديوانى	٢٠٠ — ٢٥٠	٩٠	قنطار ١٥٠ رطل
عنبر أبيض نمرة ١	الأقه	١٠٠٠	»	٥٥٠ — ٥٦٠	٩٠	رطل ١٤٤ درهم
مرجان وارد فرنسا وراجوزة وليفورنو	الرطل	٢٠٠٠	»	٧٢٠ — ٣٤٠٠	٩٠	رطل ١٥١ درهم
عنبر أصفر نمرة ١	الاقة	٤٠٠٠	»	١٨٠٠ — ٢٠٠٠	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
شرائط من القصب أو الحرير مذهبة ومفضضة	المثقال	٦٠٠٠	»	٣٠ — ٣٥	٨٠	ذراع القسطنطينية
رقائق ذهب وفضة	»	٢٠٠٠	»	٢٨ — ٣٢	٨٥	مثقال
كبريت	القنطار	٢٠٠٠	مدينى	١٠٠ — ١٦٠	٩٠	قنطار ١٥٠ رطل

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	نوع النقود	السعر	ديوانى	الوزن والمقياس
خيوط ذهب وفضة	المثقال	٢٠٠٠	ديوانى	٢٥ — ٣٠	٨٥	مثقال
شرائط قصب وحرير ذهبية وفضية من كل الأنواع	»	٣٠٠٠	مدينى	٣٠ — ٣٥	٩٠	»
حديد من السويد ومسكوفيا	قضبان	٦٠٠٠	—	٨ — ٩	٧٣	قنطار م/٢٣٣٩ رطل
فرنامبوك [خشب الطلاء]	الكتلة	٢٠٠٠	ديوانى	٨٥٠ — ١٠٠٠	٩٠	» ١٢٥ رطل
خمور من كل الأنواع من أسبانيا وفرنسا وتوسكانيا	—	—	—	—	—	الثمن حسب الصنف
بنادق صيد وطبنجات انجليزى أحجام صغيرة	—	—	قطعة ذهبية	١٠ — ٥٠	—	—
ألواح خشبية لمبانى من كل نوع	—	٦	—	—	—	الثمن حسب الحجم
أخشاب من روديا والبحر الأسود وقزدوغلى	الحمولة	١٠	—	—	—	» » »
فستق من سوريا بكميات صغيرة	—	—	ديوانى	٣٠ — ٤٠	٩٠	أقة بالدراهم
راتنج (صمغ صنوبر) من سالونيكا بكميات صغيرة	—	—	—	—	—	—
أقمشة تيلية للقلاع مستوردة من روسيا وكمية صغيرة من ترييستا	—	—	—	—	—	—
أنواع نحاسية ونحاس بكميات صغيرة وارد ترييستا	—	—	—	—	—	—
أقمشة دمشقية مختلفة الأنواع	—	—	—	—	—	—

مجوهرات القسطنطينية مجهزة أو غير مجهزة

الماس ، زمرد ، لآلىء من كل الأصناف .

١٠٠ قيراط من الالماس الاحمر من حلب تفقد من ١٠ ــ ٣٠ خـردة القيراط حسب الصنف ، وتفقد اللآلىء من ٢ ــ ٨ خردة فى المثقال الواحد اما اللآلىء الكبرى فحسب النوع .

الجلود : جلد الجبة وتأتى من روسيا وتشمل جلود الذئب الأبيـض والأصفر والسمور وتساوى الواحدة من ١٠ ــ ٢٠٠ خردة .

الخمور من قبرص وجزر اخرى من الأرخبيل .

موازين البضائع المختلفة بشكل عام فى القاهرة

الاقة فى القاهرة = ٤٠٠ درهم وهى تساوى اقة القسطنطينية الا بخصوص الحرير الوارد من بورصة Bursa وراجوزة وقبـرص حيث تساوى الأقة ٤٠٤ درهم .

الرطل = ١٤٤ درهم .

رطل الحرير السورى = ٢٢٩ ١/٢ درهم .

وعند وزن مختلف الأنواع يخصم الوزان العيار العديل (وزن الوعاء) عن كل الطرود والبراميل ... الخ .

ومع ذلك فانه يوجد على الدوام فضلات اكبر مما يفترض فى الواقع حيث يصل القنطار الى ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١١٠ ، ١٣٠ رطلا من كل ١٠٠ . وينبغى أن نلاحظ أن هناك بضائع يبلغ القنطار فيها بعد خصم العيـار البديل الى ١٥٠ او ١٣٣ ١/٣ بدلا من ١٠٠ .

١٠٠ رطل فى القاهرة تساوى بالضبط لبرة فى لندن .

و = ١١٢ ١/٢ لبرة (Livra) فى مارسيليا .

و = ١٣٠ لبرة (Livra) فى ليفورنيو ، = ١٥٠ لبرة صـغيرة فى البندقية و١٠٠ لبرة كبيرة فى البندقية أيضا ، وفى تريستا نفس الشىء ،

١٠٠ فوندى فى تريستا أو البندقية = ١١٧ ١/٢ لبره كبيرة فى البندقية. ١٨٥ لبرة كبيرة فى تريستا .

١٠٠ رطل فى القاهرة = ٣٦ أقة فى القسطنطينية وازمير .

النقود التى يفضل استخدامها فى عمليات الشراء

قطعة ذات ٧٣ مدينى او ديوانى
قطعة ذات ٧٠ مدينى او ديوانى
قطعة ذات ٦٠ مدينى أو ديوانى
قطعة ذات ٣٣ مدينى او ديوانى
قطعة ذات ٣٠ مدينى او ديوانى
الفندقلى ويساوى ١٤٦ ديوانى .

المجوهرات الذهبيه والفضيه

١ قيراط = ٤ حبات
١ درهم = ١٦ قيراط
١ مثقال = ٢٤ قيراط
١ أوقية = ٨١/٢درهم
١٠٠ قيراط بنغالى = ١١٢ درهم .

وتبـاع المجوهرات المجهـزة دون وزن . وتباع الاحجـار الكريمة بالقيراط دون خصم العيار العديل وتباع اللآلىء بدون خيط وبدون خصم العيار العديل اما اذا كانت ملضومة فتوزن ١٠٥ فى مقابل ١٠٠ ويوزن المرجان مع احبال حريرية صغيرة والعبار العديل هو ١٥١ درهم مقـابل ١٤٤ . ويباع بالرطل أو الدرهم .

١٠٠ درهم من وزن القسطنطينية من المجوهرات الذهبية أو الفضية = ١٣٣ درهم فى القاهرة أما جواهر البندقية التى تزن فى اوربا ١٨ قيراط فلا بد أن تقل فى القاهرة ١/٢ ١٨ قيراط .

١٠٠ قيراط بوزن البندقية لا بد أن تساوى فى القاهرة ١٠٢ قيراط.

والقطعة الذهبية من المجر تزن نفس وزنها الأصلى ، اما الدينـــار الذهبى الأســـبانى (دوبلون) فيزن فى القاهرة ٩ دراهم ، ويزن الفندقلى ١٨ قيراط ، ويزن الواحد من الزر محبوب ١/٢ ١٣ قيراط . وتزن قطعـــة الخردة ٩ دراهم .

اما المقاييس المستخدمة فى القاهرة بالنســـبة للاقمشـــة فهى ذراع القسطنطينية أما ذراع القاهرة فهو أقصر ، ويستخدمه التجار لبيـــع القطـــاعى .

قيمة العملات الأجنبية التى تصل القاهرة

عن طريق التجـــارة

السكين Séquin البندقى = ٢ خردة و ١٣ ــ ١٨ مدينى حسب المنطقة ، القطعة الالمانية = ٢ قطعة ذهبية و٥ ــ ١٠ مدينى ، ويبلغ سعر الدوبلون الاسبانى والسكين البربرى والمراكشى والجزائرى والتـــونسى والطرابلسى ١٣٠ ــ ١٤٠ مدينى ، أما الدولار الاسبانى ذو العمـــودين أو القرشين فيساوى ١ خردة (بوطاقة) و ٣ــ١٥ مدينى ويستخدم بخاصة فى الفكة . وهذا بخلاف كميات كبيرة من انواع أخرى من النقود ومن تراب الذهب والسبائك التى تجلبها القوافل ، وتراب الذهب عادة رخيص الثمن ، لكنه منذ فترة قصيرة بدأ يستخدم بكميات كبيرة فى صنع قطع النقود الصغيرة فى القاهرة .

المقاييس الأجنبية مقارنة بمقاييس القـــاهرة

الذراع الانجليزى ٣/٤ ١ من ذراع القسطنطينية وهو المقيـــاس المستخدم فى القاهرة .

ذراع مرسيليا = ٣/٤ ١ من ذراع القسطنطينية ، ذراع البندقية = ذراع القسطنطينية بالنسبة للاقمشة الصوفية ، اما بالنسبة للاقمشـــة الحريرية فان ١٠٠ ذراع بندقى = ٩٣ من ذراع القسطنطينية ، و١٠٠ ذراع تريستى = ٣/٤ ١٠٤ من ذراع القسطنطينية .

البضـــائع التى تصدرها مصر
الى لندن ومارسيليا وليفورنيو والبندقية وتريستا والقسطنطينية
وازمير وسالونيكا وبلاد اخرى فى تركيا

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	العملة التى تباع بها	السعر	ديوانى	الأوزان والمقاييس
تمر حنه	قطار	٢٠٠٠	القطع الذهبية	١٩ — ٢٢	٦٠	قنطار
ملح النشادر إنتاج الجيزة نمرة ١	»	٢٠٠٠	دولار توسكانى	٥٠ — ٥٥	٨٥	٧٢ أقة أو ٢٠٠ رطل
ملح النشادر إنتاج المنصورة ورشيد نمرة ١	»	٨٠٠٠	»	٤٠ — ٤٨	٨٥	» »
البلح	»	٣٠٠٠	»	٢½ — ٤	٨٥	قنطار ١٢٠ رطل
السلكة	»	١٠٠٠٠	القطع الذهبية	٣٠	٦٠	» ١١٠ »
الجراب	»	٢٠٠٠	»	٣٥	٦٠	قنطار بالرطل
بودرة السلكة	»	٢٠٠٠	»	٥	٦٠	»
قطن مغزول	»	٦٠٠٠	زر محبوب	١٠ — ١٤	١٢٠	»
الفتنة	»	٣٠٠٠	دولار توسكانى	٣½ — ٤	٨٥	قنطار ١٢٠ رطل
صوف بعبله	»	٤٥٠٠	—	—	—	—
كتان أصناف متعددة	»	٣٠٠٠٠	—	—	—	—
لونده هندى من الهند	—	—	ديوانى	١٩٠ — ٢١٠	٩٠	أقة بالدراهم
كركم	—	—	»	١٨ — ٢٢	٩٠	»
حبهان كبير	—	—	»	١٤٠ — ١٦٠	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
حبهان صغير	—		»	٣٥ — ٤٥	—	أقة بالدراهم
دم التنين	—	—	مدينى	١٠٠ — ١١٥	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
دم التنين ناعم وارد الهند	—	—	»	١٢٠ — ١٣٠	٩٠	»
شمع جديد	قنطار	٢٠٠٠	»	٥٠ — ٦٠	٩٠	»
أفيون نمرة ١ ، ٢	—	—	»	٣٦٠ — ٤٠٠	٩٠	»
حنة للصباغة بالأحمر	زكيبة	٨٠٠٠ }	»	١٤٠ — ١٥٠	٨٥	الزكيبة ٣٥ أقة
حنة للصباغة بالأصفر	»			١١٠ — ١٢٠	٨٥	»
حب اليسر	—	—	فندقلى	١٩ — ٢١	١٤٦	—
أرز دمياطى	الأردب	٣٠٠٠٠	بالقطع الذهبية	٣٨ — ٤٠	٣٠	الأردب ٢٢٥ أقة
أرز رشيدى	»	٢٥٠٠٠	»	٢٣ — ٥٠	٣٣	الأردب ١٥٣ أقة
كميات كبيرة من الأقمشة الكتانية والقطنية من الصعيد وابيانة ورشيد ودمياط	—	—	—	—	—	—

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	العملة التى تباع بها	السعر	ديوانى	الأوزان والمقاييس
بن وارد اليمن	بالة	٣٠٠٠٠	دولار توسكانى	٢٣ — ٢٨	٨٥	قنطار ١٠٥ رطل
خشب السنط	—	—	»	٢٠	٦٠	قنطار ١١٠ رطل
خشب السنط وخشب زغرتا	—	—	»	٢٨ — ٣٢	٦٠	قنطار ١٠٠ رطل
جوز القىء	—	—	»	١٩ — ٢١	٦٠	»
المر بأنواع مختلفة	—	—	»	٤٣ — ٣٤٦	٦٠	»
مر فقط	—	—	»	٧٨ — ٨٢	٦٠	»
الحلتيت [صمغ لتسكين التقلصات]	—	—	»	٢٨ — ٣٣	٦٠	»
جذور الزعفران	—	—	»	٢٨ — ٣١	٦٠	»
قرفة	—	—	»	٢٨ — ٣٣	٦٠	»
قرفة شرقية	—	—	»	١٨ — ٢٢	٦٠	»
كتان مغزول	—	—	»	٤٠ — ٤٥	—	بالة ٢٠٠٠٠ كيس
فلفل طويل	—	—	ديوانى	٧٥ — ٨٥	٩	أقة بالدراهم
جلود ثيران بأحجام مختلفة	—	٤٠٠٠	مدينى	٢٢٠ — ٣٠٠	—	للجلد الواحد
» » » »	—	٦٠٠٠	»	١١٠ — ١١٠	—	»
جلود بقر	—	٣٠٠٠	»	٩٥ — ١١٠	—	»
قماش خشن أزرق يسمى منون	بالقطع	٤٠٠٠	»	٩٠ — ١٠٠	—	للقطعة
قماش خشن أبيض	»	٤٠٠٠	»	٦٥ — ٨٠	—	»
لآلىء	—	—	ديوانى	١٥٠٠ - ١٦٥٠	٩٠	
صمغ عربى من سنار	—	—	دولار توسكانى	١٦ — ٧٣	٧٣	قنطار ١٣٣⅓ رطل
صمغ عربى من جدة	—	—	فندقلى	٥ — ٦½	١٤٦	»
» » » »	—	—	دولار توسكانى	١٣ — ١٥	٨٥	قنطار بالرطل
» »	—	—	»	١٠ — ١٣	٨٥	»
غاز الأهليلج [للأفران الطبية]	—	—	قطع ذهبية	١١ — ١٣	٦٠	—
بخور	—	—	»	١٣ — ١٨	٦٠	قنطار ١١٠ رطل
بخور من مختلف الأنواع	—	—	»	٨ — ١٠	٦٠	قنطار
سن الفيل	—	—	»	٦٠ — ٦٥	٦٠	قنطار ١١٠ رطل
زهور الزعفران قطفة أولى وثانية						
زهور الزعفران زراعة الصعيد	القنطار	٢٠٠٠٠	»	١٨ — ٢٢	٦٠	قنطار رطل

العملات المتداولة فى القاهرة

يستخدم المدينى والديوانى فى الفكة ، اما الزر محبوب فيساوى ١٢٠ مدينى ويساوى القرش ٤٠ — ٦٠ مدينى .

وثمة عملة اخرى من راجوزة تقيم بـ ٦٠ مدينى وهى عملة مطلوبة فى آسيا وترسل منها كميات كبيرة الى سوريا.حيث تلقى اقبالا كبيرا .

اما الـ بوطاقة او الخردة فان سعر استبدالها العادى يبلغ فى رشيد والاسكندرية ودمياط ٨٦ مدينى ، ويصل فى القاهرة الى ٨٥ مدينى وبسبب ندرتها ارتفع سعرها الآن الى ٩٢ مدينى ، اما فى تجارة المواد الغذائية الغالية فهى تساوى ٨٥ ، ٩٠ ، ٩٢ مدينى . أما الدولارات التوسكانيةالتى تعرف باسم البوطاقة فتتداول بسعر ٨٠ ، ٨٢ مدينى وهى تساوى قطعة الخردة ، وتفضل فى آسيا .

وتصل قيمة فندقلى القسطنطينية ١٦٠ مدينى ولكنه نادر .

ويتفاوت مقدار الرسوم المفروضة على البضائع المستوردة من أوربا وآسيا بحسب اثمانها ، فهى تبلغ ٨٪ على المجوهرات ، وبالنسبة لصبغة النيلة وبضائع اخرى ثمينة ٩٪ ، الجوخ والورق ... الخ ١٣٪ ، الرصاص وبضائع اخرى رخيصة القيمة ١٥ — ١٦٪ ، البضائع الواردة من تركيا ٢٠٪ ، وتبلغ الرسوم الجمركية ٨ — ١٥٪ ، اما الاخشاب وورق التبغ والصابون والفواكه فتدفع رسومها نقدا .

اما البضائع المصدرة من مصر الى أوربا فتبلغ الرسوم المفروضة عليها من ١٥ — ٢٠٪ وينبغى على هذه البضائع انتدفع رسوما الىالقناصل والى اشخاص آخرين حتى تحصل على تصريح بالخروج ، وكان تصدير البن والارز والحبوب ممنوعا فى معظم الاحيان ، وتحصل البضائع المصدرة الى تركيا على بعض التسهيلات حسب الظروف ، وكانت حسابات البن والارز والصمغ العربى واردسنار والبخور والفتنلة وملح النشادر الجيد واخشاب السنط الممتازة وبضائع اخرى — كانت تستوى نقدا ، وفى بعض الاحيان كانت تقايض ببضائع اخرى ، ويمكن شراء البضائع الأخرى عنطريق المقايضة مع تقدير سعرها بحسب سعر السوق .

وتختلف تجارة مصر اختلافا بينا عن تجارة أوربا ، بسبب الاضطرابات الكبيرة التى تتعرض لها الحكومات ، وبسبب أحداث اخرى تتعرض لهـا التجارة ، فتنخفض حركتها بشدة اثناء بعض هذه الأحـداث ، أو تزدهر خلال احداث أخرى ، لذلك ينبغى أن يكون التاجر يقظا وعليه على الدوام اقتناص الفرص المواتية .

وشهر رمضان هو الشهر الملائم لبيع المنسوجات الصوفية والحريرية، ففى هذا الوقت يشترى العامة وكذا ابناء الطبقة العليـا ملابس جديدة لأنفسهم ولزوجاتهم وخدمهم .

وتجلب سفن وقوافل جدة البن والبخور والصمغ وبضائع أخـرى من الهند والجزيرة العربية والحبشة ، عندما تعد الى جدة ، تحمل معهـا النيلة والرصاص والحديد والحلى الزجاجية وبضائع أخرى تسـتورد من البندقية ، خاصة باليمن والحبشة والهند .

وكانت بضائع الهند تأتى دوما مع محمل الحج ، وهـذا ما يعفيها من دفع الرسوم فى القاهرة ، اذ كان للمحمل امتياز عدم دفع اية رسوم على الاطلاق .

وكانت قوافل النوبة تجلب الصمغ العربى من سنار ، وسن الفيل وبضائع أخرى من هذا البلد ايضا ، وتأخذ عند عودتهـا الجوخ الفرنسى المسمى لوندران والجوخ الانجليزى والورق والقرنفل والمرجان .. الـخ وانواعا مختلفة من خزف المحلة وطنطا الذى تقوم عليه تجارة كبيرة . وتجلب هذه القوافل أيضا كمية كبيرة من تراب الذهب الذى يباع عادة بـ ٢٠٠ ـ٢٠٨ دولار توسكانى لكل ١٣٥ درهم ، ولكن منذ عهد محمد بك استخدم تراب الذهب بكميات كبيرة فى ضرب النقود ، مما جعل سعر هذه الوزنة يرتفع الى ٢١٢ ـ ٢١٦ حسب الجودة .

وشهر اغسطس هو وقت الزعفران والحناء والبلح ، أما سـبتمبر واكتوبر فهما شهرا الأرز والكتان ، وديسمبر ويناير للسنامكى والفتنة ، وفى هذه الفترة ينبغى على المرء أن يختزن بضائع جيدة سيبيعها بربح مضمون ومجز لحد كبير .

وسوف يكون الأمر مجحفا بالنسبة للذين يرسلون بضائعهم من أوربا،

أن يتعجلوا بيعها فى الحال ، ذلك أن التجار المصريين المتفهمين للامور سيبخسون هذه البضائع حقها ، كما أنهم سيحاولون فى نفس الوقت أن يبيعوا بأغلى سعر يستطيعون الوصول اليه تلك البضائع التى يراد ارسالها فى مقابل البضائع التى اشتروها بهذه الطريقة .

ولقد كانت هذه عادة الفرنسيين فيما مضى ، ولكنهم عندما تبينوا العاقبة السيئة لذلك ، أنشأوا لأنفسهم محلات واتخذوا لهم وكلاء ، ووصلت بذلك تجارتهم لدرجة مزدهرة ، لحد أنهم استطاعوا أن يكتسحوا على وجه التقريب كل الأجناس الأخرى .

٢
عن حالة الصناعة

لا يمكن لملكات شعب من الشعوب — ذهنية كانت أم روحية — أن تنمو ، وأن يجنى هو بالتالى ثمرات ذلك ، الا فى ظل أنظمة ترعاها ، وينطبق هذا القول نفسه على الصناعة ، والا فانها ستظل راكدة حيث لا اختراع ولا تحسن ، وهكذا ، فان الحرف والمنتجات الصناعية فى وادى النيل تتمى بحضارة لا تزال فى طور الطفولة ، أو تشى بالاحرى بتقاعس العمال وأصحاب الأعمال ، فليس ثمة شىء دقيق ، أو معتنى به يخرج من المصانع المصرية اذا ما استثنينا التطريز ، فالمنسوجات القطنية والصوفية وبقية الاشياء ذات الاستعمال الطويل ، تظهر بشكل خشن وغير دقيق ، لحد سوف يذهلنا اذا نحن لم نلق بالا لتلك الظروف التى يحياها الشعب الذى أنتجها ، فلقد ظل المصريون المحدثون — برغم كل العناصر التى كان يمكنها أن تؤدى للنماء والازدهار — متخلفين ، لأن سطوة الطغيان قد حصرت عقولهم ، بل يمكن القول بأنها شلت قدرتهم على التفكير ، وليست مصر هى الدولة الوحيدة فى كل دول الشرق التى تحيا فى مثل هذه الحالة المحزنة ، بل اننا نرى للاسف الشديد ، فى كل مكان من الشرق، نفس التدهور ونفس الجمود ، ونفس النتائج .

ومع ذلك ، وبالرغم من تلك الحياة المنحطة التى تدر عليهم أن يحيوها فى ظل حكومة المماليك ، فانه لم يفت المصريين حتى الآن ان يستغلوا شيئا من المصادر الهائلة التى تهيئها منتجات ارضهم للصناعة ، فصناعة الاقمشة الخشنة من القطن والكتان ، تتيح فرص العمل لألوف الأيدى ، وتقوم المحلة

الكبيرة — وهى مدينة يبلغ تعدادها حوالى ثمانية آلاف نفس — بصنع اقمشة حريرية وشيلان من الحرير تعرف باسم شيت وحرير ، وبعض المنسوجات القطنية الخشنة ، ونوع من التفتاز الأسود تستخدمه زوجات البكوات كنقاب يتخفين به ، ويعمل فى هذه المصانع ٨٠٠ — ١٫٠٠٠ عامل من كلا الجنسين ، ومن مختلف الأعمار .

وتصنع سمنود — وهى مدينة لا يبلغ تعدادها بالكاد ٢٫٠٠٠—٣٫٠٠٠ نسمة — بعض المنسوجات الشعبية من الكتان ، وتصنع منوف كثيرا من هذه المنسوجات نفسها كما تصنع اجمل حصر البلاد ، أمامدينة طنطا الشهيرة بأسواقها وبضريح السيد البدوى فتصنع كثيرا من المنسوجات الكتانية ، لكنها منسوجات بالغة الدقة والاتقان وتعرف باسم : قماش(١) .

وبخلاف هذه المنسوجات — بالاضافة الى التطريز الذى يبرع فيه المصريون كما سبق القول — يصنع المصريون كذلك كثيرا من الآنية الفخارية الشعبية والقلل (وهى آنية مرطبة) والآنية الزجاجية وهى خشنة ومنقره ، كما يصنعون السجاجيد واحجار النارجيلة من الطين المحروق ، ويصدر الى كل دول الشرق ، ويصنعون فى نفس الوقت أجواخا شعبية ، ونوعا من اللباد المخلوط بالصوف ، يستخدم فى صناعة الخيام ، أما كل التركيبات التى لها صلة بالكيمياء مثل صناعة ملح النوشادر وتقطير الخمور والعطور ، فهى صناعات ما تزال بعد فى طور الأمنيات ، أما أجهزتهم فهى منفرة بقدر ما هى عاجزة ، وكثيرا ما يستخدمون البوص المثقوب بدلا من الانابيب الزجاجية ، أما الآلات المائية التى يستخدمونها للرى ، ففيها شىء من الدقة ، والميكانيكا عندهم ماهرة فى بعض الأحيان ، ولكنها تستطيع لولا معوقات الروتين اختراع ماكينات تستطيع أن تعطى نفس النتائج فى وقت أقل وباستخدام عدد أقل من الرجال ، وباختصار ، فنحن نلاحظ فى كافة ضروب الأعمال بساطة كبيرة سواء فى الأدوات أو فى التنفيذ ، ويستخدم العمال اقدامهم بنفس المهارة التى يستخدمون بها أيديهم ؛ وهذا مما يزيد فى سرعة انجاز العمل ، وهذه العادة شائعة عند النجارين والنحاسين والنساجين وصناع القياطين ، وعند كل الحرفيين عموما ، ومن الطريف أن نلفت النظر برغم ذلك ، الى ان اقدامهم عارية وتغطى فقط بأحذية واسعة للغاية يتركونها

---

(١) هذه الكلمة باللغة العربية تعنى كافة أنواع المنسوجات .

عند دخول الورشة ؛ وتعمل الغالبية منهم وهم جالسون ، وهذا مما يسهل استخدام اقدامهم .

ويستخدم الخراطون قوسا يحركونه بيد بينما هم باليد الأخرى يشكلون الآلة القاطعة على الشيء الذى يريدون تشكيله ، وهم يديرون هـذه الآلة بابهام القدم اليمنى التى يستخدمونها بالمثل كنقطة ارتكاز ، وبهذه الطريقة يصنعون اجزاء وقضبانا حديدية وتقفيصات تستخدم فى صنع اشكال اكبر .

وليس ثمة شيء غير عادى فى اعدادهم للجبس ، فقد ينبغى ان نلاحظ اننا فى بلاد نصف بربرية كهذه ، كنا نتوقع أن يكون الناس فى هـذا المجال شأنهم فى ذلك مثل شأنهم فى بقية المجالات اكثر تخلفا واقل حذقا فى الوسائل التى يستخدمونها لسحق هذا المعدن عما نحن عليه ، فالانسان عندنا فى اوربا هو الذى يتحمل عبء هذا العمل الشـاق ، برغم انه من المؤكد ان سحق الجبس يضر بصحة العمال الذين يقومون به ، لكن المصريين استطاعوا تفادى هذا الخطر ، اذ يقومون بسحق المحروق بواسطة طاحونة يحركها حصان . وهذه الأداة بالغة البساطة لكنها فعالة وهى مخروطية الشـكل وذات ثقل هائل .

ويلزم الكثير بالنسبة للطواحين المخصصة لطحن القمح حتى تصبح فى دقة وفعالية طاحونات اوربا ، فرحاها صغيرة لا يزيد قطرها عن ٢ — ٢/١ قدم ، وطحينها غير ناعم ولا تقوم بفصل الردة عن الدقيق ، لذا فيـكاد يكون مستحيلا أن تأكل فى مصر خبزا يمـاثل خبز باريس او بروفانس فى جماله وخفته .

ويستخدم البيطاريون اداة خاصة لقطع حافر الخيل ، وهذه الأداة التى لا تشبه فى شيء تلك التى نستخدمها فى اوربا لنفس الغرض ، تعمل كذلك بشكل مخالف وتتطلب طريقة فى العمل تتعارض مع طريقتنا .

وحرفة الحدادة قليلة الانتشار فى هذه البلاد ، حيث ان الفحم نفسه نادر ، وهم لا يستخدمون عادة الا اقفالا خشبية صنعت بعناية ، وعـدد الصاغة وتجار المجوهرات قليل ، وهم لا يصنعون الا حليا متواضعة ، ومن السهل ان نلاحظ ان المصرى الحديث يستطيع بفضل الاسـتعداد الطبيعى للعمل ، وبفضل المهارة والذكاء اللذين زودته بهما الطبيعة ، أن يرتفع الى

مصاف الشهرة التى تمتع بها اسلافه ، لولا تلك العقبات التى لا يحلو للتعصب والطغيان الا ان يكدســـهما فى طريقه .

وعما قليل سنتحدث عن الفلاح ، وستكون الزراعة موضوعا لفقرة مستقلة ، أما بخصوص الحرف الأخرى التى لم نتعرض لها مطلقا فى هـذا الفصل ، فقـد وصفت فى شرح لـوحات الحـرف والفنـون
Explication des Planches d'arts et de métiers
لدراسات خاصة مثل معامل التفريخ ، صناعة ملح النوشادر .. الخ ونحن نحيل القارىء اليها ، وسيجدها مشروحة بكل تفاصيلها .

طريقة صنع جلد السختيان الاحمر (الفاسى) فى القاهرة

لصناعة جلد السختيان (الجلد الفاسى أو المراكشى) لا تســـتخدم الا جلود الماعز ، ولكى يتم ذلك يبسط العامل على السطح الداخلى لهـذه الجلود ، طبقة من معجون الجير ، ويتركه هكذا لمدة اربعة ايام ، ثم يضع الجلود بعد ذلك فى ماء الجير ، حيث تبقى لمدة عشرة ايام فى الصيف أو ١٥ يوما فى الشتاء ، وبعد هذهالتجهيزات ينزع الشعر ، وتجرد الجلود بسكين مقوسة لهـا مقبضان ، وتسمى داس ثم توضع الجلود فى حوض ، وعلى كل جلد منها طبقة من زبل الحمام ، وتبقى على هذه الحال لمدة ٢٤ ساعة ، ثم تغسل بعد ذلك بعناية فائقة مع دوسها بالأقدام ، ومع تغيير ماء الحوض عدة مرات ، وعندما تنظف جيدا توضع فى حوض آخر مملوء بمياه مخلوطة بالردة ، وتترك هناك حتى تختمر ، وعندئذ تسحب وتغسل من جديد بالمياه العذبة ، لتوضع مرة اخرى فى ماء العسل المخلوط بالردة لمدة خمسة أيام فى الصيف أو عشرة فى الشتاء ، وعند سحبها تكون منتفخة تماما ، ثم تبسط ويرش فوقها الملح ، وبعد دوسها بالأقدام حتى تعود الى سمْكها الطبيعى ، تجرد من جديد وبخاصة من سطحها وقد كان اقل نعومة من سطحها الآخر فى العملية الاولى ، ثم تبسط الجلود واحدا فوق الآخر على حصيرة نظيفة بعد ان ترش الجلود مرة اخرى بالملح ، وتنتقل بعد ان تجهز بهذه الطريقة الى يد الصـــباغ .

ويغمرها الصباغ فى دن من الخشب صب فيه الســـائل الملون ، ثم ينتشلها ويغمرها عدة مرات فى هذه الصبغة ثم يعلقها لتتساقط منها نقـــاط الصبغة ، ويكرر نفس العملية حتى تاخذ الجلود اللون الأحمر ، وعنـــدما

تحصل على درجة اللون المناسبة ، يعلقونها لتتساقط منها نقاط الصبغة من جديد ، ثم تغمس فى دن به ماء بارد وحبوب القرض المصحون ، وتبقى الجلود لمدة يوم كامل فى هذا الدن شتاء ، ثم يجرد بعد ذلك سطحها الداخلى لثالث مرة ثم يغمس الجلد مرة اخرى فى نفس الدن ثلاث أو اربع مرات ، ولا تتطلب هذه العملية الأخيرة الا يوما واحدا فى الصيف ، واخيرا ، وبعد ان يمر الجلد بكل هذه العمليات ، يغسل بالماء العذب وهو لا يزال رطبا ، ويدهن السطح الداخلى بزيت الكتان ، ويلقى فى الهواء الطلق ، حتى يجف تماما ، ويلمع بين اسطوانتين من الخشب .

أما عن الصباغة فاليكم كيف يعدونها ، وبأية عناصر يكونونها : توضع حوالى عشر قرب من الماء فى دن من النحاس وينقع فيها على البارد لمدة ليلة كاملة كمية معينة من عشب القرض الذى يجمع فى ضواحى الاسكندرية، وبعد ذلك تسخن المياه حتى تبلغ درجة الغليان فيسحب العشب ليوضع فى الدن حفنة من قشر الرمان واوقيتان من الشبة ثم ٥٠٠ درهم من مسحوق دودة القرمز ، وبعد ذلك يغمس الصباغ جلدا فى الدن ليتأكد من سلامة الخلطة فاذا لم تثبت المادة الملونة بشكل جيد يضيف مرة اخرى اوقية من الشبة او اكثر أو اقل فاذا كانت الخلطة فاتحة أكثر مما ينبغى تزود كمية مسحوق الدودة القرمزية قليلا وعند استعمال الصبغة ينبغى أن تكون حرارة السائل معتدلة لدرجة تتحملها اليد .

والجلد الذى يستخدم فى صنع نعال الاحذية هو عادة من جلد الجاموس ويصل هذا الجلد عادة الى المدبغة وهو مملح ويوضع فى احواض مليئة بماء الجير ، ويمكث هناك لمدة حوالى عشرة أيام وبعد ذلك ينزع شعره ويوضع من جديد لمدة يومين أو ثلاثة ايام ، ويجرده العامل بسكين ذات مقبضين ويغسله بالماء العذب عدة مرات وبعد ذلك يضعه فى أحواض حجرية مع نوع من الحب المصحون ، ويبدو ان هذه الحبوب هى والجير المجففان الوحيدان اللذان يستخدمان ، وتبقى الجلود لمدة ١٥ يوما فى الحوض الأخير ثم تسحب لتغسل بعناية ثم يرش ببذر الكتان وبعد أن يمر الجلد بهذه العملية وبعد ان يجف يباع لصناع الأحذية .

ومن نافلة القول أن نلفت النظر الى ان أحذية المصريين ليست لها نفس المتانة التى لأحذيتنا فهى مجرد « شباشب » أو أخفاف من السختيان متعدد الألوان ٪ اما نعول جلد الجاموس فهى تسمح بتسرب الماء علي

الدوام كما لو كانت من الاسفنج ، لكن هذا العيب الذى ينظر اليه فى أوربا حيث الأمطار تهطل على الدوام على انه عيب خطـير ليس كذلك فى مصر فالأرض جافة باستمرار وحيث ان جلد الجاموس مرن بطبعه فانه يناسب الأرض المنبسطة الرملية والخالية من الأحجار ، وتختلف احذية شعوب الشرق قليلا عن احذية المصريين .

وقد وصل فن الصباغة الى ارقى درجة عند قدماء المصريين بالنسبة لتنوعها وبريقها وبخاصة فى طول مدة ثبات الألوان ، لكن الصباغة فى مصر اليوم شأنها شأن الصباغة فى كل مكان ، ولم يحتفظ الذين يمارسونها هناك اليوم الا بالقليل النادر من فن اسلافهم فهم يكتفون بغمس المنسوجات أو غزل القطن الذى يراد صباغته فى المادة الملونة وهى تغلى ، كما ان ورشهم غاية فى البساطة ، كما أن الألوان التى يستخدمونها تعد بشكل مجاف للذوق، واكثر المواد الصابغة استعمالا هى النيلة ، وهم يصبغون كذلك بالالوان : الأحمر ، الأصفر ، الأخضر ويستخدمون على وجه الخصوص الوانا يستخرجونها من الحبوب والحشائش .

٣

عن الزراعة ، وعن الفلاحين

كانت الزراعة هى السبب الرئيسى فى ازدهار مصر ، وهى تشكل حتى اليوم العنصر الأساسى لتجارتها وصناعتها ، ولولا تلك المصادر الهائلة التى يستمدها المصريون من خصوبة تربتهم لكانوا ابأس شعوب الدنيا خصوصا فى ظل حكومة قاهرة مثل حكومة المماليك . ومع ذلك فينبغى أن تلقى الزراعة كما سبق القول العناية التى تليق بها لكى تصبح زراعة بمعنى الكلمة ، فينبغى الاستفادة من كل الأراضى التى يمكن استصلاحها . ان هذا الاهمال المحزن لهو النتيجة الطبيعية لهذا اللون من العبودية الذى تضاءل فى ظله قدر المصريين وسوف نرى عما قليل بشاعة ظروفهم ، وسنستنتج بسهولة أن مثل هذا السلوك المجافى لأصول الحكم والسياسة من جانب الملاك والسلطات الحاكمة ، لا يمكن ان تكون له نتائج اخرى .

لا تنتج الاراضى المخصصة لزراعة القمح عادة الا محصولا واحدا ، وباستطاعتها ان تعطى محصولين فهناك فى جزيرة الفنتين على سبيل المثال

تحصد الأرض ثلاث مرات فى العام بانتظام ، وتنتــج الأرض مثل الكميــة المبذورة ١٤ مرة ويلزم لبذر الفدان ١/٢ اردب من الحبوب .

ويكفى ثمن الأردب الواحد لسداد مصاريف الزراعة والحصاد ويبقى بعد ذلك خمسة أرادب هى بمثابة عائد الفدان الواحد ، أما فى فرنسا فان فدان القمح ينتج من خمسة الى ٨ أرادب ، وبخلاف ذلك فان احدا لا يجهل أن كمية كبيرة من البذور التى تبذر فى الأراضى الفرنسية لا تنبت مطلقــا ، فالحكم هنا اذن فى صالح خصوبة ارض مصر حيث يحصل الفلاح هنــاك وبدون أن يكلف نفسه ذلك القدر من العُناء الذى يتكلفه فلاحنا كل عــام على هذه النتيجة المزدهرة وينبغى أن نضيف كذلك أن غلة الأرض تقــل أو تزيد حسب طبيعة المحصول ، اذ تنتج الذرة على سبيل المثال ٢٠ مرة من مثل الكمية المبــذورة .

ولا يمكن أن نحصى فى مصر اكثر من ١٠٠٠ فرسخ من الأرض المزروعة ويوجد فى الفرسخ المربع ٣٫٣٠٠ فدان ، وهكذا فان فرسخا واحــدا من الأرض المزروعة قمحا يغل اكثر من ١٦٫٠٠٠ أردب من القمح كعائد صاف ، واذا افترضــنا ان الأردب يساوى ثمانية فرنكات فان العائد يبلغ ١٣٣ ، ويمكن مضاعفة العائد اذا ما استبدلنا بزراعة القمح مزروعات أخرى اكثر ربحا مثل السكر والنيلة ، فالمحصول الأول يعطى عائدا اكبر من القمح ، ١٥ مرة ولكنه يتطلب رأس مال اكبر بكثير ، وبمقــارنة الربح فى الحالين نجد أن ربح السكر أقل نسبيا من ربح القمح أى أن ربح الأموال المستغلة فى زراعة السكر اقل بكثير من ربح نفس المبلغ اذا ما استغل فى زراعة القمح والفائدة الوحيدة التى تحسب لصالح السكر ، بل التعويض الوحيد الذى يمكن أن تقدمه هذه الزراعة هى أن محصول السكر يحتاج لمساحة صغيرة من الأرض بينما يحتاج القمح الى مساحة كبيرة .

وقد يكون من السهل كذلك زيادة مساحة الأرض القــابلة للزراعة ، ولكن فبرغم أن ذلك أمر ميسور الا اننا لا نظن أن مصر فى قبضة ملاكهــا الحاليين ستدر أكثر من ١٥٠ مليون فرنك ، وينبغى أن نخصم من هذا المبلغ ٤٠ مليونا كمصاريف بذار وحصاد فيصل صافى الربح الى ١٠٠ مليون فقط ، ونحن على يقين من أن الصناعة الأوربية كلها قد تتوصل بصعوبة بالغة الى

انتاج ثلاثة أمثال بل حتى ضعف هذا الانتاج الذي تدره أرض مصر ، ولكن فى نفس الوقت فعلى مصر ان تفعل الكثير ، اذا ما افترضنا انهـــا ستكون قادرة على ذلك ذات يوم ، لكى تقترب من ثروة فرنسا الزراعية ، بالرغم من خصوبة أرض مصر الهائلة ، حيث ان الضريبة على الأراضى وحدها فى فرنسا تصل لأكثر من ٣٠٠ مليون فرنك .

والمنشآت الخيرية التى يقرها الباشا ممثل السلطان تعفى من دفع الميرى ، بينما تخضـــع كل الملكيات العقارية لهذه الضريبة التى سبق ان تحدثنا عنها بالتفصيل فى الفصل السابق .

ويبذر الكتان والقمح فى نوفمبر بمجرد أن تنحسر مياه الفيضان . ويتم البذار مبكرا عن ذلك فى الصعيد ، حيث تكون مياه الفيضـــان على جانبى النهر أقل كثافة ، ويزرع القطن فى نهاية شهر مارس وبداية شهر ابريل ، ويحصد فى يولية واغسطس ، أما المحصولات الأخرى فتنضج بعد خمســة أشـــهر .

ويستخدم المصريون المحدثون ، وعلى منوال اسلافهم ، الرى فى زراعة الأراضى ، ولكن هذه الطريقة الماهرة التى مضى بها الأقدمون الى اعلى درجة من الرقى ، قد فقدت الكثير عند استخدام المحدثين لها . وفضلا عن ذلك فالمحراث تقريبا هو نفس المحراث الذى وجدناه مرســوما فى الكهوف ، او على الأقل ثمة تشابه كبير بينه وبين المحراث الذى يستخدمه المزارعون فى مصر اليوم ، وهو بالغ البساطة ، حيث ان الأراضى فى كل مكان لا تبدى الا مقاومة ضعيفة ، ويلاحظ أيضا ذلك التشابه الكبير بين الطرق القديمــة والطرق الحديثة فى درس القمح ، ومع ذلك فانهم يستخدمون اليوم عــددا أقل من الأبقار فى درس القمح ، وهى تقوم بفصـــل الحب فى الوقت الذى تجر فيه النورج .

ومن المفيد بعد ان تحدثنا عن الأرض وعن زراعتها أن نقول شيئا عن هؤلاء الذين يفلحونها ، وهؤلاء هم الفلاحون البؤساء الذين تكرر اســمهم كثيرا على صفحات هذا المؤلف ، وهم لا يشبهون فى شىء فلاحى او مزارعى البلدان الأخرى ، ولم يول الرحالة الذين عبروا مصر خلال القرن الأخــير اى اهتمام بهذه الطبقة العاملة المضطهدة ، وسوف تكون التفاصـيل التي نقدمها هنا جديدة علي اكبر عدد من القراء .

والفلاح المصرى هو اكثر الناس حياء ، وطبيعته الخوافة هى بلا جدال نتيجة طبيعية لحالة القهر التى حصره فى داخلها سيدان لا سبيل الى قهرهما، اذ أن متاعبه من ملاحقة البكوات والضباط لا تنتهى الا لتبدأ مع العربان ، وعندما يحصل هؤلاء على كفايتهم ، يتعرض الفلاح لانتهابات وابتزازات جديدة من جانب البكوات والكشاف ، تأتى لتسلبه ما قد يكون قد تبقى له ، وهكذا يظل الفلاح المسكين بلا اى دعم او سند ، فريسة لنزوات كل هؤلاء الناس من راكبى الخيل ، والمسلحين على الدوام بسلاح الحرب ولو كانوا فى نزهة صغيرة ، ويقدم الفلاح لهؤلاء الكثير من الابقار والخراف ومكاييل الحبوب التى يجنيها ، ثم يذهب ليعول ويئن من وطأة الجوع مع زوجته وأولاده ، ومع ذلك فان تعقل الفلاح واعتداله يسمحان له بتدبير ما هو لازم لمعيشته ومعيشة أسرته ، وهو يستغل وقته ، ويتلقى كأجر عددا متفقا عليه من مكاييل الذرة والحبوب ، وفى كل مساء يجهز لنفسه خبزه ، وهو يطحن الحبوب بواسطة رحى ، وينضج الخبز على رماد ساخن ، لانه لا يمتلك فرنا على الاطلاق . ولكى يحصل على البلح والبصل والزبد والبيض واللبن، فانه يستبدل ذلك مع فلاح آخر ببعض القمح والفول اللذين يتلقاهما من المالك . وهو قانع بهذا النمط من الحياة ، حيث ان الشقاء الذى اعتاده جعله يعيش فى طور الفطرة ، وهو يتناسى الماشية التى يسرقها منه البدو ، كما ينسى الأتاوات المتزايدة التى يفرضها عليه طغاته . وعندما يدر العمل عائدا كبيرا ويحصل بالتالى على اجر افضل يستطيع ان يوفر منه شيئا ، فانه يشترى من جديد حمارا وبعض الخراف وأدوات زراعية ويعود الى مسكنه الأول ، ويرد الشيخ اليه الأراضى التى كان يفلحها من قبل .

وملابس الفلاحين عبارة عن قميص بسيط ، وهذا الملبس مشقوق من الرقبة حتى أسفل البطن ، وليست له اكمام ، وينزل حتى الركبتين ، ويثبت بالجسم بواسطة حزام من الجلد ، وهو من القطن ولونه أزرق ، وبخلاف ذلك يغطون راسهم بغطاء من اللباد الأحمر يسمى طربوشا ، اما الفلاح الميسور بعض الشىء ، فيغطى رأسه بعمامة تتكون من شال من قماش قطنى مخطط يلف حول الطربوش ، وما عدا ذلك فان أذرع الفلاحين وسيقانهم واقدامهم عارية تماما ، بل ان كثيرين منهم لا يمتلكون حتى القميص الذى تحدثنا عنه ، ويكتفى هؤلاء بأن يثبتوا بحزامهم قطعة من القماش تلف حول وسطهم ، ويرتدى الأغنياء منهم طربوشا وسروالا ومعطفا أسود اللون من الصوف فوق القميص ، ويطلق على هذا المعطف اسم : بشت .

وعندما نعرف بؤس وهوان وتدهور حال الفلاحين ، فاننا نستطيع ان نكون فكرة عما ستكون عليه ملامح وجوههم ، فهل يمكن أن يكون لاناس كهؤلاء حكم عليهم بهذا التحقير وتلك العبودية ، وبأن يظلوا على الدوام لعبة فى ايدى عدد كبير من السادة — هل يمكن أن يكون لهم نظرة صريحة جريئة ، ووجه صاف بشوش ، ولقاء حر مفتوح ؟ ان مظهر هؤلاء البؤساء ليعلن عن حيرتهم ، والخوف يقرأ فى عيونهم ، وهم يمشون بقلق ، ورءوسهم محنية الى الأمام ، واذا ما ظن الفلاح عند لقائه شخصا ما ، أن هذا الشخص يحوز ولو قدرا ضئيلا من الجاه أو الثروة ، فانه يقترب منه ويده مبسوطة كما لو كان ليستجدى حماية او يطلب احسانا .

يا له من تناقض يبعث على الاثارة بين وضعهم الذليل والمستجدى ، وبين ملامح الخشونة والجد التى ترتسم على وجوههم ، التى تعطى لهما لحيتهم الطويلة قدرا كبيرا من النبل ! وشكلهم فى عمومه جميل ، وتتميز جباههم — برغم ان جزءا منها تغطيه العمامة — بالاتساع ، ولوجنات خدودهم نتوء شديد الوضوح ، وخط الأنف واضح بشدة أما الذقن فممشوقة، ويبدو الأمر وكأن ثمة رجالا قد منحتهم الطبيعة هذا الملمح الوتور ، لكن عليهم ان يعانوا من كل عوامل القهر والجبن والاذلال ، فكل ما فيهم يشهد ببؤس حالهم ، فلست تراهم الا باسطى الأيدى مكررين عبارة : فضة . فضة — اى أعطنى بارة . بارة واحدة ، وقد لا يدرك الغريب الذى لا يعرف عادات البلاد ، أن هؤلاء الذين يتسولون بهذا الالحاح ، يدفعون ايجار اراضى عديدة يفلحونها ، وأنهم يمتلكون ماشية وحميرا وخيولا ، وأنهم يعولون عائلة كبيرة العدد ، عن طريق زراعتهم الفاكهة والخضار ، التى يعرفون كيف يعودون منها بالنفع عليهم وعلى اسرتهم وقت الحصاد .

وهكذا فسوف نقع فى خطأ بين اذا ما حكمنا على الحالة الحقيقية للفلاح استنادا الى مظهره الخارجى ، فهو لا يلجأ لهذا التسول المظهرى الا ليخدع مضطهديه ، فمن المهم بالنسبة له ان يظنه الناس بلا مورد رزق وبلا وسيلة للعيش ، ذلك انه يرتجف على الدوام فرقا من أن يرى نفسه وقد انتزع منه القليل الذى يملكه ، لهذا فانه يشهد العالم كله على فقره وعوزه ، ويرتدى من الملابس ما ينسجم مع الانطباع الذى يريد ان يحدثه فى مشاهده ، فهو داخل قميصه هذا عار كما ولدته أمه ، ويقبل بنهم على اى طعام يقدم له ، ويجمع قطع المدينى التى يحصل عليها بعناية فائقة فى طرف منديله ، ويقاسي

الأمرين حتى لا ينفق قطعة واحدة من نقوده الا عنـد الضرورة الملحة ، وباختصار فانه لا يفوته شيء مطلقا يمكن أن يساهم فى اقناع الناس ببؤسه الشـديد .

وعندما لا يكون الفلاح فى حقله ، فانه يجلس القرفصاء أمام منزله . وحول كل القرى المصرية تشاهد آلاف الأكوام الطينية الناتجة عن الخرائب والهدم ، وهذه الأطلال كثيرة فى هذه البلدان اكثر منها فى اى مكان آخـر بسبب رداءة بناء الأكواخ ، وكذلك رداءة الخامات المسـتخدمة فى ذلك ، فهى على الدوام من الطين المعجون أو من الطوب النيىء . وعندما يكون الفلاح بلا عمل ، فانه يصعد هذه الأكوام ويظل جالسا أكبر فترة من النهار ، ويدخن النارجيلة وينظر الى الخلاء ، وفى بعض الأحيان يقوم بغزل القطن أو الكتان بينما تعجن زوجته روث الماشية ، لتشكل منها نوعاً من الأقراص تجففها بلصقها على جدران كوخها ، وبهذه القاذورات يحصل الفلاح على وقوده وينضج خبزه وطعامه .

وقد يظن المرء وهو يلاحظ بلادة وخمول هؤلاء البؤساء الذين يعيشون وسط خطوب لا تنتهى : أنهم شبه محرومين من موهبة الفكر ، ولكن ، لعل من الأصوب ان نقول ، بانه يبدو ان العناية الالهية ، بينما هى تهيىء للانسان ملكاته الروحية والذهنية التى تنسجم مع الظروف التى وضـعته فيها ، فانها قد شاءت أن تقترن البلادة بالفقر ، كما لو كان بغرض أن تخفى عنه الشقاء الذى قدر عليه أن يحيا فيه .

٤
عن الحـرف

ينقسم العمال فى مصر حسب حرفهم وليس ثمة قواعد لاحتراف الحرف، فالأب الذى يريد ان يعلم حرفة لولده يسلمه لمحل او عند معلم ، ويحمـل الصبى معه وجبات ليمضى اليوم ثم يعود فى المساء الى بيت والده . وبمجرد ان يتعلم فانه يحصل على اجر يزيد بزيادة مهارته .

وتنقسم الحرف المختلفة الى طوائف لها رؤساء ، ويشرف على معظمها وكيل الانكشارية (الكخيا المتولى) وهو رئيس الشرطة فى القاهرة ، وتخضع بعض هذه الطوائف لاشراف اغا العزبان والمحتسب ، وللأخير حق الاشراف الخاص على المواد الغذائية . وثمة حرف لا ترتبط بأى من هؤلاء الرؤساء ،

وتشكل طوائف هامشية مثل الراقصات والراقصين على سبيل المثال وعازفى المزامير وباعة الحدايد وعموما كل تجار الخردة[3] .

ويراس شيخ الحمامات تحت امرته ٢٤ شيخا من مختلف المهن ، مثل صناع الخيام والجمالين ولاعبى العصا والمغنين ومنشدى الشوارع والحمارين ، وهو يحكم فى الخلافات الصغيرة التى تنشأ بين هذه الطبقة من الناس فى موضوع حرفتهم ، ويتوجه الناس اليه عند طلب عدد كبير من دواب النقل لغرض ما . ويحصل من أتباعه عددا من الضرائب الصغيرة ، بعضها ثابت وبعضها طارىء ، ولكى يحصل على هذا الامتياز فانه يلزم يدفع اتاوات ثابتة لمختلف ضباط الأوجاقات ، نقدا او فى شكل اشياء تدخل فى تشكيل اثاث البيوت . ولا ينبغى أن ننسى أن هذه الرسوم التى يحصلها الملتزمون او مساعدوهم ، انما هى فى الغالب رسوم استبدادية مثل كل ما يحدث تبعا للعادات الاسلامية ، ولكن شيخ الطائفة بالرغم من اتساع سلطته فى زيادة الضرائب التى يفرضها ، يلتزم مع ذلك بحدود الاعتدال حتى لا يفقد الاحترام العام ، فيفقد بالتالى عمله وامله فى ان يشغل وظائف اخرى .

واذا لم يكن لدى الصناع ما يشكون منه من شيخهم . واذا رغبوا فى الاحتفاظ به ، فان الكخيا المتولى لا يستطيع فى نهاية العام ان يبدله ، كما انه ليس فى مقدور هذا الأخير زيادة مبلغ الالتزام الذى يحدد بشكل لا يقبل التغيير . وعندما لا يكون الصناع راضين عن شيخهم ، يضطر الكخيا لتعيين شيخ آخر ، ويطلب الى الطائفة ان تحدد له شخصا بعينه ، ويتم ذلك بطريق النداء وبدون اية صيغة أخرى وبدون اللجوء الى طريقة الاقتراع ، على الرغم من معرفة الاتراك لهذه الطريقة . وعندما يريد الكخيا ان يرغم الصناع على اختيار شيخ معين ، يجتمع كل مديرى الحمامات ليعترضوا على هذا العنف غير المشروع .

وفى الفصل الأول من مؤلفنا هذا قدرنا عدد عمال اليومية بـ ١٥ الفا فى مدينة القاهرة ، ويمكن تقسيم هذه الكتلة من الناس الى ثلاث طبقات :

الأولى : وهى أكثرهم بؤسا وتضم ١٠ آلاف شخص ، وهؤلاء يستخدمون فى اعمال ثانوية ولا يحصلون الا على أجر بالغ التواضع يفى

بالكاد لمعيشتهم ، وهم يرتدون قميصا بسيطا ازرق اللون ، من الصــوف ويحزم بحبل عند وسط الجسم وتغطى رؤوسهم بلبدة بيضاء ، اما مسكنهم فعبارة عن كوخ يكلفهم ايجاره الشهرى ١٠ بارات ، وكل اثاثهم عبارة عن مزقة من الحصير ينامون عليها مع زوجاتهم واولادهم ، ويمكن للعامل من هذه الطبقة أن يكسب حوالى ١٥ بارة فى اليوم وتشتغل زوجته (اذ ليست له الا زوجة واحدة) باعمال اخرى أقل كسبا ، تدر عليها على الأكثر ٤ ــ ٥ بارات ، ولا ياكل هؤلاء البؤساء اللحم على الاطلاق ، وهم يشترون الخبز وشيئا من الحبوب المطبوخة والبيض . وينفق الرجل بعض نقوده فى المقهى ويدخن تبغا بالغ الرداءة ، ويخدر نفسه باكل القنب الأخضر المعد ، فقــد اصبح الخدر بالنسبة له شبه ضرورى . وترتدى المراة كذلك قميصا أزرق اللون ، ويسير الأطفال عراة أو يغطيهم بعض الهلاهيل .

وتضم الطبقة الثانية حوالى ٣ آلاف عامل يومية ، ظروفهم ليست أقل من ظروف الأولين مدعاة للشكوى ، برغم انهم ليسوا على نفس الدرجة من البؤس ــ واجرهم ليس اكبر من أجــر الأولين مع انهم يعتبرون نوعا من وكلاء الأعمال ، لكنهم يحصلون على بعض المكاسب البسيطة لا يحصــل عليها الاولون ، ومسكنهم أكثر راحة واحسن تأثيثا ، ويتكون رداؤهم الطويل من قميصين او ثلاثة يرتدونها فى بعض الأحيان فوق القميص وبخلاف ذلك فان طريقتهم فى الحياة هى نفس طريقة الأولين .

ويمكننا ان نضع فى صفوف الطبقة الثالثة ٢٫٠٠٠ من العمال ، وهم فى حالة اكثر يسرا من الأولين بقليــل ، ويعمل هؤلاء كرؤســاء ورش ، ويسكنون فى مبنى كبير به دهاليز عديدة تؤدى الى مساكنهم ، وهذه المبانى تشبه الأديرة ، ويقطن كل عامل فى حجرة ، ويعــد طعامه فى مســكنه ، وزوجته هى التى تقوم بهذا العمل ، ويدفع ٣٠ مدينى كايجار شــهرى ، ويمتلك حصيرة خشنة من ألياف الكتان ، وبعض المخدات التى لها غطــاء ردىء ، بالاضافة الى اناء للطبيخ أو اناءين ، مع آنية أخرى رخيصة الثمن . لكن ما يميزهم على وجه الخصوص انهم يرتدون ملابس اكثر وافخم : شال من الموسلين او الصوف حول طربوش ليشكل عمامة ، وملابسهم الداخلية من التيل ، ويمتلك الواحد منهم دفية زيادة على الجلباب الطويل ، وهذه الدفية عبارة عن معطف من الصوف الأسود ، كما يرتدى ملاية وهى قطعة طويلة من قماش قطنى بها مربعات بيضاء وزرقاء ، وكل هذه الأشــياء التى

يمنى بتجديدها عندما تبلى يمكن أن تكلف العامل من ٩ — ٢٠ بوطاقة (خردة) ، ومع ذلك فأجر هؤلاء العمال ليس أكبر بكثير من أجر الأولين ، لكن ما يجعلهم يعيشون فى بحبوحة أكثر ، هو انهم يعملون طيلة العام باعتبارهم أكثر شهرة وأكثر دراية . وترتدى زوجاتهم قميصا أسود للزينة وقميصين أو ثلاثة لبقية الأيام . وهن يعملن فى غسل ونسج القطن ويعود عليهن هذا العمل بأجر متواضع .

ويبلغ عدد الخدم العاملين بالقاهرة ، كما سبق أن قلنا فى الفقرة الخاصة بسكان هذه المدينة فى الفصل الأول ، ثلاثة آلاف ، ويمكن أن ننظر اليهم باعتبارهم يشكلون ثلاث طبقات متمايزة فيما بينها بسبب طبيعة أعمالهم وهم : السياس (السايس) ، الفراشون (الفراش) ، القواسون (القواس) .

وينام السايس بالقرب من الخيول التى يوكل اليه أمر العناية بها ، ويكاد السايس لا يتقاضى اجرا ، اذ لا يعطى الا ١ — ٢ بارة فى اليوم ، وكمية من الخبز تبلغ ٢/١١ رطل ، لكنه يحصل على عدد لا يحصى من المكاسب الصغيرة المحظورة ، ويحصل فى معظم الأحيان على هدايا بمناسبة الاعياد (عيدية) ، وباختصار فهو يعيش فى بحبوحة . ومعظم هؤلاء الخدم لا يتزوجون ، وهم نظفاء ، وملابسهم حسنة ، ويتميزون بمهارتهم فى معاملة الجياد ، وهم متكبرون وقحون بطبعهم ، وعنيدون ، لكنهم لا ينساقون لغضبهم الا فيما بينهم ، هم يبدون الكثير من الخضوع نحو اسيادهم .

ويمكن أن نشبه الفراش بالـ Valet de chambre عندنا ، فهو الذى يعنى بالأثاث ، وهو الذى يسهر على نظافة البيوت وعلى الاضاءة ، وهو يقيم عند سيده ولا يترك مسكنه الا عند زواجه ، ولكى يحصل على هذه المرتبة فانه ينتظر حتى يصبح رئيسا للفراشين ، وهو على الدوام حسن الملبس ، وهذه الطبقة هى التى تساهم فى اعداد ملذات سادتهم المنحطة ، وهم يندفعون فى القيام بهذه الخدمات لأبعد مما كان السادة يرغبون ، وأجرهم ليس محددا ، وانما يتوقف على مشيئة السادة .

وعندما يصبح هؤلاء الخدم رؤساء ، يصبح لهم منزل وأحيانا منزلان قليلا الاتساع تقيم فى كل واحد منهما زوجة ، وأثاثهم فاخر لحد ما ، وتمتلك زوجاتهم بعض الحلى .

ويسير الشرقيون من ذوى المكانة أمامهم خدما ، يسبحونهم سائرين على الأقدام وحاملين عصا لابعاد الجمهور ، وليهيئوا لسادتهم مكانا . ويسمى الخادم من هذا النوع : القواس ، وهم ينقلون أوامر سيدهم فى داخل المدينة والى القرى المجاورة ، ويختار لهذا العمل فلاحون ورجال من ابناء الريف لأن مظهرهم وقامتهم اكثر مهابة من مظهر وقامة سكان المدن . ولا يدفع للقواس أجر ، ولا يحصل هو الا على الخبز ، لكنه يعوض هذا الغرم الى حد كبير ، على حساب الذين يحمل اليهم اوامر او رسائل من طرف سيده وبخاصة اذا ما كان لسيده نفوذ كبير . وليس ثمة أى نوع من المغارم أو الأتاوات الا ويحصلها لحسابه . والقواس عند الكبار هو الذى يقوم لحسابهم بارتكاب أحداث السلب والانتقام ، وهو الذى يهوى بعصاه على من يريد سيده أن يعاقبه او يهينه . كما انه الذى ينزل الشخص الذى يخضع لهذه الاهانة من فوق ظهر حصانه . وكل هؤلاء الخدم على وجه التقريب متزوجون وترتدى زوجاتهم مثلما ترتدى زوجة حرفى ميسور ، وملابسهم على الدوام من قماش خشن من الصوف الأسود ، وهم يرتدون شالا من الصوف أو ملاية تتدلى على كتفهم ، ويغطون رءوسهم بلبدة بيضاء ؛ ثم بطربوش أحمر ، وهم يحرصون على ان يضعوا بينهما كثيرا من الورق وقطعا من أقمشة ردئية لتمتص ضربات العصا التى تنهال عليهم عادة من ساداتهم ، ويسمى رئيس هذه الطائفة من الخدم : مقدم ، ويفرض هؤلاء الرؤساء عددا كبيرا من الأتاوات ويغتنون بسرعة .

اما السقاءون فهم على نحو ما رسل الحريم ، وينتهى بهم الأمر بأن يكونوا ثروات كبيرة ، والنساء هن اللائى يخترنهم ويتبادلنهم فيما بينهن . ويتمتع هؤلاء الخدم عامة بحظ أوفر من الآخرين ، ويوليهم ارباب البيوت اكبر قدر من الرعاية وتبسط النساء عليهم حمايتهن ، ويحرصن على راحتهم، ويمكن أن يكون لهذا التكريم ، اسباب عديدة ، فالنساء : وهن بطبعهن رقيقات وشفوقات — لا يمكن أن يسلكن هذا المسلك الا ربما بدافع من شفقة حميدة ، وربما بسبب من تصنع الدافع الانسانى ، ومع ذلك فيحتمل ان تكون ثمة نواحى ضعف خفية هى التى تحدو بهن الى اكرام رجال يكنن لهم قدرا من العاطفة .

وفيما عدا ذلك ، فان الخدم فى مصر يلقون معاملة طيبة على وجه العموم واذا ما نحينا بعض المحن البسيطة ، وبعض العقوبات التى قد تكون

قاسية بعض الشيء فى بعض الأحيان ، والتى يوقعها عليهم السادة بسبب تقلب أهوائهم ، أو بسبب نفاد صبرهم ، فليس ثمة فى حياة هؤلاء الخدم ما يمكنهم أن يشكوا منه . فالسادة يولونهم الكثير من العطف : بل ويرى السادة فى معظم الأحيان يتخذون جانب خدمهم بحماسة فريدة . سواء كانوا مخطئين أو كانوا على صواب ، وسواء كان الأمر بدافع من العطف علّيهم أو بدافع من كبريائهم وكرامتهم هم . وتذكر كثير من الأمثلة على بكوات تشاجروا بقضب فيما بينهم بسبب مشاحنات خدمهم .

وطابع هؤلاء الخدم عادة سيىء مرذول ، والذين يتوصلون منهم الى الحصول على نوع من الثراء يصبحون وقحين متعاظمين ، وهم وشاة غدارون ومخاتلون ماكرون ، وويل لمن لا حماية لهم أو جاه حين يتعاملون معهم ! انهم اكثر غلظة وقسوة من المماليك الذين يخدمونهم ، والفراش والسايس والمقدم والسقاء مرتبطون بسادتهم ، وهم راضون عن حظوظهم ولا يكادون يغيرون سيدهم . وهؤلاء السادة يعاملون خدمهم برقة فى غالب الأحيان كما سبق القول ، وهم يعنون بأبناء هؤلاء الذين يولدون فى كنفهم ، لأن المصريين جميعا مولعون بالغلمان ويتبادلونهم فيما بينهم ، وتستقبل هذه الهدايا بسرور بالغ ، فلماذا اذن والأمر كذلك ، لا تكون بقية الأمور متسقة مع هذه الميول الطبيعية ، والملذات البريئة الظاهرة ؟

الملاحق

١

نبـــذة عن الحفل الذى يقام عنـــد مولد الأطفال

سنقدم هنا مذكرة طبعت بالفعل فى القاهرة ، وتعطى فكرة دقيقة عن العادات التى تتم عند مولد الأطفال الذكور . ويعجب المـــرء من أن الأب لا يدخل مطلقا وبأية طريقة ضمن اطار هذا الحفل الشيق .

فى اليوم السابع لمولد الطفل تجمع الوالدة صديقاتها وتمضى اليوم كله فى لهو معهن .

وتنقضى الفترة بين الوجبتين فى غناء ورقص تقوم بهما العوالم . وبعد الغداء يتم حفل تعميد الطفل الجديد ، ويطلق على هـــذا الحفل اســـم : السبوع ، وهو عبـــارة عن نزهة فى كل حجرات مســـكن الحريم ، وتمشى واحدة من الخادمات الرئيسيات على رأس الاحتفال حاملة صينية من النحاس وضع فوقها وبشكل دائرى عدد من الشموع يعادل عدد النساء اللاتى يشاركن فى هـــذا الاحتفال . وهذه الشموع مضـــاءة وألوانها متعددة ، وتســـير بعدها القابلة الموكلة بالطفل وعلى جانبيها خادمتان ، تحمل صغراهما موقدا من النحاس الأصفر ، وتحمل الأخرى طبقا يحتوى على حبوب شعير وقمح وعدس وفول وأرز وملح بحرى وبخور . اى سبعة أصناف بعدد الأيام التى انقضت منذ مولد الطفل .

وتمشى الأم بعد ذلك تحيط بها العوالم واقرب صديقاتها اليها ، وتشكل الزوجات الأخريات آخـــر مجموعة فى الموكب . وفى أثنـــاء الســـير تعزف موسيقى صاخبة للغاية ، وفى كل مرة يدخل فيها الموكب حجرة من حجرات الحريم ، تأخذ القابلة حفنة من الحبوب والبخور بيمناها وترمى بجزء منـــه فى الحجرة ، ويرد عليها بزغاريد طويلة جدا ، ويصبح ايقاع الموسيقى أسرع وأكثر صخبا ، وتحاول النساء السير فوق الحب المنتشر فى كل مكان .

وعند العودة الى حجرة الحريم الرئيسية ، توضع صينية الشموع على كرسي بدون مسند ، موضوع وسط الحجرة ، وتأتي كل واحدة من المشتركات

لتضع قبضة من البارات ، وترتمى الفتيات الصغيرات والخادمات على الشموع ليتنازعن عليها . وبعد ذلك تحمل القابلة الصينية ، وتحصى دخلها من النقود التى تجدها عليها ، والتى القيت هناك من أجلها .

وينتهى الحفل بزيارة للطفل ، وتزين رأسه بقطع من النقود الذهبية التى تقدم له كهدية ، أو توضع فى مناديل غالية تحت رأسه .

٢
جهل المصريين والنوبيين بخصوص رسم الصور الانسانية

سبق أن تحدثنا عن قلة معرفة المصريين المحدثين بكل ما يتصل بالفنون الجميلة ، ولكن يتبقى علينا أن نقول كلمة عن اى حد يبلغ عمق هذا الجهل فى موضوع الرسم والتصوير نتيجة للمعتقدات التى تصاحب الدين الاسلامى ، اذ سوف يوضح ذلك كثير من الأحداث التى وقعت أمام أعيننا ، أكثر مما توضحه الأفكار او الآراء التى يمكن أن نقدمها .

كان الأستاذ ريجو Rigo الرسام وعضو المجمع العلمى المصرى ، قد بدأ سلسلة من الدراسات حول ملامح السكان . وقد كان وصول قافلة النوبة الى القاهرة عام ١٧٩٩ فرصة طيبة بالنسبة له ، ينبغى الامساك بها ، وكان قائد القافلة عبد الكريم على وجه الخصوص يلفت النظر بقوة الملامح النوبية المرتسمة على وجهه . ونجح الأستاذ ريجو فى أن يجذبه اليه باغراء النقود . وبعد مفاوضات طويلة ــ كثيرا ما انقطعت ــ جاء عبد الكريم الى المرسم فى حراسة ١٠ ــ ١٢ شخصا من مواطنيه ، مع كل الاحتياطات التى يمكن ان يقوم بها رجل مقتنع بأنه مستدرج الى كمين . ومع ذلك فلقد أمكن طمأنته فى النهاية واقناعه بصرف حراسه ، وبدأ الأستاذ ريجو فى عمل صورة له بالحجم الطبيعى ، وبدأ النوبى فى اول الأمر مسرورا بالخطوط الاولية فى الرسم ، وكان يشير باصبعه الى أجزاء الرسم ، والى الأجزاء التى تقابلها فى وجهه وهو يقول : طيب . طيب . ولكن عندما بدأ الفنان يضع الالوان على الصورة ، كان التأثير مختلفا تماما ، فلم يكد عبد الكريم يلقى عليها نظرة حتى تراجع وهو يصرخ صرخات مرعبة ، وكان من المستحيل تهدئته ، وما ان فتح باب المرسم ، حتى أطلق لساقيه العنان ، وصاح فى الشارع بأنه قادم من بيت نزعوا فيه رأسه ونصف جسده ،

وبعد ذلك بعدة ايام . جاء ريجو الى المرسم بنوبى آخر ، يعمل بوابا لأحد بيوت المعهد ، فلم يكن اقل من مواطنه شـــعورا بالرعب عند رؤيته للرسوم ، وجرى يقص على كل جيرانه ، بانه شاهد عند رجل فرنسى عددا هائلا من الرءوس والأطراف المقطوعة ، فسخر اخوانه منه ، وتجمع عشرة منهم ليتأكدوا من صـــحة الواقعة ، ولـــكن لم يكن ثمة واحـــد من بينهم لم يتملكه الفزع عند دخول المرسم ، ولم يشأ واحد منهم ان يبقى فى المرسم لحظة واحدة .

وقد رسم الأستاذ ريجو سيدة من نفس هذه البلاد جاءت الى القاهرة مع عبد الكريم . وكان على الرسام ان يرغمها حتى تقتنع بأن تدع نفسها ترسم ، وما أن انتهى الفنان من رسم الراس والذراعين حتى قالت له : « لمـــاذا تأخذ راسى ؟ ولمـــاذا تنزع عنى ذراعى ؟ » . وبدا انها مقتنعة بأن كل أجزاء جسمها التى انتقلت صورتها الى اللوحة ، سوف تذبل .

ويعتقد المسيحيون من أهل البلاد ان كل الرسوم تمثل قديسين ، وكان يوجد فى هذا المرسم لوحة لفرنسى ، كان الأقباط يخرون امامها ساجدين عند دخولهم المرسم ، كما كانوا يقبلونها فى خشوع شديد(١) .

٣
فن الأفاعى أو ســـحرة الثعابين

اعتقد ان علينا قبل أن ننهى هذا المؤلف ، أن نتحدث عن هؤلاء الرجال غير العاديين الذين يحترفون اكتشاف الثعابين وتطهير المنازل منها . وعلى الرغم مما هو واضح فى عملهم هذا من دجل وشعوذة ، وعلى الرغم من أننا نقر مقدما أن قليلا من القراء فقط هم الذين سيولون الثقة بهذه المعجزات المزعومة ، فانه مما لا مندوحة لنا عنه أن ندخـــل فى تفاصيل حـــول هذا الموضوع . ونحن نعترف ـــ دون أن يعنى ذلك بساطة مفاهيمنا ، أو اننا من بين اولئك الذين يسهل اقناعهم ـــ باننا كنا بانفسنا شهودا على بعض الوقائع بالغة الغرابة لدرجة اننا لا نستطيع أن ندخل فن الأفاعى ضمن اطار الأمور المتوهمة والخيالية ، بل ان واحدا مثل بروسبير البان Prospère Alpin ذلك الطبيب ذائع الصيت ـــ ولا يمكن أن نصفه بأنه واحـــد ممن يعتقدون

---

(١) انظر : Le Courrier d'Egypte, an 25

فى الخرافات ـــ قد نقل الينا انه راى رجالا يتعاملون دون ان يصيبهم ادنى اذى ، مع الزواحف السامة والعقارب .

وقبله عرف سترابون Strabon الحواة الذين كان المصريون القدماء ينظرون اليهم ، على اعتبار أن لديهم موهبة سحر الثعابين ، وكل ما نقله الينا المؤلف بخصوص هؤلاء الحواة يتجدد هذه الأيام .

اثناء وجود الجيش الفرنسى فى مصر ، اراد عديد من الاطباء المهرة ان يتاكدوا بانفسهم من حقيقة تلك الثقة التى يوليها الرحالة لهؤلاء السحرة . وكان من السهل عليهم فى البداية أن يعترفوا بشعوذة البعض ، على الاقل فيما يتعلق بتلك الممارسات الغريبة التى يستغلون بها بساطة مفهوم جمهور جاهل ابشع استغلال ، فلكى يدخل هؤلاء المشعوذون شخصا ما فى رفقتهم ، ولكى يجعلوه فى مأمن من لدغات الثعابين، فانهم يقومون بصب بعض الماء فى اناء ، ثم يضيفون اليه الزيت والسكر ، ويحاولون عمل مزيج من هذا الخليط، وبعد تلاوة بعض الأدعيات يبصقون فى الاناء ، ويأمرونه بشرب هذه الجرعة المنفرة ، وبعد ذلك يعلقون فى اذنيه ثعبانين كبيرين من اسنانهما ، ويظل الثعبانان متدليين هكذا لمدة ربع ساعة ، وبعد انتهاء العملية ، يخرج هـــذا « المأذون » من كيسه ثمن الخدمة الجليلة التى اسديت اليه ، وينسحب ، وهو شديد الاقتناع بأن ليس عليه أن يخشى بعد اليوم من لدغات الثعابين .

ولعل هذا الاقتناع الذى حصل عليه هذا « المأذون » ، والذى جعل منه المشعوذون اقتناعا تاما بمثل هذه العملية الشائعة ، هو الفائدة الوحيدة التى جناها هذا الرجل ، اذ اننا فى الواقـــع نستطيع بسهولة ان نتجاسر على الاشياء التى تقل خشيتنا لها ، وهـــذه الثعابين تشبه نوعا من الحيوانات لا يصبح ضارا ، الا عندما تظن أن من يقترب منها ـــ بسبب اضطرابه غير الواثق وتردده ـــ يريد ايذاءها . اننا مضطرون للتفكير على هذا النحو ، على الاقل حتى يمكننا ان نفسر النتائج الغريبة لهذا التلقين الغريب لهؤلاء السحرة ، اذ كيف يستطيع هؤلاء الناس ان يحملوا فى ملابسهم ، بل وعلى صدورهم ، زواحف من كل نوع يلتقطونها بالصدفة ، دون أن تقع لهم أحداث مؤلمة ؟ كيف يمكنهم ان يضعوا ، دون أن يصيبهم ادنى اذى ، عـــقارب حية تحت عمامتهم الحمراء التى تغطى رءوسهم الحليقة ؟ لقد ظننا فى البداية انهم كانوا ينزعون اسنان الثعابين او فكى العقارب ، لكن واحدا من زملائنا مر بتجربة

تثبت العكس . فقد أراد ذات يوم أن يتأكد من الحقيقة ، ونقل شكوكه هذه الى واحد من هؤلاء الرفاعية ، فما كان من الأخير الا أن تناول اصبعه على الفور ، ودسها فى فم الثعبان الذى يمسك به بين أصابعه ، وأخذ زميلنا بفعل المفاجأة ، وشعر بأسنان الثعبان الدقيقة والناعمة للغاية . صحيح أن كل هذا يمكن تفسيره ، اذا ما تبنينا رأى بوكوك Pocoke : فهذا العالم الرحالة كان يزعم أن ليس ثمة ثعابين ســامة فى مصر . ولكن هل تأكدت صحة مثل هذا الزعم ؟ وهل الأفعى العــادية ، أو الأفعى ذات القرون ، وهى المعروفة بخطورتها فى أوربا ، تكون أقل خطورة منها فى أفريقيا ؟ وهكذا فلا يمكن أن يكون زعمه صحيحا ، وفضلا عن ذلك ، فقد حدثت تحت ناظرنا امور برهنت على عكس هذا الراى .

بقى علينا ان نتحدث عن فن استدعاء الثعبان من شقه ، وهو أمر أكثر مثارا للدهشة ، بل انه يشبه المعجزة . وقد واتتنا هذه الفرصة لنرى هذا المشهد الفريد لأول مرة فى طهطا بالصعيد عند آباء الدعوة . كان ثمة رجل يمر بالشارع وثمة سلة تتدلى من ذراعه ، ويعلن بصــوت عال أنه يطهر البيوت من الثعابين التى يمكن أن تحتويها . واردنا ان نضع نداء الرجل موضع الاختبار ، فى الدير نفسه ، بالرغم من تعليمات رجال الدين ، الذين يعلمون تلاميذهم الا يكونوا على استعداد مطلقا لتقبل مثل هــذه الأفكار . ومع ذلك فقد كان ثمة واحد من الآباء اقل تشددا من اخوانه ، وحبذ فكرتنا ، واستدعى الرجل الذى نحن بصدد الحديث عنه الى فناء صغير من أفنية الدير وكانت سلته تحتوى على ثعابين كبيرة ومن أنواع مختلفة ، قال انه اخرجها من البيوت المجاورة التى دعى اليها . وسألناه ما ان كان ثمة زواحف بالدير ، وما ان كان بمقدوره أن يخرجها ، عندئذ شكل قسمات وجهه ، وجهد لكى يضفى على وجهه مسحة من الغموض ، وجال ببصره فى كل الأماكن المحيطة به ، وكانت كل اشاراته توحى بالجدية والخطورة ، وكان يتخذ هيئة الرجل الملهم ، ثم أوقف بصره فى النهاية على حجرة معتمة للغاية وهو يتشمم الهواء ، كما لو كان بامكانه أن يستدل على وجود الثعابين عن طريق الشم ، ثم اجاب بانه لاتوجد زواحف الا فى هــذه الحجرة . وفتح باب الحجرة وتقدم بخطى بطيئة ، حاملا فى يده عصى صغيرة ، وكان يغمغم بكلمات بنغمة خاصة وبصوت خفيض ، ولم يفهم رجال الدين من كلماته الا كلمة : السلام عليكم ، وبعد هذا النوع من « التعزيم » الذى استغرق خمس دقائق على الأكثر ، وضع

احدى قدميه فى الحجرة ، ويصق على الأرض ، وانحنى ، ثم نهض على الفور ، وقدم الينا ثعبانا يبلغ طوله اربعة أقدام ، وكان يمسك به من ذيله ، ويسنده بعصاه . ولم يكن هذا كل شىء فقد قام بهذه الطقوس مرتين وأحضر ثعبانين آخرين من حجم صغير ؛ وضعهما مع الثعبان الكبير فى السلة . وصرفنا الرجل ، ودفعنا له ثمن المشهد الذى قدمه لنا . ونحن نعترف برغم قلة ميلنا الى تصديق ما حدث ، بأن الخداع كان كاملا ، واننا منذ ذلك الوقت ، اصبحنا أكثر ميلا للاعتقاد فى وجود السحرة الذين عقدوا صلات مع الشيطان ، حسب افكار الاقباط الدينية .

ولعل من الممكن الاعتقاد بأن هذه العملية ليست سوى حيلة من حيل السحرة أو الحواة ــ وهو ما اعتقده كثيرون ــ لكننا كنا قد اتخذنا كل الاحتياطات الممكنة ، التى لا يمكن معهــا خداعنا ، بل ويمكننا ان نؤكد بأن الحاوى لايخبىء مطلقا ثعابين فى ملابسه . وفضلا عن ذلك فقد أرغم البعض منا ــ كى نبدد كل شك ــ هؤلاء الرجال على أن يتجردوا من ملابسهم ، ومع ذلك فقد حازوا نفس النجاح فى عملهم . ونستطيع أن نقدم على ذلك الكثير من الأدلة ، لدرجة لايمكن معها ان نتهم بعدم الكفاءة ، لكن ذلك يعنى أن نتوقف طويلا حول هذا الأمر ، ومع ذلك ، فلكى نفسر بطريقة صحيحة وموضوعية وقائع خارجة عن المألوف مثــل تلك الوقائع ، فنحن نعتقد ان بالامكان الافتراض بأن الحــواة المصريين لديهم القدرة على ان يمطوا لأصواتهم نغمة قادرة على جذب الثعابين ، بنفس الطريقة التى يستطيع بها الصياد ان ينغم صوته لكى يخدع فريسته التى يجذبها الى شباكه . ويؤكد الأستاذ دى لاسبيد de Lacépède فى كتابه Histoire naturelle ان الثعابين عامة ، تفرز رائحة قوية ، وأن بعض الناس يفرزون بالمثل رائحة مسكية . ويذكر واقعة تؤيد ماذهب اليه ، يمكن ان نستنتج منها أن الرائحة تخدم الرفاعية عند اكتشاف الزواحف ، بنفس القدر الذى يخدمهم صوتهم .

ويبدو ان هؤلاء الناس قد عرفوا تأثير اللعاب على هــذه الحيوانات الخطرة ، وكل العمليات التى يتبعونها توضح ذلك بجلاء ، وتتفق كثيرا مع راى جاليان Galien ، الذى يدعى ان اللعاب سام بالنسبة للعقارب والثعابين وقد شاهدنا كثيرا من العلامات التى تدعم ما ذهب اليه هذا الطبيب العالم . فالواحد من هؤلاء الحواة ، يعرض امام الناس ثعبانا ضخما ، ويظل يهيجه

حتى يوشك الحيوان أن يعضه ، وعندئذ يمسق فى نمه فيتوقف غضب الثعبان على الفور ، بل يظــل بلا حــراك تقريبا . وهــذه التجارب التى تتكرر مرات كثيرة ، وبنفس النجاح ، لا تسمح مطلقا باثاره الشك حــول مفعول اللعاب ، ان لم يكن كسم للثعبان ، فعلى الأقل كمخدر ، وقد اتبع بعض اطباء الجيش نفس هذه الطرق مع العقارب ، فحصلوا على نفس النتائج .

واشهر الثعابين المصرية على الاطلاق هو بلا جدال ثعبان الصعيد ، الذى يعرف باسم الشيخ هــريدى . وقد تحدث كل من نوردن Norden وبروس Bruce وسافارى Savary عن هذا الثعبان الشهير ، الذى رفعته سذاجة العامة واحتيال المشايخ المسلمين الى مرتبة ولى من الدرجة الثانية. ويمكن ان نرجع هذا التقديس غير المالوف ، الى أزمنة ضاربة فى القدم ، حيث كانت شعوب مصر كما يقول هيرودوت واليان Elien ، تولى للثعبان بشكل خــاص ، قدرا كبيرا من التــقديس ، فكانوا يتخــذون منه رمزا للخصوبة . وقد تحدث دوبوى Dupuis عن تلك العبادة العالمية التى اتخذت الثعبان موضوعا لها ؛ وعن الدور الذى لعبته الثعابين فى كل الرموز العالمية التى ادت الى نشاة العبادات المختلفة . لكن ما سوف يدهش عددا كبيرا من القراء بلا جدال . هو ان يظل الثعبان هريدى ، يلقى فى مصر ، وتحت سيادة المبادىء الاسلامية ، نفس المكانة التى كانت له فى الماضى عند عبدة ايزيس وأزوريس ، رمز الخصوبة ، وانه لايختلف فى شىء ، لا فى الشكل ولا فى الطبيعة ، عما وصفه اليان . وقد اخطأ هيرودت عندما خلط بين هذا الثعبان وبين الحية ذات القرون . وتأتى النساء العقيمات لزيارة الأماكن التى كانت مخصصة له ، لكى يحصلن بفعل القرابين والأضحيات على نهاية لعقمهن كما تذهب اليه الفتيات ليسررن اليه برغباتهن فى أن يصبحن عمــا قريب زوجات وامهات . وسوف نلزم الصمت عن كل الأحابيل المقززة للمشرفين على مزار هذا الثعبان ــ الاله ، وكذلك عن المشاهد الشهوانية ، التى هى نتيجة طبيعية لعبادة غريبة ، بعيدة عن العقل لهذه الدرجة ، ويكفينا ان نقول بأن النساء بعد ان يذبحن اضحية عند باب المزار ، يصعدن عند دخول الليل الى قمة سلم يبلغ عدد سلماته ١٠ ــ ١٢ سلمة ، وما ان يحل الظلام ، حتى ينزلقن بطريقة غامضة الى داخل المزار ليقضين بقية الليل مع شيخ . ومن نافلة القول ، ان نذكر ان هؤلاء السيدات ينجحن فى معظم الأحيان فى تحقيق الهدف الذى قمن بهذه الزيارة من أجله .

ويحكى عن أصل اسم الشيخ هريدى : ان شيخا بهذا الاسم كان معروفا بفضائله ، قد ظهر من جديد — بعد موته — فى صـــورة ثعبان ، وهـــذه الخرافة التى يجد شيوخ البلاد مصلحتهم فى نشرها وتدعيمها ، أصبحت طعما يسهل بلعه ، وتلك هى نشأة كل الخرافات(١) .

---

(١) فى نهاية هذا المؤلف علينا ان نبدى عرفاننا الى الأستاذ فورييه Fourier السكرتير الدائم للمعهد العلمى المصرى ، للمجـــاملة التى ابداها نحونا ، عندما أمدنا بمذكراته عن مصر ، والتى كانت مصدرا لكثير من ادق الأفكار . وكان مركز القومسيير الفرنسى عند ديوان القاهرة — وهو المنصب الذى يشغله اثناء الحملة — قد جعله على صلة يومية بكبار المشايخ ورجال الشريعة ، واكثر اهل البلاد تنورا ونفوذا . كما أن المخطوطات التى تركها المرحوم الأستاذ جلوتييه Gloutier ، عضو المعهد المصرى — قسم الاقتصاد السياسى — لم تكن بأقل نفعا لنا ، فقد استطاع جلوتييه . بوصفه مديرا للمالية ، أن يحصل على كل المعلومات الدقيقة . كما لا ينبغى ان نلزم الصمت ازاء الأفضال التى ندين بها للاستاذ جومار Jomard ، عضـــو المعهد ، بخصوص كل المعلومات القيمة التى قدمها لنا ؛ وللعناية الخاصـــة التى ابداها بمراجعته هذا المؤلف .

كما اننى فى النهاية : اتقدم بخالص شكرى : الى السادة بارسيفال جرانميزون Parseval Granmaison ؛ وروويه Rouyer ، وبوديه Boudet ودالمـــاس Dalmas ؛ الذين زودونى ، بالمثـــل ، بالمعلومات الهامة التى جمعوها فى ظروف موانية .

كما ان الرحالة المدقق نيبور Niebuhr ، قد قدم ملاحظة بالغة الاثارة عن الرياضة والألعاب عند المصريين ، وعن ملابسهم ، وعندما حانت لنـــا فرصة مراجعة دقة هذه الملاحظات : اخذنا عنه الكثير وادخلناه فى دراستنا هـــذه .

الكتاب الثانى

دراساتٌ تكميليّة

مذكرة مقدمة من المسيو بانكوك
الى سيمون وزير الداخلية بخصوص اعادة
طبع كتـــاب « وصف مصر »(*)

كانت مصر موضوعا لعدد ضخم من المؤلفات ، كما وصفت من قبـــل مرات كثيرة ، لكن أحدا لم يتمكن ، حتى وقت قريب ، من الحصول على معرفة تامة ودقيقة عن هذه المنطقة من العالم . كان ذلك فى الحقيقة يتطلب حدثا غير عادى ، وظروفا مواتية لا يستطيع أن يهيئهـا الا جيش منتصر ، حتى تتهيأ الوسائل اللازمة لدراسة مصر بالعناية التى تليق بها . لقد كانت هذه البلاد ، التى زارها أشـــهر فلاسفة الزمن القـــديم ، هى النبع الذى اغترف منه الأغريق ، بل الرومان كذلك ، مبادىء القوانين والعلوم والفنون، ولم يكُ مسموحا للأجانب فى عهد الأغريق والرومان أن يتوغلوا فى هـــذه البلاد حتى يبلغوا معابدها ، ولم تعد هذه المنشآت فيما بعد ــ بعد أن حاق بها الاهمال بفعل الثورات الدينية والسياسية المتوالية ــ اكثر منالا بالنسبة للرحالة الأوربيين منذ أن استقرت الديانة المحمدية هناك .

أما أن توصف وترسم الصروح التى يمكن القول بأنهـــا كانت تغطى أرض مصر القديمة ، وأن تجمع وتفحص كل منتجاتها الطبيعية ، وأن توضـع خرائط دقيقة ومفصلة عن هذه البلاد ، وأن تجمع الشـــظايا القديمة (من آثارها) . وأن تدرس الأرض والطقس والجغرافية الطبيعية ،وأخيرا أن يلم الناس بكل ما يتصل بتاريخ المجتمع ، وتاريخ العلوم والفنون ، فلقد كانت تلك هى غاية هذه المهمة التى تطلبت اسهام عدد كبير من الدارسين ، كانت تحركهم جميعا نفس الغايات ، وهذا العمل الذى ننشر منه اليـــوم طبعته الثانية هو الثمرة المشتركة لجهودهم .

(*) نشرت هذه المذكرة بدون أى عنوان .

وما ان عاد الى أرض الوطن هؤلاء العلمـــاء والرياضيون والفلكيون والمهندسون وعلماء الطبيعة والمستشرقون ورجال الآدب ، والمعمـــاريون والرسامون ، بعد أن تعرضوا لكل اخطار هذه الحملة العسكرية الخالدة ، وهم السادة : برتوليه Berthollet ، مونج Monge ، كونتيه Conté ، كوستاز Costaz ، ديليل Delile ، ديجينيت Desgenettes ، ديفلييه Devilliers ، فورييه Fourier ، جيرار Girard ، جولوا Jollois ، لانكريه Lancret ، جومار(١) Jomard ، أندريوسى Andréossy ، بلزاك Balzac ، بليتست Belleteste ، بيرتر Bertre ، بوديه Boudet ، دى شابرول de Chabrol : كورابوف Coraboeuf ، دى كورانسيه de Corancez ، كورديه Cordier ، كوتل Coutelle ، دى لابورت de Laporte ، ديكوتيل Descotils ، دى بوا ايميه Dubois-Aymé دوشانوى Duchanoy ، دوترتر Dutertre ، فافييه Favier ، فاى Faye ، فيف Fève ، جراتيان لوبير Gratien Lepére ، جيوفروى Géoffroy ، جاكوتان Jacotin ، جوبير Jaubert ، لارى Larry ، ليسيسن Lecesne ، لوجنتى Legentil ، لوبير الاكبر Lepére ainé ، لوبير المهندس المعمارى Lepére architecte ، مالو Malus ، مارسيل Marcel ، مارتان Martin ، نورى Norry ، نويه Nouet ، بروتان Protain ، رافينو Raffeneau ، ريج Raige ، روييه Rouyet ، سان جينى Saint-Genis ، صامويل برنارد Samuel Bervard ، سافيينى Savigny ، فيار Viard ، فيوتو Villoteau ، فانسان Vincint . ما ان عاد هؤلاء الى أرض الوطن حتى أنفقـــوا

---

(١) كل هؤلاء اعضاء فى اللجنة التنفيذية التى كان يراســـها المسيو برتوليه والتى يتولى سكرتاريتها جولوا ، اما المســـيو جومار قوميســـير الحكومة ، فقد تولى ادارة وتنسيق العمل منذ وفاة المسيو لانكريه . وقد توفى عشرة من الباقين منذ عودتهم (من مصر حتى الان) .

سبعة عشر عاما فى اعداد وتصنيف المواد التى كانت قد تجمعت لديهم .. واننا لنأسف لاننا لم نتمكن من ان نذكر هنا أسماء كل أولئك الذين سقطوا ضحية لحبهم للتضحية أو سقطوا بفعل الحرب أو الطقس .

لقد حشدت فرنسا كل جهودها لفتح هذه البلاد ، ولقد وظفت كذلك كل جهود الفنون من اجل وصفها ، ولقد اكب عدد كبير من الخطاطين والرسامين ورجال الطباعة المهرة والميكانيكيين ، وما يقرب من أربعمائة من الحفارين .. عملوا جميعا بمثابرة تدعو للاعجاب فى اقامة هذا الصرح (وصف مصر) ، الذى يجمع ما بين مجد فرنسا الحديثة وما بين كل ذكريات مصر القديمة . ان هذا العمل المخصص لوصف الكثير من روائع المنجزات العملاقة ، هو نفسه انجاز عملاق فى مجالات الآداب والفنون والعلوم ، ولقد خرج هذا الانجاز العظيم عن الحدود المألوفة حتى الان للمجموعات المحفورة (اللوحات) ، فقد كان يلزم الورق قوالب واشكال (فورمات) لم يسبق استعمالها ، بل لقد تطلب الأمر أن نعثر لها حتى على اسم جديد . ان مصانع اوربا لم تصنع حتى اليوم أوراقا بهذا الحجم أو على هذه الدرجة من الجمال ، بل لقد اصطنعت وسائل ثمينة لتطوير فن النحت أسرعت بتقدمه ، كما اثرى فن الطباعة بطرق مستحدثة طورته .

وفى النهاية ، وبعد الكثير من العناء والمثابرة ، وبعد مجهودات من كل نوع شغلت او نالت عناية اكثر من الفى شخص كل عام فى فرنسا ، وبعد ان اسهمت العديد من الفنون الهامة بالكثير ، وبعد أن نفذت — بعناية ومثابرة — خطة لم يتناولها أى تغيير ، بعد ذلك كله اتمت لجنة مصر Commission d'Egypte هذا المؤلف الضخم ، الذى لا يمكن أن نجد ما يضارعه فى حوليات العلوم .

لقد كان بوسعنا ان نطلق عليه اسم « موسوعة مصر » ، فهو يعرف بها تاريخا ومنشآت ومنتجات ، وليس ثمة بلد يحوز وصفا بهذه الدرجة من التمام والكمال فى كل مناطقه ، وليس هناك من سبيل فى ان نأمل ان تتوفر على الاطلاق مثل هذه الظروف المتآلفة والارادة القادرة على انتاج سلسلة مماثلة من الانجازات او أن تقيم مثل هذا الصرح ، ان فرنسا لتستحق — دون جدال — ان تكون موضوعا لوصف يتم بنفس هذا النسق .

ولقد اثار هذا العمل اعجاب كل أوربا ، لكن هذا الاعجاب كان بالأحرى

ناتجا عن عواطف ود ارتبطت به ، اكثر منـــه ناتجا عن معرفة حقيقيـــة بمحتوياته ، فلقد ظل شأنه شأن آلهة مصر ، حبيسا داخل محراب الفنون ، ولقد كان هذا العمل جديرا بالأمة التى أنجبت المقاتلين والعلماء والفنانين الذين ندين لهم بهذا العمل ، كما كان جديرا بالحكومة التى أمرت باتمامه ، لكنه مع ذلك ظل شبه مجهول من الفرنسيين أنفسهم ، وكم تمنى الرســـامون والمعماريون والعلماء ورجال الأدب أن يستمتعوا بهذا العمل الذى لا يمكن لأية امكانيات فردية أن تحصل عليه ، لكن الطلب يشتد عليه ، وكان ينبغى له ان يحمل منذ زمن طويل الى الأجنبى أمارات لا حصر لها على المجد الذى حازه الفرنســـيون .

وحين نغض الطرف عن المبالغ الضخمة التى انفقت على وضع هـــذا السفر ، ونقتصر على حساب المصاريف الجديدة التى يتطلبها اعادة طبع تسعمائة لوحة ، الى جانب النصوص التى تكون هذا السفر ، واذا ما نشرناه فى شكل أجزاء صغيرة ، مقدمين بذلك تســهيلات طيبة للكثيرين من ذوى القدرة المحدودة ، فلابد ان نكون على ثقة من امكانية انتشار هـــذا المؤلف ورواجه فى كل اوربا .

كانت تلك هى الدوافع التى عرضـــها المســيو س. ل. ف بانكوك C.L.F Panckoucke على صاحب السعادة وزير الداخلية الكونت سيميون Siméon .

ونرفق فيما يلى اجابته ، وكذلك الأمر الملكى الذى اجاز نشر هـــذه الطبعة الثانية .

ســيدى ..

لقد وضعت تحت تصرف الملك اقتراحاتكم المتعلقة باعادة طبع المؤلف الكبير الذى وضع عن مصر ، وقد وقفت فى صف هذه الاقتراحات ، وقد شاء جلالته أن يوافق عليها ، وارسل لكم هـــذه النسخة من المرسوم الصـــادر فى هذا الخصوص ، وعليكم أن تتخذوا فيما يخصكم كل اجراءات التنفيذ .

انها لمهمة نبيلة ، ولست أشك فى أنكم ستقومون بها ، بطريقة تحقق الثقة التى وضعت فيـــكم .

سيميون

(توقيع)

مرسوم ملكى

لويس ، بحمد الله ، ملك فرنسا ونافار

الى كل من سيطلع على هـــذه الأوراق .

حول تقرير وزيرنا سكرتير الدولة للشئون الداخلية ، ومستشار دولتنا المختص .

امرنا ونأمر بمـــا يلى :

مادة أولى : يقبل الاقتراح المقدم من المســـيو س. ل. ف. بانكوك باعادة طبع « وصف مصر » ، والمرفوع الينا من قبل وزير داخليتنا ، ويلحق هذا الاقتراح بهذا المرسوم .

مادة ثانية : بالنسبة للحصيلة التى ستعود على الحكومة من عائد هذا العمل : توزع حصة (يحددها وزير الداخلية) على الذين ساهموا فى الطبعة الكبيرة والتى تمت على نفقة الخزينة ، ويخصص الباقى لتشـــجيع العلوم والفنون الجميلة وبخاصة فن الحفر .

مادة ثالثة : يكلف وزيرنا سكرتير الدولة للشئون الداخلية بتنفيذ هذا المرســـوم .

صـــدر بقصر التويليرى فى ٢٣ يونية من عام الشكر ١٨٢٠ العـــام السادس والعشرين من عهدنا .

لويس
(توقيع)

الدراسة الأولى :

دراسات موجزة حول البنية الجسدية للمصريين

البارون لارى

العنوان الاصلى للدراسة « دراسة موجزة حول البنية الجسدية للمصريين ولمختلف الاجناس التى تقطن مصر ، وتليها بعض افكار حول تحنيط المومياوات » تاليف المسيو البارون لارى دكتوراه فى الجراحة من باريس .. ودكتوراه الطب من جامعة بينا ، وعضو المجمع العلمى المصرى ، وعضو العديد من الاكاديميات ، والجراح الاول فى حرس صاحب الجلالة الامبراطور الملك ، والمفتش العام بمصلحة صحة الجيوش ، واحد القادة الحاصلين على وسام الشرف ، والفارس من طبقة التاج الحديدى .

كان من الضرورى ، فيما بدا لى ، حتى أستطيع ان اميز الملامح الجسدية للمصريين الحقيقيين ، عن ملامح بقية سكان مصر ، ان ابدا بفحص مختلف هؤلاء السكان ، فى صلاتهم الأساسية . ولكى استرشد فى فحصى هذا بشىء من المنهج ، فسوف اميز هؤلاء السكان ، كما فعل رحالة فرنسى من قبل ، فى اربع طبقات (أو أجناس) تشتمل على : المماليك ، الأتراك أو التركمان ، العرب ، وأخيرا الأقباط .

لقد استقر المماليك فى مصر ، وهم حكامها اليوم ، عند حوالى القرن العاشر ، وتنحدر سلالة هؤلاء من جبل القوقاز ، وقد وصلوا الى هذه البلاد بعد جولات قاموا بها فى سوريا . ويمكن لنا تمييز هؤلاء ، الذين اشار اليهم مقاتلونا الصليبيون بالاسم الذى لا يزالون يحملونه حتى اليوم ، عن بقية السكان الآخرين فى مصر بميزاتهم الجسمية وبطابعهم العسكرى العدوانى ، وهم جميعا ذوو قامة مديدة وبنية شديدة ، وتقاطيع خلقتهم جميلة متناسقة ، ويتمتعون بوجه بيضوى وجمجمة ضخمة ، وجبهة عريضة، وعيون واسعة نجلاء ، وأنف مستقيم ، أو انثنى بعض الشىء ، وفم متوسط، وذقن ناتئة على نحو خفيف : أما شعرهم وجفونهم ورموشهم فسمراء داكنة أو كستنائية اللون كما ان بشرتهم بيضاء فى غير لمعان ، ولنسائهم ، وهن قادمات من نفس البلاد ، نفس الملامح ، مع تغيرات كبيرة ، ونجد من بينهن نسوة بارعات الجمال .

وتلفت رءوس المسنين من هؤلاء الشرقيين النظر ، اذ يضفى نتوؤها عليها روعة ، يزيد منها جمال ملامح الوجه ، وبياض لحيتهم الأخاذ ، والتى يدعونها تنمو حتى تلامس اسفل الصدر : ويعد مراد بك النموذج الأمثل لهذه البنية الجسدية الجميلة ، اما طبع هؤلاء المماليك ففخور ، جسور فى غير غلظة ، وهم يشتهرون بالكرم ، وحسن وفادة الضيف ، ولا يتزوج الواحد منهم الا اذا بلغ مرتبة عالية ، وفى النهاية ، فانهم جميعا متمرسون بفنون القتال ، واعتقد من جانبى أن الناس محقون حين ينظرون الى هؤلاء باعتبارهم الفرسان الأول فى العالم .

ويتكون الجنس التالى (من سكان مصر) من الاتراك أو التركمان ، القادمين من تركيا أو من بلاد التركستان ، وتقترب بنيــة هؤلاء من بنيــة الجورجيين أو الشراكسة المماليك الذين كنت اتحدث للتو عنهم ، وان كان لون بشرتهم يميــل الى سمرة برنزية ، كمــا أن وجههم اكثر تسطيحا ، وجمجمتهم محدبة على نحــو اكبر ، وهى كذلك أكثر كروية ، وعيونهم اكثر صغرا ، ونظراتهم غامضة معتمة ، وحاجبهم أسود حالك سواده ، كما ان لحيتهم بالمثل سوداء . وطابع هؤلاء الترك أو التركمان اقل حيوية مع شىء من غلظة : ورجال هذا الجنس كثيرون بعض الشىء فى القاهرة ، وهم يأتمرون بأوامر الباشا مبــاشرة .

وتتكون الطبقة (الجنس) الثالثة من العرب ، وهؤلاء يمكن لنــا أن نقسمهم الى ثلاثة فروع مختلفة : فرع العرب الشرقيين القادمين من حواف البحر الأحمر أو من الجزيرة العربيــة ، والعرب الغربيين أو الأفارقة ، وينتمى هؤلاء فى الأصل الى موريتانيا أو سواحل افريقيا ، ثم أخيرا العربان البدو أو الـــ Scénites القادمين من الصحراوات .

وللأفراد من الفرع الأول ، وهم الذين تحــوروا الى الأبد فى طبقــة الفلاحين والصناع أو الحرفيين فى كل مصر السفلى ، قامة فوق المتوسطة بقليل ، وهم متينو البنية ، جميلو الخلقة على نحو كاف ، وبشرتهم جــافة حائلة ، تكاد تكون سوداء ، ولهم وجــه نحاسى بيضوى وجبهة عريضــة ومحدودبة وجفنان متباعدان اسودان ، وعيون لها نفس اللون ، صــغيرة ولامعة وغائرة ، وانف مستقيم متوسط الحجم ، وفم مخروط فى شىء من الحسن ، واسنان منتظمة ، حسنة القطع ، بيضاء كالعاج . ونلحظ عند نسائهم اختلافات طيبة ، ويعجب المرء فيهن بصفة خاصة بمحيط اطرافهن الرشيقة والتناسب المنتظم لأيديهن واقدامهن ، كما يعجب بما فى مشــيتهن ووقفتهن من اعتداد .

ويشارك العرب الأفريقيون سابقيهم فى مجمل شــكل البنية الجسدية وكذلك فى لون العيون وحيويتها ، لكن صلتهم بابناء ساحل افريقيا تتضح فى شكل الانف والفك والشفاه ، ويتماثل طبع هؤلاء مع طبع الأجناس الأخرى من العرب . وينتشر هــذا النوع من العرب فى مصر العليا ، وهم هنــاك يزرعون الأرض ويمارسون الحرف كالأولين .

وعادة ما ينقسم البدو أو العربان الرعاة الى قبائل متناثرة على مشارف الأرض الخصيبة عند مداخل الصحراوات ، وهم يقيمون تحت خيام يحملونها من مكان لآخر حسب الحاجة . ولهم بعض صلات شبه بالآخرين . وان كانت عيونهم اقل بريقا فى العادة كما أن ملامح الوجه اقل وضوحا ، وهيئتهم أكثر جمالا فى حين ان قامتهم اقل حجما ، وهم أكثر خفة واشد نحولا ، ومع ذلك فهم أشداء متينو البنية ، ذوو روح متوثبة ، وطبع فخور، لكنهم حذرون جفولون ، كما انهم نفعيون كتومون هائمون يضربون على غير هدى ، وفضلا عن ذلك فسرعان ما يصبح الواحد منهم فارسا ماهرا ، تمتدح مهارته فى استخدام السهام والحراب . وتقاليد وعادات هؤلاء العرب هى هى على وجه التقريب . وهم يربون قطعان الضأن والجمال والخيول من صنف ثمين للغاية .

أما الطبقة الرابعة من سكان مصر ، والتى كانت الموضوع الرئيسى لأبحاثى . فتتكون من الاقباط الذين يوجدون باعداد كبيرة فى القاهرة ومصر العليا . وهؤلاء — دون شك — هم انسال المصريين الحقيقيين والقدماء ولقد احتفظوا من هؤلاء بخلقتهم الجسدية . ولهجتهم (كذا) وتقاليدهم وعاداتهم . ويبدو أن أصولهم قد ضاعت فى عصور بالغة القدم ، وقد كانوا يقطنون مصر العليا من قبل عصر دقلديانوس بزمان طويل ، ويؤكد هيرودت ان المصريين من سلالة الاحباش والأثيوبيين . ويتفق كل المؤرخين فى هذه النقطة مع هيرودت ، وتدعونى الأبحاث التى قمت بها فى هذا المجال الى تبنى هذا الراى .

وتضرب بشرة الاقباط الى الصفرة والى العتمة مثل الاحباش ، ووجههم ممتلىء فى غير انتفاخ ، وعيونهم جميلة . لوزية الشكل ، ذات نظرات ذابلة واهنة ، أما الوجنات فناتئة . ويكاد يكون الأنف مستقيما . مستديرا عند قمته ، لكن المنخارين واسعان ، والفم متوسط ، والشفاه غليظة والأسنان بيضاء ، منتظمة وان تكن ناتئة بعض الشىء ، ولحيتهم وشعر راسهم اسود جعد ، وللنسوة نفس الملامح مع اختلافات تأتى لصالحهن ، ويبرهن كل ذلك ، وهو عكس ما رآه فولنى Volney ، على أن هؤلاء القوم لا ينحدرون مطلقا من جنس الزنوج فى أواسط أفريقيا ، اذ ليس ثمة اى نوع من التشابه بين هؤلاء الاخيرين وبين الاقباط ، وفى الواقع فان للزنوج الافريقيين اسنانا

اكبر حجما واكثر بروزا ، كمـــا أن تجويفهم الصدرى اكثر اتســـاعا واكثر تحديدا ، وشـــفاههم ، المدلاة ، اكثر غلظة ، كمـــا أن خدودهم اصغر وعيونهم كابية على نحو اكبر ، كما انها اكثر استدارة ، ولشعرهم شـــكل الزغب او الصوف . اما الحبشـــى فعلى العكس من ذلك عيناه واسعتان ، ونظرته مريحة ، وزاوية صدره تنحنى نحوه ، ووجنتاه اكثر نتوءا ، وتشكل خدوده مع الزوايا المحددة للفك والفم مثلثـــا اكثر انتظاما والشفاه غليظـــة حقا لكنها غير مدلاه مثلها عند الزنوج ، وكما سبق لى القول فان الأسنان جميلة واقل نتوءا ، اما تجويف الصدر فاقل اتساعا . وفى النهاية فان بشرة الأحباش نحاسية اللون .

وكل هذه الملامح تلاحظ مع فروق لا تكاد تحس بهـــا لدى الأقبـــاط ، أو المصريين الحقيقيين ، ونجـــد نفس هـــذه الملامح مرة أخرى فى رءوس التماثيل القديمة وبخاصة تماثيل ابى الهول . ولكى اتحقق من هذه الظواهر قمت بتجميع عدد محدود من الجماجم من مقابر عديدة للاقباط . كان لا مفر من ازالتها لمقتضيات المصلحة العامة ، ثم قارنتها بغيرها من جماجم الأجناس الأخرى ، التى جمعت منها بالمثل مجمـــوعات كبيرة(١) ، وبخاصـــة جماجم لأحباش واثيوبيين حصـــلت عليها بنفس الطريقة ، وقد اقتنعت بأن هذين النوعين من الجماجم يمثلان نفس الخلقة على وجه التقريب .

ولقد مكنتنى الزيارة التى قمت بها الى اهرام سقارة فى وضع ســـمح لى بأن أنقب عن عدد كبير لحد كاف من المومیـــاوات ، تدمت لى جماجمها نفس المـــلامح التى قدمتها الجمـــاجم الأولى . مثل نتـــوءات الوجنات ، واقواسها ، والشكل المميز للفتحات الانفيـــة ، والبروز القليـــل لاقواس الصـــدر .

وتبدو مختلف الموازنات التى انتهيت من اقامتها ، وكذا العلاقات التى وجدت على الدوام ، والتى لا تزال موجودة حتى اليوم ، بين الأحباش وبين

---

(١) حيث أتى الطاعون على الأشخاص الذين تركتهم بمنزلى فى القاهرة اثناء سفرنا الى الاسكندرية . وحيث غادر الجيش هذه المدينة ليعود راسا الى فرنسا ، فاننى لم استطع انقاذ هذه المجموعات كما لم اتمكن من انقاذ ابحـــاثى .

الأقباط ، والتوافق بين تقاليد وعادات هؤلاء وأولئك ؛ بل وديانتهم ، كل ذلك يبدو كافيا لكى يبرهن على أن المصريين انما ينحدرون حقيقة من الأحباش والأثيوبيين ، وزيادة على ذلك ، فمن الطبيعى ان نتخيل ان الأثيوبيين قد اتبعوا مجرى النيل منذ الأزمنة الأولى . وانهم كانوا يتوقفون أولا بأول فى البلاد التى يخصبها هذا النهر ، لكن هذه الاقامة كانت على التوالى ، وهكذا فقد انتشر هذا الشعب بالتتابع من الفانتين الى طيبة الى ممفيس الى هليوبوليس ، اما المدن الأخرى شمال هذه المدن . فلم تتكون الا بعد ذلك بوقت طويل .

وقد لاحظت كذلك ثلاثة انواع من المومياوات ، تنتمى — فيما بدا لى الى ثلاث طبقات من المواطنين . بل ربما الى ثلاثة اجيال مختلفة ، فمومياوات مصر العليا فى العادة اكثر جمالا . ونلقى عناية أكبر من مومياوات مصر السفلى ، أما المومياوات التى أضعها فى الصف الأول فمتماسكة متينة ، مطلية بالقار ، ومحنطة بنفس المادة . وتحاط بأشرطة من قماش الكتان ، مشكلة عددا من ضمادات الجراحة والتشريح بعدد المناطق المجوفة فى جسم الانسان . وهى مغلفة بغلاف كرتونى ، تنتثر عليه الكتابات الهيروغليفية . ويضم كل هذه الأجزاء صندوق من خشب الجميز ، رسمت على غطائه صورة الشخص (المتوفى) .

وكما قال هيردوت . فيبدو انه بعد أن كانت تفرغ التجاويف الثلاثة الرئيسية للجسم ، كانت هذه التجاويف تملأ بالقار ، كذلك كانت تحقن به الأطراف . وكل الأجزاء الخارجية ، وحين تكون هذه المادة فى كامل انصهارها فانها تنفذ داخل هذه الأجزاء بعمق ، لحد تتشربها معه عظام هذه الأجساد . حتى انها استطاعت . ولا تزال تستطيع البقاء بالمثل لوقت اطول ، ما دامت توجد فى طقس تندر فيه الأمطار ؛ وحيث تظل الأماكن التى اودعت بها شديدة الجفاف ، محرومة من التهوية . وبعد انتزاع أغلفة المومياوات ، نجدنا نتعرف اولا على جنس صاحب المومياء وملامحه الرئيسية فنجد أن وجه وايدى واقدام بعضها مغطاة بأوراق من الذهب ثبتت فوقها بشكل فنى حاذق ، وتحت ذراعى او فى داخل جسم هذه المومياوات وجدنا هذه الكتابات النادرة التى عرفت باسم البرديات والتى لا تزال حروفها مجهولة بالنسبة لنا حتى اليوم . وتحمل كل واحدة من هذه المومياوات ، بالاضافة الى ذلك ، كل شواهد الحرفة او المهنة التى كان يمارسها صاحبها فى حياته ، وتحفظ

آنيته معه فى التابوت . ويخصص هذا النوع من التحنيط لكبار المواطنين فى الدولة ، وكان يتطلب استعدادات طويلة وشاقة ، كما كان يتطلب توفير الكثير من العناصر المقومة . كانت تجعله ولابد بالغ التكلفة .

وكانت الطبقة الثانية من المومياوات اقل جمالا واقل تماما ، وكانت ضماداتها من قماش اقل نعومة ، ومثبتة بدرجة اقل من الفن ، ولم تكن لهذه المومياوات اغلفة كرتونية . اما التابوت المصنوع من خشب الجميز ، والذى كان يحويها ، فكان مصنوعا بشىء من الخشونة ، كما لم يكن مزدانا بالرسوم شأنه شأن النوع الأول .

وكان افراد الطبقة الثالثة يحنطون بمصاريف اقل ، وتختلف اساليب تحنيط هؤلاء لغير ما حد ، وقد اعدتكل المومياوات من هذه الطبقة بالحقن بمواد ملحية ، تتفاوت درجة قابليتها للذوبان ، وكانت توضع داخل تجاويف الجسم . مثل محلول النطرون أو الملح البحرى . وبعد أن كانت تملح الأجساد جيدا على هذا النحو ، كانت تترك لتجف فى الشمس ، او كانت تعرض لتأثير النار حتى تبلغ درجة اليبوسة التامة ، ثم توضع بعد ذلك فى صناديق من خشب الجميز ، خرطت بشكل خشن .

وكانت كل هذه العمليات تتم دون جدال تحت اشراف رجال متبحرين فى علم التشريح .

* * *

لكى تكتمل هذه المذكرة الموجزة ، سوف نضيف اليها ملخصا مركزا حول الطريقة التى حفظنا بواسطتها فى اوربا اجساد بعض مقاتلينا الذين ماتوا فى ميدان الشرف .

اذا كان الشخص (الحالة) الذى ينبغى ان يحنط جسمه قد مات نتيجة مرض مزمن ، مع هزال ، شريطة الا يشك مطلقا فى وجود ترسبات قيحية فى الأحشاء ، والا يكون الانحلال او التعفن قد بدا ، وان يكون الجسم سليما من الظاهر ، فان من الممكن حفظ الأحشاء فى تجاويفها الخاصة (بالجسم) فيما عدا المخ الذى ينبغى على الدوام أخراجه .

وفى هذه الحالة نبدأ بغسل كل أجزاء الجسم بالمياه النقية والطازجة ، ونمرر بالأمعاء الغليظة غسول من نفس السائل . ونمتص بحقنة خالية الأشياء الذائبة. التى لن يكون بالامكان خروجُها اما بسبب ثقلها الخاص، واما بسبب الضغط الذى نمارسه أسفل البطن، كذلك فاننا نمتص المواد التى تحويها المعدة بنفس الوسيلة ، وقد يكفى ان نعد مسبارا بلعوميا عند شجاج (مشعب) الحقنة التى ندخلها الى هذه الأجزاء الداخلية عن طريق الفم أو عن طريق فتحة نحدثها فى انبلعوم من الجهة اليسرى للرقبة . وبعد ذلك نملأ المعدة والأحشاء بمادة قارية توضع منصهرة . وتغلق الفتحات ، ثم نفعل نفس الشىء عند حقن العروق ، ومن أجل ذلك تمزق شريحة من الجزء الداخلى والجانبى على يسار الصدر . تجاه اخمص الأورطى ، ويقطع واحد او اثنان من الغضاريف التى تغطيه ، ويوضع بداخل هذا الشريان ثجاجا ذا صنبور ، ندفع عن طريقه حقنا دقيقا ملونا بالأحمر ، لملء الأوعية الشعرية لكل النظام الغشائى ، وبعد ذلك مباشرة . وبنفس الطريقة ، نقوم بحقن ثان . وبدفعة اكبر ، لكى نملأ الشرايين والعروق التى ترفد عنها ، ثم بحقن ثالث بالنسبة للأوردة ، وينبغى أن يمرر هذا الحقن عن طريق واحدة من اوردة الفخذ ، ثم تترك الجثة لتبرد ولتتخثر مادة الحقن . ولكى تخلى الجمجمة . ينبت بها تاج واسع بواسطة مثقب للعظام عند زاوية اتحاد الدرز(*) السهمى بالدرز القذالى (أى درز القفا) ، بعد أن نكون قد صنعنا حزا طوليا بالجلد دون مساس بالشعر ، الذى نعنى بالاحتفاظ به ، شأنه فى ذلك شأن زغب وشعر بقية الجسم . وعندما تتم هذه الفتحة ، نقوم بقطع التحامات وطوايا الأم الجافية(**) بواسطة مبضع طويل وضيق ، ذى قاطعين ، وتنزع مزق هذا العرق بواسطة خطاف متثلم (غير حاد ولا قاطع) . ثم نخرج كل كتلة المخ والمخيخ بنفس هذه الأداة ، وعن طريق حقنات بالماء البارد ، نذيب على وجه السرعة كل ما تبقى من المادة المخية ، وبعد ذلك تضم حداف فتحة الأعشية مع بعض نقاط الدرز .

اما اذا كان الشخص (الحالة) سمينا فى كثير أو قليل ، واذا كان قد

(*) الدرز هو خياطة حافتى الجرح ، وهو كذلك خط الالتحام أو الانفصال .

(**) الأم الجافية هى الغشاء المغلف للدماغ والحبل الشوكى .

مات بمرض عفن أو خبيث ،وخلال فصل حار ، فقد يكون من المستحيل حماية الأحشاء من التعفن . وفى هذه الحالة ، نستخرجها بواسطة حز هلالى ، يتم فى الجنب الأيمن عند المنطقة القطنية (الحقوية) ، وتفصل أولا الأمعاء والمعدة والكبد والطحال والكليتان ، ثم يقطع الحجاب الحاجز بشكل دائرى. ثم المنصف(*) والقصبة الهوائية والبلعوم عند دخوله الى الصدر ، وبعد ذلك تنزع الرئتان والقلب دون اتلاف العضو الأخير ، الذى ينبغى أن يجهز بشكل منفصل وان يحفظ بعناية ، ولابد أن يجفف هذان التجويفان بالأسفنج ، ثم نضع كمية معينة من موريات الزئبق المشبع بالأوكسجين المحولة الى مسحوق ، على المناطق اللحمية من جدرانهما ، وبعد ذلك يملأ هذان التجويفان بالوبر المغسول والمجفف ، ثم يعاد شكل البطن الى حالته الطبيعية ، وتثبت حافتا الحز عن طريق خياطة ذات نقاط حددت سلفا . وبعد اعداد الجسم على هذا النحو ، يغمس فى كمية كافية من محلول موريات الزئبق المشبع بالأوكسجين على اقوى درجة من التركيز يمكن الحصول عليها . وتترك الجثة مغمورة داخل هذا السائل لمدة تسعين او مائة يوم ، وبعد أن تتشبع جيدا بهذا المحلول ، توضع فوق غربال ، وتتعرض لتأثير متزايد لفرن تصدر عنه حرارة ومقام فى مكان جاف ومعرض للهواء . وبمجرد ان تجف هذه الأجزاء تدريجيا ، يثبت من جديد الشكل الطبيعى لملامح الوجه وكذلك الوضع الطبيعى للأطراف وتأخذ الهيئة المناسبة ، وتثبت عينان من الميناء بين بؤبؤ العين التى سحبت الى الداخل وبين الجفون ، ويعطى للشعر صبغة تتناسب مع لونه الطبيعى اذا ما وجدنا ذلك ضروريا ، ثم نمر على كل الجسم ببرنيق (طلاء لامع) ، خفيف اللون ، كى يعطى حيوية لصبغة الجلد ، وكى يحفظ له مظهرا من الطزاجة ، واخيرا يوضع الجسد داخل صندوق زجاجى ليعرض على الجمهور ، أو يدفن داخل تابوت .

وهكذا نستطيع ان نخلد لآلاف السنين ، أجساد الأبطال او رجال الدولة العظماء .

(*) المنصف هو الحيز الذى يشتمل على القلب وكل ما فى الصدر عدا الرئتين .

الدراسه الثانية :

مصر .. والحملة الفرنسية

مقدمة تاريخية

بقلم المسيو فوربيه

تشغل مصر ، بموقعها بين أوربا وآسيا ، وباتصالها الميسور بأوربا ، قلب العالم القديم ، لكن هذه البلاد اليوم لا تقدم سوى ذكريات مجيدة ، فهى وطن الفنون ، وهى التى ما فتئت تحتفظ لهذه الفنون بصروح لا تحصى ولا تزال قائمة حتى اليوم اهم معابدها ، وكذا القصور التى سكنها ملوكها ، على الرغم من أن احدث هذه الصروح قد شيد قبل حرب طروادة . ولقد ذهب الى مصر كل من هوميروس وليكورج . ودرس فيها سولون وفيثاغورث وافلاطون العلوم والدين والقانون ، وأسس الأسكندر هناك مدينة بالغة الثراء حظيت لوقت طويل بالسيطرة على عالم التجارة ، وشاهدت بومبى وقيصر ومارك انطونيو وأغسطس يقررون فيما بينهم قدر روما وأقدار العالم باسره . ومن خاصية هذه البلاد انها تسترعى انتباه كل المبادىء الباهرة والمتالقة التى تنظم اقدار الأمم .

لم تنشأ فى الشرق او فى آسيا اية قوة كبرى لم ترن ببصرها نحو مصر ، أو لم تنظر اليها باعتبارها ، على نحو ما ، اقطاعية طبيعية بالنسبة لها ، كما ان كل الأحداث الكبرى التى كان لها تأثيرها على تقاليد وتجارة وسياسة الامبراطوريات قد صحبت معها الحروب الى ضفاف النيل ، ويمكننا أن نلاحظ أن الفرس والمقدونيين والرومان والعرب والعثمانيين قد استقروا بمصر بمجرد أن تفوقوا على الشعوب التى كانت معاصرة لهم .

وفيما مضى ، أوصى الدين الى ملوكنا بالرغبة فى الاستيلاء على مصر . وقد بذل العديد من الأمراء الصليبيين ، وكذلك البابا انوسان الثالث(*) Innocent وهو الرجل الذى حكمت مواهبه كل اوربا ، كل جهودهم لتحقيق هذا المشروع . وقد جدد هذا المشروع واحد من الوزراء الذين يعرفون أكثر من غيرهم المصالح المختلفة للدول المسيحية ، هو الكاردينال هيمنيس Himenès (**) وتحالف لهذا الغرض مع كل من فرديناند

(*) تولى البابوية من ١١٩٨ الى ١٢١٦ ، وقد خاض صراعا ضد فيليب اغسطس واتخذ المبادرة فى قيام الحرب الصليبية الرابعة ، كما حارب مذهب الـ Cotharés الذى انتشر فى جنوب فرنسا حتى قضى عليه عام ١٢٠٩ . (المترجم) .

(**) كاردينال اسبانى ولد عام ١٤٣٦ ومات ١٥١٧ وكان رجل دولة كبير ، لكنه أسال الكثير من الدماء (المترجم) .

الكاثوليكى ، وايمانويل ، وهنرى السنبلبع . وهم الذين تميزت جهودهم بالحكمة وذيوع الصيت ، أما ليبنتز Leibnitz الشهير ، والذى لم يخلق الا من أجل المهام الكبرى ، فقد شغله هذا المشروع لزمان طويل ، وقد وجه الى لويس الرابع عشر مؤلفا ضافيا ، ظل مخطوطا ، عرض فيه المكاسب التى تحقق من وراء هذا الغزو(*) .

وقد كتب بوسويه Boussuet فى نفس الفترة عن التاريخ الطبيعى ، وبعد أن أعاد الى الأذهان عظمة مصر ، وروعة الأنظمة والمؤسسات التى نشأت بها ، اضاف هذه العبارة اللافتة للنظر « والآن ، حيث يقتحم اسم الملك اشد مناطق العالم غموضا ، وحيث يبسط هذا الحاكم الى نفس المدى البعيد تلك الأبحاث التى امر باجرائها عن المؤلفات الرائعة التى تدور حول طبيعة الفن ، الن يكون امرا جديرا بهذا الفضول النبيل ان نكتشف ضروب الجمال التى يضمها الصعيد فى صحراواته ، وأن نثرى فن العمارة عندنا بما سبق ان انجزته فى هذا المضمار مصر ؟ » . ولقد تحققت امنية هذا الرجل اللامع خلال فترة من حرب خالدة ، اصبحت مصر على الفور مسرحا لها .

ان الناس ـ ولا بد ـ يتذكرون ذلك الانطباع الذي أحدثه في أوربا هذا الخبر المدهش عن قيام حملة فرنسية تتجه الى الشرق ، فلقد اعد هذا المشروع الذى انعم فيه الفرنسيون النظر طويلا وفى صمت ، بكثير من العناية والسرية حتى أن يقظة اعدائنا التى لا تغفو قد خدعت ، لقد عرف هؤلاء فى وقت واحد تقريبا انه قد ووفق على هذا المشروع ، وانه قد أعد ونفذ . ولقد بررته ضرورة تأمين تجارتنا من المظالم التى لم يكن يكف البكوات (المماليك) عن ممارستها ضدها ، ولقد خامرنا الأمل فى تصالح يتم مع البلاط العثمانى،

(*) هكذا يفصح السيد المؤلف عن روحه ونواياه منذ البداية ، ولابد أن نضع هذا فى اعتبارنا على الدوام ونحن نقرأ باهتمام هذه المقدمة بوصف مصر فما يقوله الان يفسر الكثير من آرائه الغريبة ، ويبرر الكثير من التناقضات الصارخة التى وقع فيها وبخاصة عندما يتحدث عن العرب والاسلام ، والتى تبلغ أحيانا حد الاستهانة بالعقول ، ولدرجة تثير من السخرية والاشفاق اكثر مما تثير من جدل جاد لا تستحقه فى الواقع ، فى الوقت الذى تظل فيه تفسر لنا الكثير من النوايا ، مما لا يزال موجودا ربما حتى اليوم (المترجم) .

عندما نقدم له ، نتيجة لحملتنا هـذه نفسها ، زيادة فى الدخل وتعاظما فى النفوذ . ومهما تكن الصعوبات التى بدت فى هذه المفاوضات ، فقد كان من الممكن ان نأمل فى مخرج سار ما دام نجاحنا هناك كان مواتيا للغاية للصالح المشترك للدولتين الحليفتين (تركيا وفرنسا) ، وفى الواقع فقد كان معاونة قوة أوربية (فرنسا) عندما تستقر فى مصر ان يعاون على تغيير الحالة فى مصر بطريقة شبه فجائية(*) .

ان هذه البلاد التى نقلت معارفها إلى كثير من الأمم ، هى اليوم غارقة فى الهمجية ، وبقـدر ما تنال هـذه البلاد اهتمامنا المتزايد بفضل موقعها الجغرافى ، وبفضل خصوبة ارضها البالغة ، بقدر ما تكون ماسة بالنسبة لها المكاسب التى تحققها لها القوانين والفنون والصناعات . وحين كانت تذود عنها فيما مضى قوى عسكرية عديدة ، تتكون من محاربيها الخاسين بها ، كانت مصر منيعة ، مهيبة من الأمم المجاورة ، لكنها فقـدت منذ زمان طويل ، مع فقدها لأنظمتها ومؤسساتها ، استقلالها ومعارفها ، بل انها لم تعد بقادرة على ان تذكر بعظمتها الأولى ، ولقد ظلت على الدوام منذ هذه الفترة خاضعة لقوة اجنبية ، وأخذت كل الثورات التى هزت اوربا وآسيا تزودها بسادة جدد ، وتنتقل بشعبها الى اقصى درجات المذلة والشقاء .

كانت مصر ، فى عهد ملوكها الأول ، تطيع وتستجيب لمبادىء واخلاقيات ثابتة لا تحول ، وكان ثمة حكومة مثابرة تسهر على رعاية القوانين والعادات والتقاليد ، كان كل شىء يوحى بالحرص على المستقبل ويدعو الى الشروع فى أعمال يكتب لها الخلود ، وهـذه هى اليوم تئن تحت أشد السلطات استبدادا فى العالم ، بل واكثر القوى الموجودة على ظهر الأرض انعداما للبصيرة ، كما لو كان قد قدر على هذه البلاد ان تمر بأشـد الأحوال التى عرفها المجتمـع الانسانى تناقضـا ، لقد نقلت الحضـارة الى كولشـيد القديمة(**) اذا لم يكن تاريخ العصور القديمة يخدعنا ، لكن نفس هذه المنطقة تبعث اليها اليوم بحكام بشنعين نسوا عائلاتهم واوطانهم ، ويلفظون

(*) يقصد ان فرنسا لو أنها كانت قد استقرت فى مصر لعاونت على دعم سلطة الباب العالى هناك لأنها كانت ستحطم نفوذ المماليك وتضع حدا لخروجهم على السلطان (المترجم) .

(**) مدينة تقع الى جنوب القوقاز ذهب اليها أبطال ارجوس للحصول على جزات من الذهب (المترجم) .

ذرياتهم ، ويعيشون وسط عبيد (مماليك) جاحدين متمردين لا يمكن لهم احتواؤهم ، وحيث انهم عارون عن الحيطة وعن نور المعرفة ، فلن يقدر لهم مطلقا ان يعرفوا كيف يثبتون سلطتهم وكيف يسارعون الى التمتع بها ، فهم يقمعون كل صناعة ، ويهملون أو يخربون الترع والمنشآت العامة ، وها هى الرمال تغزو الأراضى الصالحة للزراعة ، كما ان القرى تعيش تحت وطأة تهديد عصابات السلب القادمة من الصحراوات . لقد حكم على الانسان فى ريف مصر أن يقوم بعمل جاحد لا يمكن أن يجنى منه ــ هو ــ ثماره ، كما أن الانسان فى كل مكان من أرض مصر ، انما هو فريسة للظلم والمهانة والمجاعة والأمراض المعدية .

وقد يكون من المستطاع اصلاح حال هذا الشعب ، لو أن سلطة حكامه اصبحت ثابتة ووراثية ، لكن السياسة العثمانية تتفادى مثل هذا الاصلاح ، اذ هى تثير فى هؤلاء الأجانب عداوات وخصومات تضعف من قدرتهم هم ، وتجعلهم شتى متفرقين ، لا يحوزون الوسائل التى تجعلهم يلحون فى الحصول على استقلال تام : كما أنها فى نفس الوقت تقف ضد القوة) العسكرية الطموح ، التى للباشوات . ووسط هذه القلاقل تظل غائبة على الدوام سلطة الحاكم (السلطان) أو انها لا تثبت وجودها الا فى شق صفوف مغتصبى حكم مصر ، فلا هى قادرة على تأمين ارسال الضرائب ، ولا على حماية الشعوب ، ولا على ضمان تنفيذ المعاهدات التى تبرمها مع القوى المتحالفة معها . وهذه الظروف الأخيرة بوجه خاص هى التى جعلت هذه الحملة الخالدة من قبل الفرنسيين أمرا لابد منه ، ومع ذلك ، فان ذلك الذى قاد هذه الحملة لم يقصر اغراضه فقط على عقاب الذين اعاقوا تجارتنا، بل انه اعطى لمشروع هذا الغزو سموا وعظمة جديدتين ، كما طبعه بطابع عبقريته الخاصة ، لقد قدر منذ البداية ما سيكون لهذا الحدث بالضرورة من سطوة على علاقات اوربا مع الشرق ومع اواسط افريقيا ، وعلى الملاحة فى البحر المتوسط . بل وكذلك على اقدار آسيا . ولقد اتخذت الحملة لنفسها هدفا ، هو تاديب المماليك والحد من طغيانهم ، والتوسع فى مشروعات الرى والزراعة ، وان تحقق اتصالا دائما بين البحر الأبيض والخليج العربى (البحر الأحمر) ، وان تقيم مؤسسات تجارية وان تقدم الى الشرق المثال النافع الذى للصناعة الأوربية ، واخيرا ان تجعل ظروف وحياة السكان احسن حالا ، وان تمدهم بكل المزايا التى انتجتها حضارة متطورة .

ولم يكن من المستطاع بلوغ هذه الغاية دون تطبيق مستمر ودائم للعلوم والفنون ، وقرر قائد هذه الحملة الفرنسية ـ سعيا وراء تحقيق ذلك ـ أن ينشىء فى مصر مؤسسة تسعى الى نهوض وتقدم كل المعارف النافعة ، وحدد ، وهو لا يزال بعد فى عاصمة فرنسا ، كل أولئك الذين ينبغى عليهم الاسهام فى تحقيق اغراضه ، ودعم عن طريق ما ابداه من أمارات الرعاية والترحيب ، هذا الحلف غير المعتاد بين الأسلحة وبين العلم ، وقد عهد بانشاء هذه المؤسسة الجديدة الى عضوين شهيرين(*) من الأكاديمية السابقة للعلوم ، وكانا منذ وقت طويل قد شرفا وخدما وطنهما باكتشافاتهما المدوية ، كما كانت أعمالهما وعبقريتهما قد ساهمت فى اعطاء الأمة الفرنسية تفوقا مجيدا فى علوم الهندسة والطبيعيات .

ولقد اخذت اكاديمية القاهرة (اى المجمع العلمى) على عاتقها ، مثلها مثل اكاديميات اوربا ، أن تستزرع العلوم والفنون وان تطورها وان تبحث فى كل تطبيقاتها النافعة ، وكان عليها بصفة أساسية أن تسعى للتعرف على احتياجات ومصالح مصر وكذا الوسائل الكفيلة بالحصول عليها ، لذلك فقد كان من الضرورى بالنسبة لها ان تتفحص بكثير من العناية تلك البلاد التى ستصبح خاضعة لادارة جديدة : تلك كانت الدوافع التى حملت على القيام بالأبحاث التى ننشر اليوم نتائجها .

ومع ذلك فقد كان الحرص على الفنون الجميلة والأدب يقتضى منا كذلك وصفا مخلصا وتاما للصروح التى تزدان بها ، منذ قرون ، ضفاف وادى النيل ، تلك التى تجعل من هذه البلاد اغنى متاحف الدنيا ، ولقد قام علماؤنا باخذ مقاسات كل اجزاء هذه المنشآت بدقة صارمة ، والحقوا بالتصميمات المعمارية خرائط للاماكن التى كانت تقوم عليها المدن القديمة ، كما قدموا فى رسوم خاصة النقوش الدينية والفلكية والتاريخية التى تزين جدران هذه الصروح ، وبالاضافة الى الدراسات والرسوم التى من شأنها أن تعرفنا بالحالة القديمة لمصر ، فلقد جمع اولئك الذين كان عليهم أن يقدموا لوحة عن حالتها الراهنة وأنشىء عدد كبير من الخرائط الجغرافية التى تحدد ، بطريقة دقيقة ومفصلة ، مواقع السواحل والموانى ، ومواقع المدن الحالية

(*) يشير المؤلف الى العالمين مونج وبرتوليه .

والمدن القديمة والقرى والكفور ، وكذلك مواقع النقاط الهـامة الاخرى ، ومجرى النيل ابتداء من شلال اسوان حتى البحر المتوسـط ، وقد تأسس هذا العمل على ملاحظات فلكية . واخيرا فقد اكب العلماء على فحص كل المنتجات الطبيعية أو على الاقل ، على فحص الظواهر بالغة الاهمية او غير المعروفة لنا من الحيوان والنبات والمعادن .

وقد ضمت نتائج هذه الأبحاث المختلفة حول التاريخ الطبيعى وجغرافية مصر ، وحول عصورها القديمة ، وحالتها الراهنة ، فى مؤلف واحد ، اذن فلقد كان الهدف من هذه الموسوعة التى سيعمل سخاء حكومة فرنسا على امتاع اوربا بها هو أن تقدم معرفة دقيقة ومتعمقة عن مصر ، فتتضح بذلك العناصر الحقيقية التى تنهض عليها دراسة طبيعية وادبية وسياسية لواحدة من اهم مناطق المعمورة واكثرها جذبا للانتباه .

لقد تمتعت مصر ، خلال سلسلة طويلة من القرون ، بحكومات قوية ومتنورة ، وكانت كل القوانين والعادات العامة والتقاليد الاسرية والأخلاقية تسهم كلها فى نفس الغاية ، كما تأسست على معرفة بتقاليد الانسان ، وعلى مبادىء راسخة للنظام و العدالة ، نقشت فى كل القلوب .

اما الدين ، الذى كان متوحداً مع دراسة الظواهر الطبيعية ، فقـد كان عقليا وطبيعيا فى وقت معا ، وفى حين كان يكشف لبعض العقول الحكيمة عن المبادىء المجردة للأخلاق ، فقد كان يقدم هذه المبادىء الى الجميع فى اشكالها المحسوسة ، لقد كان ينظم الأحداث والافكار ، ويحتوى الناس فى حزم ، ويعير المؤسسات المدنية دعما من سلطة مستقرة .

كانت الحكومة ملكية ، وتنهض على قوانين عريقة ومقدسة ، ولقد حول القوم الامثلة التى تقدمها المبادىء بالغة الحكمة الى عادات لا سـبيل الى تغييرها .

وكان المصريون يقدسـون بصفة خاصة فضـيلة العرفان باعتبارها منبع كل الفضائل العامة والخاصة ، وباعتبارها كذلك اكثر الميول الطبيعية عدالة ونفعا ، وكانوا يجاهدون فى تخليد ذكرى اجدادهم عن طريق اقامة صروح رائعة تقاوم الفناء ، اما الروح الأسرية فقد مضت الى ابعد حـد ، ويمكن القول بانها قد جعلت من كل الاجيال اجيالا معاصرة . وكانت تتقى

مخاطر البطالةوالفراغ عن طريق اقامة الاحتفالات والاعيـــاد ، وكذلك عن طريق القيام بأعمال ضخام تســـتهدف الصالح العـــام . وكانت الزراعة مزدهرة ، كما كانت الفنون المتطورة تحبذ جهود الصناعة ، وكان العـــدد الأكبر من الناس يراعون ، بدافع دينى ، مبادىء الصحة العامة ، التى اهتدوا اليها بفعل خبرة طويلة .

اما عبقرية الفنون الجميلة فقد خطت خطوات اوسع من ذلك بكثير ، لكنها كانت تخضع لقواعد ثابتة ، وكان للعمارة طابعها الوقور والمتسامى ، كما كان الشعر والتاريخ والموسيقى والنحت والفلك ، يطبع الخـوف من الآلهة فى النفوس ، ويوحى بالورع والاعجاب . وكان يحتفظ داخل المعابد بتمـــاثيل الملوك وكبار القوم ، كما كان يحتفظ هناك بالحوليات العـامة واستقراءات السماء ، وكان ينقش فوق هذه المنشآت المشهد المتتابع لدورات النجوم . ولا زالت هذه النقوش باقية حتى اليوم ، وسوف تستخدم — هذه — عند دراسة تاريخ مصر فى الاستدلال على الفترات التى لا زالت مجهولة حتى اليوم ، من هذا التاريخ .

وكان يسكن آســـيا فى نفس ذلك الوقت ، امم قوية مضت امجـــادها القديمة الى زوايا النسيان ، وكان العقل البشرى قد ارتقى لحد توصـــل معه الى الاعتقاد فى وحدانية الله والى مبادىء الأخلاق الســـامية ، وكان يراقب سماء الكلدانيين رهبان تكونوا فى مدرسة المصريين ، وكانت الحقائق الأساسية للهندسة والفلك قد اكتشفت ، واوشك الناس ان يعرفوا النظام الحقيقى للكون ، كما كانوا قد اقاموا خرائط جغرافية ، وتعهدوا قياس حجم الكوكب ، كما كانت المدن الموسرة تزدان بما انتجته عبقرية الفنون الطبيعية التى كانت تتخذ من المعادن والالوان وكل المواد الطبيعية خامات لها . وكانت هناك علاقات بين مختلف شعوب الشرق وبخاصة بين شعوب الهند وفارس ومصر، وكان موضوع هذه العلاقات هو الدين ، والعلوم ، والحـــكومة ، والتجـــارة .

وفى ذلك الوقت كانت تنقص أوربا ، وهى اليوم بالغة الرقى ، القوانين والتقاليد الراسخة ، وان كانت اضواء الفنون قد بدات تنتشر فى الغرب . كانت المـــدن الاترورية(*) قد تأسست ، وتقدمت المســـتعمرات المصرية

(*) نسبة الى اتروريا التى كانت تقع قديما غرب ايطاليا .

والفينيقية الى الأغريق فكرة مؤسسات وانظمة جديدة ، وحصلت العمارة والنحت على مبادئهما وانماطهما من طيبة وممفيس ثم قامت بعد ذلك بقفزات تثير الاعجاب ، وتشكل الدين من مبادىء غامضة ومختلطة فى نفس الوقت بالثيولوجيا المصرية ، وبعد ان قام خيال المؤرخين والشعراء بتجميل هذه الالغاز المقدسة ، لم يعد بمقدور المرء أن يكتشف فيهامعنى واحدا يعز على الفهم ، وفى اليونان احتفى الشعر ، معلم البشرية الأول ، بالفضائل والأبطال والآلهة ، وجلبت عبقرية هوميروس الشهرة الى ايونيا ، فبرقت بوميض خالد ، واصبحت معلما للحكام والشعوب .

لقد جاء الوقت الذى لم يعد ينبغى على مصر فيه ان تقاوم الأمم المنافسة والتى تزايدت قوتها سريعا ، وبدأت مصر تقاسى من ولوج العادات الأجنبية اليها ، كما بدأت تعدل عن المبادىء الأساسية السائدة فى المملكة ، فمنذ وقت طويل واخطار الخرافة تحيط بالدين وبالعلوم ، واصبح الفرس ، وهم اكثر عددا واكثر مهارة فى فن الحرب ، والذين تمرسوا بثورات عسكرية كبيرة ، سادة لهذه البلاد قبل العصر المسيحى بنحو ستة قرون ، ونهبت المدن الرئيسية ، وتركت نهبا للنيران ، وسقطت اسر الملوك فى السبى ، وخربت او بعثرت الحوليات وصروح الأدب ، وعبثا يحاول المصريون ان يتخلصوا من سيطرة بشعة ، لكن مجهوداتهم الطويلة هذه قد زادتهم شقاء على شقاء .

وفى نفس هذا الوقت ، كانت روما تبذر بذور عظمتها ، وتتهيأ للسيطرة على-العالم ، كانت قد استعارت دينها وتقاليدها من الاتروريين والاغريق ، وقد دافع الأخيرون دفاعا مجيدا عن استقلالهم ضد جيوش لا تعد ولا تحصى، وكانت لهم عندئذ صلات عديدة مع مصر ، وزار العديد من فلاسفتهم هذه البلاد ، وان لم يغترفوا منها الا تعليما منقوصا ، لأن الدين والقوانين والعلوم قد خربت ربما بشكل تام .

ومنذ هذا الغزو الأخير ، ظلت مصر تعانى على الدوام من السيطرة الاجنبية ، فدانت على التوالى لملوك الفرس ، والبطالمة ، وللخلفاء الأول لاغسطس ، ثم لأباطرة بيزنطة ، وللخلفاء (المسلمين) الاول ثم لخلفاء القاهرة ولسلاطين المماليك وللسلاطين العثمانيين . وهكذا نجد تاريخ مصر ، بدءا من الفرس وحتى الحملة الفرنسية ينقسم الى ثمانى فترات ، طول كل واحدة منها يبلغ نحو ثلاثة قرون .

وبعد ان استطاعت اليونان الحرة ان تصـــد محاولات الفرس ، قاد الأسكندر بعض محاربيه لفتح آسيا ، وتعهد الأسكندر ، وهو الذى لم تكن مواهبه السياسية أقل شهرة من نجاحاته العسكرية ان يقدم امتيازات للأمم البعيدة (فى امبراطوريته المترامية) وأن يؤسس مدنا حتى اقاصى العالم . ويمكننا القول بانه قد اكتشف المحيط الهندى ، وادرك ما للملاحة والتجارة من اهمية ، كما اختار الاسكندرية لتكون مركزا للاتصالات التى اراد لها ان تقوم بين الشـــعوب .

وبعد موت هـــذا الرجل العظيم ، ظلت مصر خاضـــعة للمقدونيين ، وظلت موانيها تتلقى ثمن منتجات الجزيرة العربيـــة والهند واكثرها غلوا ، كما امتدت بعلاقاتها الى أعماق أفريقيا ، وامنت ، عن طريق تجارة بالغة الاتساع ، ثراء باذخا لملوكها ، وجاءت المتاحف اليونانية لتزين العاصـــمة الجديدة ، وظهرت الفنون من جديد فى وطنها القديم ، وان كانت تعد على نحو ما علما جديدا ، ذلك انه لم يعد باقيا من المذهب المصرى (فى الفن) الا ذكرى باهتة ، ومع ذلك فقـــد بقيت الحفلات والأضحيات ، كمـــا ظل استخدام اللغةساريا ، وان كان استخداما ناقصا ، لكن الجهل والخرافات المنفرة كانت قد انحطت بذوق الفلسفة المصرية ، وبالكاد يعثر المرء منها على بعض آثار منسية فى سراديب المعابد ، لقد انقطعت الى الأبد سلسلة العلوم والتـــاريخ .

ولم يكن بمقدور مصر ان تفلت من المرامى الطموح لروما ، وهـــكذا عانى آخر سلالة البطالمة من نفس القـــدر المشترك الذى كتب على كثير من الملوك ، ولقد اديرت هذه البلاد بحكمة ، وقفزت الى الامام قفزات موفقة كل من الزراعة والملاحة والصناعة . كان كل شىء يساهم فى دعم مكانة هذا الاقليم الجديد (من اقاليم الامبراطورية الرومانية) ، خصوبة ارضـــها ، وتجارة الهند ، وبقايا الازدهار القديم ، والعلاقات مع الجزيرة العربيـــة والحبشة ، وظل الناس ينظرون الى الاســـكندرية لوقت طويل باعتبارها العاصمة الثانية للامبراطورية .

ومن بين كل فنون الاغريق ، كانت العمـــارة هى اكثر الفنون ملاءمة لســـادة العالم (الجدد) ، ولقد استثمرها الرومان فى الأغراض المتصـــلة

بالصالح العام ، وكذلك لتخليد ذكرى انتصاراتهم ، ولكى يضاعفوا فى انظار الامم من الشهادات (المحسوسة) الدائمة التى تذكر بالقوة التى اخضعتهم . اما المسرح المصرى فقد سما بأفكارهم ، وحملهم على ان يتعهدوا منشـــآت اكثر رحابة ، وحين استوحوا هذه الطرز القديمة ، فقد حرصوا على ان يجمعوا الى نبل التصميمات ورحابتها ، تلك الرقة التى كانت تميز الاعمال الاغريقيـــة .

وكان لالغاء الوثنية اثره الهائل فى مصر ، فحرمت الأضحيات ، وهجرت المعابد او حطمت ، واوشك ان يمحو خليط الروحانيات والأساطير الوافدة ذكرى المبدأ المقدس ، فلم تبق منه سوى ظلال باهتة جاهدت سلطة الأباطرة فى محوها مع كل عناصر الديانة القـــديمة . ومنذ اصبح هـــذا البلد اقليما رومانيا ، اخذ يفقد عددا هائلا من المنشآت المنحـــوتة ، فنقلت الى اوربا تماثيل واحجار منقوشة ، ومسلات ثمينة نحتت من حجر واحد كانت تنتسب الى مـــدن طيبة وممفيس والاســـكندرية ، وارتفعت فى ميـــادين رومـــا والقسطنطينية مسلات كان الفراعنة فيما مضى قد اقاموها تمجيدا لآلهتهم ، واعمال كهذه ، فريدة وغير قابلة للتقليد ، لجديرة حقا بأن تزين عواصـــم العـــالم .

ثم انتقـــلت مصر ، التى لم يعرف الأباطرة الروم لا ان يسوســـوها ولا ان يدافعوا عنهـــا ، الى سيطرة المسلمين ، قبل ذلك كانت الســـلطة الرومية(*) قد اخذت تلفظ انفاسها فى كل مكان ، وهكذا كانت قد تهيأت بالفعل تلك الأسباب التى عجلت بالضرورة بانتهاء هذه الامبراطورية ، وهكذا امكن لبعض من القبـــائل العربية نصف المتحضرة أن تستولى على أجمل اقاليم الشرق .

ومع ذلك فان الانتصارات السريعة للمسلمين الأول لا ينبغى لهـــا أن تقارن مطلقا بالحملات العســـكرية والسياسية لروما ، كما أنها تختلف عن الغزوات المتبادلة بين الامم الشمالية . ان الرومان لم ينتصروا فقط بفعـــل

(*) استخدمت كلمة رومى ورومية ترجمة لكلمة Romain, Romaine عندما يتناول السياق الامبراطورية الرومانية الشرقية ، واستخدمت ترجمة لنفس الكلمة رومانى ورومانية عندما يتناول السياق الامبراطورية الرومانية بشـــكلها القديم . (المترجم) .

قوة السلاح ، اذ هم يدينون بجزء كبير من نجاحاتهم لمبادىء فى الحكم كانوا يتبعونها بثبات جدير بالاعجاب ، انهم لم يكتفوا باخضاع الشعوب ، فقد يمنحونهم الادارة العامة ، كما كانوا يجعلون هذه الشعوب — على نحو ما — تنسى اصولها بفعل التغيير المتتابع للدين والعادات واللغة والقوانين . اما البرابرة الذين دمروا اوربا ، تاركين اوطانهم الثلجية سعيا وراء اجواء اكثر لطفا ، ومدن ثرية زاهرة ، فقد تعاقبوا دون نظام ، وبدون غرض آخر سوى سلب المغلوبين ، وحيث لم يكن لدى هؤلاء على الاطلاق مؤسسات راسخة ، فانهم لم يحتفظوا الا ببعض عاداتهم وأنماط سلوكهم ، وانتهى بهم الأمر أن تمثلوا الثقافة والتقاليد والفنون التى وجدوها مستقرة فى مناطق اقامتهم الجديدة ، وعلى العكس من ذلك كانت للعرب عادات وافكار اكثر رسوخا ، وكانت معهم رواسب مشوشة مختلطة وخرافية من ديانات الشرق القديمة ، وحيث انهم كانوا على اقتناع تام بأن ما يعرفونه هو الصحيح والنافع ، فقد لفظوا فى البداية عادات وفنون الشعوب المغلوبة ، ولم تكن لدى محمد لا النية فى تأسيس امبراطورية ولا المرامى السياسية التى نسبها اليه كتاب كثيرون(*) ، ولأنه لم يحدس مطلقا تلك الانتصارات الهائلة التى سيحوزها خلفاؤه فانه لم يترك لهم اى شكل او اى مذهب للحكم (كذا !) ، وكان شاغله فى كل جهاده ان يتصدر قبيلته (!) وان يعلى من شأنها فوق شأن القبائل المنافسة لها (! !) ، وحين اكسبته نجاحاته الاولى شجاعة فقد بدأ يثرى رجاله بسلب القرى المجاورة ،لم تكن له مطلقا معرفة الأمم المتحضرة ، وكان ينظر اليها باعتبارها امما من المشركين او الملحدين ، ولقد ربط بين مواطنيه عن طريق تذكيرهم بمعتقدات كانت مقدسة فيما مضى ، ثم مضى من الحماسة الى الغواية(**) ، ومع ذلك فقد استخدم كتابه (القرآن !) ، وهو يضم عددا من المبادىء النافعة وعددا اكبر بكثير من افكار تستعصى على الفهم (كذا !)وعارية من اى معنى (!!) وتفتقد

(*) بدءا من هنا نجد الكاتب يعبر بوضوح عن افكار لا تستحق النقاش مطلقا ، فهى ليست سوى أصداء للروح التى تقف وراءها والتى بدرت منه فى بداية مقاله والتى لفتنا اليها النظر فى حينها . (المترجم) .

(**) هذه ترجمة مخففة للفظ المستعمل ، ولم نجد من اللائق تقديم الترجمة الصحيحة للفظ ، وواضح للقارىء مدى جهل الكاتب بالاسلام ومدى تحامله كذلك أيضا عن غير معرفة عميقة أو حتي كافية . (المترجم) .

الى الترابط فيما بينها (!) ، استخدمه قاعدة يتجمع حولها اتباعه ، ومنحهم بذلك اسما ، وهدفا وصالحا مشتركين .

وحيث لم تعـد تدعم السلطة الرومانية لا بأس القـوة ولا حـكمة المستشارين ولا فضائل الجنود ولا ثبات العادات او ثبات السياسة والدين ، فقد كان من الميسور ان تغزو كل اقاليمها عشائر شبه متوحشة ، اوشكت منذ قرون عديدة أن تستأصل عند حدود الامبراطورية ، وجاء العرب الذين يمكن ان نطلق عليهم اسم Les Scythes (*) القادمين من الجنـوب ، جاءوا للاسهام فى اقتسام هذه الغنيمة الواسعة ، ولقد فعل هؤلاء الرجال الجهلاء ، وان كانوا مقاتلين أولى بأس ، ومتمرسين على مواجهة الصعاب ، والذين هم كذلك فقراء نهمون للسلب ، فعلوا ما كان يمكن ان يفعله الجرمان لو كانوا فى نفس موضعهم بل ولربما على نحو أسرع من ذلك(**) . ولم يكن اقل من ذلك سهولة على هؤلاء العرب ، ان يتوغلوا فى بلدان آسـيا الاخرى ، ذلك ان الفرس ، الذين زعزعتهم انشقاقاتهم الخاصة ، وحروبهم الخارجيـة لم يعد بمقدورهم ان يدافعوا عن انفسـهم ضد اشد اعدائهم ضعفا(***) . ومع ذلك فان هذا الكتاب المقدس نفسه (القرآن) ، على مر الزمن ، هو الذى سيحد من ازدهار عبقريتهم (!) فى حين كان هو السبب الأول فى اتحادهم ومن ثم نجـاحهم . ولو أن كان لدى العرب ، مثلما كان

(*) من الشـعوب البربرية القديمة ، وكانوا فى معظمهم رعاة قدموا من شمال اوربا وآسيا .

(**) يشير المؤلف هنا الى ثلاثة من الشـعوب الجرمانية هى على الترتيب الغوط Goths وقد احتل فريق منهم جنوب شرق أوربا أما الجزء الذى بقى منهم فى غرب اوربا فقد غزوا الامبراطورية الرومانية عام ٤١٠ ، ثم الـ Gépides وكانوا مستقرين فى دلماشيا حيث استأصلهم اللومبارديون فى القرن السادس ، ثم اللومبارديون Lombards ، وكانوا يقيمون فيما بين الألب ونهر الأودر ، ثم غزوا ايطاليا فى القرن السادس واسسوا فيهـا دولة قوية انتصر آخر ملوكها Didier على شرلمان عام ١٧٧٤ . (المترجم) .

(***) سوف يظل المؤلف يقوم من المغالطات التاريخية ما يستخف حقا بالعقول ، فالنصر الذى احرزه العرب ، ثم المسلمون بعد ذلك ايام الحروب الصليبية ، يعود الى سلبيات فى صفوف الخصم وليس الى ايجابيات فيهم ، ولكن حتى هذه الفكرة المغلوطة نفسها لا تلبث أن تقع فى تناقضات من صنع المؤلف (المترجم) .

لشعوب أوربا ، تلك الميزة التى لا تقدر بثمن ، ميزة الحصـــول على ديانة محبذة للفنون وللمعارف النافعة (كذا !) لكانوا قد اثروا وطوروا كل فروع الفلسفة ، فلقد ظهروا فى البداية حاذقين مهذبين ، وقفزوا قفزات واسعة فى مجالات الشعر والعمارة والطب والهندسة والطبيعيات والفلك ، ولقـــد حفظوا ونقلوا الينا عددا كبيرا من المؤلفات الخالدة كان من شأنها ان تجلب اضواء المعرفة الى أوربا ، لكن الديانة الاسلامية لا تهيىء مطلقا مثـــل هذا التطور الروحى والعقلى (!!) . وهكذا أصبح محتمـــا على العرب اما أن ينكصوا عن ديانتهم واما ان يعـــودوا الى جهالة اجدادهم (كذا وبـــكل وضوح !) فهم يجهلون بشكل خاص فن الحكم ، وكل ما يستخدم فى تأسيس ودعم الامبراطوريات ، فحتى البربر الذين اتحدوا معهم وعانوا من ســـوء استخدامهم للسلطة لم يستطيعوا بعد اعتناقهم الاسلام الا أن يزدروا هم ايضا الفنون والعلوم والصناعة وكل اختراعات الغرب(!) .

لقد قدمت مصر المسيحية نفسها بنفسها . بعد ان كانت قد مزقتهـــا الانشقاقات الدينيـــة لوقت طويل ، لتدخل تحت ســـطوة الخلفاء الأول ، واقتسمت بذلك نفس المصير الذى جرى على كل الولايات الاسلامية . هكذا تخلص الأقباط من الروم حين استدعوا الغازى ، لكنهم سقطوا بعد ذلك فى الهوان والاذلال ، وتناقصت أعدادهم الى حد كبير ، ولقد حدث فى بداية هذا التطور ان دمرت حماســة المسلمين القدر الضئيل من الثروات الأدبية الذى كان لا يزال باقيا بالاسكندرية ، فالكتب التى كان البطالمة قد جمعوها فى هذه المدينة أو جلبوها من كتب ملوك برجام Bergame (*) كانت قـــد هلكت فى الجزء الأكبر منهـــا اثناء حملات قيصر وخلفائه ، كمـــا أن ضروب العنف من كل صنف والتى كانت تتجدد طيلة ســـتة قرون ، وسط حروب مستمرة أو اضطرابات يفضى اليها الجـــدل الثيوقراطى ، كان كل ذلك قد اتى على مســـتودعات معارف العصور القديمة ، ومستودعات اخطائها كذلك(**) .

(*) مدينة فى آسيا الصغرى وكانت بها مكتبة شهيرة .

(**) بينا فى الجزء الثالث من الترجمة العربية ، فى الدراسة الخاصة بمدينة الاسكندرية كيف أن الكثير من الأوربيين انفسهم لايقرون فكرة حرق العرب لمكتبة الاسكندرية (المترجم) .

ولقد استشعرت مصر اثر الأسباب التى تقسم امبراطورية العرب منذ نشأتها ، فلم تتردد مطلقا فى ان تصبح ولاية مستقلة . واسس الخلفاء المسمون بالفاطميين عاصمة لهم فى مدينة القاهرة التى كانوا قد بنوها وزينوها ببعض المنشآت العامة ، لكن دولتهم قد دالت على يد صلاح الدين الشهير الذى كانت اعماله الباهرة بمثابة نذير لأوربا ، والذى حكم مصر وسوريا لمدة طويلة ، وقد تسبب هذا التطور فى حدوث حركات تمرد وفى انتقامات ، وتلته تغييرات هائلة فى الممارسات الدينية وفى نظام الحكم ، لكن قيام دولة المماليك وضع نهاية لهذه الأسرة الحاكمة (الأيوبيين) ، فمنذ وقت طويل كان الخلفاء والحكام يعهدون بمهمة الدفاع عن دولهم ، وبمهمة حماية اشخاصهم الى رجال وجنود اغراب ، تنتمى أصولهم الى غرب آسيا ، ولقد اساء رؤساء هذه الفرق العسكرية ، الذين دفعوا بلا روية لاحتلال المراكز العليا فى الدولة ، وتحت تعلات مختلفة ، استخدام سلطة سادتهم ، واصبحوا (فى النهاية) مستقلين ، ان احداثا من هذا النوع هى التى اصبحت احد الملامح المميزة لتاريخ الشعوب الآسيوية ، كما ان التمرد الذى أودى بحياة آخر خلفاء صلاح الدين كان له دويه فى أوربا ، فقد كان الأمراء الصليبيون شهودا عليه ، ومع ذلك فقد كانت هناك ، فى مصر ، احداث مماثلة طيلة اربعة قرون خلت ، وظلت هذه البلاد الجميلة ، بعد انتهاء الأيوبيين ، خاضعة لعبيد عسكريين ، ولدوا فيما بين بحر قزوين والبحر الأسود . ويمكننا القول بأن حكومة الأمراء المماليك لم تكن لا وراثية ولا انتخابية ، ففى بعض الأحيان ، كان المولد يضع انسانا ما فى مركز الصدارة ، ومع ذلك فقد كان قاتل الأمير هو فى معظم الأحيان خليفته ، وكان هناك عدد من الثورات او احداث التمرد تعادل عدد العهود (التى تعاقبت على مصر) ، وكان هناك كثيرون يتصارعون على السلطة ، فى نفس الوقت ويدعونها لانفسهم فى سوريا وفى القاهرة أو فى الصعيد ، ولقد حكم بعض زعماء هذه الفوضى بتألق ، وحين استولوا على سوريا اذلوا كبرياء المغول ، ودفعوا الأوربيين ، وحملوا اسلحتهم الظافرة الى اليمن وجزيرة قبرص وأرمينيا ، لكننا لا نلحظ فى كل هذه الأحداث سوى ملامح الجراة ، والرغبة فى الثأر ، والمخاتلة والجهالة والطموح المتوثب ، ومع ذلك فليس باستطاعتنا أن ننكر ان الدين الاسلامى ، ان لم يكن قد خفف من آلام واحزان هذه الأيام ، فقد ولد فى نفوسهم الضعيفة بعض المشاعر الانسانية ، واوحى لكل من الحاكم والرعية باعمال مشرفة .

ومن بين كل الأسباب التى عكرت صفو فلسطين ومصر ، لا نجد سببا اكثر تأثيرا من حملات الاوربيين ضد هذه البلاد ، ومع ذلك فان هذه الحملات ذائعة الصيت ، والتى هزت طوال قرنين كل امم الغرب ، لم تحقق أيا من النتائج التى كانت هذه الأمم ترغب فيها ، ولقد سببت الكثير من الاضطرابات التى استمرت لزمان طويل ، وان كانت فىنفس الوقت قد شحذت عبقرية التجارة ، ووسعت آفاق الرؤية وضاعفت من عمليات الصناعة والملاحة ، وادت فى دول عديدة الى سقوط النظم والحكومات الاقطاعية حين دعمت من سـلطة الملك ومن الحريات المدنيـة ، فى نفس الوقت الذى أعلت فيه من المكانة السياسية لروما الى درجة لم تستطع أن تتوازن عندها .

ولقـد حدث أن اسـتولى مائة الف فارس ـ دون جدوى ـ على دمياط ، وعندما واصلوا زحفهم فى وقت غير موات ، فقد حصرهم المسلمون بين ترع رافدة عن النيـل ، وحيث قد اضطروا للتسـليم فقد تخلوا عن انتصارهم ، وبعد ثلاثين عاما من ذلك ادت نفس الأخطاء الى نفس النتائج مسببة آلاما اكبر ، فلقد قاد لويس التاسع ، شرف عصره ، والذى مارس على رعاياه ، بل وعلى اعدائه ، السلطة الطبيعية التى تمنحها الفضـائل الكبرى ، قاد ستين الف مقاتل الى ضفاف النيل . كان قداجتاز المتوسط مع ١٨٠٠ سفينة ، وكان تحت امرته صفوة أبناء فرنسا ، وبعد أن استولى على دمياط بوقت طويل ، بدأ يتوغل الى أعمـاق الدلتـا ، فحاصره المماليك فى معسكره حيث انتشرت الأمراض المهلكة ، وقطعوا اتصالاته مع السواحل ، وعندما فقد الملك كل أمل فقد أمر بالانسحاب ، لكنه لم يستطع تنفيذه ، وكان بقية الفرنسيين على وشك ان يهلكوا والسلاح فى ايديهم ، حين اعلن احـد الأبطال وسط المذبحة ، اما من تلقاء نفسه ، واما لأنه قد تلقى امرا بذلك ، انه لم يعد بالامكان انقاذ حياة الملك الا بالاستسلام للأسر ، ثم سقط فى الأسر الملك نفسه ، وهو الذى لم يشأ مطلقا ان يدع مؤخرة جيشه فريسة فى يد اعدائه ، ويعرف الجميع بأية عظمة عسكرية شرف هـذا الملك اسره (ا) ، وبعد ذلك افتـدى رجاله ، وقـدم دمياط فدية لنفسـه ثم ابحر الى عـكا بفلسطين .

فى هذه الأوقات كانت الأمم الأوربية تتساوى بالكاد مع الامم الآسيوية ولم تكن قد اكتسبت بعد مطلقا هـذا التفوق فى القوة الذى يميزها اليوم ، والذى نتج عن تقدم كل الفنون ، اما عادات وسلوكات الحرب فكادت تكون هى نفسها ، وهى هنا وهناك غير تامة ، وهكذا كانت الشعوب التى وهبتها

الطبيعة شجاعة تعز على الاخضاع ، والتى كانت تتمتع بميزة الحياة فى ظل نظام افضل ، قادرة بالضرورة أن تزود عن نفسها بنجاح فوق ارضها هى (!) ، ولذلك ابادوا جيوشا لا حصر لها ، وان كانت مضطربة ، كان الغرب يجددها بلا انقطاع على الرغم من فقده ملايين غديدة من ابنائه ، لكن الاحوال الخاصة بالأمم قد تغيرت منذ القرن السادس عشر ، فطور البعض منها نظام الحكم المدنى ، والتاكتيك العسكرى ، وتقدموا فى فن استخدام المدفعية وتكوين وصيانة وقيادة الجيوش ، لكن الشرقيين ، على العكس من ذلك ، قد اهملوا كل الاختراعات التى تسهم فى نجاح الحروب او هى لم تتقدم فى هذا المضمار الا لمدى بالغ الضيق : هكذا كانت سطوة المعارف ونفوذ وقوة العادات العسكرية والفنون ، لحد ان نفس هذه البلدان التى صدت شعوبها لمدة قرنين من الزمان جهود كل اوربا مجتمعة ، لم يعد بمقدورها اليوم ان يدافع حكامها الحاليون ضد جيش واحد من جيوشنا ، ولحد ان ممتلكات هؤلاء الحكام فى هذه البلدان نفسها لم يعد لها من ضمان سوى المعاهدات وسوى التناقضات القائمة والمتبادلة بين أمم الغرب الكبرى .

لم يعد يحكم مصر منذ بداية القرن السادس عشر ملوك مستقلون ، فقد استولى عليها العثمانيون بعد اربعة وستين عاما من استيلائهم على القسطنطينية .

كان سليم الاول ، والد السلطان ذائع الصيت سليمان الثانى ، قد اعتلى العرش بواسطة الانكشاريين ، كان تمردهم هو الذى منحه العرش، وحافظ عليه بقتله لوالده ، وبعد ذلك امر باعدام اخوته قبل ان يتصدى لمشاريعه الواسعة فى آسيا ، ولم يتردد مطلقا فى تهديد فارس ومصر وسوريا ، وسرعان ما استولى على القطرين الأخيرين اللذين كانا خاضعين لحكم سلاطين المماليك ، ولم يكن هؤلاء يتمتعون الا بسلطة غير اكيدة ، كما كانوا بالكاد يستطيعون الدفاع عن انفسهم ضد خيانات صغار ضباطهم . خاض سليم معهم معركتين اولاهما فى حلب ، حيث فقد السلطان قنصوة الغورى حياته ، اما فى المعركة الثانية فكان خليفته طومان باى هو الذى فقد حياته على مسافة قريبة من القاهرة . لم تكن القوات العثمانية كبيرة العدد لحد كبير ، وكذلك لم يكن المماليك قد تبنوا بعد استخدام البنادق وسلم آخر سلاطينهم الى الغازى وشنق تحت احد ابواب المدينة . وجمع عدد كبير من المماليك وذبحوا او القى بهم فى النهر ، ولم تلبث الاسكندرية ان استسلمت،

وامتلأت الشعوب المجاورة رعبا ، وجاء شريف مكة ليقدم الهدايا الى سليم الذى اعلن نفسه حاميا ورئيسا وراثيا للاسلام ، مؤكدا بذلك ارادته فى ان يجمع الى القوة العسكرية السلطة الدينية ، كما ارسل الشاه اسماعيل الصفوى الي القاهرة سفارة باذخة سعيا وراء السلام .

لكن موت سليم أوقف مسار انتصاراته ، وساهم سليمان ، ابنه ، كثيرا ، سواء بحروبه أو بسياساته ، فى ازدياد نفوذ العثمانيين ، وخصص سنوات عديدة لتنظيم الحكم الداخلى فى ولاياته ، وتبعا لأوامر صادرة منه ، وضعت الأنظمة الخاصة بمصر والتى لا تزال حتى اليوم تستخدم فى الادارة الاقليمية لهذه البلاد . ومع ذلك فان هذه الأنظمة تنسب فى بعض الأحيان الى سليم ، الذى يصح القول بأنه لم يساهم فيها على الاطلاق ، ذلك ان سليما قد انفق وقتا قصيرا فى مصر خصصه كله للحرب هناك ، وعندما عاد الى القسطنطينية لم تكن تشغله الا استعداداته ضد فارس ووسط اوربا ، كان يفكر فى تدمير بغداد ، ولم يتوقف مطلقا عند وضع الأنظمة وتنظيم الميرى فى مصر ، ولقد نشرت وثيقة التسليم الذى ابرمها المماليك معه ، لكن قصاصة الورق هذه لا يمكن ان تحوز أى قدر من الثقة ، فكل ما هو جدير بالملاحظة فى سلوكه السياسى هو تفاوضه مع شريف مكة ، وكذا الحرص الذى ابداه فى ان يصحب معه الى القسطنطينية خليفة العباسيين .

ان سليم الذى حصل على الاسم اللائق بكل من هو بشع وفظ، والذى ارسل وزراءه الى الهلاك لأنهم لم يحدسوا الى اية جهة من العالم ينبغى عليه أن يبعث بجيوشه ، والذى ظل يأمر طيلة سنوات عهده ، باعدام اصدقائه واعدائه دون تمييز ، والذى كان قاتلا لوالده ولاخوته ولثمانية من ابناء اخوته ، كان يربط الروحانيات بالقسوة ، فليس هناك اى امبراطور عثمانى آخر قد ذهب به الحقد ضد الأديان الأجنبية الى المدى الذى ذهب هو اليه ، كان على وشك ان يرغم رعاياه المسيحيين على اعتناق الاسلام ، لكن امبراطورية التقاليد سرعان ما عادت من جديد الى التسامح مع الديانات الأخرى ، وهو المبدأ الأساسى الذى تقوم عليه الدول الاسلامية والذى لولاه لربما ما كانت قد تكونت اطلاقا . وقد اعطى سليم لمصر ، كما اعطى لكل الولايات التي هزمها حكومة تنهض على دعامات من حاميات تركية ، لكن العسكر بداوا يتمردون ، ويطالبون بزيادة رواتبهم ، ويذبحون رؤساءهم ، وسعى الباشوات الى الحصول على استقلال تام ، اما المماليك ، فعلى

الرغم من انهم قد بقوا بأعداد ضئيلة ، فقد حصلوا على ميزة كبرى استمدوها من ذكرى سلطتهم وسطوتهم ومن صلاتهم بالعربان وبالقوى المحلية . هذا هو اصل حالة الفوضى التى تكونت عقب الغزو ، ولقد استمرت هذه الحالة حتى انتصرت شجاعة البكوات وجراتهم على الانكشاريين الذين اغضبتهم رخاوة الجنود ، ودعة حراس القلاع القاعدين .

وفى الوقت الذى كانت مصر وسوريا تخضعان فيه لسادة جدد ، كانت الحالة السياسية ، وكانت تجارة الدولتتعرض لقلاقل واسعة وغير متوقعة، وليست هناك فترة اخرى من التاريخ ذاخرة لهذا الحد بالأحداث الكبرى . كانت القوة العثمانية تنشر الفزع فى اوربا وآسيا ، وكف الكثير من الدول الأوربية عن الاعتراف بسلطة الحبر الأعظم فى روما ، وكان الاسلام يستشعر حاجة الى ثورة مماثلة ، وكان هناك مذهب جديد ، رحب به الصفويون ، يشق البلدان الاسلامية ؛ وكانت فرنسا تستجلب الفنون الجميلة التى اضاءت سماء ايطاليا ، وكانت اسماء فرانسوا الأول وسليمان وشارل تملأ العالم اجمع . وطورت اوربا ، ممارسة فى النهاية عبقريتها الخاصة ، انظمتها المدنية ، وجعلت ممالكها قوية عن طريق اقامة جيوش ثابتة ، وقطع فن الطباعة وكذا المعارف البحرية والعادات العسكرية اشواطا غير عادية من التقدم ، وتعلقت كل العقول بالحملات التى قام بها كولومب وفاسكو دى جاما ولقد دهش البرتغاليون والأسبان عندما تلاقوا عند الطرف الأقصى لآسيا بعد أن كانوا قد خرجوا من موانيهم متبعين اتجاهين متضادين . كانت الرغبة فى الاستيلاء على تجارة الشرق هى التى بعثت على هذه الاكتشافات ، وفى الواقع فقد كانت منتجات الهند الثمينة تتبع حتى ذلك الوقت طريقا غير معروف . وفقدت مصر ، وهى التى كانت تتجمع فيها هذه المنتجات ثم تنقلها الى مختلف بلدان اوربا وافريقيا ، تلك الميزات التى آلت اليها من مؤسس الاسكندرية ، كما اضرت حملات البرتغاليين بالبنادقة على وجه الخصوص ، اولئك الذين لم يستطع مطلقا حلف قوى من امم عديدة ان يحطمهم ، والذين كانوا موجودين عند كل منافذ التجارة ، لقد وجد هؤلاء عظمتهم تضمحل وتغرب دونما رجعة ، واخيرا فسرعان ما تقطعت العلاقات التى كانت تربط ما بين عدد كبير من الدول والمدن .

وفى الوقت نفسه كانت العبقرية القلقة والطموح للأوربيين تؤسس علاقات جديدة بين اشد مناطق العالم تباعدا ، واستخدموا ــ وهم جد

مشغوفون باستعمال أدوات قوتهم الجديدة ـ البوصلة للتوجه فوق أراض مجهولة كما استخدموا الأسلحة النارية لترويض شعوب هـذه الأراضى ، وعثروا فى مناجم امريكا على المعادن النفيسة التى كانت لازمة لمضاعفة المبادلات التجارية مع الشرق ، كما جلبوا من أفريقيا سكانا لزراعة الممتلكات الجديدة .

اما البنادقة ، فقد بذلوا ، متحالفين فى ذلك اولا مع المماليك ، وبعد ذلك مع الحكام العثمانيين ، جهودا بائسة لتدمير المنشآت البرتغالية فى البحار الشرقية ، وشرع الاولون فى نقل الاخشاب من دلماشيا الى ضفاف النيل ، ثم من هناك الى السويس لبناء اسطول ، وفى البداية أمكنهم ان يحصلوا على بعض الفوائد من جراء استخدام ضروب القوة هـذه ، لكن حملات السلاطين الغورى وسليم وسليمان لم تتمكن من ايقاف تقدم غزاة الهند ، واذا ما القينا بالا لما جاء بتقارير بعض الرحالة ، فقد كانت مصر نفسها فى هذه الفترة مهددة بتطور اكثر دمارا بحيث لا يمكن ان يتلوه تطور آخر ، اذ يؤكد هؤلاء الرحالة ان حكام الحبشة المتحالفين مع بلاط لشبونة ، قد عزموا على تحويل مجرى النيل نحـو البحر الأحمر ليجعلوا قاحلة الى الأبد تلك الأراضى التى يغطيها النيل كل عام بفيضه السنوى . لقد كان فى الواقع امرا لا جدوى من ورائه ان يلجأ فاتح جوا وملقا وهرمز الى هـذا المشروع الخيالى ، فلقد خدم بلاده بطريقة افضل عندما حطم كل الأساطيل المعادية . ولقد توغلت سفن الملك ايمانويل تحت قيادة البوكرك وخلفائه فى البحر الاحمر حتى طرف الخليج ، بحيث لم تعـد هناك نقطة واحـدة على شواطىء المحيط الآسيوى الواسعة لا تعترف بالسيطرة البرتغالية .

ولقد اقتضى الأمر ان يكون ظهور هذه القوة المتعاظمة لفترة قصيرة ، ومع ذلك فقد كان لظهورها هذا اثره الهائل على اقدار الغرب . وفى واقع الأمر ، فقد كان بمقـدور العثمانيين ـــ وقد اصـبحوا سادة لمصر ـــ ان يستحوذوا على ثروات الهند . وكان بوسع هذه التجارة ان تمنحهم اسطولا بحريا هائلا بالاضافة الى كل المصادر التى تتطلبها صيانة الجيوش العديدة ، وفى ذلك الوقت ، كان يحكمهم حكام طموحون ، مقاتلون وسياسيون ، كانت أوربا المنقسمة على نفسها تواجههم بمقاومة غير مؤكدة ، ولو ان اكتشافات دى جاما لم تكن قد حرمتهم من مصادر زيادة القوة هذه ، لربما كانوا قد غزو الجزء الاكبر من الأقطار المسيحية ، ولكانت هـذه الدول ، بالغة الازدهار

وبالغة التمدن ، تئن اليوم تحت سطوة أجنبية معــادية للمعارف النافعة ، وللفنون الجميلة على حد ســواء .

وهكذا فان بداية القرن السادس عشر تحدد بداية فترة مشــئومة فى تاريخ مصر ، فلم تعد هذه البلاد ، بعد ان هزمت ونهبت وعزلت عن سوريا، تشكل دولة مستقلة ، لقد تركت لشح الباشوات الطموح ثم سقطت بعد ذلك فى اتعس انواع الفوضى . كان يساهم فى مهام الحكم هناك مجلس اعلى يتكون من أهم رؤساء الفرق العسكرية ويراسه نائب الملك (الباشا)، وعهد بادارة وحكم الاقاليم الى كثير من البكوات المماليك التابعين لهــذا المجلس (الديوان) والذين لم يكن يحق لهم ان يمارسوا سوى ســـلطة محدودة . وقد حملت نوبات العصيان والتمرد التى قام بها باشــــوات عديدون ، ديوان القسطنطينية على تحبيذ نفوذ رؤساء الفرق العسكرية ، وكان هؤلاء الاخيرون يكونون بيوتهم من العبيد الأجانب، الذين يعدون منذ شبابهم الباكر على استعمال السلاح ، والذين كانوا فى معظم الاحيــان يرتقون سلم الوظائف بالغة الاهمية .. وعند نحو منتصف القــرن الأخير (الثامن عشر) ، دفع ابراهيم ورضوان رئيسا الانكشارية والعزب عددا كبيرا من مماليكهما الى وظائف الصدارة ، وبعد ان وحدا مصـــــالحهما ، استوليا على الحكم ، ولم يدعا للباشا الا سلطة شكلية ، لكنهما فى واقع الامر قد سلباه ممارسة السلطة الفعلية .

ومارس على بك ، الذى خرج من بيت ابراهيم ، سلطة السيادة باسم حاكم العاصمة، وبعد أن عمل على قتل أعدائه ومنافسيه، وبعد أن دعم قوته بالصعيد ، عمل على احتلال مدينة مكة ، ونصب عليها من جديد شريفها السابق عبد الله ، وسعى (على بك) لكى يحصل على اعتراف منه بأنه سلطان مصر ، وشرع فى ان يقيم فى ميناء هذه المدينة منشأة ثابتة تتولى تجارة الهند ، وسهلت مشروعات على بك ، تلك الحرب التى كان عـــلى الباب العالى ان يخوضها ضد الروسيا ،بالاضافة الى التمرد الذى قـــام به الشيخ ضاهر الذى كان معه حزب كبير فى فلسطين ، فأرســـل على بك قوات الى سوريا ، وارغمت قواته بعد أن تحالفت مع قوات الشيخ ضاهر باشوات الألوية المجاورة على الفرار . ولكن سرعان ما ادت نصائح اسماعيل بك واغراءات الباب العالى الى تمزيق حزب على بك فانشق عليه معتوقه محمد بك (ابو الذهب) الذى كان قائدا لجيشه فى سوريا ، واستدار الى

القاهرة ، وبعد ان نفاه سيده لبعض الوقت ، امكن له (لمحمد بك) أن يكون لنفسه حزبا قويا ، عندئذ ترك الصعيد ليستقر بالعاصمة ، وانسحب على بك الى حليفه الشيخ ضاهر ، والتمس النجدات من روسيا ، لكنه فقد قوته قبل ان تنتهى المفاوضات ، فقد أسرع بالعودة الى مصر بعد ان خذلته واضلته الخيانات المحيطة به ، وجرح فى احدى المعارك التى خاضها فى الصالحية ضد عبيده القدامى ، ثم مات بالقاهرة متأثرا بجروحه .

بدا محمد بك اكثر خضوعا لأوامر الباب العالى ، فحصل الضرائب ، وبعد ان حصل على لقب باشا زحف على سوريا ضد ذلك العربى ، الشيخ ضاهر العمر ، وامكنه الاستيلاء على يافا ، ثم قاد جيوشه الظافرة الى عكا، لكنه مات ميتة شبه فجائية من اثر اصابته بمرض معد ، وخلفه فى السلطان اثنان من مماليكه هما ابراهيم ومراد ، فقلدا سلوك على بك (تجاه تركيا) ، واستثير ضدهما بفعل الاغواء اسماعيل ـــ وهو الذى سبق له ان خان على بك ـــ فكون عصبة قوية كانت كافية لارغام غريميه على ترك العاصمة . وبعد أن لجآ الى الصعيد ، توصلا الى عقد صلح مع الكثيرين من بكوات الحزب المنتصر ، ولم يتوانيا بعد ذلك فى تجريد اسماعيل من السلطة ، وعندئذ ارتكبا من المظالم المتضاعفة ما جعلهما اكثر بغضا من ذى قبل ، وتملصا بكافة الوسائل المكنة من الرضوخ لسلطة السلطان . عندئذ كلف حسن ، قبطان باشا ، من قبل بلاط السلطان بمعاقبة المتمردين ، فوصل الى القاهرة مع قوات قليلة العـــدد ، واقصى ابراهيم ومراد ، وارســـل الى القسطنطينية جزءا من الاسلاب التى حصل عليها اما من اتبـــاع الاميرين الفارين واما من الابتزازات التى ارتكبها ، وحين استدعته الحـــرب التى نشبت من جديد مع الروسيا ، انهى حملته بأن وهب البكوين جزءا كبيرا من الصعيد ، اما حكومة القاهرة فقد تركها فى يد اسماعيل بك ، لكن الاخير مات بالطاعون فى عام ١٧٩١ ، حيث حصد الوباء فى ربيع هـــذا العام ثلث سكان القاهرة، وقضى بتأثير هذا المرض نفسه على نصف المماليك المرتبطين باسماعيل، وفقدت المدينة أكثر من ستين ألفا من أبنائها فى الفترة الواقعة ما بين السادس والتاسع من أبريل من نفس العام.

وهكذا استعاد ابراهيم ومراد من جديد سلطتهما بالعاصمة ، عـــلى الرغم مما كانت تفرق بينهما من حزازات قديمة ، فقد ربط بينهما الاحساس بمصلحتهما المشتركة ، وانغمسا بعد ذلك فى اعمال عنف جموح ، مزدريين

أوامر السلطان ،فارضين ضرائب جديدة عن غير روية أو بصيرة ، وبدون مبالاة بأثر ذلك على التجارة والزراعة والصناعة ، منتزعين الحبوب اللازمة لأقوات الفلاحين الذين هلك منهم عدد كبير بدون أن يتلقوا عونا من احـــد .

لم يكن التجـــار الأجانب مطلقا بمنـــأى عن هذه المظالم ، وتعـــرض الفرنسيون بصفة خاصة لمظالم ومغارم ظلت طويلا بلا عقاب ، وبدا ان البكوات قد ظنوا ان الحالة السياسية التى كانت تمر بها فرنسا عندئذ هى مبـرر لهذه الاهانات ، كما كانوا ــ فيمايبدوــ على ثقة بأن حكومتها الجديدة لن تكون فى وضع يسمح لها بأن تحصل على اية ترضية عن هذه الاهانات، وفى واقع الامر ، فان الوفـــود التى ارسلت فى هذا الصـــــدد الى بلاط القسطنطينية كانت عديمة الجدوى ، فهذه القوة (تركيا) لم تبذل اى جهد لعقاب طغاة مصر او لقمع سلوكهم العنيف المعادى لحلفائها ، وتجـــــددت الاهانات والابتزازات مما جلب الخراب لبيوتنا التجارية .

لم يكن من المستطاع مطلقا ان ندع هؤلاء ، بدون ان نســـلم للامة المنافسة لنا (انجلترا) مميزات كانت لها فى معاهدات بالغة القدم ، وبدون ان نقدم مثالا على ضعف (من جانبنا) قد يغدو قاتلا بالنسبة لكل المؤسسات الفرنسية . لقد كان الامر اذن يقتضى منا اما أن نرضى عن طيب خاطر أن نستبعد من تجارة الشرق ، ونتسامح فى المظالم التى تلحق بنا ، واما ان نجد أمننا فى ممارسة قوتنا الذاتية .

كانت هذه هى الظروف التى دعت الفرنسيين الى المجىء الى مصر ، وهكذا اصبحت هذه البلاد مسرحا لواحدة من أهم الاحداث الكبرى فى التاريخ الحديث . وتضاف الى الدوافع التى انتهينا من ذكرها ، تلك المزايا التى يعد بتحقيقها قيام مؤسسة ثابتة لنا فى المشرق ، مع الأمل فى توافق يتم مـــع الباب العالى ما ان نبصره بمصالحه الحقيقية ، مع تقـــديم كل الضمانات التى يمكن له أن يطلبها .

وفى الواقع ، فقد كان يمكن لاسهام فنون أوربا ، بالاضافة الى قيام حكومة منظمة فى مصر ان يغير على وجه السرعة من الاوضاع هنـــاك . كان يمكن للزراعة اذا ما رعتها ادارة مستنيرة أن تحرز هناك ، فى وقت قصير ، قفزات هائلة ، فمن المعروف أن خصوبة أرض مصر ، تتجدد من تلقاء ذاتها بفعل الفيضانات السنوية ، فى حين تشتمل اعمـــال الزراعة

بصفة أساسية على نوبات الرى ، لكن توزيع المياه اليوم غير منتظم وغير تام، فقد شقت الترع التى تجلب هذه المياه دون تبصر أو حذق ، وهكذا تصل المياه فى مناطق بعينها بوفرة تزيد عن الحاجة فى الوقت الذى تظل فيه مناطق اخرى تتعرض لجفاف طويل ، وفى مناطق ثالثة يؤدى حفر روافد انشئت عن غير ترو الى اضعاف مقاومة مياه النيل عن مصابه ضد مياه البحر ، ويكون من اثر ذلك ان تتحول فجاة الى مساحات رملية لا نفع فيها اراض ثمينة كانت توفر حتى ذلك الوقت افضل الحاصلات ، ولا يتم رفع مياه الرى هناك الا بواسطة بعض الماكينات الخشنة ، واثر هذه بالغ الضآلة بالغ التواضع ، وعن طريق تعرض الحيوان أو بالأحرى الانسان ذاته لصعوبات ومتاعب متزايدة . وحيث أن المقاطعات المختلفة ، وسط ظروف الاضطرابات السياسية ، لم تكن تخضع لادارة موحدة ، فقد كان يحدث فى معظم الأحيان ان يتصرف القوم فى المياه بدون روية ، وهكذا كانت تحول مجارى المياه ، وتجفف الترع وتفتح الجسور بدون سند من اى حق ، وهكذا ايضا لم يستطع القوم ان يفيدوا مما حبتهم به الطبيعة ، واستخدموا كل حذقهم ليستحوذ عليها كل منهم لصالحه ، بالتبادل ، كان يمكن تحاشى هذه الفوضى عن طريق توزيع للمياه اكثر انتظاما ، وهو الأمر الذى كان سيزيد فى وقت معا مساحة الارض القابلة للزراعة ، وكذا خصوبتها . وقد يكون من اليسير أن نروى الاماكن الأكثر ارتفاعا بوضع نظام افضل لعمل الحيوان ، بل ربما بدون اللجوء لعملها على الاطلاق ، وذلك اما بأن نرفد (الترع والقنوات) من المياه العالية واما باللجوء الى القوى الميكانيكية التى تنتج عن الرياح أو عن مجرى النهر ذاته .

وبخلاف القمح والارز ، ومختلف نباتات المحاصيل والفواكه من كل نوع ، والتى تنتجها مصر بوفرة ، فمن الممكن الحصول على فوائد اكبر من ذلك بكثير عن طريق زراعة قصب السكر والكتان والنيلة ، كما يمكن لهذه البلاد أن تمد أوربا بالنطرون الذى يتكون من تلقاء نفسه فوق سطح ارضها، وكذلك بأجمل مواد الصباغة والعطارة والعطور بمبالغ ضخمة ، وبالبن والعطور القادمة من الجزيرة العربية ، وبالتبر (تراب الذهب) والعاج وكل المواد التجارية الأخرى الواردة من افريقيا . أما النباتات الوطنية ، بمعنى الكلمة فهى قليلة العدد ، وان كانت هذه الأرض الخصيبة والتى تتدرج حرارتها اللطيفة بشكل متدرج بدءا من البحر حتي حدود النوبة يمكن أن

تدخل فى عداد البساتين الفسيحة القادرة على أن تستوعب وأن تحفظ اثمن منتجات العالم .

تلك هى المزايا الطبيعية التى لمصر والتى لم يكن من المستطاع افناؤها ولو بفعل سطوة طويلة لادارة بالغة السوء ، فلا يزال الناس هناك يستمتعون حتى أليوم بثروات الزراعة والصناعة والتجارة ، كما ان القاهرة، من جوانب كثيرة ، تعد مدينة ثرية ، ويبلغ عدد سكانها اكثر من ٢٥٠ الف نسمة ، كما تحتفظ بعلاقات متزايدة مع الجزيرة العربية وكل وسط افريقيا ، وكذلك مع تركيا وفارس والهند واهم بلدان اوربا . لقد حولت الاكتشافات البرتغالية طريق التجارة عن الاسكندرية ، ومع ذلك فقد ظلت الاتصالات مع الهند مستمرة اما عن طريق البحار الشرقيه واما عن طريق البر ، وهكذا احتفظت مصر بكل عناصر عظمتها القديمة ، كما ظلت هذه بذورا تعد بازدهار جديد ، سوف ينمو بشكل سريع لو ان قد خصبتها عبقرية أوربا وحسن ادارة حكومة عاقلة وقادرة .

اما عن خواص الطقس ، فقد لا يكون بالامكان أن نعرف بهـا الا عن طريق عرض مفصل لا يتفق مطلقا مع طبيعة هذه المقدمة ، لكننا نكتفى هنا بالقول بان ملاءمة هذه البلاد (للصحة) لا يمكن ان توضع موضع ارتياب ، ويتطابق مع هذه النتيجة كل تاريخ مصر ، وكذا التجربة الحاسمة للجيش الفرنسى (هناك) ، كما تتفق مع الوضع الراهن لتعداد السكان . حيث يعيش نحو مليونين وثلاثمائة الف شخص ، منتشرين على مساحة ١٨٠٠ فرسخ مربع .

وكان من بين اعظم المنجزات التى يمكن لاحتلال مصر أن يحققها هو ما يتمثل فى ربط الخليج العربى (البحر الأحمر) بالبحر الابيض المتوسط عن طريق قناة ملاحية ، وهو مشروع نال شهرة واسعة منذ زمن طويل ، وكان يمكن له اليوم ان يتحقق باقتدار . وفى الواقع ، فمهما يكن المستوى المتبادل لمنسوب البحرين ، ومهما تكن النتائج التى تم التوصل اليهـا عن طريق ما سبق القيام به من اعمال تتصل بنفس هذا المشروع ، فلعل من الميسور على المهندسين الاوربيين ان يقيموا مثل هذا الاتصال وأن يحافظوا عليه ، ويمكن القول بأن هذا الاتصال سوف يقرب الأقطار الشرقيـة بتلك التى تقع على ضفاف البحر المتوسط ، وبدون أن نغير كلية من طرقّ التجارة

الحالية ، فان هذا الاتصال سوف يؤثر على علاقات أوربا بالهند والجزيرة العربية وافريقيا ، ويمكن لنا أن نقارن هذه النتائج (المتوقعة) بتلك التغييرات التى تمت ، فى اتجاه مضاد ، بعد الحملات البحرية للبرتغاليين .

ومن جهة اخرى ، فان لمصر ، التى تتجمع فيها كما لو كان من تلقاء نفسها ثروات الزراعة وثروات التجارة ، مزايا أخرى لا يمكن أن تتوفر مطلقا فى اية مستعمرة اخرى بعيدة ، اذ لا يفصلها عن فرنسا سوى بحر قليل الاتساع ، تبدو الملاحة فيه كما لو كانت حكرا لهذه القوة ولحلفائها الطبيعيين ، كما أن مصر تدخل ضمن نطاق نظام للدفاع المشترك عن الجزر المجاورة لايطاليا ولتلك التى تقع بالبحر الادرياتيكى والأرخبيل ، بالاضافة الى انها لا تتعرض مطلقا لغزو غير متوقع ، ولا يمكن ان تهاجمها الا قوات هائلة بحيث انه لو امكن لتلك القوة الأوربية (فرنسا) التى احتلت مصر منذ وقت طويل ، ان تظل على علاقةحميمة بالباب العالى ، وانتحصن هذه المنشأة (المستعمرة) لكان بمقدورها الاحتفاظ بها . وبالاضافة الى كل هذا، فان هذه البلاد توفر للفرنسيين ميزة بالغة الاهمية هى حصولهم على موقع متوسط ، فحين يجد الفرنسيون انفسهم على ابواب آسيا فسيغدو بامكانهم من هناك أن يهددوا على الدوام ثروات وممتلكات أمة معادية (انجلترا) ، وان ينقلوا القلاقل ، بل والحروب ، الى نفس مصادر ثرائها .

وسوف تحقق العلاقات التى سرعان ما ستنشأ بين مصر (كمستعمرة فرنسية) وبين المؤسسات القائمة فى الجزيرة العربية وفارس والهندستان وافريقيا مزيدا من المبادلات التجارية مما يعود بأكبر الفوائد على فرنسا والشعوب التى تمارس الملاحة فى البحر المتوسط ، وبذلك نستطيع ان نحترف تلك المهنة الرابحة التى يدين لها البنادقة بثرواتهم والتى منحتهم لوقت طويل قوات بحرية تفوق القوى البحرية لمعظم دول الجنوب ، فى حين توقف كل ذلك على الفور حين تغيرت مقادير مصر .

وفى الواقع فقد كانت تجارة الهند مع الدول الأخرى تتم مبادلة بالمعادن النفيسة ، وهذه صلات مستمرة منذ وقت لا تعيه الذاكرة ، ولقد كان على كل الدول الثرية ان تدفع هذه الضريبة عندما كانت تدفع ثمنا لمنتجات الشرق كمية هائلة من الذهب ،وبخاصة الفضة ، التى كانت تتكدس هناك دون سبيل لاستعادتها . ومع ذلك فقد استطاع البنادقة — فيما يبدو — أن يقيموا مع

هذه البلدان علاقات من طبيعة مختلفة ، وكانتمصر ، وقد أصبحت بالنسبة لهم المستودع الرئيسى لثروات العالم اجمع ، تحصل ، بالاضافة الى الاخشاب والمعادن النافعة ، على اشياء من منتجات مصانع هذه البلاد نفسها ، وكان البنادقة يستجلبون منها السلع الثمينة التى تنتجها الهند والجزيرة العربية وسوريا وفارس ، ثم يوزعونها على كل انحاء اوربا .

وهكذا لم تعد مصر مفيدة بما تملكه فقط ، بل هى نافعة بما ينقصـــها كذلك . ومن المؤكد أن بوسعنا أن نصنع فى هذه المستعمرة الأقمشـــــة النفيسة ، والأجواخ الناعمة والخمور بالاضافة الى منتجات صناعية متنوعة، وقد ننقل اليها الحديد والرصاص ، وعلى وجه الخصوص الخشب الخاص بانشاء المساكن وبناء السفن . ونستطيع بشكل جزئى عن طريق هــــذه المبادلات ان نحصل على اثمن سلع الهند ، ونتزود بها ، كذلك ، عن طريق اتصالات مباشرة ، وبخلاف الموانى التى ستفتح او ستنشأ على شـــواطىء البحر الأحمر ، فقد نرى قيام منشـآت أخرى فى مختلف مناطق هذا الطريق التجارى المؤدى للهند ، تجعل الملاحة اكثر يسرا وأكثر امانا ، حيث تتبادل هذه المنشـآت الدعم فيما بينها .

ولسوف نستطيع كذلك (لو تحقق كل ذلك) ان نسمو الى اعتبارات اكثر عمومية وشمولا ، وان نحدس النفوذ الذى قد تمارسه مســـــتعمرة فرنسية لها مثل هذا الموقع المناسب على ظروف وأحوال البلدان المجاورة، وستكون الجزيرة العربية وسوريا من أوائل البلدان التى ستفيد من المزايا التي ستحقق من وراء ذلك ، فسوف تتمتع التجارة هناك ومنذ البداية بأمن ظل مجهولا حتى هذه اللحظة ، وسوف تعرف الزراعة والصناعة ازدهارا جديدا ، وقد نستطيع عقد تحالفات مفيدة ودائمة مع فارس وممالك آسيا الأخرى ، وسوف نتوغل من كل جانب الى داخل قارة أفريقيا الواسعة ، وسوف نكتشف الأنهار التى تجرى داخلها وكذا الجبال ومناجم الحــــديد والذهب التى تحتويهما بوفرة ، وفى النهاية فسوف يكون بمقدورنا أن نأمل فى أن حكومة مصر ستعمل جاهدة على أن يسود الأمن والنظام على سواحل أفريقيا الشمالية ، وذلك بجعلها السكان هناك يخضعون لادارة أكثر انسانية وأكثر حكمة ، عندئذ سوف يكون البحر المتوسط ، للابد ، وقد أصبح بحـــرا فرنسيا ، في حمى من غارات القراصنة .

من كل ذلك نرى كيف يختلف انشاء هذه المستعمرة الجديدة على طرف بحر ضيق ومجاور ، وفى واحدة من اجمل بقاع العالم ، عن هذه المغامرات البعيدة التى تسعى لخلق منشآت باهظة التكاليف ، معرضة لكل الاحتمالات والشكوك التى تجلبها الحرب ، والتى لا يمكن الاحتفاظ بها حتى فى وقت السلم دون أن نضاعف من ضحايا المناخ غير الصحى (هناك) ، ولن نكون بحاجة على الاطلاق ان ننقل الى هناك (الى مصر اذا اصبحت مستعمرة فرنسية) مزارعين اجانب باعتبارهم عبيدا ، بل اننا ، بعيدا عن ممارسة اى عنف ضد الأهالي هناك ، قد نعيد كل ما سلبته اياهم حكومات رعناء ومستبدة .

وعلى هذا فقد كان المشروع الذى نعرض له الآن يستحق فى واقع الامر التامل من جانب رجل دولة ، فليس فى هذا المشروع الا ما هو نافع ومجيد ، كما انه مناسب لحلفائنا ، ويضمن للشعوب المجاورة مقادير افضل، وسيوحد بين الفوائد السياسية التى ستتحقق لوطننا والمصالح الحقيقية للامم الأخرى ، وهو امر لا يقدر بثمن .

لكن الأحوال فى اوربا لم تسمح لمصر مطلقا بأن تحصل على العطايا التى قدمت اليها ، ومع ذلك فان ذكرى الحملة الفرنسية لن تمضى مطلقا دون أن تؤتى ثمارها ، ولسوف تعرف حكومة القسطنطينية كل المزايا التى كان بمقدورها أن تحصل عليها لو أنها اعطت لهذا الاقليم ادارة افضل ، كما ستتبين بكل سهولة اية مرام أو نوايا كانت ترمى اليها تلك القوى الأوربية التى سعت لاعادة تثبيت سلطة المماليك ، فلا يمكن أن تكون هناك وسيلة اكثر ضمانا لحرمان مصرمن الميزات الخاصة بها الا باعادتها الى طغاتها الأول، أولئك الذين يتساوى عداؤهم للصالح العام بعداوتهم للسلطة الشرعية ، واخيرا فان البلاط العثمانى سوف يغترف نصائح مفيدة من السفر الذىننشره اليوم، وسيكون بمقدوره ان يلجأ الى فنون الغرب ، وأن يستخلص من هذه الموسوعة نفسها القدر الأكبر من النتائج التى تؤكد له ما قدمته جيوشنا من اسهامات ، وان يضع موضع التطبيق تلك النوايا الطيبة التى كانت فرنسا قد كونتهــا .

واذا سعينا الآن الى تمييز الوسائل التى يمكنها اكثر من غيرها ان تسهم فى نجاح هذهالأهداف ، فلسوف ندرك كم كان مهما ان نمهد السبل

لتقديم العلوم والفنون ، اذلا يمكن فى واقع الامر ان تكون هناك ظروف اخرى أكثر الحاحا من تلك لتطبيق العلوم والفنون ، كان من الضرورى أن نثرى الزراعة وان نتوسع فيها وان يدرس مجرى النهر وان تخضع الزراعة لخطة شاملة ، وان نعمل على اتصال البحرين وان نؤمن الملاحة فى الخليج العربى، وان تنشأ الترسانات البحرية والموانى .. كان ينبغى أن نرتب طقسا يكاد يكون مجهولا (بالنسبة لنا فى اوربا) وان نمتد بأبحاثنا فى مجال التاريخ الطبيعى والجغرافيا لتشمل البلدان المجاورة وان ندير التجارة، ونطور المنسوجات والصباغة وطرق استغلال النطرون وتصنيع السكر وملح النوشادر والنيلة ، وباختصار ان نخلق صناعة جديدة وان نضع فى خدمتها كل اكتشافات اوربا .

وهكذا فقد اثارت الفكرة التى تبيناها بأن نصحب من جديد الى وادى النيل العلوم التى نفيت بعيدا عنه لوقت طويل ، عرفا عاما وعالميا ، كانت هذه الفكرة تستوحى الأمجاد القديمة لطيبة وممفيس واستقرار آلهات الفن والعلم والأدب الاغريقية فى عاصمة خلفاء الاسكندر ، كما عرفت بشكل افضل فائدة ومدى نطاق المشروع الذى كنا على وشك تحقيقه . وبعيدا عن ان نتقبل فى العلوم تمييزا لا يتفق مطلقا مع تسامى الغايات فان اولئك الذين يستعينون بها للاسهام فى انتصاراتهم لن ينظروا اليها (العلوم) الا باعتبارها تنتمى جميعا الى نفس العائلة . لقد اراد القائد ان نستزرع فى وقت واحد كل فروع الآداب والفلسفة ولجأ الى العلوم الرياضية التى تشكل مبادىء دقيقة فى كل المجالات بالغة الأهمية ، كما لجأ الى العلوم الفيزيائية التى تهدف الى دراسة ووصف الطبيعة ، كما التجأ الى الفنون ذات الفوائد المباشرة والمحسوسة ، وكذلك الى تلك التى لا تقل عن ذلك قيمة والتى تساهم فى تألق الحكومات وتمدنا بأنبل مباهج الأرواح والعقول ، وكان يمكن لمصر فى وقت قصير بفضل هذه الادارة الحكيمة ، لا أن تصبح مستعمرة فرنسية فقط ، بل بشكل ما اقليما فرنسيا وان تقدم لسكانها الجدد صورة من وطنهم هم .

لقد كانت تلك هى الاعتبارات التى اوحت بمشروع اقامة هيئة علمية فى عاصمة البلاد التى ذهبت جيوشنا لاخضاعها . ولقد انتهينا للتو من تذكر مختلف عصور تاريخ مصر بالاضافة الى الوقائع التى سبقت الحملة الفرنسية كما استعرضنا المرامى والأهداف التى تعهدنا بمقتضاها هذه الحملة وادرناها،

ويلزمنى الآن ان اقدم الى القارىء الظروف الاساسية لهذا الحدث الكبير.

كان الفرنسيون الذين وجب عليهم ان يسهموا فى هـذه الحملة قد حشدوا فى نقاط مختلفة على سواحل البحر المتوسط ، لكنهم كانوا يجهلون الهدف الذى سيقادون من اجل تحقيقه ، وابدوا فى هذا الخصوص تخمينات بالغة التعارض . لكن التوقد العسكرى وحمية الشباب ، بالاضافة الىعدم اليقين ، كانت تجعل القلوب تخفق بشدة ، وان كان ظهور فاتح ايطاليا قد اوحى بثقة تامة وعامة ، كان اسمه وحده كفيلا بأن يثبت الأمانى كأنها بالفعل قد تحققت .

وبعد ان خرج الأسطول الفرنسى من خليج طولون ، وانضم الى الفرق التىتشكلت فى موانى ايطاليا ، توقف فور رؤيته لمالطة التى كانت حكومتها قد اعلنت نفسها منذ وقت طويل فى حالة عداء معنا ، لكن هذه الجزيرة التى هوجمت بشدة لم تبد الا مقاومة ضعيفة لا طائل من ورائها ، وسرعان ما اذعنت واقيمت بها حامية فرنسية . وكانت ثمانية ايام بالكاد قد انقضت منذ ظهرت سفننا امام مالطة ، ثم تقدم هذا الاسطول الضخم سريعا نحو مصر . وحين وصلنا الى ساحل الاسكندرية ، كان البحر يضطرب بقوة وعنف مما جعل دخولنا امرا عسيرا وخطرا ، ومع ذلك فقد كان ادنى تأخير يمكن ان يصبح كارثة مميتة ، وسرعان ما تم الانزال ، وزحفت فرقة من القـوات الفرنسية على الاسكندرية قبل انتهاء الليل ، وكان القائد العام نفسه على راس الصفوف ، وابدى السكانمقاومة حامية وعنيدة ، ولم نستطع عندئذ اقناعهم بأن هذه الحرب موجهة فقط ضد المماليك وليس ضد رعايا السلطان المخلصين ، لكن اية عقبة لم تكن لتوقف حمية قواتنا ، فاخترق جنودنا المدينة واستولوا عليها ،وعندئذ مارس المنتصر سلطة وصاية ، وقدم الى الاهالى السلام والأمن ، واستقبل بترحاب رسـل القبـائل البـدوية ، او الـ Scénites الذين يسكنون الصحراوات المجاورة .

وفى هذه الأثناء كان هناك اسطول معاد يعبر مختلف مناطق البحر المتوسط ، وظهر امام ميناء طولون بعد ان كنا قد غادرناها ثم ظهر فى مالطة بعد رحيلنا وبعد ذلك ظهر فى الاسكندرية قبل مجيئنا ، ثم ابتعد ليمسح الخليج فىنفس الوقت الذى كان الجيش الفرنسي فيه يخترق الصـحراء متقدما نحو العاصـمة .

لقد جذبت الأحداث العسكرية التى اصبحت هذه البلاد عندئذ مسرحا لها ، انتباه العالم اجمع ، فقد انتشر خبرها على الفور فى الشرق وافريقيا ، وتملكت كل النفوس فى أوربا حالة من الترقب ، واخذ الناس يرقبــون الام تئول هذه المغامرة . ولقد اثارت امارات الشجاعة والصبر المتضاعفة والتى ميزت هذه الحملات ، وكذا المخاطر التى كان الجيش الفرنسى يتعرض لها بدون انقطاع ، والمتاعب التى لا سبيل الى شرحها والتى ظل يواجهها ، وكفاءة القواد وتضحياتهم ــ اثار كل ذلك فى فرنسنا اعجابا وعرفانا عامين ، ولم يكن هناك شخص واحد لم تهزه جدة وحداثة الظروف الغريبة للغاية على اجوائنا او هذا الاسهام غير المعتاد من جانب أحداث الحرب الباهرة فى الاكتشافات الحاذقة ، وبصفة خاصة هذه الأوضاع العســكرية والمدنية والسياسية الكثيرة التى فرضت على القائد العام مهمة ان يغزو وان يحكم فى نفس الوقت .

لا تسمح لنا طبيعة هذه المقدمة الا بالاشارة الى تسلسل هذه الأحداث، ومن شأن التاريخ وحده ان يتصدى لها ، وهذه معروضة بكل فخار واعتزاز فى مراسلات وروايات حملتى مصر وسوريا ، وكان واضع هذه الدراسات المتألق ، وهو الذى كان أمينا بصفة مباشرة على افكار ومرامى القائد العام ، يقود كل التحركات ويحدس كل العقبات ، ويسهم بفخار وعظمــة فى كل النجاحات ، وهكذا اكتسبت صروح الشرف الفرنسى ، التى تولى بنفســه نقلها الى الأجيال المقبلة ، مزيدا من الصدق والأصالة ومزيدا من التألق فى وقت واحـد .

وما ان تم اخضاع الاسكندرية حتى توغل جيشنا فى اعمــاق مصر ، واصبحت رشيد فى حوزتنا ، واخذت سفننا المسلحة تصعد النهر ، ويقــدم تاريخ هذه الحملة سلسلة متوالية من التقدم السريع والمعارك والنجاحات ، ولم يستطع ان يبطىء من الاندفاع الجســور لقواتنا لا لهيب الصــحراء ولا النقص التام للمياه وللمؤن فى منطقة قاحلة ومجهولة بالنسبة لنا ، لقد تشتت العربان ، وخسر المماليك معركتين نظاميتين ، واحتل مكان الثقــة العمياء التى كانت لديهم كل من الفزع واليأس . فتركوا القــاهرة ، وهكذا كانت عشرة ايام كافية كى تحسم قدر مصر ، اما مراد وابراهيم فقد انفصل كل منهما عن الآخر ، كانا قد فقدا سلطتهما لكن عداءهما لنا قد اســتمر ، ولاذ اولهما ، وهو اكثر ميلا للقتال من زميله ، بالصعيد ، أما الثانى فقد اندفع

فى عجالة نحو صحراوات سوريا ، وكان آخر عمل من أعمال القوة قام به هو انتهابه لاحدى القوافل ، وجد الفرنسيون فى اثره ، وأمكن للقائد العام نفسه ، مع بعض رجال من طلائع جيشـــه ، أن يلحق بمماليك هـــذا البك الهارب ، فهاجمهم وشتت شملهم وارغمهم على الإسراع بالتقهقر بعيدا عن حدود غـزة ، عندئذ علمنا أن اسطولنا الذى كانت الأوامر قد صدرت اليه اما بدخول ميناء الاسكندرية أو الانسحاب الى مضيق كورفو ، وان كان قد نفذ الأوامر على نحو مخالف للغاية ، قد هوجم للتو ، وتحطم بشكل شـــبه فى خليج أبى قير . وأوحت هذه الانتكاسة غير المتوقعة ، والتى لم تنل من عزيمة وشجاعة الفرنســـيين ، أوحت لهم بعزم أكثر ثباتا وباصرار شـــبه اجمـــاعى .

وفى الوقت الذى كان الفاتح فيه مشغولا بأمر اصلاح الحكومة المدنية بالقاهرة ، تفجرت روح العصيان فى هذه المدينة ، فتسلح عـــدد كبير من الناس ، ولقى كثـــير من الفرنسيين الذين فاجأتهم الأحداث وهم فى داخل بيوتهم أو فى الميادين العامة ، حتفهم برصاص المتمردين ، لكن قوة السلاح اعادت استقرار النظام ، ولقى بعض الزعماء عقابا قاسيا ، وتم العفو عن الألوف الجانية . كانت مصرحتى ذلك الوقت لم تعرف حقيقة سادتها الجدد .ثم أحست فى هذه المناسبة بتفوق قوتهم ، كما أدركت الدرس الذى لابد لها أن تستخلصه من تسامحهم ورأفتهم ، وهكذا أخلت هذه الاضطرابات الدامية مكانها لأمن دائم .

غدت قواتنا تحتل الساحل الشـــمالى ، وكل الأقاليم الداخلية ، وقد أمكن لفن ولصناعة حاذقتين ان يخلقا ، ربما بشكل مباغت ، أعمالا ومنتجات خاصة بالدفاع العسكرى عن البلاد . كانت هذه الانشاءات التى تتناسب مع نوع الحرب التى قدر علينا أن نخوضها تهدف الى التصدى للمشـــاريع الأولى للعدو ، والى توفير كافة المؤن والمواد التموينية التى تتطلبها تحركات الجيش .

بدأت مصر ، فى النهاية ، وبعد أن تخلصت من طغاتها ، تتمتع بنعمة القوانين ، ومارست هذه القوانين هناك تحت رعاية الجيوش الفرنســـية سطوة لم تكن لها فى العادة ، ودعى القادة الوطنيون لتولى الوظائف المدنية ، وعادت العلوم ــ بعد نفى طال امده ــ لتزور مسقط راسها واخذت اهبتها

لتطوير وتجميل وطنها الام ، وتوسعت الجغرافيا بأبحاثها لتشمل الموانى والبحيرات والسواحل ، وحددت بدقة مواقع كل الأماكن الهامة ، واقامت مقاييسها على اساس الملاحظات الفلكية ، ودرست الفيزياء خواص الطقس، ومجرى النهر . ونظام الرى ، وطبيعة التربة ، والحيوانات والمعادن والنباتات . اما الفنون الجميلة فقد عثرت على نماذجها القديمة ، وتأهبت لتنقل الى اوربا — بأمانة — هذه الآثار الخالدة لعبقرية مصر . كان ثمة قائد لامع يخلع على كل هذه الأمور بريق مجده الشخصى ، وكان يشجع بحضوره كل الاكتشافات ، بل كان بالأحرى يحض عليها ، واستوعبت عقليته الواسعة ، فى وقت معا ، وبسهولة لا تكاد تصدق ، مشاكل الحرب والسياسة وشئون القوانين والعلوم .

ولقد شرعنا تحت رعايته فى اجراء الابحاث التى ننشر اليوم نتائجها ، وقد عاون فى هذه الأبحاث جميعا القادة والمهندسون والضباط الفرنسيون ، لقد تمت فى بعض الأحيان تحت اشرافهم ، وكان الكثيرون منهم يخصصون لصالح تقدم العلوم كل وقت الفراغ الذى أمكن ان تتركه لهم العمليات العسكرية . ولقد نشرت بالفعل دراسات بالغة الأهمية عن الجغرافيا الطبيعية للدلتا وعن الوضع السياسى لمختلف طبقات السكان ، وكذلك عن مجرى النيل وطبيعة التربة ، ووصف العصور القديمة . ولقد أفدنا من كل التسهيلات التى امكنها ان تعرض لنا كى نجتاز ونلاحظ البلاد التى احتلتها جيوشنا ، ولمتكن اية عملية استطلاع عسكرية لتتم الا ويسارع عضو أو عدة اعضاء من الشعب العلمية المختلفة فى الانضمام اليها بغية القيام ببعض كشوف مفيدة ، وكان العربان الهلوعون يفرون من كل مكان تاركين المسرح الذى اعتاد على ما يلحقونه به من دمار ، وكانوا بذلك يخلون المكان لتلك الجراة التى تستعصى على الهزيمة لواحد من ألمع قادة جيش الشرق ، قدر له ان يسهم بفخار ومجد فى الانتصارات التى تمت فى سوريا وابى قير (الجنرال مينو) ، والذىجعلت يدهالراعية ، والحاضرة على الدوام ، الجزء الغربى من مصر ، يحظى بأمان لم يكن معتادا عليه .. كذلك اصبحت عمليات التفتيش على السواحل او الصحراوات المجاورة ، وكذا الحملات التى تمضى الى اماكن بعيدة ، وعمليات الزحف التى تقوم بها سرايانا ، والمفاوضات او حتى المعارك التى تخوضها مع هذه القبائل الهائمة ، أو الأعمال الادارية .. اصبح ذلككله مناسبة . بل واحيانا غاية ، للقيام ببحث جديد .

كنا قد أحضرنا معنا من أوربا كل الادوات اللازمة للطباعة ، وجمعت هذه فى القاهرة فى مبنى كبير كانت تسهر على ادارته حماسة نشطة متنورة ، وكان هذا الفن ، الذى كاد أن يكون مجهولا كلية من جانب الشرقيين ، يثير اهتمام كل المصريين ، وقد ساعد على مضاعفة عمليات الاتصال ، سواء فيما بين الفرنسيين أنفسهم ، أو بيننا وبين السكان ، كما سهل فى نفس الوقت من نجاح الحملة وتقدم العلوم .

ولقد وضعت الأنظمة بالغة الدقة فى كل اجزاء الحكومة الداخلية ، وهكذا لم يقتصر الأمر على ان السكان لم يتعرضوا قط لعمليات الاهانة والاذلال التى تميز النجاحات العسكرية فى الشرق عادة ، بل لقد احترمت تقاليدهم الدينية والمدنية . وعوقبت اتفه اهانة أو سباب (وجه اليهم من جانب جنودنا) بقسوة مدوية ، وحل نظام معتدل للضرائب ، وزعها بعدالة بين طوائف السكان ، محل الابتزازات والمظالم التى كانت تقع من جانب سادتهم القدامى . اما الدين والشريعة فكانا موضع تبجيل وتقديس من جانب الفاتح ، وحظيت هيئاتهما بفضائله ، وتحقق لهم ما يريدون من قبل أن يفصحوا عنه ، اما حق الملكية ، الذى كان يخرق او ينكر على الدوام . فلم يمسسه سوء ، وسادت العدالة واستتب النظام فى المدينة فأمنت المعاملات التجارية ، وفتحت الحكومة كل مصادر الازدهار الزراعى ، وتمت بالعناية الواجبة صيانة الترع التى تنقل مياه النهر والجسور التى توقف مجراها ، وافتتحت خطوط اتصال جديدة ، وعهد بادارة هذه المشروعات الكبرى ، والتى سددت تكاليفها بكل نزاهة ، الى اثنين من خيرة كفاءاتنا ، ونشرت الأسلحة الفرنسية الرادعة فقط لأعداء مصر ، الرعب والفزع بين عصابات لصوص الصحراوات ، وعقدت العدالة مع القوة حلفا دائما .

لقد كان كل واحد من التغيرات السابقة التى مرت بها هذه البلاد مؤشرا لقيام نظام جديد من القهر ، ولم يكن الناس ، وهم الذين قد اعتادوا الا يروا فى سلطة الحاكم الا حقه المطلق فى السلب والايذاء ، يستطيعون ان يتقبلوا او يعقلوا ان النصر يمكن أن تعقبه سعادة عامة ، وأن تكون له اغراض بمثل هذا النبل ، وتفتحت القلوب فى النهاية للمعرفة ، وظهرت مشاعر جديدة لم يوح بها من قبل اى حاكم من حكامهم ، ربطتهم بالحكومة الجديدة ، والى الآن ، لا يزال لاسم فرنسا سطوته فى هذه البلاد ، ولن يكون فى وسع اية أحداث ان تمحوه .

كان القائد العام يرنو ببصره منذ وقت طويل الى ربط البحرين ، فاتجه الى السويس على طرف الخليج العربى ، واكتشف مع توجهه نحو الشمال ، ولفت نظر مرافقيه الى آثار ترعة قديمة نفذها الملوك القدماء بهدف ربط النيل بالبحر الأحمر ، وتتبع آثارها لوقت طويل ، وبعد ذلك بأيام قليلة تعرف ، وكان قد اقترب من الأراضى التى ترويها مياه النيل ، على الطرف الآخر لهذه الترعة ، الى الشرق من بوباسطة القديمة(*) ، فأمر على الفور باتخاذ كافة الاجراءات الضرورية لتنفيذ المشروع الضخم الذى كان ينعم فيه النظر ، وعهد بالمهمة الى رجال ، كان يقدر جدارتهم العليا وحماستهم ، ربطوا معارفهم النظرية بكل معطيات التجربة وخبراتها .

كان لنفس هذه الرحلة كذلك ، على الرغم من قصر مدتها ، غرض آخر ، فقد امر القائد العام بالتعرف بدقة على ميناء الخليج وسواحله وظروف الملاحة فيه . لقد كان يتدبر أمور الدفاع عن السويس ، وعدل الرسوم المتزايدة التى كانت مفروضة على التجارة ، وبذلك جعل تجارة الصادر اكثر سهولة واوفر امنا ، كما انشأ علاقات ود ومصلحة مع عربان القبائل المجاورة .

ولم يتوان الجزء المدارى من مصر مطلقا فى ان يتحرر من ربقة المماليك، كان مراد قد التجأ الى هناك ، وتحالف مع نفس المماليك الذين سبق له أن طاردهم بانتقامه والذين يوحد بينهم الآن وبينه خطر مشترك يهدد اقدارهم جميعا ، واستدعى مراد لنجدته من الشاطىء المقابل للبحر الأحمر فيالق من ابناء مكة وينبع ، وكانت ذكرى سلطته لا تزال تخضع له أبناء الريف وسكان الصحراوات المجاورة ، جمع مراد كل هؤلاء ، وجهز الامدادات ، وجبى من كل مكان ضرائب حرب ، ومعذلك ، فسواء كان هو الذى بدأ هجومه أو كان الفرنسيون هم الذين بادؤوه ، فقد هزم وشرع فى الفرار ، محتفظا على الدوام بجزء من قواته ، وحيث لا توجد بالصحراوات الوعرة طرق مجهولة بالنسبة له ، فسرعان ما ظهر من جديد ، على راس قوات جديدة ، ولقد تغلب الضباط القادة الذين أوكلت اليهم أمور هذه الهزيمة العسيرة (أى هزيمة مراد) على كل العقبات التى كانت تواجههم بكفاءة غير معتادة ، واستعاروا

(*) حاليا ، تل بسطة بالشرقية .

على نحـو ما نفس وسائل عدوهم وعاداته فى مواجهة شئون المعيشـة ، وسرعان ما تفوقوا على هذا العدو بسبب من جسارتهم وهمتهم ، بل وكذلك بفضـل معرفتهم بطبوغرافية مسرح القتـال . واخيرا اقصى المماليك من الصعيد ، ودفع البعض منهم ثلاث مرات متواليات الى ما وراء شلال اسوان، وانسحب بعض آخر منهم الى الواحات التى تفصلها فراغات شاسـعة وقاحلة عن وادى النيل ، اما العربان فقد تحطموا او تشتتوا ، ومسحت العدالة والسماحة قلق الشعب وذعره ، واتمت فعل النصر .

اما الجنرال الذى عهد اليه منذ البداية بمهمة احتلال الصـعيد(*) ، وأن يدمر هناك سـلطة المماليك ، فقد خفف من ويلات الحـرب بامارات متضاعفة من الحكمة وسمو الروح ، كان يعيش من اجل آمال الوطن وشرفه، وسرعان ما وجب عليه أن يهرع الى سـهول ايطاليا ، وان يسهم بكفاءاته وشجاعته ، بل وبالتضحية بحياته نفسها ، فى حدث خالد ، كان له بالغ الأثر على الموقف فى اوربا ، وحين انهى بعظمة ومجد ، فوق ساحة المعركة ، سجله المضيء ، فقد وجد فى انتصار جيوشنا المكافاة على جهوده العظيمة ، واختلطت بأنين انفاسه الأخيرة صـيحات النصر ، وكان قد بث فى جيش الشرق ، وفى قلوب سكان مصر شعورا عاما بالتعلق والاعجاب به ، ولم تكن ذكراه اقل من حياته تبجيلا بفعل من مشاعر الحزن المؤثرة من جانب أولئك الذين كان قد حـكمهم (فى مصر) او بفعـل الآلام الجليلة التى سرت بين الفرنسيين .

هذه هى وقائع الحملة التى فتحت لنا محراب مصر ، وفى خلالها اكتشفنا هناك ذلك المعبد الرائع فى تنتيريس القديمة ، كما اكتشفنا آثار طيبة الجديرة حقا باشعار هوميروس ، بالاضـافة الى بيوت الفراعنة ، الملكية بمعنى الكلمة ، ولقد توغلنا الى ما وراء الفانتين ، وفى هذه الجزيرة المقدسة ، التى تبدو فى حد ذاتها وكأنها مبنى قائم بذاته ، صرح شيده المصريون على شرف آلهة الفنون الجميلة . ولقد اخذ الجنود الفرنسيون الذين استدعتهم الحرب الى ضـفاف النيل اعجابا بهـذا العمل الرائع ، وتوقفوا كما لو كانت قد شدهتهم الدهشة والاحترام ، وكان شاهدا على هذه الأحداث التى لن يلقى

(*) الجنرال ديزيه Desaix

بها تاريخ الفنون الجميلة مطلقا الى زوايا النسيان ، رجل ذواقة لا يمكن ان يقدرها الا واحد من نوعه ، وستظل اعماله التى قدمت لأوربا لأول مرة فكرة تامة وصحيحة عن آثار مصر تلفت فى كل العصور انتباها قويا ، اذ ان لهـــا جمالها الذى لا يشع الا منها ، كما أنها تتجاوز بكثير ما يمكن للمرء ان ينتظره من جهد ومقدرة رجل بمفرده(*) .

ولقد أحرز تطبيق النظريات الميكانيكية والكيميائية فى القـــاهرة تقدما كبيرا ، وكنا قد جمعنا داخل نفس سور المبنى الكبير الذى خصص للعلوم كل العناصر والأدوات التى يمكنها ان تساعد فى تطور الصناعة ، وكان يدير هذه المنشأة رئيس يدعو للاحترام ، فقدته العلوم والوطن منذ عدة ســـنوات ، والذى جمع الى حماسته المنزهة من كل هدى كفاءةحاذقة معطاء كانت تفتح له آفاقا لم تكن مرئية ، وكان بالفعل قد اثرى فرنسا بالكثير من الاختراعات ، وسرعان ما منح مصر بعضا من فنون اوربا بالغة الاهمية ، فانشئت ماكينات هيدروليكية ، وصـــنع الصلب والاسلحة والاجواخ والأدوات الرياضـــية والبصرية ، وقد قامت هذه المصانع الكبيرة خلال فترة الحملة بتهيئة الوف الأشياء التى كان من شأنها ان تسهم فى نجاح الحرب وفى مباهج السلام ، ولم يتوان اهل البلاد مطلقا عن الافادة من المزايا التى حققتها هذه المنشآت فبدأوا يلتفتون الى مصانعهم ويطورون الوسـائل التى كانوا معتـــادين على استخدامها ، كانوا يتأملون باهتمـــام شديد منتجات المصـــانع الفرنسية ثم يدابون على تقليدها ، واعترافا منهم بصنوف التفوق المختلفة التى وجدوها فى الغازى فقد خضعوا بمزيد من الثقة لسلطة الحكومة الجديدة الراعية ، وكان صنع البارود من عمل شعبة خاصة ، وحقق الشخص الذى عهد اليه بادارتها ، بتقديمه خدمات بالغة الخطر - كل الآمال التى ادركها بمعارفه وكل خبرته الطويلة ، كان مجمع القاهرة يدير الأبحاث وكان الأشــخاص المكونون له يضعون نصب اعينهم على الدوام مصالح الجيش والحرص على تقدم العلوم والفنون ، وكان يشجعهم فى عملهم صداقة يقظة ومعونة حقـــة من ضابط يتحلى بأنبل واعظم الصفات ، كانت تنتظره فى ميادين سوريا ميتة

(*) لعله يشير هنا الى فيفان دينون Vivant Denon

مجيــدة اثارت الأشجان والأسى(*) . كان نمــوذجا يــكاد يستعصى على التقليد فى النزاهة والمثابرة والفضيلة ، كان كأنما ولد من اجل كل الفضائل والعواطف الكريمة ، وكان ينسى دو نتصنع آلامه الخاصة ليشعر بقوة بآلام الآخرين ، ولم يبد احد على الاطلاق مثلما أبداه هو من نوايا طيبة من اجل سعادة الوطن وتقدم العقل والفنون ، وقد اسهم فى كل الأبحاث العلمية التى شرعنا فيهــا فى ذلك الوقت ، وقد شــاء وفاء التاريخ أن ترتبــط ذكراه بالاكتشافات التى كانت ثمرة لهذه الأبحاث .

ومن بين الأمور الجديرة بأن تلفت انتباه اوربا ـــ العلم بأننا تمكنا من أن نحدد بدقة المواقع الجغرافية ، ولقد اعطينا لهذا الانجاز الكبير كل عناية مثابرة ، كما لجأنا لكل الوسائل والطرق التى تضمن دقته ، كما تأسس ذلك فى جزء منه على ملاحظات فلكية تحدد موضع المدن والأماكن بالغة الأهمية ، ولقد شرعنا فى هذه الأعمال ، التى ندين بها لمواهب متمرسة بذلت اقصى ما فى طاقتها من حماسة مرجوة وسط قعقعة الحرب وفى داخل اقاليم متباعدة لم تخضع لنا الا منذ عهد جد قريب ، وكان خضوعها علاوة على ذلك غير مؤكد ، وكنا نضطر فى مرات كثيرة ان نستبدل الأسلحة بالأدوات الحسابية ، وعلى نحو ما ، أن نصارع وان نخضع الأرض التى جئنا لقياسها .

كانت مصر قد تخلصــت من الســلطة التى كانت تقهرها ، وكنا قد اقتصصنا من الاهانات التى وجهت الى الأمة الفرنسيه ، وكان لنا ان نامل أن هذه الأحداث لن تشعل مطلقا الحرب بيننا وبين الامبراطورية العثمانية ، وفى الواقع ، فلقد كانت هذه الولاية الجميلة منذ وقت طويل فريسة سائغة لبعض عبيد (مماليك) ينشدون الاســتقلال ، وكانوا يزدرون ، عن طريق اهانات مستمرة ، صاحب الجلالة السلطان ، بالاضافة الى ازدرائهم لجلال الشريعة والدين ، وكان الباشا ، المفترض أنه مطاع من جانبهم ـــ اسيرا لهم، وشاهدا لا حول له على فظاعاتهم التى كانت تمر دوما دون عقاب ؛ واصبحت السلطة التى لا يَنُوْن يتنازعون عليها هى المكافاة التقليدية للجريمة والنكران ، وحين يتوصل واحد منهم ، اما بفعل السم واما عن طريق الحديد والنار ، الى تدمير كل أصحاب الفضل عليه وكل منافسيه ، فلن يكون هذا النجاح

(*) لعله يقصــد الجنرال كافاريللى .

سوى امارة على عصيان موجه ضد الباب العالى . كان اكثر هؤلاء خضوعا ينـازع فى تسديد الضريبة الضـئيلة التى قررها البـاب (على مصر) . اما الآخرون فيرفضون سدادها بشكل صريح ، ولقد ارهقوا بابتزازاتهم ، التجـارة الداخلية وتجارة اوربا والجزيرة العربية وافريقيا ، كمـا ارهقوا الزراعة وكل الحرف النافعة ،كما كانوا يمارسون على الشعب سلطة منفرة جامحـة .

وقد يكون من الأوفق أن نقول ان الأسلحة الفرنسية قد خلصت مصر ، لا انها قد هزمتها ، ولسوف تمضى هذه الأرض البائسة ، والتى ظلت حتى ذلك الوقت خصيبة دون جدوى ، نحو حالة من الازدهار السريع ، كما أن مآل هذا التطور الذى لا يمكن ان تنزع منه سوى قوة اوربية واحـدة(*) لم يكن ليتعارض مطلقا مع مصـالح الامبراطورية العثمانية ، بل كان يمكن لهذه ، على العكس من ذلك ، ان تزيد من عوائدها وان تدعم سـلطتها فى اقليمين هامين (من اقاليمها) وكان المنتظر من بلاط القسطنطينية أن يفضل اقدم حليفاته على رعايا له لكنهم عصـاة متمردون ، لم يكن سـيفقد مصر وسوريا ، بل كان سيسترجعهما على نحو ما كان ينبغى على هذا البلاط ان يرى فى قيام مؤسسة (مستعمرة) تحت رعاية وحماية جيش قوى ، تعاونه كل فنون اوربا ، امرا يعد كلا الدولتين بمزايا واسعة ، وبوسعه أن يدعم سطوة الاسم العثمانى فى آسيا وافريقيا ، لكن هذه الاعتبارات لم تكن محل تقـدير على الاطلاق ، كان ضباط الامبراطورية ، القـادرون على ادراك واستبصار هذه الدوافع معزولين او منفيين ، ولقد اكد الانتصار البحرى الذى احرز فى ابى قير ، لدى هذه الحكومة ، الراى الذى كان لا يزال غـير مؤكد ، فاذعنت لنصائح اعداء فرنسا الذين اوحوا اليها بمحاذيرهم الخاصة ، وسرعان ما انساقت الى حربوالى تحالف مضادين لنا .

كان قائد الحملة الفرنسية قد بذل اكبر الجهود ليتفادى هذه القطيعة ، كان يدير اسلحته فقط ضد اعداء السلطان ، وعمل على توكيد الاحترام لاسم السلطان باعتباره الحاكم الشرعى (لمصر) ، كما راعى بكل عناية العادات والتقاليد الدينية والسياسية ، كان جيشه يسلك فى مصر باعتباره جيشـا

(*) يقصـد انجلترا .

معاونا للباب ، ولم يسبق لهذه الولاية ان كانت محكومة بشكل افضل ، ولا تتمتع بممارسة عباداتها على نحو ايسر ، ولم تكن من قبل مطلقا قد خضعت لحكام اكثر استعدادا للاعتراف بسلطة القسطنطينية ، لكنه بثاقب بصره كان يصارع وحده ضد كل العقبات ، ولم تساعده السلطات فى فرنسا نفسها الا بشروع فى التفاوض متاخر وغير كاف ، وحدس فى هذه الظروف ان الأمر سرعان ما يحتم عليه ان يدافع عن مصر ضد قوات هائلة ، لذا فقد قر عزمه على مشروع يتميز بجراة غير عادية ، هو ان يتوقى الهجوم المتوقع بان ينقل الحرب الى قلب سوريا نفسها .

كانت هذه البلاد تخضع فى جزء منها لسيطرة رجل كانت قساواته وغدره وخياناته قد جعلت اسمه شهيرا فى كل الشرق ، لقد كان احمد الجزار لوقت طويل عبدا فى القاهرة ، حيث عوقب كثيرا من جراء سرقاته المنزلية ، بل لقد كان يتميز بين المماليك انفسهم بمخاتلة وشراسة غير عاديتين ، وكان قد خان على التوالى كلا من على بك والدروز والعرب وبلاط القسطنطينية ، كان عندئذ حاكم صيدا ، وكان يقيم فى عكا وهى بتوليمايس القديمة Ptolémaïs . بدا الجزار فى الظاهر معتنقا قضية بكوات مصر ، وتقدم مخفيا فى الحقيقة طموحات اكبر ، ليقود الحملة التى كانت تدبر ضد الجيش الفرنسى ، وفى الوقت الذىكانت فيه هذه الاستعدادات تهز كل آسيا الصغرى وسوريا ، عمل هذا الباشا منذ البداية على ان تحتل طلائع قواته مناطق الحدود ، لم يكن ليتخيل مطلقا ان عليه ان يخوض هو نفسه حربا دفاعية ، وكان كل شىء ينبىء بأن مصر توشك ان تتعرض لهجوم عن طريق البحر ، فى الوقت الذى تصبح فيه عمليات الانزال ممكنة ، وكانت الخطة تقضى فى نفس الوقت بتسيير القوات التى تجمعت فى سوريا ، وتلك التى يمكن ان يكون البكوات قد احتفظوا بها فى الصعيد ، وحين تبين للقائد العام، وهو الذى سبق له ان اخترق مشروعات الحلفاء ، انه ينبغى ان تمضى عدة اشهر قبل ان يكون باستطاعة اعدائه القيامبأى انزال للجنود ، قرر أن يحمل على وجه السرعة ، مع اثنى عشر الفا من الرجال على سوريا وان يشتت القوات التى تجمعت هناك ، ثم يعود على الفور ليواجه الحملة التى كانت تتهدد السواحل . مثل هذا المشروع لم يكن ليتحقق الا على يد جيش مقدام ، متمرس على كل الفضائل العسكرية ، وفى الواقع فان التاريخ المفصل لهذه الحملة يستطيع ان يقدم الكثيرمن الملائح التي لم يسبق لأحد ان سمع بمثلها

عن الشرف والقيم الفرنسية . كان علينا ان نتوغل تحت سماء ملتهبة الى ما وراء صحراء شاسعة ومجهولة ، وان نغزو بغتة بلدا اجنبيـــا تذود عنه قوات متفوقة . كان ثمة اسطول انجليزى فى البحر ، وكان سكان المدن وكذا العربان الجوابون مســلحين ضدنا ، لم يكن بهـذه الأرض المعادية الا كل ما يناصبنا العــداء ، ولم يكن جنودنا بقادرين على ان يخطوا فيهـا خطوة واحدة دون أن يلقوا مصاعب جديدة ، لكن ثقة لا تحول كانت تسمو بهم فوق كل المخاطر ، فأخذوا يتقدمون بسرعة فى الصحراء الشاسعة التى تفصلهم عن سوريا ، واستسلم حصن العريش ، ثم استسلمت غزة ، واستولينا بالقوة العنيفة على يافا او Joppé القديمة ، واستقررنا فى ميناء حيفا ، وعثرنا فى هذه المناطق ، وفى مناطق اخرى متفرقة ، على ذخائر ، ومعدات قتال ، ومخازن هائلة ، ومؤنا من كل نوع .

كانت اول فرقة من الجيش المعادى ، يتلوها المماليك ، قد تقــدمت بالفعل الى هذا الجزء من سوريا ، واخذت هذه القوات فى معسكراتها على غزة ، وظلت تتراجع مندفعة على الدوام تاركة فى ميادين القتال كل ما لديها من مدافع وكل معدات القتال التى كانت تتطلبها حملة مدبرة ضد مصر . وفى النهاية شرع قادة الفرق التركية الذين لديهم الكثير من الفرسان فى تجميــع قواتهم الى قوات حلفائهم وفى ان يحملوا على الفرنسيين وهم يحاصرون مدينة عـــكا التى كان قد انسحب اليها ولاذ بها احمد الجزار ، لكن القائد العـــام توقاهم كذلك ، ورأى أن من الضرورى ان يلتقى معهم فى معركة حاسمة لكى يدفع بهم نحو دمشق ، وحين هوجم هؤلاء فى نفس الوقت فى مناطق بالغة البعد ، لم يستطيعوا مقاومة هذه التحركات الجسورة بل المتهورة وغــير المتوقعة ، ووجدوا أنفسهم ، قد انفصلوا عن معسكراتهم ، محرومين من كل مؤونتهم وشبه محاصرين من كل جانب ، وسقط الكثيرون منهم اعيــاء فى ازدريلون او فى المعارك السابقة ، أمّا الآخرون فقد لاذوا بالفرار ملتمسين الأمان عن طريق تقهقر متسرع ذي جلبة ، كان الفرنسيون قد استولوا منــذ البداية على كل الأماكن التى قد يلوذ بها العدو ، كما اســتعاضوا عن قلة عددهم بخفتهم فى التحرك وسرعتهم فى الزحف ، بحيث كان يبدو أن ليس ثمة نقطة فى الميدان الا وهم يتجمعون فيها ، وكانت النهاية الظافرة (!) لهــذه المعارك قد حطمت آخر آمال العثمانيين وملأت بالرعب قلوب الأقوام الذين تحالفوا معهم فعادت تلتمس الأردن بقايا هذه الفرق العسكرية (المعادية) ،

بشكل بالغ الاضطراب ، حاملة معها الفزع الى داخل مناطق شديدة البعد .

وفى الوقت الذى كان فيه جزء من قواتنا يقاتل على أرض فلسطين بشكل مجيد ، كانت قواتنا التى بقيت بمصر تكمل احتلال بقية البلاد ابتداء من أسوان حتى البحر (المتوسط) ، وقام الانجليز بمحاولة لا طائل من ورائها ضد السويس ، ومع ذلك فقد تم صد عرب مكة وتم الاستيلاء على كل الصعيد ، وقمعت حركات العصيان التى اندلعت فى الأقاليم الشمالية ، وكان يسهر على الدفاع عن الاسكندرية والسواحل فطنة حاذقة ، وبعد نظر ذو همة .

وفى نفس الوقت فان باشا عكا قد تخندق فى ملاذه الأخير ،وجاءه العون من البحر ضد الفرنسيين الذين كانت تنقصهم المؤن والمدفعية اللازمة للحصار ، وامكن لهذا الباشا ان يحصن دفاعاته بحيث تستطيع أن تصمد لوقت ابعد من الوقت الذى يمكن لجيشنا أن يبقى فيه فى سوريا . كان الغرض الحقيقى من وراء هذه الحرب قد تحقق ، فلقد احدثنا الارتباك فى مشروعات العدو ، واستولينا على مخازنه ومعداته الحربية ودمرنا حصونه وافنينا جيشا كبيرا كان يستعد لغزو مصر ، وكانت قوات الأنزال المخصصة للهجوم على الاسكندرية قد حولت عن غرضها واستخدمت فى دعم جسار قاتل ، كان استيلاؤنا على عكا يضمن لنا عقاب أحد المماليك السفاحين الذى كان يستحق الاعدام بسبب ما اقترفه طيلة حياته والذى لا يمكن لأى ارتباط به أن يوحى الا بالفزع ، لكن هذا الحصار ــ فى نفس الوقت ــ كان يقتضى منا مزيدا من الوقت ، ولم يكن من شأن النصر ان يقدم لنا الا مزايا هزيلة لا يمكن لها مطلقا أن تكون عوضا عن اخطار البقاء هناك مدة أطول من ذلك ، وفى ذلك الوقت كانت الأمراض المعدية تنشر رعبا عاما ، وكانت تنتشر فى كل انحاء سوريا بسرعة هائلة ، وتزداد بشناعتها أكثر فأكثر ، واخيرا فلقد اقترب ذلك الوقت الذى يمكن أن تهاجم فيه مصر نفسها من البحر . وفى الحقيقة فان هذه الحملة لم يعد بمقدورها أن تحصل على دعم من الجيش العثمانى فى سوريا ، الذى شتتناه للتو ، وان كانت قد بقيت للعدو مع ذلك قوات هائلة .

لقد جعلت هذه الظروف من عودتنا أمرا لا مناص منه ، وانذر القائد العام قواته بأن الدفاع عن سواحل مصر سيفرض عليها جهودا جديدة .

وعبرت هذه القوات للمرة الثانية تلك الصحراء التي تفصل مصر عن سوريا ، وقبل ابتعادنا عن القطر الأخير عاقبنا بقسوة تلك القبائل التى نكصت عن وعودها وخانت مواثيقها مع الفرنسيين ، ثم دمرنا المؤن الحربية وكل المصادر التي يمكنها ان تسهل تجهيز حملة معادية بعد ذلك . /

وسرعان ما استقبلت عاصمة مصر هذا الجيش الذى واجه الكثير من المخاطر وضرب الأمثلة على كل الفضائل، وتوجه وجهاء المدينة لاستقباله ، وتبعتهم حشود هائلة كانت تحيى قواتنا بالهتافات والتهليل والألعاب ، وفى النهاية ، ذاق الفرنسيون بهجة الالتقاء برفقاء السلاح ، اما الاستقبال المؤثر الذى قدمته هذه الحشود . فلن ينمحى ابدا من الذاكرة ، اذن فقد بدأ الرفاق يتحادثون معا عن المخاطر التى عليهم ان يواجهوها بعزائمهم وآمالهم ، وبدا ان مصر قد اصبحت بالنسبة لهم وطنا جديدا ، وانهم لم يعودوا يشـــكلون الا اسرة واحـــدة .

بعد وقت قصير تعرف القائد العام على حركات متفرقة كانت قد تمت بالداخل . وكان مشروع الغزو المرتقب يوشك أن يفجرها . وفى الواقع فان المماليك قد هبطوا الى ضفتى النهر ، وتجمع عربان الغرب ليلحقوا بمراد بالقرب من وادى بحيرات النطرون فى نفس الوقت الذى ظهر فيه اســطول ابى قير ، كنا قد ارتقبنا هذه الظروف ، وهوجم العدو فى وقت واحد فى كل مكان ظهر فيه ، وتحرك طابور شتت العربان ، اما المـــاليك من حـــزب ابراهيم ، الذين فوجئوا داخل معسكرهم فقد ولوا الأدبار على الفور نحـــو الصحراء تاركين امتعتهم ، اما مراد ، وهو اكثر فطنة واكثر حذرا ، فقـــد اسرع يلتمس مصر العليا ، وكان القائد العام نفسه يجد فى اثره ، حين بلغه ظهور الأسطول المعادى ، فاتجه على الفورنحو الاسكندرية ، وفى أثنـــاء هذه المسيرة ارسل اوامر بالغة السرعة الى مختلف فرق الجيش التىشرعت كلها فى التحـــرك فى وقت واحد ، وعمـــل على مراقبة واحتـــواء المماليك والعربان ، واتخذ وضعا يمكنه من تقديم العون الى رشيد أو الى الاسكندرية (اذا هوجمت اى منهما) .

كانت قوات عثمـــانية قد نزلت فوق شبه جزيرة ابى قـــير واستقرت هناك بعد ان انتزعت الحصن بعد استسلامه ، وقر راى القـــائد العام على ان يهاجم هذه القوات على الفور وهى وراء حصونها ، وكلفت كل الهجمات

التى تمت على كل المواقع بنجاح سريع ، ولم تستطع خطوط العدو أن تصمد امام الهجمات الجسورة والمتهورة من جانب الفرنسيين ، أما العثمانيون فقد دفعهم اليأس الى استخدام السلاح الأبيض ورفضوا رفضا شبه اجماعى ان يقعوا فى الأسر ، وعندما احيط بهم من كل جانب سقطوا صرعى او هرعوا الى البحر محاولين — دون جدوى — الوصول الى السفن التى جاءت بهم ، وهلك منهم عدد كبير فى ميدان المعركة ، ومات معظمهم بين الأمواج بفعل نيران مدفعيتنا ، واستولينا على بنادق وخيام وذخائر حربية . اما الباشا الذى كان يقود الحملة فقد وقع هو نفسه فى قبضتنا وتحصن ابن هذا الجنرال سيىء الحظ داخل الحصن مع من تبقى من قواته ، وشرع يخوض دفاعا بالغ العناد . وفى النهاية ، وحين رأى آخر من تبقى من جنود هذا الجيش اسطولهم يدمر بفعل المدافع الفرنسية ، وعندما راوا انفسهم ينفقون من الجوع او العطش او الارهاق ، القوا باسلحتهم واستعطفوا المنتصر ، وكان الحصن قد أصبح كومة من الانقاض تغطيها اجساد القتلى والجرحى واجساد اولئك الذين نفقوا اثناء الحصار .

فى الوقت الذى كانت تدور فيه هذه الأحداث فى سوريا ومصر ، وفى حين كان جيش الشرق يدافع بثبات واصرار عن الأرض الشهيرة التى فتحها ، كانت فرنسا قد انغمست فى انشقاقات وخلافات مدنية ، وكانت جبهاتنا (فى اوربا) مهددة . لقد اصبحت هذه الأوقات العصيبة جد بعيدة عنا ، ويحول شعور الالفة السائد اليوم دون أن ننقب فيها ، لقد ابلغ القائد العام بحقيقة الأوضاع فى اوربا وبالكوارث التى تحيق بفرنسا ، وأوحت له معرفته بهذه الاحداث بالرغبة فى معاودة الظهور بين جيوشنا ، فقرر بعد ذلك النجاح الذى احرزه فى ابى قير بأن ينفذ هذا المشروع الذى كانت عواقبه وخيمة على اعدائنا . وكانت مصر قد الزمت الهدوء ولم يكن بالامكان ، لوقت طويل ، ان تكون عرضة لهجمات جديدة ، وكان المماليك قد فروا اما الى داخل فلسطين او الى حدود النوبة ، وكان العربان يجدون سعيا فى الحصول على تحالف معنا ؛ وبذل الصدر الأعظم جهودا لا جدوى منها كى يجمع قواته فيما وراء دمشق ؛ فقد كانت الحملة الفرنسية على الشام قد دمرت كل المصادر التى يحتاجها اى تجهيز لمسيرة جيش ، وكانت الشواطىء (المصرية) ابتداء من الاسكندرية حتى دمياط قد وضعت فى حالة دفاع ، وكانت الحصون مزودة بالمؤن وذخائر الحرب ، وكانت مدينة القاهرة منذ وقت طويل تجنى ثمار

وجود ادارة راعية مظهرت بمظهر العارف بالجميل ، وخصص القائد العام كل اللحظات التى سبقت رحيله فى تحسين وتطوير المنشآت العسكرية والادارات المدنية ، جاهدا فى ان يجعل وجوده بشخصه اقل ضرورة بقدر الامكان ، وفى نفس الوقت كان يعلم ان المراكب المعادية قد اضطرت للتخلى عن القيام بعمليات المراقبة البحرية ، عندئذ رحل الى الاسكندرية ، وبعد ذلك بقليل غادر شواطىء مصر ، لقد دعاه الواجب وأمن فرنسا ، لقد ابتعد وكشف عن مكنون سره لذلك الرجل الذى عمل فى خدمة مشروعاته الأولى ، وأخفاه الحظ عن اساطيل الأعداء ، ورده البحر الذى كان مخلصا للمرة الثانية ، الى ارض الوطن ذلك الرجل القادر على التصدى لأعدائه الخطرين .

ولم يكن القائد العام طيلة مدة حرب مصر وسوريا ليكف مطلقا عن رعاية مصالح العلوم ، فقد كان هذا المشروع الكبير حاضرا على الدوام فى ذهنه سواء قبل انتصاره او بعده ، وسواء كان يقود العمليات العسكرية او كان يفكر فى اوضاع ادارية أو اجتماعية جديدة ، فكان يعهد ، وهو بين المعسكرات الى عبقرية الفنون الجميلة ان تخلد ذكرى المعارك التى اضاءت سماوات فلسطين والفيوم والصعيد . وفى الأيام الأخيرة التى سبقت رحيله كان لا يزال مشغولا بالحدب على الأبحاث العلمية وذلك بأن قدم للاكاديمية التى كان قد كونها الوسائل اللازمة لاجتياز وعبور المناطق المدارية من مصر ولملاحظة اعاجيبها بأمان ، واصبحت هذه الرحلة التى ستزود الفنون والاداب بالكثير من النتائج موضوعا مباشرا لعنايته وتقديره ، فقد وضع بنفسه خط سيرها ، وهيأ لها كل الظروف المواتية مع حيطة ويقظة بالغتين .

كنا فى ذلك الفصل من العام ، الذى تسهل فيه رياحه القوية الملاحة فى النيل ، عندئذ كان ميسورا علينا ان نصعد فى وقت قصير الى جزيرة الفانتين ، وفى نفس الوقت ، عزمنا على ان نبلغ كل الأماكن التى تقع بها الاثار بغية التعرف اولا على الاشياء التى ينبغى لنا أن نصفها ، وأن نضع ، عن طريق هذا الحصر الأولى ، نظاما اكثر دقة فى ابحاثنا . وحين وصلنا الى الحدود التى تفصل مصر عن النوبة ، الى الجنوب من الشلال الأول ، هبطنا مجرى النيل ابتداء من اسوان حتى القاهرة ، ووضعنا كل اثر مرة اخرى تحت فحص بالغ الدقة ، فما ان كانت السفن تلمس الشاطىء ، حتى كنا نهرع لنجتاز من كل جانب تلك الأسوار او الأفنية التى يمكن أن نجد بها بعض بقايا

لمنشآت قديمة . واقمنا خرائط طبوغرافية ، ورسمنا مناظر طبيعية مع كثير من مشاهد تصويرية لكل مبنى ، كما قسنا الابعاد المعمارية بالاضافة الى التفاصيل التى لا جد لها للزينات ، وقلدنا بأمانة اللوحات المرسومة او المحفورة مع كل الحروف الهيروغليفية التى تغطيها ، وفى الوقت نفسه كنا نلحظ الحالة الراهنة للاطلال ، واساليب البناء ، وطبيعة المواد التى بنيت بها المنشآت ، ودونا الكتابات العادية أو التاريخية أو تلك التى تختص بالنذور والمناسبات الدينية الأخرى ، والتى تذكر بكثير من الأسماء اللامعة . وقام آخرون منا بقياس سرعة المياه وكمية ترسيب التربة وارتفاعات الأرض، وحدد فريق ثالث المواقع الجغرافية عن طريق ملاحظات فلكية . لقد أكببنا على فحص طبيعى للمنطقة ، كما جمعنا مجموعات ثمينة من الحيوانات والمعادن والنباتات وكل العناصر التى من شأن دراستنا لها ان تطلعنا على الثروات الزراعية وكذلك بالتجارة والعادات والتقاليد والوضع الاجتماعى للسكان .

وكان من الضرورى ان نلحق بدراسة الخواص الفيزيقية للطقس ، دراسة عن الأثر الذىتحدثه هذه الخواص على حياة وصحة الانسان ، واننا لندين بهذه الأبحاث لأناس وهبوا انفسهم بحكم مهنتهم لمختلف فروع فن العلاج (الطب) ، وقد رسم خطة هذه الأبحاث كبير أطباء جيش الشرق(*) ، وقام بتجميعها وبنشرها ، كما أننا مدينون لكبير جراحى هذا الجيش(**) بعمل من نفس النوع يضم عددا كبيرا من الملاحظات ولقد حصلا ، بخلاف المزايا الأدبية التى يضيفها عليهما نشر هذه الأبحاث ، كما حصل زملاؤهما على مزايا اخرى كنوع من العرفان العام ، وسوف يظل يذكر تاريخ هذه الحملة لكل هؤلاء كل الخدمات التى أدوها ، وينابيع الحذق والجسارة التى تمليها عليهم كفاءتهم سواء عندما كانوا يحملون المواساة والأمل الى ميادين المعارك بين اشد أهوال الحروب واكثرها اثارة للفزع ، او عندما كانوا يواجهون بروح هادئة الدمار المروع الذى كانت تحدثه الأوبئة والفزع القاتل الذى كانت تسببه هذه الأمراض فيعصف بنفوس الألوف .

(*) ديجينيت Desgenettes

(**) البارون لاري Larry

وقبل أن نشرع فى الرحلة التى اشرت من قبل اليها ، كان عديد من الاشخاص المتحمسين لتقدم العلوم قد توجهوا بالفعل الى الصـــعيد أو الى الفيوم ، وفى خلال الاقامة الطويلة التى كانت لهم هناك ، كانوا قد عكفوا على وصف دقيق للاثار وعلى أبحـــاث هامة حول مجرى النيل ، والطبيعة الفيزيقية للارض ، وزراعة وتجارة وجغرافية البلاد القديمـــة ، واسرعوا يضمون الى المؤلف العام كل النتائج التى سبق أن حصلوا عليها .

وقد أنجزت مختلف أجزاء هذا العمل الضخم فى نفس الوقت ، كان كل منا قد انغمس بشكل خاص بموضوع دراساته المعتاد ، وكان ينقـــل الى الآخرين افكاره ووجهات نظره ، ولقد سهل هذا التعاون المثمر ، وهو الذى لا يوجد مثيـــل له على الاطلاق فى تاريخ الرحلات العلمية ، القيـــام بكل الاكتشافات ، وجعل منها اكتشافات أصيلة وصادقة ان صح التعبير ، لقد كان الصالح العام للفنون والعلوم والآداب يؤلف بسهولة ما بين العقـــول مبقيا فى الوقت ذاته على تنوع الآراء واختلافها ، وسيظل التقدير المتبادل هو اكثر البراهين وثوقا على تآلف وتكامل وجهات النظر ، وكانت تربط بين هؤلاء فضلا عن ذلك ــ صداقة قديمة ، الأمر الذى جعل المصاعب اكثر يسرا كما جعل المسرات اكثر بهجة ، كمـــا كان يعطى جرعات متجددة من القوة عند مواجهة المخاطر المشتركة ، ومن الصلابة كلما اشتدت مشقات البعد عن الوطن .

لم يسبق لأى بلد آخر ان خضع لأبحاث بمثل هذا الشمول وهذا التنوع، وفضلا عن ذلك فليست هناك بلاد اخرى جديرة بأن تكون موضوعا لأبحاث كهذه ، فمعرفة مصر أمر يهمفى الحقيقة كل الأمم المتحضرة ، سواء لأن هذه البلاد هى مهد الفنون والنظم الدينية او لأن بامكانها حتى اليوم ، أن تصبح مركزا للعلاقات الدولية ولتجارة الامبراطوريات ، ولقد ترك الشعب الذى كان يسكنها آثارا تدعو للاعجاب بعظمتها وقوتها ونفوذها ، كما أن الفنون لم تبذل على الاطلاق فى مكان آخر . مثل هذا الجهد كى تسمو الى هذا الطابع الذى لا يحول والذى يماثل فى ذلك اعمال الطبيعة ذاتها .

وفى هذه الأثناء كان الحلفاء قد حاولوا دون جدوى أن يستولوا على ميناء القصير ، وبعد ذلك بوقت قصير استعاضت حامية دمياط الضـــعيفة عن عددها الضئيل بالجراة والجسارة وسرعة الحركة ، فدمرت فرقة قوامها

اربعة آلاف من جنود الانكشارية أنزلوا عن طريق البحر وبدأوا يتخذون مواقعهم على الساحل . ومع ذلك فان الفرنسيين الموكلين بالدفاع عن مصر كانوا يجهلون الاحداث السياسية التى اعادت الأمن الى وطنهم وحطمت للأبد الآمال الطموح للقوى المعادية ، كانوا لا يعرفون بعد الا أن وطنهم يعيش فى الالام والشقاء ، لذلك فقد كان الوطن موضوع قلقهم واسفهم ، وتجددت(*) تلك المفاوضات التى كانت تهدف الى التوافق مع الباب العالى ، وعلى حين غرة ، اتخذت هذه المفاوضات وجهة مختلفة وغير متوقعة ، ولهذا اعد وابرم على وجه السرعة اتفاق العريش العسكرى تم الاقرار فيه على ان تعود الفرق العسكرية الى موانيها (فرنسا) ، بعد أن توافق على تسليم مصر الى سلطة الباب العثمانى ، على مراكب مملوكة للقوى المتحالفة .

وعلى الفور بدأت تتم الالتزامات المتبادلة ، ودخلت الى مصر ، بحرية تامة ، قواتكبيرة ، نظامية وغير نظامية للوزير (الصدر الأعظم) والبكوات وتقدمت حتى بلغت ابواب القاهرة ، وبدأ كل شىء ينذر بأن هذه البلاد الجميلة ستعود من جديد لتقع فى براثن سادتها القدامى ، لكن سببين مختلفين اسهما فى تغير مباغت لما تهيأت له النفوس ، كان اولهما هو الاعلان عن ثورة حدثت فى الحكومة المدنية لفرنسا .

استسلم الجيش للمشاعر الجديدة التى اوحت بها اليه هذه الأحداث حين رفض الطرف الآخر تنفيذ الشروط التى كان قد قبلها ، ويعود السبب فى ذلك الى القوى المتحالفة التى ساهمت بأكبر نصيب فى ابرام هذا الاتفاق الذى اقترح ووفق عليه باسمها ، فلقد وضع عند التنفيذ عقبة غير متوقعة حين وجه الى القوات الفرنسية اشتراطا مهينا بأن تبقى اسيرة فى مصر ، كان الطرف الثانى ، بهذا الاشتراط ، يجد فى هذا التنكر لوعوده ، للحصول على امتياز لم يكن ليتوقع الوصول اليه بقوة السلاح . وفى هذا الوقت كانت القوات العثمانية قد استحوذت على الصعيد ، وعلى كل المناطق ابتداء من موانى البحر الأحمر حتى دمياط ، وكنا قد سحبنا مدفعيتنا من قلعة القاهرة ،

(*) يستخدم المؤلف الضمير on وهو ضمير نكرة لا يحدد بدقة شخص الفاعل وبذلك يروغ هنا وفى كل السياق لهذه الدراسة من تحديد مسئولية الأطراف المختلفة .

وكان من المفترض ان نسلم العاصمة نفسها بعد ذلك بيومين ، كما كانت المؤن والذخائر بالفعل قد نقلت الى الاسكندرية ، واصبح الجيش الذى كانت فى حوزته قبل ذلك بيومين اقاليم عديدة ثرية وخصيبة ، محروما من وسائل مواصلة الحرب ولم يعد يتملك من أرض مصر الا تلك التى يصطف عليها ، ومع ذلك فان ظروفا غير عادية كذلك ، كانت قد رفعت من معنوياته ، لم تكن لجيشنا الا غاية واحدة او هدف واحد ، وكان الشخص الذى يقوده قد بث فى كل القلوب سخطا كان يثيره هو ، وتعرف اوربا سلسلة المعارك الخالدة التى تلت هذه القطيعة ، ثم جاء النصر ، وهو اكثر وفاء من كل المعاهدات ، ليبسط حمايته على أولئك الذين لم يتركلهم مكان يلوذون به سوى الصحراء ، وشتت وافنى الجيش العثمانى الذى هاجمه الفرنسيون بالقرب من خرائب هليوبوليس ، واجتاز الصدر الأعظم ،شبه وحيد خلال هروبه المتعجل ، نفس البلاد التى سبق له ان توغل فيها ومعه قوات هائلة، وفقد ثلاثة معسكرات بالاضافة الى مدفعيته ومؤنه العسكرية ، كما استعدنا الحصون التى كانت قد سلمت اليه ، وقمعت حركات التمرد التى كان قد اشعلها فى كل المدن فى وقت واحد ، وطردت قواته من الصعيد ومن دمياط .

اما العاصمة نفسها فقد فاجاها المماليك والانكشاريون ، وتحولت على الفور الى ميدان قتال فسيح ، تنهشها اهوال الحرب والتمرد ، وبعد أن شاهدت المدينة جزءا من مبانيها تضطرم فيها النيران وتتحول الى انقاض ، فى الوقت الذى تطيع فيه قادة منقسمين تفرق بينهم مصالحهم الخاصة ، وحين افزعها ما حدث لمدينة مجاورة ، نالت من قبل عقابا صارما وقاسيا ، استسلمت مستعطفة الغازى ، اما الفرق التى سبق ان تجمعت فيها والتى كانت قبل ذلك بوقت قصير تتقدم ضدنا حين كان البحر موصدا أمامنا ، خارقة بذلك اكثر المعاهدات توثيقا ، فقد التمس جنودها التسليم والاذعان وعندما تم لها ذلك عبرت معسكراتنا فى أمان ، وتذوق الفرنسيون الثمار الأولى للنصر ، وتشبثوا بالبنود والقرارات الثابتة التى تمليها عليهم المصالح الحقيقية لوطنهم ، وفجاة وقع حادث مؤسف اغرق الفرنسيين فى الرعب والوجوم ، لقد تآمر اغوات الانكشارية الذين لجاوا الى سوريا ضد حياة القائد الفرنسى ، واغروا واحدا من ابناء حلب تملى عليه ديانته كل حركاته ، أن يضحى بحياته فى مقابل هذه الجريمة الكبرى ، ووصل هذا الشاب المخبول ، الذى كان من السهل غوايته بفعل سنه ، بطريقة سرية الى

القاهرة ، وبعد ان قضى ثلاثين يوما فى الصلاة بالمساجد ، ارتكب جريمته البشعة . كان كليبر أعزل من السلاح - بعيدا عن حراسه ، وطعن مرات عديدة بالخنجر ولفظ أنفاسه بعد ذلك بلحظات ، وبمجرد ان انتشر خبر هذا الاغتيال الجديد فى كل اقاليم مصر عبر جيش الشرق عن مشاعر حزن تام وجماعى ، وروى بالدموع مقبرة قائد لامع ، مسح لتوه بالنصر مهانات المفاوضات ثم سقط صريعا وسط مغانم انتصاراته ، فى حين كان الوطن يعده واحدا من اكثر من دافعوا عنه فداء وتضحية ، وتجمع القادة العسكريون منذ اللحظات الأولى التى أعقبت وفاته ، وعلى الفور وجه الشخص الذى كانت ترشحه القوانين العسكرية لقيادة الجيش من الأوامر ما تحتمه خطورة الظروف ، واخذت القوات العسكرية تظهر على التوالى امام الناس ، واطلقت المدافع ، ووضعت الأعلام الفرنسية على مآذن المساجد . كانت هذه الاحتياطات ضرورية للغاية ، اذ كان من المعتاد ، فى بلاد الشرق هذه ، خلال الثورات وحركات التمرد التى تهزها وتشيع فيها القلق ، ان يتلو الميتة العنيفة لزعيم ما دمار حزبه وتشتت جنوده ، كان قد القى القبض على القاتل سليمان ، ولم يشارك فى جريمته اى واحد من المصريين ، واكتشف ثلاثة متواطئين كان قد ائتمنهم على سره ، وكانوا مثله من أصل سورى ،وحكم عليهم جميعا بالعقوبات التى ينبغى أن يحكم عليهم بها تبعا للشريعة الاسلامية ، وفى خلال المدة الطويلة التى استغرقها اعدام سليمان كان يقرأ بعض آيات من القرآن ، كما كان ينعى على المسلمين انهم لم يقدموا له العون .

واسهم سكان العاصمة فى اضفاء طابع المهابة على جنازة قائد الجيش الفرنسى ، وسرعان ما رأوا خليفته يمضى قدما فى تنفيذ المشروعات النافعة التى كانت قد اقرت عقب الفتح ، والتزم القائد العام (الجديد) ، مستفيدا من المزايا التى حققتها نجاحاتنا الأخيرة ، بدعم سطوة القوانين ، وبتحسين ادارة الضرائب ، وتيسير السبل أمام تقدم وتطور الزراعة والصناعة والتجارة ، واكب فى الوقت نفسه على تصريف شئون جيشه الذى وجد فيه (اى فى قائده) مثالا للتضحية والمثابرة ، وتمتع الزراع الذين انحدر بهم الشح الأرعن لسادتهم القدامى الى حالة من التدنى والمهانة، تمتعوا وبحرية كاملة بثمار اعمالهم ، وعقدت تحالفات جديدة مع العربان ووهبت بعض القبائل أراضى غير آهلة ، كانت الشقاقات المدنية قد حرمتها من

الزراعة ، واقيم على اسس محددة نظام عام للرى ، وبذلت كافة الجهود لتوقى كل المساوىء المرتبطة بوضع المياه المضطرب او باساءة استخدامها ، وتقررت مكافآت عامة لسكان الريف الذين يضاعفون من عدد الأشجار النافعة ، وتجمعت بداخل منشأة واسعة تلك النباتات والشجيرات الأجنبية التى رؤى من المناسب نشر زراعتها : كانت فنون اوربا قد بدات فى صنع التقدم على ارض مصر ، وانتعشت الصناعة فى كل مكان .

ومع انشاءنظام جديد للمالية ، عهدت بادارتها العامة الى ادارى حكيم ونزيه ، كان قد حاز منذ وقت طويل تقدير الجيش ومحبة الأهالى، وكان قد فحص بعناية كبيرة المصادر المتنوعة للدخول العامة ، وكان يدرك كل المزايا التىينبغى ان تتوقع الحصول عليها اية حكومة عاقلة مستنيرة من امتلاكها لمصر ، وقد قام بتكوين جداول ليستخدمها مدخلا لحساب الميزانية العامة ، هى التى قدمها عن ادارته للمالية طوال مدة الحملة(*) . ولقد استخلصنا نحن من هذا المؤلف ، الذى ارجىء نشره ، الدراسة التى ضمنت هذه الموسوعة ، وهى تحتوى على عدد كبير من النتائج التى ما كان ليسهل الحصول عليها دون ظروف مواتية لهذا الحد ، وينبغى أن ننظر اليها باعتبارها عناصر ثمينة فى تاريخ مصر الحديث .

ومن جهة اخرى فقد وضعت لوائح نزيهة وعادلة ادت الى تنشيط التجارة الخارجية التى اوشكت حكومة المماليك ان تقضى عليها . الى هذا الحد بلغ تأثير الاجراءات التى اتخذناها ، والتى امكنها ، على الرغم من العقبات الكثيرة التى نجمت عن حالة الحرب ، أن تقيم من جديد علاقة نافعة مع الأرخبيل وسواحل الجزيرة العربية وبلاد اواسط افريقيا ، كما ساهمت اعمال جديدة عامة فى تجميل العاصمة والاسكندرية وتحسين الحالة الصحية بهما ، وشيئا فشيئا كف المواطنون عن ان يظنوا انفسهم غرباء عن الأمة الفرنسية ، كما كانت الثقة المتبادلة تحرز كل يوم تقدما ملموسا ، ولقد ادرك هذا الارتياح من جانب كل النفوس كافة الذين تعهدوا العلاقات

(*) يشير المؤلف الى دراسة الكونت استيف Estéve عن مالية مصر ، وهى الدراسة التى تكون مع غيرها المجلد الخامس من الترجمة العربية الكاملة لوصف مصر . (المترجم).

الودية مع شعب مصر ، وقد ادرك هذا بصفة خاصة مؤلف هذه الدراسة، وهو الذى كان يسهم فى الحكومة المدنية بتولية ادارة العدل . وهكذا كان الزمن وحده كفيلا بأن يؤكد ويدعم هذه الأنظمة الجديدة وان يجعل الناس يشعرون بها (ويجدواها) لكن الحرب قلبتها بغتة ، ولم تبق على اى اثر منها . وقد نشر نجاح الحملة الفرنسية ، الذى كان يعد كل الأمم الأوربية بخطوط اتصالات هامة ، القلق والفزع فى انجلترا ، وعزمت هذه القوة على القيام بجهود غير اعتيادية ، وشارك البلاط العثمانى ، حين انساق وراء اعتبارات روحانية ، فى وجهات نظر وآراء حلفائه الجدد ، فتقررت مهاجمة سواحل البحر **الابيض** على يد جيش انجليزى ، كما تقرر أن تدعم هذه الحملة بفرقة من الانكشارية والألبان اوكلت قيادتها الى قبطان باشا ، وتلقتهذه القواتالاوامر بأن تتوغل فى الخليج العربى وان تنزل الى مصر عن طريق مينائى السويس والقصير ، وفى النهاية اقتضى الأمر ان يتقدم الوزير (الصدر الأعظم) الى العاصمة على راس جيش عثمانى قادم من سوريا . كانت كل عناصر خطة الغزو قد اعدت ووزعت بعناية ، ووضعت كلها موضع التنفيذ فى وقت واحد ، ولقد تجلى فى حركة القوات قدر من الوثوق والاصرار على النحو الذى تسمح به المسافة النائية للاماكن وعناد المسلمين الذى لا سبيل الى قهره ، كان ابراهيم ومماليكه يزحفون مع الوزير. أما القبائل العربية التى اثارتها نصائح وتحريضات النبى الجديد مولاى محمد (!) فلم تكن تنتظر سوى الاشارة كى تتجمع ، واخيرا فقد كان حزب مراد ، حاكم الصعيد ، قد ارتبط سرا بالانجليز .

كانت المعارك السابقة قد اضعفت الجيش الفرنسى الذى لم يعد ثلثه قادرا على أن يستخدم فى حرب الاقاليم ، كانت الجروح الخطيرة والكثيرة تغطى اجسام هؤلاء الجنود الأسخياء (الفدائيين) الذين كانت تحثهم على البذل قيمة اكثر منهم اصرارا واندفاعا نحو الأخطار الجسام ، وكانت هذه الجروح تجعلهم عاجزين عن اية مشاركة ايجابية فى الوقت الذى كانت قواتنا فيه تحتل بلدانا شاسعة تبدو كل بقعة فيها وكانها تحتم وجودها ، فكانت تحرس حدود مصر مع سوريا والتى يتهددها الصدر الأعظم . كما كانت تحرس القاهرة والجيزة وبولاق والسويس وجزءا من مصر العليا ، كما كانت تستخدم فى الأقاليم كى تحمى جباية الضرائب ، ولكى تؤمن الملاحة فى النهر ، ولكى تصد المماليك وتحتوى القبائل العربية . اما الاتفاق الذىادت

دوافع عديدة الى ابرامه مع مراد فلم يكن ليوحى باية ثقة . لقد ضاعف تحالفه مع الفرنسيين من نفوذه ومصادر قوته ، لكنه ما كان ليفيد من كل هذه المزايا الا لكى يعلن وقوفه ضدهم ، وكان علينا ان نخشاه خائنا والا نأمل الا فى عون جد ضئيل من جانبه لو أنه قد كان مخلصا . وهكذا كان موقف الفرنسيين عندما ظهرت السفن المعادية امام الاسكندرية .

تمكن الجيش الانجليزى من القيام بعمليات انزال على سواحل ابى قير ، ثم تقدم بعد ذلك داخل شبه الجزيرة ليتخذ موقعا مواتيا للغاية يقع بين البحر وبين بحيرة المعدية . وحين هاجمته بعض القوات الفرنسية دافع عن نفسه بنجاح فوق أرض ضيقة يدعمها خط من الحصون وتحميها زوارق المدفعية من جانبى البحر والبحيرة . وقد جرح فى هذه العملية قائد الحملة الانجليزية ومات بعد ذلك بأيام قليلة متأثرا بجروحه تاركا ذكرى مشرفة بحق . وبعد أن تلقى الحلفاء دعما هائلا قرروا احتلال رشيد ثم بدأوا التقدم صوب شاطىء النيل فى نفس الوقت الذى كان اسطولهم فيه يصعد النهر ، واستسلم حصن الرحمانية وامتلك العثمانيون دمياط ، ولم تلبث العاصمة أن حوصرت .

كان الصدر الأعظم قد ضم جيشه الى الجيش الانجليزى وجيش قبطان باشا ، وكان يحصل كل يوم على قوات دعم جديدة من داخل مصر وسوريا ، وكانت صلاته مع العربان والمماليك والقوات العسكرية القديمة وسكان الريف تتدعم فى كل مكان حيث كان يسهل من ذلك تلك النجاحات الأولى التى احرزها جيش الحملة ، وكانت قوات الهند قد وصلت ، اما القاهرة والاسكندرية فكانتا فريستين لوباء بشع وقاتل ، وفى نفس الوقت انضم الى العثمانيين مماليك ابراهيم ومماليك مراد بالاضافة الى فرسان كثيرين من العربان . هكذا كان وضع القوات المتحالفة حين تقدمت ، لكى يتم لها استرداد القاهرة والاسكندرية ، ببنود امتيازات لا تختلف كثيرا عما جاء بمعاهدة العريش ، لم يكن ثمة عملية عسكرية واحدة لم تكن قواتنا فيها ادنى عددا بكثير ، فعدم تأكدنا من معرفة نوايا العدو كان قد أرغم القائد العام أن يوزع على جبهات عديدة القوات التى يمكنها أن تتصدى للعدو ، وينبغى أن نضيف بأنهم ــ اى العدو ــ لم يكفوا طيلة هذه الحرب عن أن يعرضوا على الفرنسيين العودة الى وطنهم بنفس الشروط التى سبق لهم أن قبلوها قبل ذلك بوقت طويل والتى سبق للحلفاء كذلك الالتزام بها .

وعندما ابلغ الجنرال مينو بأن باب المفاوضات قد فتـــح فى اوربا : وبالمحاولات المتكررة التى يقوم بها اسطولنا كى يجلب اليه المســاعدات . اشتد عزمه على ان يستمر فى الدفاع عن الاسكندرية لأطول وقت ممكن . وظل متشبثا فى موقعه لآخر الشوط ، وعند نهاية الحصار كان نصــف الفرنسيين مرضى بالمستشفيات . اما اولئك الذين لم تكن قد مستهم شرور الاوبئة بعد فكانت قد اضنتهم الاعمال التى لا تنتهى واستخدام المياه المالحة وتناول الأطعمة الضارة لفترة طويلة بل وكذلك نقص الأطعمة . كانت الامثلة التى قدمها قادتهم تقوى من عزائمهم ؛ وفى النهاية لم يبق لديهم الا شجاعتهم؛ وكان المرء يراهم مهدمين منهكين لا يقدرون الا بالكاد أن يتحملوا نقل سلاحهم، وكانوا لا يستعيدون قواهم الا حينما كان الواجب يدعوهم الى المعـــركة . هـــكذا انيط بهم ان يضعوا بجهـــودهم الأخيرة نهاية مشرفة لهـــذه الحملة الخـــالدة .

وفى الوقت الذى كان جيشنا يستعد فيه لمغادرة موانى مصر ؛ وكان الناس فيه فى اوربا يجهلون العمليات الاخيرة للحلفاء ، وقعت فى باريس ولندن تلك المعاهدة التى تعيد هذه البلاد الى الباب العثمانى ، هـــكذا قدر عليها أن تعود من جديد لهمجية السلاح التى كانت جيوش فرنسا قد خلصتها منها ، وهذه هى اليوم فريسة لابتزازات نواب الملك ولصوصية العـــربان والفرق العسكرية غير النظامية ، أو لعنف بعض البكوات الذين ظلوا على قيد الحياة . لقد استعاد هؤلاء الأغراب ، على الرغم من تقلصهم الى عدد ضئيل ، وطنا الى حوزتهم ، وخلف عبيد مراد وابراهيم سيديهم ، لقـــد اقصيت هذه الحكومة العجيبة على الأقل لمدة ثلاثسنوات بسبب وجـــود الفرنسيين ، فلقد هزم الفرنسيون المماليك ونفوهم كما قمعـــوا العـــربان وابادوا ثلاثة جيوش عثمانية فى فلسطين وابى قير وعلى ابواب العاصمة ، وليس اقل جدارة بالذكر من ذلك انهم لم يمارسوا الا سلطة حماية فى البلاد التى خضعت لهم ، وبدا كل واحد من هؤلاء الفرنسيين مرتفعا لمســتوى اكبر الأهداف التى جعلتنا نشرع فى هذا الغزو ، ولقد واجه الفرنسيون طيلة سنوات ثلاث مخاطر لا تنقطع ، كأنما كانت تتوالد من جديد ، وقاسوا بعزيمة ثابتة ، وتحت سماء ملتهبة وغريبة عليهم متاعبيصعب التعبير عنها، ولقد تكاتفوا فى هذه المهمة الشاقة رغبة منهم فى أن يهبوا انفســـهم لمجد ومصلحة وطنهم . وانه لشعور نبيل ونافع يسمو بالانسان ليتفـــوق على

نفسه ، يوحى بكل التضحيات ويظل فى نفس الوقت هو الدافع وهـــو الجزاء ، ولقد جاءت عودتهم فى افضل الظروف ملاءمة ، فكانت اوربا هادئة وكانت فرنسا بعد أن ثارت لنفسها وانتصرت تركن للراحة فى ظل قوانين اشد لطفا من الهزات التى سببتها الحروب الخارجية .

ومن جانب آخر ، كانت الهيئة العلمية ألتى تشكلت فى عاصمة مصر ، تحت حماية الأسلحة الفرنسية ، قد اتخذت لنفسها نفس اللوائح التى تنظم اعمال اكاديميات أوربا ، كانت مهمتها ان تزيد وأن تحسن كل المعـــارف النظرية ، وان تضاعف من تطبيقاتها . كانت اســهامات العلوم والفنــون قادرة على ان تدعم وان تجمل منشآت الفرنسيين فى الوقت الذى تؤثر فيه فى الأحوال المدنية للاهالى ، لكنها لم تكن لتبلغ هذا الهدف المرجو للغــاية دون ان نكون قد اكتسبنا معرفة عميقة بمصر . ولم يكن الوصف التــاريخى والفيزيقى لهذه البلاد فى الحقيقة الا جزءا من خطة عامة كنا قد وضعناها لدراسة العلوم ولتهيئة تقدمها ، لكن الوصف مع ذلك كان عنصرا ضروريا ، وكان واحــدا من تلك الموضــوعات التى يهمنــا أن ننقلهـــا الى أوربا ، وكان هذا هو الغرض من هذه الموسوعة التى ننشرها اليوم ، والتى تشتمل على نتائج الأبحاث الرئيسية التى قمنا بها خلال مدة بقاء الحملة الفرنسية والتى تستطيع ان تقدم معرفة متكاملة بمصر . اما هذا المؤلف الضخم فيتكون من النص ومن مجموعات اللوحات ، ويتكون النص من الدراسات والاوصاف، اما الاطالس فتحتوى على ١ ـــ رسوم عن مصر القديمة . ٢ ـــ رســوم تتعلق بمصر الحديثة. ٣ ـــ لوحاتالحيوان والنبات والمعادن. ٤ ـــ الخريطة الجغرافية . اذن فمجموعة هذه اللوحات تمثل الأشياء الموجودة والتى يمكن ملاحظتها ووصفها بدقة ، والتى لا بد ان نعتبرها ، لهذا السبب ، عنــاصر موضوعية لدراسة مصر . وكنا كذلك نهدف فى الدراسات والاوصاف الى عرض هذه الأمور على نحو اكمل واكثر تماما ، وأن نبين بدقة ما قد لا يستطيع من الرسم أن يعرف به ، وأن نقارن الوقائع ونقارب ما بين النتائج وأن نتفحص ما يمكن لنا ان نستخلصه من ذلك كله .

تتكون الخريطة الجغرافية من خمسين لوحة خاصة ، تقدم كلالتفاصيل التى يمكن لنا ان نرغب فيها. وليست هناك منطقة فى اوربا يمكن لها ان تكون قد وصفت على هذه الدرجة من الكمال ، ويشمل هذا العمل الكبير ، الذى يقوم فى جزء منه على ملاحظات فلكية كل البلاد الواقعة ما بين شـــلال اسوان والبحر ، وابتداء من آخر مبنى يقع الى الغرب من الاسكندرية حتى

خرائب صور القديمة Tyr ، واضفنا الى ذلك خرائط خاصــة بالمدن وبالموانى ، وخرائط ومذكرات عن الجغرافيا القديمة ، وحصر بالاسـماء العربية لكل المناطق الآهلة ، مع ملاحظات عن السكان والزراعة وامتداد الأراضي الخصبة ، والملاحة والصناعة والمنشآت العامة وبقايا المدن القديمة.

وقد لاحظنــا بكثير من العنــاية الحالة الجغرافية لوادى النيـل ، والصخور التى تقوم بمثابة حدود له ، وامتدت الأبحاث التعدينية الى مناطق صحراوية وجبلية بعيدة عن النهر ، كما اشتملت هذه البحـوث كذلك على فحص المحاجر التى استغلها المصريون القدماء ، وعلى تصنيف دقيق للمواد التى استخدمت فى بناء الآثار ، وقمنا برحلات كثيرة كى نجمع من الصحراوات المجاورة لمصر ، وفى الصعيد والدلتا ، وعلى ضفاف النيل والترع ، النباتات الخاصة بمصر ، وتلك التى امكن للعلم ان يؤقلمها هناك ، كذلك كان هــذا العمل يهدف الى الاكثار من الثروات الزراعية للبلاد وان نزود التجــارة والصناعة بعناصر جديدة . وقد اعطينا لدراسة الحيوان عناية مثابرة فأكببنا على تمحيص النتائج التى سبقت معرفتها وعلى اتمام الأوصاف الناقصـة والاستعـاضة عن المـلاحظات التى لم يكن الـطبيعيون قـد قامـوا بها من قبـل مطلقا اثناء رحلاتهم السابقة ، وقد اسفر فحص المواد الطبيعية بمصر عن اهمية بالغة خاصة وقد سبق لها أن شغلت من قبل ، ولوقت طويل المشرعين الأول فى هذه البلاد ، وفى بعض الأحيان كانت معرفتنا بهذه المواد تلقى ضوءا كاشفا ، وغير متوقع على نقاط غامضة فى عقائد المصريين (القدماء)، كما تتميز اللوحات التى تمثل هذه الأشياء بأمانة بالغة فى النقل والتقليـد، فلها طابع الحقيقة وملمح الدقة اللذين يشهدان فى الوقت نفسه بعنــاية الفنان واهتمامه ، وبخطى التقدم التى احرزها هذا الفرع من فن الرسم ، وحتى الآن ، لم يسبق أن تمت جهود اكثر نجاحا وتوفيقا من ذلك كى تنوب عن حضور الطبيعة ذاتها (اى كى ينوب الرسم عن الأصل نفسه) .

اما بخصوص الصروح التى خلدت مصر وحالت دون فنائها ، فلم تكن لدينا عنها الا معرفة شائهة قبـل الحملة الفرنسية . بل لقد كانت هــذه الآثار مجهولة لنا بشكل تام ، وسوف يقدم هذا المؤلف وصفا دقيقا لها ، ولقد تعرفنا على الموقع الجغرافى لكل مبنى وبيناه على الخريطة ، ثم اتممنا بعد ذلك الخرائط الطبوغرافية التى تعرفنا بالمواقع الخاصة بمنشآت نفس المدينة او بموقعها بالنسبة للنيل او للجبال المجاورة ، وقد ضاعفنا من المناظر

المرسومة لهذه الخرائب الجليلة ؛ اما الفنانون الذين ندين لهم بهذه الرسوم فقد اخذتهم روعة الموضوعات وما يشع منها من جلال هو جدير بها حتى انهم لم يستبعدوا اى تكوين ولو كان اعتباطيا او تعسفيا ، انهم اذن لم يلتزموا الا بحقيقة النقل والتقليد بغية ان ينقلوا باخلاص وأمانة نفس الاثر الذى احدثته فيهم رؤية مصر ، وليس هناك بين كل منجزات البشر على الاطلاق ما قدم لعبقرية الرسم موضوعا اكثر سموا ورفعة .

وقد قام هؤلاء عدة مرات ، وبالعناية البالغة الدقة ، بقياس اطوال المبانى واطوال الأجزاء الرئيسية او الاضافية التى يتكون منها ، وقد رسمت لكل هذه المبانى تصميمات وواجهات وقطوعات اخذت من جوانب عدة ومن منظورات خاصة ، ولقد حققت الرسوم والدراسات التى تضم نتائج عمليات القياس هذه كل ما نطمع اليه لدراسة العمارة المصرية ، ونستطيع نحن ان نستخدمها لانشاء مبان تشبه تمام الشبه تلك التى وصفناها ، ولا بد لنا ان نلاحظ ان هذا العمل (من جانبنا) لم يكن قاصرا قط على بعض الاطلال المنعزلة التى افلتت من فعل الزمن ، وانما اشتمل على المبانى الرئيسية لأمة متنورة تدين لها اغلبية الأمم الأخرى بنظمها ومؤسساتها . وفى واقع الأمر فاننا لم نلاحظ فى مصر المدارية وجود هذه الأسباب المتضاعفة ، والتى ترمى ، على الدوام ، فى الأجواء الأخرى الى تدمير المنشآت ، والى محوها ، فى بعض الاحيان حتى آخر اثر لها ، ومع ذلك فان هذه الأعمال تذود عن نفسها بنفسها بكتلتها الخاصة كذلك ضد جهود البشر ، وهكذا امكننا اليوم ان نقدم لوحة لعمارة المصريين واثقين بأننا قد ضمناها اجمل منشآتهم .

ومن الواضح أن هذه منشآتهم التى لا تزال باقية فى طيبة وابوللينوبوليس وفى أبيدوس ولاتوبوليس(*) هى نفس القصور التى سكنتها الملوك (القدماء) أو هى اكثر معابد (المصريين القدماء) اهمية ، انها كذلك هى نفس المبانى التي وصفها كل من هيكاتيه Hecaté وديودور Diodor وسترابون Strabon ، ولا يمكننا ان نجد ما هو اكثر اهمية بالنسبة لتاريخ الفنون الا معرفة هذه النماذج العظيمة التى اثارت اعجاب الاغريق وطورت عبقريتهم .

(*) وهذه المدن الاربع هى الآن على التوالى : الكرنك ، وادفو ، ومنطقة خرائب بالقرب من العرابة المدفونة والخربة ، واسنا . (المترجم)

وبالاضافة الى ذلك فقد اكببنا على نقل وتقليد دقيقين لأعمال النحت والحفر التى تزدان بها هذه الصروح ،١٠ أما الرسوم البارزة فتمثل اشياء بالغة التنوع ، كما انها تلقى اضواء جديدة على علوم العصور القديمة ، وهى نتصل بتقاليد الحرب ، والحفلات الدينية ، والظواهر الفلكية ، ونظام الحكم ،والتقاليد العامة ، والعادات الأسرية ، وبالزراعة والملاحة وكافة الصناعات المدنية ، وقد حرصنا عند رسم عدد كبير من هذه المبانى على ان ننقل بدقة كافة الرسوم والحروف الهيروغليفية ، ولم نحتفظ لها بأشكالها المفردة فحسب ، بل بالنظام والوضع الخاص باشاراتها كذلك ، وقد جمعنا الكتابات والنقوش القديمة التى تهم العلوم والتاريخ . وقلدنا بعناية الألوان التى لا تزال تحلى العديد من المبانى والتى تبدو وكأنها لم تفقد شيئا من بريقها الأول .

وبعد ذلك الحقنا بالخرائط الطبوغرافية ، وبالاشكال المرسومة ، وباللوحات المعمارية وبالرسوم البارزة وصفا موسعا ، جمعنا فيه كل الملاحظات التى لا يستطيع الرسم أن ينقلها ، وتشتمل هذه الأوصاف على نتائج فحص مستفيض ، أصيل وموثق ، عاون فيه على الدوام كثير من الشهود ، وكانت هذه الأوصاف تهدف الى ان تعرفنا بشكل كاف على الحالة الراهنة للمبانى وعلى التدهور الذى حدث فيها بفعل الزمن ، وكذلك على نوع المواد التى استخدمت وعلى امور كثيرة أثارت اهتمامنا ، ونجد فى هذه الأوصاف ملاحظات متنوعة عن العمارة وحول أساليب البناء ، والألوان ، واستخدامات الأشياء المرسومة ، كما نجد ملاحظات حول طبيعة الأرض ، والتغييرات التى تحدثها الفيضانات الموسمية ، وحول موضوعات اخرى لم تكن واسعة بالقدر الذى يكفى لكى تعالج فى دراسات منفصلة .

وبنفس هذه العناية ، قمنا بوصف المقابر الرائعة التى لملوك طيبة القدماء ، والكهوف الجنائزية التى يجاهد عن طريقها الورع المعهود لأن يخلد ذكرى واجساد الأجداد ، كما وصفنا المدافن التحتية الأخرى التي كانت مخصصة فيما يبدو للحفلات أو لممارسات غامضة .

وتقدم اهرام ممفيس الشهيرة ذائعة الصيت ، القليل من الأهمية فيما يتصل بالفنون الجميلة` ، وان كان ثمة دوافع اخرى ينبغى أن تخضع لأبحاث بالغة الأهمية هذه المبانى الضخام التى كانت موضوعا لملاحظات

تنقصها الدقة ، وقد حددنا نحن من جانبنا موقعها الجغـرافى واتجاهات جوانبها بالنسبة لخط الزوال ، وكذا الأبعاد الخارجية ، وابعاد كل الغرف التى امكن لنا ان نتوغل اليها ، واخيرا فقد وصفنا كافة المبانى الجانبية .

وقد افردنا اشكالا خاصة ، رسمت فيها كل من المسلات وتماثيل ابى الهول والتماثيل الضخام والتوابيت ومسلات مختلفة اخرى ، ولم يكن من المستطاع نقل هذه الزينات الثمينة للصروح والأماكن المقدسة الى اوربا دون بذل جهود هائلة لم تسمح الظروف مطلقا ببذلها على الاطلاق ، وان كانت توجد منها الوف اقل حجما جمعها بعض الأشخاص واحتفظوا بها او أودعت اليوم فى المتاحف العامة . وقد جلبنا معنا من مصر أحجارا منقوشة وتماثيل بأكملها أو مجـدوعة وقطعا من البرنز وشظايا من الخزف أو البورسلين ، وأحجارا مقطوعة ومشذبة تحمل نقوشا ورسوما فنية أخرى تتصل بالديانة القديمة وبعلوم وبعادات اهل البلاد ، كما تفحصنا باهتمام عددا هائلا من مومياوات البشر ومن مومياوات الحيوان من ذوات الاربع وكذا الزواحـف والطيور واحتفظنا بالكثير منها ، وقد عثرنا فى الصناديق والآنية الفخـارية التى تضم هذه الأجساد الجافة على اقمشة من نسيج ثمين . وعلى مذهبات وعقود وتمائم وحلقان ، وعلى اعداد هائلة من الشظايا ، كما استخرجنا من هذه الصناديق مجلدات عديدة من البرديات مغطاة بنقوش هيروغليفية أو بحروف هجائية ، وقد اكتشفنا هذه الأشياء وسط خرائب المدن القديمة وداخل الحفريات الكثيرة التى اقتضى القيام بها الفحص الذى أجريناه للمبانى ، وكذلك فى داخل المقابر العامة أو الملكية ، وفى بعض الأحيان أيضا فى داخـل البيوت الحالية ، وقد جمعت كل هذه خلال احداث الحملة الفرنسية ، وتبينا ان من الضرورى أن نضمن رسوماتها المجلد العام .

اما اللوحات الخاصة بمصر الحديثـة فتمثل : ١ ـ المســاجد ، والقصور ، وبوابات المدن ، والميادين ، والمحاكم ، ومجارى العيـون ، والمقابر ، والأحواش ، والوكالات المخصصة للتجارة ، والنقوش ، والميداليات وقطع النقود . ٢ ـ الحدائق ، والحمامات ، والمدارس، وادوات الحرف ، والأسلحة ، ومقابر العائلات ، وبيوت الخاصة ، ومنشآت المصـانع ، والماكينات ، والورش ، وادوات المهن المختلفة . ٣ ـ الاحتفالات السنوية، المواكب ، الاجتماعات العامة ، التجمعات والأعيـاد المدنية ، التدريبـات العسـكرية ، العادات الخاصة بالجنازات وبالزواج وبشراء العبيد وعتقهم

وبالميلاد ٤ — واخيرا الشخصيات الهامة من مختلف طبقات السكان او من الأجناس الأجنبية والملابس والأسلحة التى تميزهم .

وقد سعينا ، فى الدراسات التى تشكل جزءا من هذه الموسوعة ، الى ان نستكمل وصف مصر وتعميق دراستنا لها عن طريق مقارنة الظواهر ومناقشتها . ولم نكن نهدف مطلقا ، من هذا المنظور الثانى ، لأن نشرع فى بحث يقتصر على حدود محددة ، فالمرء لا يستطيع فى واقع الأمر أن يقصر ابحاثه حول مصر مطلقا (عند حد محدد) ، فليس ثمة موضوع فى الدراسات الانسانية أكثر من ذلك خصوبة أو أكبر اتساعا ، فاذا ما ظننا اننا قد استوفينا مجالا ما فى هذه الدراسات فاننا نكون فى واقع الأمر قد استخففنا به ، ولكننا اقتصرنا على وضع نظام يكفل لنا أن نعالج كافة المسائل الرئيسية، ولهذا السبب فان مؤلفى الدراسات قد ركزوا بحوثهم على ما يأتى :

١ — المؤسسات والنظم ، العادات والتقاليد ، الآداب والعلوم والفنون ، نظام المقاييس والصناعة عند قدماء المصريين .

٢ — الجغرافيا القديمة والحديثة ، تاريخ مصر ، الحكومة الحالية لهذه البلاد ، الدين ، التقاليد ، العادات العامة والأسرية ، حالة الفنون والآداب والعلوم ، الزراعة والصناعة والموارد العامة ، الملاحة والتجارة.

٣ — طبيعة وخواص التربة والهواء والمياه من الناحية الفيزيقية ، الحيوان والنبات والمعادن ، جيولوجية مصر .

ويشكل كل واحد من هذه الموضوعات دراسة مستقلة ، وقد راعينا فى هذا الجزء من الموسوعة الذى يشتمل على الدراسات ، نفس القواعد التى تراعى فى الموسوعات الاكاديمية ، وعندما قام كاتب شهير بحق بنشر نتائج رحلاته الى مصر والى سوريا فانه قد اثرى بالفعل الأدب الفرنسى بوصف دقيق وبليغ لعادات وحكومات هذه البلدان . وقد لمسنا كيف تتطابق ملاحظاته مع الأبحاث التى قمنا بها خلال الحملة .

وتنتمى الأبحاث التى دارت حول المبانى الفلكية التى اكتشفت فى الصعيد الى الجزء الأول من هذا المؤلف ، وان كان نشره هو الذى تأخر .

وفى معظم الأحيان نسبت فى المقالات العديدة والمبتسرة التى اوجدها هذا الموضوع الشهير بالفعل الى كاتب هذه الدراسة آراء تختلف عن تلك التى انتوى أن يؤسسها . ان النتائج التى تستخلص من الدراسة المتأنية للنظم لن تسمح مطلقا بفهم تاريخ مصر داخل اطار تأريخ ضيق لم تستمر متابعته مطلقا فى القرون الأولى للمسيحية ،.كما ان هذه النتائج ليست اقل تعارضا مما يستخلصه أولئك الذين يؤسسون على افتراضات (أحوال) العصور القديمة المعلية من شـأن الأمـة المصرية ، ثم لا يميزون مطلقا الفترات التاريخية ، والتى تستحق بالفعل مثل هذا الوصف ، من تلك الحسابات والأرقام التى تستخدمفى عمليات التقويم .

ويوضح لنا السرد السابق ، تلك الخطة التى اتبعناها فى وصف مصر . لقد التزم المؤلفون بملاحظة أعمال الطبيعة واعمال الانسان التى يمكن ان يفيد فحصها فى دراسة هذه البلاد ، وقد مثلت هذه الأشياء بالرسوم أو المناظر المرسومة او بالخرائط أو التصميمات كلما كان الأمر ممكنا لذلك ، لكن هناك عددا كبيرا من الظواهر لا يستطيع أن يقتفى اثرها سوى الحديث (أى البحث) فضمناها فى الدراسات والأوصاف التى تشكل النص ، ولم نهمل شيئا وجدناه لازما كى يكون الجانب الوصفى من هذه الموسوعة كاملا ، ولقد سهل وجود الأسلحة الفرنسية بالاضافة الى ترحيب الجنرالات واسهام العديد من المراقبين والشهود ودقة الأدوات فى القيام بهذه الأبحاث ومع ذلك فكثيرا ما قطعت هذه الأبحاث بفعل أحداث وظروف مشئومة ، وعديد من بين هؤلاء الذين قادهم الى مصر تذوقهم للفنون الجميلة ، والذين جلبت لهم اعمالهم السابقة اقبالا شديداً قد سقطوا صرعى بسبب اضطرابات كانت تتجدد دون انقطاع أو فى مخاطر شبه مؤكدة دفعتهم اليها حماسة ملتهبة ، وهلك آخرون دفعهم الى هناك شغفهم فى خدمة العلوم وأملهم فى تشريف عائلاتهم ٪ واختصوا وطنهم بثمار دراساتهم ، هلك هؤلاء فى شباب غض فوق هذه الأرض الغريبة عليهم ضحايا للتمرد والعصيان والأوبئة المهلكة . ووسط هذا الخضم من أحداث الحرب ، توقفت الأبحاث العلمية فى بعض الأحيان بسبب عراقيل لا يمكن السيطرة عليها فى حقيقة الأمر ، هكذا يمكننا ان نؤكد ان ثمة بعض أمور قد اغفلناها ، لكن هذه الأمور ليست بالهـامة على الاطلاق ، ولذلك فان المؤلف الذى نشرنا الجزء الأول منه سيقدم معرفة

مركزة ودقيقة عن الحالة الفيزيقية لمصر ؛ وعن الصناعات الحالية للسكان ، وعن المنشآت التى اقامها اجدادهم . وربما لم يكن هناك ، بامتداد كل الدول المتحضرة ، اى بلد آخر قد خضع لفحص اكثر تفصيلا او اكثر دقة .

وبخلاف هذا الوصف الطبيعى والتاريخى لمصر ، فقد كان بمقـدور اقامة الفرنسيين فى هذه البلاد ان تقدم المزيد من الفوائد والمزايا المرغوبة ، بل لقد كان بمقدور الفنون ان تكون ، فى الوقت الحاضر نفسه ، قد طورت وجملت ضفاف النيل ، كما كان بمقدور الناس هناك ، بعد أن تخلصوا من ادارة عابثة وغير انسانية ، ان يعكفوا بأمان على زراعة أرضهم وأن يفيدوا من ثمار حرفتهم ، وكان يمكن للمخترعات الميكانيكية ان تحل محل قوةالانسان وتجعل اعماله اكثر يسرا واوفر انتاجا ، وكان بالامكان ان تتوطن بعـض القبائل العربية فى أرض اصبحت خصـيبة وان يدفع الاخرون الى اعمـاق الصحراوات ، وأن تثرى هذه الأرض الخصيبة بالنباتات والمحاصيلالأجنبية التى يمكن أن تجلب اليها أو تزاد كمية ما يزرع منهـا ، بل لقد كان بوسع الفرنسيين أن يقيموا هناكالكثير من المصانع الثمينة ، كما كان من المستطاع اقامة علاقات طيبة مع فارس والهند والجزيرة العربية ، وعبور ووصف هذه المناطق ، بل كان سيصبح فى مقدور رحالة كثيرين أن يراقبوا (وأن يدرسوا) المجرى الأعلى للنيل وان يتفحصوا المنشآت القديمة القائمة جنوب أسوان وفى اثيوبيا ، وأن يتوغل آخرون مع القوافل الى الواحات والى بلـدان افريقيا الداخلية ، وأن نحصل على معلومات أكثر دقة حول الأنهار والجبال ومناجم الحديد والذهب وكل المنتجات الطبيعية ، والمدن ، وخاصة عناصر تجارة هذه القارة الشاسعة ، وكان من الممكن كذلك أن يتم مشروع القناة التى من شأنها أن تربط بين البحرين وبذلك يبدأ جزء من تجارة الشرق يتبع طريقا بالغ اليسر طالما رغب العالم فى وجوده .. كان يمكن أن يكون ذلك هو حال مصر اليوم لو أن قدرا معاكسا لم يعد بها الى طغاتها القدامى ، ونستطيع هنا ان نؤكد أن ليس ثمة اية مبالغة فى هذه اللوحة التى رسمناها للتو ، فلقد كانت السنوات الثمانى التى انقضت (منذ خروجنا من مصر) كافية لكى تزود هذه البلاد (لو أننا مكثنا فيها) بالكثير من الاكتشـافات والمؤسساتالنافعة ، فأى شىء هذا الذى لا نستطيع ان نتوقعه من نفـوذ طويل يمكن له أن ينتج عن الارتباط بفرنسا وعن التقدم المستمر لاضـواء المعارف والفنون !

وعلى الرغم من أن العلوم قد شاهدت ـ ربما ـ بدء ازدهار جزء من الامل الذى كانت فى ذلك الوقت حبلى به ، الا أنها قد خسرت المزايا الهائلة التى كانت توفرها لها الحملة الفرنسية . وتقدم لنا الموسوعة التى بدانا اليوم نشرها ميدانا رحبا للابحاث الأدبية والعلمية وسوف توفر اضواء جديدة عن أصل كل الفنون ، وليس لدى أولئك الذين أسهموا فىوضعها ما يضيفونه الى عظمة موضوعها .

كان عملهم يستلزم منهم فحصا مثابرا ، كما أن الحقوق التى يمكن ان تترتب لهذا العمل على الراى العام تنتج من طبيعة موضوعه ذاتها أو من الظروف التى صاحبت تكوين عناصره ، فاذا ما نظرنا اليه من وجهة النظر هذه ، فان هذه الموسوعة سوف تشكل صرحا هائلا للتاريخ والفنون ، كما ان هذا العمل العظيم يسهم فى مجد وطننا ، ونحن مدينون به لجهود مقاتلينا ، كما أنه يستمد اصالته من توجد العلم بالسلاح فهو شهادة وثمرة لتحالفهما ، انه تذكار عظيم لوجود الفرنسيين فى واحد من اشهر بلدان العالم ، ولكل ما فعلوه هناك من تكريم للنصر باتخاذ طريق العدل والتسامح ، مقلصين حقوق المنتصر الى مجرد ممارسة لسلطة وصاية ، ويمكن لهذه الموسوعة ان توحى لبلاط القسطنطينية بمشروعات تدعم عودة سلطتها الى مصر وتقيم فيها حكومة اكثر اتباعا لقواعد الحكم والادارة ، وستظل تنقل الى هــذه البلاد افكار وامانى اصدقاء الفنون الجميلة وكل الذين يتطلعون باخــلاص وتجرد الى تقدم المعارف النافعة .

ولسوف يجد الناس فى هذا المؤلف الأساسى ، مع امهات الكتب التى رفعت اسم اليونان وايطاليا ، لوحة امينة للآثار المصرية ، وسيجد الناس فى متناول ايديهم اعظم ما انتجته عبقرية الفنون واكثرها تماما ، وحين يقارن الناس هذه النماذج فلابد أن يتذكروا انها هى كل ثمن النصر ، هكذا تقيم فرنسا انصبتها التذكارية من اسمى منجزات العصور القديمة رابطة على هذا النحو ذكرى انتصاراتها بكل عصور المجد التى عرفتها الفنون الجميلة .

ان مصر التى كانت تطمح لأن تجعل من مؤسساتها ومنشآتها اشــياء تقاوم الفناء ، والتى تركت بها كل الفنون بصمات لا سبيل لمحوها ، ستظل لوقت طويل تدفع بتلك المهابة الصارمة بل التى تتزايد روعتها ، والتى تشع من اقدم نماذج (الفن التى عرفها البشر) خفة وطيش العقل البشرى وعدم

استقراره . لقد شيدت هذه الصروح من قبل أن تنشأ مدن الاغريق بقرون مديدة ، ولقد رأت هذه الآثار نشأة وازدهار صور Tyr وقرطاجة واثينا ، وكانت تحمل بالفعل اسم « العصور المصرية القديمة » فى زمن أفلاطون، وسيظل يعجب بها أحفادنا فى وقت لن يبقى فيه فى أى مكان آخر على ظهر الكرة الأرضية أثر واحد لمنشآت شامخة اليوم .

وبالاضافة الى ذلك فان البقاء الطويل لهذه الصروح لا يرجع فقط الى خواص الطقس . بل هو ناتج بشكل خاص عن جهود هؤلاء الذين شيدوها ، ذلك اننا نكاد لا نستطيع أن نعثر ، على ضفاف النيل ، على اثر لمنشآت رومانية ، ان المصريين الأوائل لم يكونوا يعتبرون جميلا وجديرا بالاعجاب بهذا المعنى ، الا ما هو قابل للبقاء وينهض على فكرة المنفعة العامة ، كان الفهم المبدئى من وراء أعظم منجزاتهم هو جعل الأرض أكثر ملاءمة لصحة الانسان ، واكثر خصوبة واعظم اتساعا ، فتوصلوا الى تجفيف المستنقعات والبحيرات والى انتزاع اقاليم بأكملها من الصحراوات الليبية (وحولوها الى ارض زراعية)، كما تفادوا اخطار عدم ثبات منسوب الفيضانات باحتياطات نشطة تتسم ببعد النظر وتستخدم كل اعاجيب الفنون ، فأسسوا مدنهم فوق ارصفة شاسعة ، محولين مجرى النهر حسبما يتراءى لهم او مقسمينه الى روافد وقنوات كثيرة ، ورأوا الأرض نفسها تطل من قلب المياه(*) ، فخلقوا – بمعنى كلمة الخلق– بأنفسهم سهول الدلتا الجميلة التى سرعان ما اصبحت بالغة الثراء ، ولقد ساهم ثبات الطقس وانتظام الظواهر الطبيعية فى طبع هؤلاء القوم بهذا الطابع العميق من الوقار والمثابرة والاصرار وهى الملامح التى تميز انظمتهم ، ولم يكتف هؤلاء القوم بأن يزينوا شواطىء النيل بالكثير من الصروح الخالدة بل شرعوا فى اقامة أعمال باذخة فى قلب الصخور التى تتاخم اراضيهم ، وهذه « المصر التحتية او الدفينة » تعادل فى عظمتها عظمة أولئك الذين كانوا يقطنونها ، وهى تلك العظمة التى اثرتها كل الفنون .

وكان المصريون يعتبرون على نحو ما خالدا كل ما كانت له صلة بديانتهم وحكومتهم ، فكانوا يتعهدون على الدوام هذه الفكرة بانشائهم

(*) يشير هنا الى طمى النيل .

الصروح الكبرى والتى تظل على الدوام هى هى ، والتى تبدو وكأنها لا تخضع مطلقا لفعل الزمن ، ولقد أدرك مشرعوهم أن هذا التأثير الروحى قد يسهم فى دعم نظمهم ، وفى نفس هذا الاتجاه ، نقش هـذا الشعب فوق قصوره ، ومعابده ومقابره ، صور آلهته وملوكه ، وملاحظاته للنجوم ، ومبادئه وحكمه المقدسة ، ومشاهد من عباداته وأعياده المدنية ، وهذه هى اقدم اثر يمكن ان يكون الانسان قد تركه على ظهر الأرض ، وهى تنتمى الى حضارة آسيا الضاربة القدم والتى سبقت كل العصور التاريخية لليونان ، وقد أوقفتنا هذه الآثار على ما كانت عليه فى ذلك الوقت عقول الأمم وتقاليدها .

ولن يكون بمقدورنا مطلقا ان نعجب بآثار مصر ومنجزاتهـا ، ولا ان نتذكر ما كانت مصر عليه فى عصور مجـدها ، دون أن نولى اعتبارا للآلام ونوبات الشقاء التى سببها فقدها لاستقلالها ولقوانينها ولمعارفها . وسنظل نقدر على نحو افضل أنظمتها ، وسنظل ننظر اليهاباعتبارها منبعـا روحيا للازدهار لم يكن أقل ضرورة ، فى هذه البلاد ، من النهر الذى يرويها ، وسنظل على الدوام ، وعلى وجه الخصوص ، ندرك هذه الحالة المحزنة التى تردت اليها ، على الرغم من الثراء الذى يمكن ان تجلبه اليها ، فى سنوات قليلة ؛ ادارة اكثر حكمة .

وهكذا فان دراسة مصر ، الخصيبة لهذا الحد بالذكريات العظيمة ؛ تظل تنذرنا بأن تطور العقل وتطور الصناعة انما يرتبطان باستتباب النظم ، كما تظل توضح لنا ، وعلى نحو افضل ، ما تساويه القوانين ، وما تساويه حكومة مستقرة مستنيرة ، وستظل توحى لنا بدوافع جديدة كى نحب ذلك . ومثل هذه الدراسة لا يمكنها الا ان توحى بأفكار عادلة ومتسامية ، والا ان تغض الطرف عن البحث فى البهرج التافه ، والا أن تقودنا نحو وحدة وبساطة الآراء ووجهات النظر . ولسوف تجعلنا هذه الدراسة ندرك على نحو افضل أن الاشياء الراسخة والقابلة للبقاء هى ذات عظمة لا تشع من سواها ، وانه ، اذا كانت الاناقة الحاذقة للاشكال والمنجزات تسهم فى التطور ، فان فكرة الجمال الحق تحوى بالضرورة فكرتى الرسـوخ والعظمة ، وستظل توضح لنا هذا المبدأ بكل جلائه ، ولابد أن تكون لهذه الفكرة سطوتها الخلاقة فى ذوق وانجازات العصر .

ايضـــــاحات

جمعنا فى هذه الايضاحات كل الملاحظات المختلفة التى تتصل بخطة هذا المؤلف أو التى يمكن لها أن ترشد القارىء عند اســتخدامه للأطالس ، وقد سبقت ذلك نبذة تاريخية تناولت الاجراءات التى اتخذت عند تجميع محتويات هــذا المؤلف وكذلك عند نشرها .

بعد عــودة جيش الشرق مباشرة ، امرت الحـكومة بأن تجمع كل الدراسات والخرائط والرسوم وكافة الملاحظاتالتى تتصل بالعلوم والفنون والتى جمعتاثناء الحملة فى مؤلف عام ينشر على نفقة الخزينة العــامة ، ودعى الأشخاص الذين سبق لهم أن ساهموا فى هذه الأبحاث كى يقترحوا الكتابات أو الرسوم التى ينبغى لهذا المؤلف أن يتكون منها ، وفى نفس الوقت عهد بادارة هذا العمـــل الى لجنة مكونة من ثمانية اشـــخاص حددهم وزير الداخلية باعتبارهم ممثلين لكل جماعة المؤلفين ، واختارت هــذه الجماعة بنفسها بعد ذلك وعن طريق الاقتراع ذلك الشخص من بين اعضائها الذى ينـــاط به كتابة المقدمة التمهيــدية ، وقد عين السادة برتوليه ، كونتيه ، كوستاز ، ديجينيت ، فورييه ، جيرار ، لانكريه ، مونج اعضاء فى اللجنــة التى تمارس الاشراف العام على مختلف اقسام هــذا المؤلف بالاضافة الى تنظيم نفقاته وأقتراحها بموافقة الوزير ، وقد حل محــل الســيدين كونتيه ولانــكريه على التوالى الســيدان جومار وجولوا(*) ، أما السيدان ديليل وديفيلييه فقد ضمـا الى هذه اللجنة فى بداية عام ١٨١٠ .

وكان من الضرورى أن يعين قوميسيير . ى يتولى تنظيم ومبـــاشرة تفاصيل التنفيذ ومراعاة المصاريف ، والتنســيق بين كل اجزاء العمــل ، بالاضافة الى ترتيب المادة وفقا للنظام الذى اتفق عليه ، وعليه ان يختـــار الحفارين وأن يستلم منجزاتهم وأن يضعها تحت فحص اللجنة وأن يتــدم

(*) اكتفيت بايراد الأسماء هنا بالحروف العربية حيث سبق ورود كل أسماء علماء الحملة بالحروف اللاتينية فىمذكرة المسيو بانكوك . (المترجم) .

كشفا بالمصاريف وبيانا بالتقدم المضطرد فى العمل ، وفى النهاية ان يدير مختلف نواحى العمل فى حفر وطباعة اللوحات ، وقد عين الوزير ، ليشغل هـذا العمل ، المسيو كونتيه ، الذى احدثت وفاته أسفا بالغا ، فهو الرجل الذى قدم لوطنه وللعلوم خدماتلا تنسى وهو الأمر الذى وجدنا أن الواجب يقتضى منا أن نذكره فى مقدمتنا التاريخية ، وقد خلفه المسيو ميشيلانج لانكريه ، مهندس الطرق والكبارى ،فى نهاية عام ١٨٠٥ ، وكان قد لفت اليه الأنظار منذ وقت طويل بمعارفه النادرة للغـاية فى مجال الهندسـة وفى كل فروع الفلسفة الطبيعية ، لكنه سقط صريع مرض مزمن ومؤلم عند نحو نهـاية عام ١٨٠٧ بعد أن قدم امارات لا حصر لها على حماسة قل أن نجد لها نظيرا ، وحل محله المسيو جومار مهندس المساحة السابق والمشرف على المخازن العسكرية والذى خصص لهذا العمل منذ وفاة المسيو كونتيه عنايته المثابرة . وقد اختارت اللجنة المكلفة بادارة النشر ، من بين اعضائها ،وبموافقة وزير الداخلية سكرتيرا موكلا بالمراسلات العـامة ، يقـوم بتدوين المداولات ، وبالمراقبة المباشرة فى طبع الدراسات ، وبالمساهمة مع القوميسير الخاص فى جمع وتصويب اللوحات ، وعهد بهذه المهمة على التوالى الى السيدين لانكريه وجومار ، ويشغلها اليوم المسيو جولوا مهندس الطرق والكبارى ، ويشرف المؤلفون المقيمون بباريس على حفر رسومهم بالتنسيق مع قوميسير الوزير .

كان الهدف الذى توخيناه عند وضع هذه الموسوعة أن نقدم بانتظـام النتـائج التى تتصل بعصور مصر القديمة ، وبالحـالة الراهنة والتاريخ الطبيعى ، وجغرافية مصر ، اى بتجميع العناصر الرئيسية لدراسة هـذه البلاد . وقد وزع هذا العمل الكبير بين عدد كبير من الذين اسهموا فيه ، وقد كونا عن طريق تجميع اعمالهم ، الوصف الكامل الذى كنا قد توخيناه ، وقد وجدنا من الضرورى أن يتم فحص هذا الجزء من هذه الموسوعة عن طريق المؤلفين مجتمعين ، وليست هناك دراسة واحدة لم تعرض بشكل مفصـل امام الجمعية العـامة حيث خضعت هناك لمداولات متأنية ..وكان الغرض من هـذه المناقشات العامة ضمان دقة الوقائع ، واسـتبعاد أو تصـويب الأعمال المحرفة أو غير الدقيقة : واعطت هذه المناقشات لأولئك الذين تقبلت اعمالهم نوعا من الأصالة أو التوثيق ذلك انه لم يسمح بالنشر لأى من هؤلاء الا بعد ان نالوا الموافقة فى اقتراع ، وبغالبية الأصوات . لكن هذا الفحص

لم يكن ليمتد مطلقا كى يتناول الأفكار التى تبناها مؤلفو الدراســات أو الى النتائج التى استخلصوها من ابحاثهم ، ومع ذلك فلا ينبغى أن نرتب على ذلك ان جماعة المشاركين كانت تشاطر على الدوام هــذه الآراء ، أو حتى كانت تشاطر هذه الآراء تلك اللجنة التى كانت تتولى نشر الأعمال .

ولسوف نضمن الجزء الأخير من وصف مصر قائمة بأســماء كل الذين سيسهمون فى هذه الموسوعة ، وعندئذ فقط يمكن لنا القول بأننا قدمنا قائمة عامة ودقيقة ، وستحل هذه القائمة الشاملة محل تلك القوائم الجزئية التى ستلحق بكل جزء ، وسوف نضيف كذلك اسماء المشاركين الذين أوقف الموت اعمالهم اما بعد رجوع جيش الشرق واما خلال الحملة .

ولقد سهل من انجاز هذه المهمة الكبيرة تلك الرعاية المستمرة من جانب الحكومة ، ولقد قدمت هذه الرعاية الكثير من التشـجيع الى الحفــارين الفرنسيين حين سعت الى اسهام منتظم ومواظب لعدد كبير من الفنانين ، كما ادت هذه الرعاية فى النهاية الى اشواط جديدة فى تقدم هذا النوعمن فن الرسم ، وقد اكتسب حفر الخرائط الطبوغرافية ولوحات التاريخ الطبيعى ، وبشكل خاص لوحات العمارة ، درجة من الاتقان لافتة للنظر ، وســيجد الناس فى هذا الانجاز نماذج كثيرة من العمل بالغة النقاء وبالغة التمام ، وعند التدريب على كيفية التعبير عن الطابع العظيم الذى للمبانى المصرية ، تكون فنانون شبان ، تميزوا بالفعل بمواهب نادرة .

وقد استخدمنا كذلك اساليب جديدة عند طباعة اللوحات، وقد طورنا من صناعة الورق القضيم ، واقتضى الأمر أن ننشىء مكابس ذات ضخامة لم تكن مستخدمة من قبل ، وفى الواقع فان حجم الآثار المصرية التى التزمنــا بنقلها جميعا بنفس النسبة (نسبة حجم الرسم الى الأصل) كان يتطلب من الورق المخصص لطبع اللوحات أحجاما غير عادية . وقد قمنا بجهود ناجحة لتطوير هذا الفرع من فروع الصناعة الفرنسية ، وتضــارع المنتجات التى حصلنا عليها منتجات المصانع الأجنبية بل تتفوق عليها . ومن بين كل النتائج الجديدة التى انجزها هذا العمل ، والتى لم تكن الفنون فى فرنسا قد عرفت تطبيقا لها ، فاننا ندين باكثر هذه المنجزات نفعا لكفاءة المسيو كونتيه الخلاقة وموهبة الاختراع لديه ، ولم يكن من المستطاع التعبير عن صفو سماء مصر الا بواسطة الوان بالغة الانبساط تخضع لدرجة من النصــول أو التدرج

مستوية ، كما كان يلزم لرسم المســاحات الملساء والفسيحة التى تستخدم أرضية للرسوم البارزة المصرية أن نستخدم صبغات متساوية يمكن لهــا أن تنتج عند النظر اليها من مسافة قريبة نفس التأثير الذى للتصــوير المائى ، وقد توصلنا الى حفر السماوات والأرضيات بمعونة ماكينة استعضنا بها عن عمل طويل وباهظ التكاليف . وقد تفوق جمال الانجاز على كل ما كنا لننتظره من فنان متمرس ، وهكذا زودنا استخدام هذه الاداة ، التى كانت كذلك عونا كبيرا لنا على انجاز لوحات العمارة ، بنتائجبالغة التمام ، كما ادت الى توفير هائل فى نفقات الحفر وفى الوقت كذلك .

وبالاضافة الى الخرائط الجغرافية التى انجزناها الآن كلها وان كان نشرها قد تأخر فان اطلس وصف مصر يحتوى على اكثر من ثمانمائة لوحة ، لم تمثل فيها على الاطلاق ، وبشكل مستقل ، أمور ضئيلة الأهمية ، بل على العكس من ذلك فقد جمعنا علىنفس الورقة اكبر عدد ممكن من الرســوم وزعت عليها بانتظام وسيمترية ، وقد نجحنا فى ان نعطى شــكلا موحــدا ومتناســقا الى كل يتالف من الوف الأجزاء ، كمــا اسهم فيه عدد كبير من الاشخاص .

ولهذا فان هــذه الموسوعة ينبغى ان تعد عمــلا مخصصا للدراسة وليست عملا من اعمال الترف ، كما ان نمط الجمال الذى كان يناسبها كان يكمن فى التنفيذ الدقيق والصحيح ، وفى الواقع فان هذا هو الطابع الخاص الذى توخينا ان نعطيه له ، بالاضافة الى اننا لم نستبعد شيئا يمكن له ان يسهم فى دقته ، ثم ان حرصنا على ان نجمع دون اضطراب كل الأشياء التى من نفس النوع قد تلل بدرجة هائلة من النفقات ومن عدد اللوحات ، كمــا سمح لنا بأن نضمن هذا الأطلس اكثر من ثلاثة آلاف رسم خاص .

كنا نحفر مائة لوحة على مدار العام ، وقد تطلبت غالبية الأعمال من نفس النوع والتى نشرت حتى اليوم فترة اطول من الزمن ، على الرغم من اننا لا نستطيع ان نضعها موضع المقارنة مع عملنا الحالى سواء من حيث حجم او عدد الموضوعات التى تكون اللوحات ، واننا لمدين بشكل اساسى بهذه النتائج العظيمة ، والتى ما كنا بقادرين علىالوصول اليها دون دعم ظروف غير اعتيادية الى السلطة الحالية التىترعى اليوم وتساعد على تقدم الفنون الجميلة والتى تبعث الهمة والنشاط فى كل ادارات الحكومة الفرنسية.

اقســـام المؤلف

يتكون وصف مصر من ثلاثة اقسام اشرنا اليها بالأسماء الآتية :

١ ــ العصـــور القديمة .

٢ ــ الحالة الحديثة (او الدولة الحديثة) .

٣ ــ التاريخ الطبيعى .

واتبعنا فى القسمين الأولين نفس ترتيب الأماكن ذاهبين من الجنوب الى الشمال بدءا من جزيرة فيلة حتى البحر المتوســـط ، ومن الشرق الى الغرب بدءا من بيلوز (بالوظة) حتى الاسـكندرية ، كذلك فى التـــاريخ الطبيعى ، فاننا بالمثل قد رتبنا المعادن من الجنوب الى الشمال ، اما بقيـــة الاقسام فقد وضعت فى شكل عائلات . وتشتمل العصور القديمة على كل الآثار السابقة على دخول العرب الى مصر . اما ما هو لاحق بذلك فيشكل الدولة الحديثة او الحالة الحديثة (لمصر) .

ولكل واحد من هذه التقسيمات الثلاثة عدة مجلدات للوحات ، وعدة مجلدات كذلك للنصوص التى تقابلها .

من اللوحات
مكونات المجموعات

يشتمل المجلد الأول من اللوحات بخلاف جزيرة فيله كل البلدان الواقعة فيما بين الشلال الأخير ومدينة طيبة . فيضم اسوان والشلالات ، الفانتين، كوم امبو والسلسلة ، ادفو ، الكاب (وهى Elethyia القديمة) ، اسنا ، ارمنت ، ويتكون المجـــلدان الثانى والثالث من العصـــور القديمة لطيبة وحدها ، ويشتملان على البرديات والرسوم والأشياء الأخرى التى وجدت فى المغارات . اما الرابع والخامس فيشتملان على المبانى الأثرية الواقعة الى الشمال من طيبة ، شاملة : دندرة ، أبيدوس ، انتيوبوليس ، هرموبوليس ماجنا ، انتينوى ، الفيوم ، الأهرام ، ممفيس الكهوف ، آثار هبتا نوميد ، مصر السفلى ، هليوبوليس ، كانوب ، الاســـكندرية ، تابوزيريس(*) .

(*) وهذه المدن والأماكن هى حاليا : دندرة ، العرابة المدفونة ، تاو الكبير (مركز طهطا) ، والأشمونين (مركز ملوى) ، خرائب بالقرب من نزلة الشيخ عبادة ، الفيوم ، الأهرام ، ميت رهينة ، الكهوف ، بنى حســـن ، الوجه البحرى ، عين شمس ، أبو قير ، الاســـكندرية ، لكن تابوزيريس اندثرت وكانت تقع الى الغرب من الاسكندرية . (المترجم) .

وضممنا اليها المجموعات الهيروغليفية والنقوش والنقود والفخاريات والتماثيل والعاديات الأخرى .

ويشـــتمل المجلد الأول من الحالة الحـــديثة على مصر العليا ومصر الوسطى والقاهرة ومصر السفلى واخيرا برزخ الســـويس وضـــواحيه . ويشتمل المجلد الثانى على الاسكندرية ، ومجموعات الحرف والفنـــون ، ومجمـــوعات الملابس والوجوه (الشـــخصيات) ، ومجموعة الفخاريات والأثاثات والأدوات ، واخيرا مجموعة النقوش والنقود والميداليات .

وتتكون مجـــلدات التاريخ الطبيعى من الثدييات والطيـــور والزواحف والأسماك النيلية ، واســـماك البحر الأحمر ، واســـماك البحر الأبيض ، والحشرات فى كل من مصر وسوريا ، والرخويات والديدان ، والمرجانيـــات والنباتات ، واخيرا صخور وحفريات مصر وشبه جزيرة سيناء .

اما عن الأطلس الجغرافى لمصر ولسوريا فانه يشكل فى هـــذا المؤلف قسما خاصا . وقد توزعت اللوحات بالنسبة للأمكنة ، تبعا للترتيب التالى والذى راعيناه بشكل اساسى بخصوص العصور القديمة :

١ ــ خرائط عامة وطبوغرافية .

٢ ــ مشاهد الجبال فى حالتها الراهنة .

٣ ــ خرائط خاصة بالمبانى ، قطوعات طولية وعرضية .

٤ ــ تفاصـــيل معمارية .

٥ ــ نقوش بارزة ، رسوم ، تماثيل ،زينات ، الخ .

وقد راينا فى بعض الأحيان ان من الضرورى أن نضـــيف منظورات مرممة .

وبخلاف اعمال الحفر التى تمت، فقد وضـــعنا فى اللوحات تفاصـــيل محفورة فى شكل خطوط ، اما لأنها تكفى فى بعض الحالات ، واما لكى نحتفظ لها باكبر قدر من الدقة المكنة ، وهو امر كان بالغ الأهمية بالنسبة للنقوش الهيروغليفية ، وقد نشرنا ايضا ، فى شكل خطوط ، لوحات المبانى الفلكية ، منفصلة عن اعمال الحفر التي تمت ،

عن العناوين وعن البيانات
التى توجد فوق اللوحــات

تحمل كل لوحة فىالزاوية العليا الى اليسار واحدة من ثلاث علامات : A ، E.M ، H.N (*) ، يليها رقم المجــلد مكتوبا بالأرقام الرومانية .

وفى الزاوية العليا الى اليمين نجد رقم اللوحة مكتوبا بالأرقام العربية .

وفى الجزئين الاولين من المؤلف : اللذين قســما تبعا للأماكن ، يوجد فى الراس ، وعندمنتصف اللوحة اسم المكان . وهذا الاسم مزدوج فيمــا يختص بالعصور القديمة ، الاسم الأول هو الاسم الحالى للبلد والثانى هو اسمه اللاتينى ، اما اذا كان البلد يحمل اسما استمده من لغتنا فكنا نكتفى بهذا الاسم وحده ، وقد اخذنا الاســماء اللاتينية عن كتاب مصر القديمــة AE gyptus Antiqua من تاليف دانفيل d'Anville

اما فى ذلك الجزء من هذين القسمين من المؤلف والذى لم يرتب وفقــا لترتيب الأماكن وإنما تبعاً للمجموعات ، فقد وضعنا فى موضع اســم المكان عنوانا يدل على نوع هذه المجموعة ، وقد جمعت اللوحات التى تنتمى الى هذه المجموعات نفسها فى شكل سلسلات متتابعة ، وقد توضــح الترتيب بالأرقام الرومانية او بحروف .

اما العنوان المكتوب فى اسفل كل لوحة فيدل بشكل مختصر على الآثار او الاشياء المرسومة ، ولكى نتعرف بالتفصيل على موضوع ومختلف اجزاء الحفر ، فلابد ان نلجا الىشرح اللوحات .

وعندما تتكون لوحة ما من عدة اشكال ، فان كل شكل يحمل رقما يحيل الى شرح اللوحات .

وقد بينا فى المشاهد المرسومة او المنظورات كل واحدة من النقاط الهامة بواسطة نفس الرقم المثبت على الجانبين المتجاورين من اللوحة عند الطرفين الافقى والراسى ، اللذين يمران بهذه النقطة .

(*) اى على ألتوالى : العصور القديمة Antiquités ، الدولة الحديثة Etat Moderne ، التاريخ الطبيعى Histoire Naturelle

عن مقاييس الرسم المستخدمة فى اللوحات

نجد على معظم اللوحات مقياسين للرسم : احدهما على اليمين مقسما حسب نظامنا المترى ، والآخر على اليسار حاملا المقاييس الفرنسية القديمة.

واستخدمنا فى رسوم المبانى الاثرية مقاييس رسم مشتركة حتى تمكن المقارنة بسهولة بين كل الأحجام ، وقد اخترنا بالنسبة للجزئين الأولين من المؤلف المقاييس الآتية وهى التى اتبعناها بالنسبة لكل المبانى .

كان المقياس المستخدم فى التصميمات هو. ½ ٢ مم لكل متر اى ١ : ٤٠٠ ، أما مقياس القطوع الطولية او العرضية فهو ١ سم لكل متر (اى ١ : ١٠٠) ، اما بخصوص تفاصيل العمارة والنحت فقد تبنينا مقاييس اكبر تتناسب مع نوع ومساحة الأشياء المرسومة .

وكان من الضرورى فى الخرائط العامة او الطبوغرافية ان نستخدم مقاييس رسم مختلفة تتفق كلها مع النظام المترى الفرنسى .

وبخصوص اعمال الحفر التى تناولت البرديات وقطع النقود فقد احتفظنا لها بنفس احجامها الأصلية ، ونفس الأمر بصفة عامة بالنسبة لموضوعات التاريخ الطبيعى .

وعندما يوضع مقياس الرسم فى اسفل اللوحة ، وفى هذه اللوحة نفسها فقط دون ان يحمل تحديدا لأى شكل فان هذا المقياس يختص باللوحة كلها ، اما حين يوضع مقياس الرسم اسفل شكل ما ، فانه لا يختص الا بهذا الشكل ، وعندما نجد بعض اختلاف بين جدول المقاييس وبين المقاييس التى اخذت عن الرسم فلابد لنا ان نعتمد على الأولى ، فمن المعلوم ان انكماش الورقة عند الطبع يقلل المقاييس بنسبة ١ : ١٠٠ .

عن القطع(*) او عن المقاييس

عبرنا عن المقاييس التى حفرت على اللوحات بالمتر وبأجزاء من المتر ، وتدل الفصلة او النقطة على عشريات المتر .

ولكى نحدد طرفى المسافة التى قيست ، عملنا خطوط اتصال بالغة

(*) القطع Cote هو رقم يوضع على رسم ما ليدل على مساحة او على فارق الارتفاع بين نقطتين .

الدقة كتبنا فيما بينها القطع (الرقم الدال على المساحة او فارق الارتفاع) ، وحين يكون الفراغ واسـعا بعض الشيء ، كنا ننقط جزءا من الخط المرقم ويوضع القطع بين المسافة التى يعبر هذا القطع عن اطوالها .

اما فى القطوع الطولية والعرضية ، فقد وضعنا القطع الافقى فى بعض الاحيان بجانب الفراغات التى يدل على قياسها ، ولكى نبين قطر احد الاعمدة كنا نكتب diam ولكى نبين المحيط كنا نكتب Circ. .

ولتحـديد اتجاهات الخرائط الطبوغرافية او تصـميمات المبـانى ، استخدمنا خط الزوال المغناطيسى ، وتنتمى الدرجات الموضحة الى التقسيم السـنينى .

اما مجسات الموانى وجداول المسح (او التفدين) فقد عبرنا عنهـا اما بالاقدام واما بالامتار تبعا لنوع المقاييس المستخدمة عند القيام بهـذه العملية او تلك .

بيـانات اخـرى

فى الكلمات المكتوبة على الخرائط العامة اسـتخدمنا الحروف الكبيرة Capitales لتعيين اسماء المدن والضواحى والمبانى الاثرية والاشياء الثمينة ، واستخدمنا الحروف الرومانية (الصغيرة) للقرى والخرائب والمبانى المتنوعة ومخلفات العصور القديمة ، والحروف المائلة italiques والعـادية السريعة Cursives لبيـان اختلافات الارتفاعات كالجبال والطرق والرمال والأنقاض الخ .

وفى هذه الخرائط العامة نفسها ، وفى اللوحات الخاصة بالعمـارة ، تدل الحروف الكبيرة المتباعدة على المبانى الاثرية الرئيسية عادة وعلى النقاط التى اخذت منها المشاهد المرسومة والمنظورات ، واستخدمت هذه الحروف كذلك فى لوحات العمارة عند تحديد خطوط القطع ، وتبين الحروف الرومانية والمائلة مكان تيجان او تمم الأعمدة والنقوش البـارزة ومختلف التفاصـيل المعمارية . ونجد دلالات هذه الحروف والأرقام المتباعدة فى شرح اللوحات Explication des Planches

ولم نستخدم فى خريطة الآثار المصرية الا قطعا واحدا ذا لون بالغ الخفة لكى نبين الأجزاء المنخفضة مثل الجدران التى بين الاعمدة ، واسـتخدمنا تطعين بلون شاحب للاشارة الي الاجزاء التى رممت باكملها ، ويبين تطعان

اكثر قتامة تلك الأجزاء التى تهدمت والتى لا زلنا نرى أساساتها ، واخيرا فان اللون الأسود الممتلىء يشير الى الاجزاء التى لا تزال قائمة . وقد رسمت المنشآت والمبانى الجرانيتية فى الخرائط بواسطة قطوع تمتلىء بالنقط .

وقد صنعت أوراق لوحات هذا المؤلف بثلاثة اشكال (فورمات) خاصة ذات اطوال مختلفة وان كانت ذات عرض متساو ، بحيث تتفق هذه الأشكال المختلفة على اختلاف اطوالها فى عرض يبلغ ٢٦ بوصة او ٧٠٤ر من المتر .

أما الشكل الأول وهو اكثرها شيوعا ويتفق مع نفس اطوال الأطلس الكبير ، فتبلغ اطواله ٢٠ على ٣٦ بوصة او ٥٤١ر من المتر على ٧٠٤ر منه . اما الثانى فتبلغ اطواله ٤٠ بوصة على ٢٦ او ١٫٠٨٣ مترا على ٧٠٤ر من المتر . وتبلغ اطوال الثالث ٥٠بوصة على ٢٦ او ١ر٣٥٤ مترا على ٧٠٤ر من المتر . وزيادة على ذلك يوجد حجم غير عادى تبلغ اطواله٤٢ بوصة على ٣٠ بوصة اى ١ر١٣٧ مترا على ٨١٢ر. من المتر .

وفى اسفل كل لوحة ، او كل شكل ، الى اليسار ، حفر اسم المؤلف الذى قام بالرسم ، اما اسم الحفار فيوجد دائما على اليمين او فى الوسط .

عن النص

يشتمل النص على دراسات واوصاف وكذلك على شروح منفصلة للوحات وللأطلس . والغرض من شرح اللوحات هو تسهيل استخدام الأطلس ودراسة ما رسم فيه ، وتحتوى هذه الشروح على تفاصيل لم يستطع الحفر ان يعبر عنها، وقد ميزنا فيها أجزاء الزينة التى رممت فى رسوم العمارة ، كما بينا دوافع هذا الترميم ، وينبغى اللجوء الى اللوحات التفصيلية لدراسة النقوش الهيروغليفية التى جمعناها من أماكنها، وقد ضمناها وطبعنا بحروف صغيرة ملاحظات تصوب اخطاء الحفر أو ما استبعده هذا الحفر . وفى بعض الأحيان ادخلنا فى شروح اللوحات ملاحظات لم يتيسر أن نجد لها مكانا فى الأوصاف .

ويحمل القسم الأول من النص عنوان « اوصاف » Descriptions وهو يتبع ترتيب الاماكن على نفس طريقة مجلدات اللوحات ، اما القسم الثانى فيحمل اسم دراسات (او مذكرات) Mémoires ، ويشكل مجلدات منفصلة .

وتشكل اوصاف المدن ومبانى الآثار عددا من الفصول تماثل عدد الأماكن الموصوفة والمرسومة ، والغرض من هذه الأوصاف هو التعريف بالحالتين القديمة والراهنة للأماكن ، وقد صحبت هذا الوصف ملاحظات تاريخية وجغرافية .

أما الدراسات أو المذكرات فهى عبارة عن البحوث والمقالات التى كتبت عن موضوعات عامة أو خاصة ، مثل : الحالة الفيزيقية لمصر ، تاريخ وجغرافية البلاد ، الشريعة والتقاليد ، الديانة واللغة والفلك ، الفنون اى الحرف والزراعة ... الخ . عند المصريين القدماء والمحدثين ، وقد ضمت هذه الدراسات الى بعضها البعض دون أن تتبع فى ذلك ترتيبا محددا كما يحدث فى الموسوعات الأكاديمية ، فقد فضلنا الفائدة التى تعود علينا من اعداد جدول للمواد بشكل اسهل عن تلك التى تعود علينا من جراء التقسيم المنهجى لهذه المواد .

وقد قسمت الدراسات والأوصاف ، مثلها مثل اللوحات الى ثلاثة اقسام ، تتفق مع نفس تقسيم اللوحات ، وميزت بالحروف A (للعصور القديمة) ، و E.M (للحالة الحديثة لمصر)و H.N (للتاريخ الطبيعى) . وقد وضعت هذه الحروف اسفل الصفحات على يسار الوجه الأول لكل ورقة ، واضفنا الى ذلك الحرف D للدلالة على الأوصاف ، فمثلا A.D تعنى « العصور القديمة ــ أوصاف » .

عن النسق الاملائى المتبع
بالنسبة للكلمات العربية(*)

خضعت عملية نقل الكلمات العربية الى كتابتها بحروف فرنسية لصعوبات لم نستطع التغلب عليها بشكل نهائى ، لانها ناتجة عن اختلافات اساسية فى النغمات الخاصة بكلا اللغتين ، ومع ذلك فقد امكننا أن نعبر

(*) على الرغم من انه قد لا يكون فى ترجمة ذلك ما يفيد القارىء العربى الا اننا نقدمه هنا التزاما منا بالنص الأصلى الكامل من جهة ، وللوقوف على بعض المشاكل التى واجهت علماء الحملة وكيف حاولوا التغلب عليها من جهة اخرى (المترجم) .

بدقة كافية بعض الشىء عن النطق الصحيح للكلمات العربية ، مع اننا لم نستخدم الا وسائل بسيطة للغاية ، ودون ان نلجأ الى استخدام علامات لم تكن تستخدم من قبل ، وقد اتبعنا نظاما موحدا للاملاء ، القصد الرئيسى منه أن نزود الرحالة بوسيلة مؤكدة تجعلهم يتعرفون على الكلمات عند سماعها تلفظ فى البلاد .

وقد قررنا فيما بيننا الا نستخدم سوى حروف هجائنا ، واحتفظنا فى كل كلمة بالحروف الساكنة الأصلية ، وتفادينا استخداما لا جدوى منه للحروف المضعفة (بشدة فوق العين) وهذه تغير على نحو طفيف من النطق ، ولم نستخدم الا حرفا واحدا لكل الأنواع المختلفة من حروف :

d, h, s, r, t, z

وهى اصناف من الحروف لا تختلف فىمصر الا بضخامة او رقة نطقها (اى ان حرف d يمكن ان ينطق دالا او ضادا ، و h يمكن ان يلفظ هاء او خاء وهكذا) ، وقد استخدمنا فقط تكوينين (اى حرفين من اللغة الفرنسية مقابل حرف واحد من العربية) هما الـ gh مقابل الـ r اللاثغة (اى الغين) والـ kh التى تشبه نغمتها ch فى الالمانية او الـ j فى الاسبانية (وهى الخاء العربية) كما استخدمنا علامة الحرف (ر) apostrophe موضوعة على يمين حرف متحرك للتعبير عن النغمة الحلقية للحرف q مكتوبا وحده للاشارة على الـ k المضخمة (القاف العربية) والتى اعتاد المصريون ان يلفظوها على شكل فجوة لفظية بين حرفين متحركين (اى يلفظونها كالهمزة) ، ولم نتمكن من الاستغناء عن اللجوء الى علامات متفق عليها للتعبير عن هذه الحروف الأربعة الساكنة والتى هى غريبة تماما على لغتنا ، وقد تبنينا هذه العلامات لأنها جاءتنا منذ زمان بعيد عن طريق اناس متخصصين فى اللغات الشرقية ، اما الحروف الاخرى ، سواء كانت ساكنة او متحركة او مضعفة أو مشكلة فينبغى أن تلفظ كما فى حروف هجائنا ، وعلى سبيل المثال فان ey وهى تماثل تماما حرف الألف (المكسورة) بالعربية او تماثل الهمزة متبوعة بالياء (اى) تاخذ عندنا نفس نغمة ê كما فى التركيبات bey, dey ، وفى اسماء اعلام اخرى معروفة فى فرنسا ، وتلفظ كلمة السويس كما لو كانت Souès نكتبها نحن Soueys واحيانا Suez حسب الاستخدام الشائع .

ويجب ان نلاحظ ان كل الحروف سواء كانت هى الحروف الأولى أو الوسطى او الأخيرة تلفظ بطريقة ثابتة فحـــرف الشين Ch يلفظ على الدوام شينا كما فى كلمة branche ، وتلفظ السين دائما سينا كما فى كلمة sage وتلفظ الهاء h بنفس الطريقة فى بداية الكلمة او وسطها ، لكنها لا تكاد تلفظ مطلقا اذا كانت فى نهايتها ، وينبغى أن نلاحظ كذلك أن حرف الجيم يلفظ (غير معطش) فى مصر كما نلفظها نحن فى كلمة gain وان كان العربان يلفظونها معطشة كما نلفظ نحن فى لغتنا dj وعلى سبيل المثال فان كلمة جدة تلفظ فى مصر كما نقول نحن gueddah وتلفظ فى الجزيرة العربية كما نقول نحن djaddah .

وعندما تكون أداة التعريف الـــ متبوعة باسم أو بموصوف يبدأ بأحد الحروف التى يطلق عليها شمسية وهى : ش ، د ، ن ، ر ، س ، ت ، ز ، فلابد عند النطق ان نلفظ هذا الحرف الساكن (مشـــددا) عوضا عن اللام الموجودة فى أداة التعريف مثال ذلك : الـــ سمك ، الـــ شيخ الخ فتلفظان اسمك (مع شدة على السين) واشيخ (مع شدة على الشين) .

أما بخصوص الأسماء التى كان استعمالها قد شاع من قبل فى فرنسا فقد وجدنا أن من الأفضل بالنسبة لنا أن نحتفظ لها بشكلها المألوف لنا عن ان نكتبها بالشكل التى تكتب به فى العربية : وهكذا لم نكتب مطلقا فى اللوحات (او حتى فى النص) اسماء مثل الطينة ، اسكندرية ، ميت رهينة ، جزيرة أسوان ، رشيد .. الخ ولكننا كتبنا :

Peluse, Alexandrie, Memphis, Elephantine Rosette etc

أما فى كلمات مملوك Memlouk ، شيخ Cheykh ، وزير Visir سلطان Sultan ، وكلمات أخرى مشابهة فقد حرصنا على وضع الـــ S المائلة فى نهايتها تعبيرا عن الجمع ، أما بخصوص الأسماء الوصفية الأخرى مثل فلاح fellah وملتزم moultezim الخ فقــد كتبناها فى الجمع بدون أن نضع هذه الـــ S المائلة .

الحروف الفرنسية مقابلة بالحروف العربية

ا (١)	â é i	ط	d
ب	b	ر	r
ت	t	ز	z
ث	t	س	s .
ط	t	ص	S , ç
ج	g	ش	ch
ح	h	ع	i
ه	h	غ	gh
خ	kh	ف	f
د	d	ق	q
ذ	d , z	ك	k
ض	d	ل	l
و (٢)	o	م	m
ى (٣)	y	ن	n

وعلى العموم فقد عبرنا عن الفتحة بالحرف e (كذا) والكسرة بالحرف e او i تبعا للنطق الشـائع ، وعندما تتبعـه الياء yé فاننا لم نعبر عن ذلك ، كذلك ، فاننا لم نلق بالا للشدة اى العلامة الدالة على تضاعف الحرف بالنسبة لحروف الشين ch والغين gh والخـاء kh والواو ou والياء y كما اننا لم نعبر عن التغييرات الأخرى الخاصـة بالحروف الهجائية العربية الا اذا كانت محسـوسة من الاذن فى النطق الشائع أو العامى .

(انتهى بعون الله)

---

(١) عندما تكون الالف فى البداية فاننا نعبر عنه بنفس هـذه الحروف بدون وضع العلامات ́ ^ .

(٢) يتحول هذا الحرف نفسه عندما تلحق به ألف الى oû كما فى كلمة ادفوا (كذا) Edfoû

(٣) يعبر من الياء الختامية بوضع نقطتين فوق حـرف ä (الألف المقصورة) كما فى كلمات مثل كبرى واحدى .

الفهرس

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٩/١٧٥٧
الدولي ٩ — ٠٤ — ١٩٧٩/٧٢٩٢

كتب أخرى للمترجم

أولاً - في مجال الأدب :

١ - المطاردون. (مجموعة قصص قصيرة). القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠ .

٢ - حكايات من عالم الحيوان. ملحق خاص من مجلة الثقافة الأسبوعية لعام ١٩٧٤ .

٣ - المصيدة. (مجموعة قصص قصيرة). روايات الهلال، ١٩٧٤ .

٤ - موتى بلا قبور، تأليف جان بول سارتر. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦ .

٥ - السماء تمطر ماء جافاً. القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٩ . (كتاب أكتوبر - رواية تسجيلية تتناول وقائع الوحدة المصرية السورية وانفصالها).

ثانياً - في مجال التاريخ :

٦ - تطور مصر من ١٩٢٤ إلى ١٩٥٠ ، تأليف مارسيل كولومب. ط ٢ . القاهرة، مدبولي ، ١٩٨٥ .

٧ - فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية ، تأليف أندريه ريمنون. ط ٢ . القاهرة، مدبولي ، ١٩٨٥ .

ثالثاً - الترجمة العربية الكاملة لموسوعة وصف مصر :

٨ - المصريون المحدثون، تأليف علماء الحملة الفرنسية. ط ٢ . القاهرة، مدبولي ، ١٩٨٥ . مج ١ .

٩ - العرب فى ريف مصر وصحراواتها، تأليف علماء الحملة الفرنسية. ط ٢ . القاهرة، مدبولى ، ١٩٨٥ ، مج ٢ .

١٠ - دراسات عن المدن والأقاليم المصرية، تأليف علماء الحملة

الفرنسية. ط ٢. مدبولى، ١٩٨٥، مج ٣.

١١ ـ موسوعة الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر، حـ ١: الزراعة، الصناعات والحرف، التجارة، تأليف ب. س. جيرار. ط ٢. القاهرة، مدبولى، ١٩٨٥. مج ٤.

١٢ ـ الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر، حـ ٢: النظام المالى والادارى فى مصر العثمانية، تأليف علماء الحملة الفرنسية. ط ٢. القاهرة. مدبولى، ١٩٨٥. مج ٥.

١٣ ـ الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر، حـ ٣: الموازين والنقود، تأليف صامويل برنار. ط ٢. القاهرة، مدبولى، ١٩٨٥، مج ٦.

١٤ ـ الموسيقى والغناء عند قدماء المصريين، تأليف علماء الحملة الفرنسية. ط ٢. القاهرة. مدبولى، ١٩٨٥. مج ٧.

١٥ ـ الموسيقى والغناء عند المصريين المحدثين، تأليف فيوتو. ط ٢. القاهرة، مدبولى، ١٩٨٥. مج ٨.

١٦ ـ الآلات الموسيقية المستخدمة عند المصريين المحدثين، تأليف علماء الحملة الفرنسية. القاهرة، مدبولى، ١٩٨٦. مج ٩.

١٧ ـ المجلد الأول والثانى للوحات الدولة الحديثة من موسوعة وصف مصر.

رابعاً ـ تحت الطبع :

ـ بقية مجلدات لوحات موسوعة وصف مصر.

ـ موسوعة مدينة القاهرة :

مدينة القاهرة وقلعتها.

مقياس الروضة.

الدولة المملوكية.

جامع أحمد بن طولون.

النقوش العربية على مبانى القاهرة.



مكتبة مدبولي
DBOULI BOOKSHOP
٦ ميدان طلعت حرب القاهرة ت ٧٥٦٤٢١
Harb SQ. Tel: 756421